

مذكرات
المرأة المصرية
د. محمد الجوادى

الثورة والحريّة

مذكرات :

بنت الشاطئ ■ جيهان السادات

لطيفة الزيات ■ زينب الغزالي ■ إنجي أفلاطون

إعتدال ممتاز ■ إقبال بركة ■ نوال السعداوى

سلوى العنانى ■ ثريا رشدى



الثورة والحريّة
النشر: دار الخيال
الغلاف: محمد الصباغ
الطبعة الأولى



مذكرات المرأة المصرية الثورة والحريّة

د. محمد الجوادى

مطبوعات دار الخيال

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحريّة

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحرية

الطبعة: الأولى فبراير ٢٠٠٤

رقم الإيداع: ١٨٦٨ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي: 0 - 39 - 5979 - 977

دار الخيال: ٠١٢٣٢٩٠٦١٨ / ٠١٢٧٣٤١٥٠٧

فاكسيميلى دار الخيال : ٧٩٦٢٢٤١

E-mail: Dar el Khial - egypt @ hotmail. com



دار الخيال

يحظر نقل أو اقتباس أى جزء

من هذا المطبوع

إلا بعد الرجوع إلى الدار



تصميم الغلاف : محمد الصباغ .

خطوط الغلاف : لمعى فهيم

المشرف على الإنتاج : عماد حمدى .

طبع : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣

فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

لهذا

إلى شقيقتي زينب
حباً وتقديراً و عرفاناً بالجميل.

محمد الجوادى

فهرس مذكرات المرأة المصرية

٥	الإهداء
٢٣	مقدمة
٣١	الباب الأول: على الجسر للدكتورة بنت الشاطئ

• التعريف بالدكتورة بنت الشاطئ • حياة الدكتورة بنت الشاطئ حافلة بالإنجازات والمواقف المشرفة • المذكرات آخر قصة حياة لمن لا تقوا العنت وذاقوا مرارة الحياة وهم يسعون إلى العلم • تركز حياتها في بؤرة واحدة هي علاقتها بالشيخ أمين الخولى • لا تزال تعيش ذكرها الماضية والقادمة • هذا هو المعنى الذى تعبر عنه بأنها واقفة على الجسر • الكتاب يخلو تماماً من الحديث عن الجوانب التى جذبت هذه الفتاة فى هذا الرجل الذى أحبته • قد يكون السبب أنها سيدة نسأت وعاشت فى بيئة دينية شرقية محافظة ومتحفظة إلى أبعد الحدود • المذكرات تحفل بتعبير تام عن آثار هذه العاطفة فى نفس صاحبها • الدكتورة بنت الشاطئ شُغلت بكثير من المواقف عن أن تروى للناس ، وللنساء بصفة خاصة كيف تتقد المواظف الصادقة • لا نجد تعبيراً كثيراً عن الجوانب غير العقلية فى هذا الحب الصادق الرهيب بين الزوجين • صاحبة المذكرات ترى نفسها وحياتها قد انتهت وانطوت من قبل أن تنتهى • بنت الشاطئ تستشرف مع قرائها هزيمة ١٩٦٧ وتعبّر بقدرة لا متناهية عن حالة من التوحد المطلق مع الوطن فى محنته التى هزت أركانه ، وهى تشير على استحياء شديد إلى ما كان الوطن وأبناؤه يعانونه من حالات القهر واليأس والخواء والاعتراب • بنت الشاطئ تأمل أن يجدد الأمل فى الشباب خصوبة مصر • المذكرات تقدم قصة كفاح فريدة تستحق أن تروى مرارا • تروى شعورها فى الجامعة: فتحت قلبى وعقلى للجامعة ، عن يقين واثق بأن لديها ما تقدمه إلى من جوهر العلم ومنهج المعرفة • نعجب حين نرى أبها ، وهو المتعلم ، يحارب تعليمها بكل صورة ممكنة من صور الحرب الضروس ، على الرغم من وقوف والدتها إلى جوارها ، ومساندة جد أمها لها كذلك • مساندة شيخ والدها فى الطريقة وزملائه فى المعهد الدينى • ما ترويه صاحبة المذكرات عن بداية الدراسة فى المدرسة الأميرية الأولى • استعانت على إقناع أبيها بالسماح لها بالانتظام فى المدرسة بجد والدتها • أتمت الدراسة بمدرسة اللوزى وقد جاوزت سن العاشرة التى حددها والدى لحجزى فى البيت مع الحریم • كرهت أن تواصل زميلاتي تعليمهن فى المدرسة الراقية ، وأتخلف عنهن واقفة عند ذلك الشوط القصير • لم يبق فى دميأط أى مجال لتعليم البنات بعد المدرسة الراقية ، وإنما كان على الراغبات فى مواصلة التعليم أن يتقدمن لامتحان القبول فى مدرسة المعلمات بالنصورة وهى أقرب عاصمة • جازفت والدتى وتسلفت بى من دميأط ذات صباح إلى النصورة، حيث تركتني بالقسم الداخلى فى مدرسة المعلمات ، على أن أعود بعد أيام

الامتحان الأربعة ، مع زميلاتي من بنات دمياط • بعد فترة فوجئت بأن زميلاتي اللاتي أدين سمى الامتحان ، تلقين من إدارة المدرسة إخطاراً بقبولهن ، ومعه بيان بالملايس والأمتعة الشخصية المطلوبة منهن للقسم الداخلى ولم يصلنى إخطار مثلهن مع أن المدرسة أذاعت من قبل نتيجة الامتحان ، وكنت أولى الناجحات فى القبول للسنة الثانية! • اكتشفت أن والدى تقدم إلى المدرسة بوصفه ولى الأمر ، فسحب كل أوراق التحاقى بها • بعد شهرين من بدء الدراسة ، كانت أمى - رحمها الله - قد ظفرت لى بالإذن فى التعليم ، ممن لا يملك والدى أن يعصى له أمراً • نموذج الأم العظيمة التى تتصرف بتلقائية رائعة وبفداية نادرة • نعيش مع صاحبة التجربة وهى تواجه القاهرة لأول مرة فى حياتها ، وهى تصدقنا الوصف الدقيق لحالتها فى هذه المدينة • المبنى الجميل الذى كانت تشغله المدرسة وحديقته ، والليالى التى قضتها فى القسم الداخلى لهذه المدرسة • وزارة المعارف رفضت رسمياً اعتماد قبولى طالبة بالمدرسة ، حيث لا تميز اللوائح أن أقبل إلا فى السنة الثانية التى نجحت فى امتحانها • التحويل إلى السنة الثانية معلمات طنطا ، حيث علم قريبا أن بها أماكن خالية • لكن الظروف تأبى إلا أن تعاند • لابد من النجاح فى الكشف الطبى • كانت لعمى نظارة طبية طلبت منه أنه يعيرنى إياها يوم الكشف الطبى فى الوزارة! • ترسب فى الكشف الطبى بسبب هذه الخطوة التى اتخذتها عن جهل • دور الشيخ موسى قمر فى رعايتها فى هذه المرحلة • أصبحت والدى مضغوطة بين شقى الرحى: لا تستطيع أن تتخلى عنى ، كما لا تستطيع فى الوقت نفسه أن تعرض البيت للخراب • بنت الشاطىء تستكين وتضحى من أجل أمها • ترى والدها لا يعبأ بما حدث لها • بنت الشاطىء تنجح فى الحصول على شهادة المعلمات • تقدمت إلى إمتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا ، وخرجت منه - وأنا الوحيدة التى تقدمت إليه من المنزل - أولى الناجحات • صاحبة المذكرات تبدأ طريقاً آخر ينتهى بها إلى الجامعة • تفاضل بين درب التوظيف ودرب الدراسة من أجل التقدم للامتحان الأعلى فى القسم الإضافى الذى يبدو لها وكأنه نهاية • حان الموعد المحدد رسمياً لتقديم طلب أداء الامتحان لإجازة القسم الإضافى • تجربتها فى مدرسة المعلمات فى بولاق • القانون يعاكسها لأن ما تطلبه هو حق للمقيدات فى المدرسة وحدهن • يمكننى أن أتقدم إلى امتحان الشهادة الابتدائية ، وهو مباح لمن شاء أن يتقدم إليه من طلبة المنازل • المساعدة التى تلقيتها بنقلى من مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة ، إلى إحدى المدارس الأولية بحى السيدة زينب فى القاهرة • دراستها الجديدة عبر المرحلة الابتدائية فالثانوية • صاحبة المذكرات تدرك فى ذلك الحين حقيقة الآثار السلبية لهذا الازدواج التعليمى الذى كان الوطن يعانى منه • تروى كيف أتيح لها بالصدفة فقط أن تجتاز امتحان اللغة الإنجليزية بنجاح • بنت الشاطىء تسلك طريقها الطويل إلى التحضر الحقيقى • تجربة بنت الشاطىء فى كتابة خطاب رسمى باللغة الإنجليزية • رئيستها [وموجهتها] لم تزد على أن شطبت بقلمها الأحمر «على كل ما أنفقت يومى فى

كتابته ، وردت الخطاب إلى ، أمرة أن أكتبه فى سطرين اثنين! • دعنتى «مس قربان» لتناول وجبة الغداء فى مطعم الكلية الأنيق الفخم • لم أكن قبل هذا قد استعملت فى تناول طعامى أدوات عصرية • بنت الشاطىء لا تجد أى حرج فى أن تروى تفصيلات هذه «المشكلة البروتوكولية» التى واجهتها فى بداية حياتها الجديدة • تتعلم الطريقة العصرية لتناول الطعام • تبدأ العمل فى الصحافة مبكراً جداً • تجربتها فى «مجلة النهضة النسائية» • الالتحاق بالجامعة بعد حصولها على شهادة البكالوريا • تتحدث عن تهيئها لقائها الأول بالشيخ أمين الخولى بعبارات قصيرة • تصف اللقاء الأول بين الحبيبين أو بين المحب وبين من أراده حبيبا فيبدو لنا وكأنه قد حدث لتوه وكأنها لا تزال تستعيد المشاعر المتضاربة التى غدت نفسها فى تلك اللحظات ما بين تهيب وتشوق • تعبر عن إحساسها بالصدمة ، الصدمة التعليمية الحقيقية التى جعلتها تفتق وتتحول من طريق التحصيل إلى الطريق الذى كان لا بد لها أن تمضى فيه ، وهو طريق التفكير • كل هذه المعاناة لم تكن إلا طريقاً للوصول إلى الحبيب! أى إلى هذا الأستاذ الذى استنكر عليها ألا تعرف الفرق بين المصدر والمرجع • الإقرار بدور القوى الخارجية فى تشكيل وجدانها وإحساسها بالتوفيق فى خطوات حياتها • قصة اختيار صاحبة المذكرات لاسمها الجميل الشهير.

٨١ الباب الثانى: سيدة من مصر للسيدة جيهان السادات

• التعريف بالمذكرات وصاحبة المذكرات • الكتاب نموذج ممتاز للصدق النفسى الممتاز الذى تُكتب به الكتب التى تتناول السيرة الذاتية • الفصل الخاص بأوجاع مصر والذى يتحدث عن هزيمة ١٩٦٧ من الوثائق التى تجيد تصوير ما حدث • صاحبة المذكرات أحسنت صنفاً حين تصدت لهذه المهمة أياً ما كان دافعها إليها • هذا هو النتاج الفكرى غير الأكاديمى للسيدة جيهان السادات فى المكتبة العربية • أبرز ما فى الكتاب من عيوب هو أنه ترجمة حرفية للطبعة الانجليزية [الأمريكية] • النتيجة أن المرء يفقد إحساسه بالتواصل مع المؤلف... أقصد ذلك التواصل الذى يكون بين المرء ومواطنيه • فى وحدات القياس ومفردات التمييز ، نجد السيدة جيهان السادات تلجأ فى تعبيرها عن المسافات إلى الوحدات الأمريكية فتقيس المسافات بالميل والأوزان بالرطل والحسرة بالدرجات الفهرنهايتية لا الدرجات المئوية • نتحدث عن دبل الخطوبة بسمى الخاتميين • هذا الخلق فى الكتاب يعبر عما هو أخطر من ذلك كله وهو الإهمال ، إهمال القارئ العربى • صاحبة المذكرات أضاعت فرصة ذهبية أتاحت لها حين ألقت هذا الكتاب ، فقد كان فى وسعها أن تتناول كثيراً من القضايا التى أحاطت ببعض تصرفاتها وسياساتها • أسوأ الأخطاء التاريخية هى تلك التى فرضتها الترجمة غير الدقيقة لهذا الكتاب • من العجيب أن تنهى جيهان السادات مقدمة كتابها متمنية أن يساعد القراء «على فهمكم لمطقتنا بما يغريكم على زيارتها» وهى عبارة تليق بخطاب إلى

صديق أو بمنشور سياحي لا بكتاب سيرة ذاتية • الملك فاروق يحظى باهتمام خاص فى كتاب السيدة جيهان السادات ، وهو اهتمام مكثف ربما لم يحظ به الرئيس جمال عبدالناصر • أسلوب صاحبة هذه المذكرات فى تسجيل مشاعرها يعكس ، حتى من دون أن تدرى ، بعض المشاعر المعبرة عن انتمائها الدائم لما يسميه دارسو الاجتماع بالطبقة الوسطى الصاعدة وبعض معتقداتها الخاطئة • الكتاب يعبر عن «التوجه نحو الأجنبى وثقافته» بقدر لا يتناسب على الإطلاق مع وطنية السيدة جيهان السادات وانتمائها • الكتاب يعكس إحساس السيدة جيهان السادات بذاتيتها المتميزة فى كثير من المواقف • لا يخلو الكتاب من بعض الأفكار التاريخية المغايرة للحقيقة وللواقع والتي يبدو أنه لم يكن للسيدة جيهان دور فى أن تقحمها على كتابها • صاحبة المذكرات دخلت بإرادتها فى كثير من الأشرار • نحرص على أن نتحدث عن عادات أهلها وقومها بلغة السائح العابر • سمحت السيدة جيهان السادات لكثير من فقرات مذكراتها أن تصاغ بالطريقة التى تفرض على رؤيتها تسطيحاً للأمور وتبسيطاً غريباً لها (تحت مظنة الكتابة السهلة) وهو ما يتجلى فى كثير من المواضع بلا داع أو مبرر • تجيد تصوير تجربتها فى عنابر الحروق المزدحمة بعد الحرب ، حيث كان الهواء ثقيلاً برائحة اللحم المحروق • آراءها [المكثفة] فى انتحار المشير عبد الحكيم عامر قريبة جداً من آراء زوجها ومن آراء المصريين فى مجموعهم • أما آراؤها فى موقف عبد الحكيم من عبد الناصر فتكاد تكون ناصرية تماماً • حديثها الممتاز [والمنصف للحقيقة أيضاً] عن الزعيم الليبى معمر القذافى وزوجته وآرائها فى كليهما • انتقاداتها الواضحة لموقف الرئيس القذافى من حرب أكتوبر ١٩٧٣ • تحكى بعض صور معاناة السادات والنظام المصرى من القذافى قبل هذه الحرب • قصة أحد المواقف المندفمة التى قام بها العقيد القذافى فى أثناء فترة الوفاق المعلن بينه وبين السادات • تبدو القصة متوافقة مع طبيعة الرئيس القذافى وحماسته لخدمة قضايا وطنه • صاحبة المذكرات ، فى ذكاء شديد ، توظف العموميات المعروفة فى تفسير توثق العلاقة بين الزميلين القديمين عبد الناصر والسادات ، وهو ما أدى إلى استخلاف عبد الناصر للسادات • بعض الآراء التى تصور بها «الجوانب الأخرى» للقرارات السياسية الكبرى ، من خلال المواقف التى عايشتها والتفاصيل التى ألت بها بحكم قربها من الرئيس السادات • تصف الحالة النفسية والذهنية للسادات • تتناول الفكرة القائلة بمسئولية الولايات المتحدة الأمريكية عن معاناة مصر والعرب واستمرار المشكلة الفلسطينية • تروى انطباعاتها عن الساعات الفاصلة التى سبقت اندلاع حرب أكتوبر • تجيد تصوير مشاعرها عن اللحظات التى بدأت فيها المعركة المجيدة مع إسرائيل فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ • انطباعاتها الباكورة عن الانتصار المصرى فى أول أيام حرب أكتوبر المجيدة • استشهاد شقيق زوجها الشهيد الطيار عاطف السادات • تروى تفصيلات انفعالات الرئيس السادات فتلتمس صدقها وقدرتها على تصوير الموقف • صورة الحياة

المتوترة الصعبة التي عاشتها مع الرئيس السادات فيما قبل اتخاذ القرار بالحرب • مدى الغضب الذي كان مسيطراً على الرئيس السادات وهو في طريقه لإلقاء خطابه الذي أنهى فيه الوجود السوفيتي في مصر • وصف مشاعر الجماهير الإيجابية تجاه قرار السادات بطرد الخبراء السوفيت • تحرص دون مبرر ظاهر على أن تصور العلاقات المصرية - السوفيتية وكأنها كانت على الدوام في حالة برود ، وأن تظهر مدى التباعد والتحفظ في هذه العلاقات • لا يفوت السيدة جيهان السادات أن تلمس أوتاراً مهمة في نفسيات الأمريكيين الذين يقرأون هذه المذكرات فتراها وهي تحدثهم بذكاء عن مدى معاناتها من عجرفة اليهود المؤيدين لاسرائيل • حديثها عن العلاقات مع الإسرائيليين بعد معاهدة السلام • تصل الرومانسية في حديث السيدة جيهان السادات عن العلاقات بين المصريين واسرائيل إلى حدود خطرة تجعلها دون أن تدري تذكر أن ابتنتها جيهان كانت مفتونة بشعب اسرائيل !! • حواراتها مع الرئيس السادات في أيامه الأخيرة • تروى تفصيلات أحد المواقف العائلية التي كان ينبغي عليها وعلى بعض أفراد أسرتها أن تستشف منها أن الرئيس السادات كان على وشك الرحيل • حقيقة مشاعرها في الأيام الصعبة التي تلت رحيل الرئيس السادات • صاحبة المذكرات تشير بطريقة غير مباشرة إلى معاناتها من التصرفات التي كانت تنسب إليها وتستغل اسمها في أنشطة أو تجاوزات لم تكن توافق عليها • الرئيس السادات كان على النقيض منها أكثر هدوءاً حين يواجه مثل هذه الهجمات أو الشائعات.

الفصل الثالث: أيام من حياتي للسيدة زينب الغزالي

١٢٣

• التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات • مذكرات صارخة تتناول فيها كاتبها السيدة زينب الغزالي تجربتها مع المعتقلات في عهد الرئيس جمال عبد الناصر وتجربتها في النشاط السياسي والإسلامي منذ منتصف الثلاثينيات • صاحبة المذكرات تبدأ الكتاب بما هو مطلوب يومها من الحديث عن خصومتها مع عبدالناصر وتجعل عنوان الفصل الأول من كتابها «عبدالناصر يكرهني شخصياً» • كانت فيما بين الثورتين (١٩١٩ - ١٩٥٢) من أولئك الذين يرتبطون بعلاقة قوية بزعامة النحاس باشا وحزب الوفد ، ويتقارب فكري أو وجداني مع المغفور له حسن البنا والإخوان • حريصة ولكن على استحياء شديد على أن توضح طبيعة انتمائها وعقيدتها السياسية • انتهزت جماهير الشعب فرصة وفاة النحاس.. لتبدي رأيها صريحاً واعتقادها سليماً فهتفت معلنة مدوية تشق بهتافها سماء مصر: «لا زعيم بعدك يانحاس» • ولكن (شيئا ما) دفعها دفعا منذ مرحلة متأخرة في حوالي ١٩٤٨ إلى أن تسلك سبيل الإخوان المسلمين • لا تروى الكثير ولا القليل عن ديناميات اتخاذ القرار داخل جماعة السيدات المسلمات • قصة لقائها الأخير بحسن البنا حيث أنهت إليه انضمامها إليه • صاحبة المذكرات تضم جمعية السيدات المسلمات إلى رعاية حسن البنا بقرار فردى

• تدلل على وجود علاقة الانتماء بالإخوان من قبل قيام الثورة • قصة حوار دار بينها وبين زوجها تذكره فيه بشروطها التي أعلنتها بها حين تقدم للزواج منها وهي تطلب منه أن يتركها تمارس نشاطها ، بل يصل الأمر إلى حد أن تشترط عليه ألا يسألها عن أسماء من تقابلهم من الشباب أو من غيرهم • الحوار الذى دار بينها وبين زوجها حين بدأ يستشعر قيامها بدور فعال فى تنظيم سرى ، ونحن نراه هو الآخر لا يعلم صلة لها بحسن البنا • تتحدث عن التجارب النفسية المتعددة التي مرت بها وهي تترقب التعذيب ، و عن شعورها وهي تتلقى التعذيب • ترى فى منامها النبى (ﷺ) وترى أيضاً الأستاذ سيد قطب يوم حكم عليه بالإعدام • تفصيلات اعتقالها فى ٢٠ أغسطس • المؤلف يلاحظ من روايتها مدى طول النفس الذى تمتع به النظام الناصرى إذا ما قورن بقصر النفس الشديد الذى أصبح سمة كل الناس فى جميع أنحاء العالم بلا استثناء فى عصرنا الذى نعيشه • زينب الغزالى تذكر بلا مواربة كثيراً من الجهد الذى بذل معها فى سبيل استقطابها وتحييدها • مكاملة تليفونية تسأل عن سبب عدم الحضور لاستقبال الرئيس عبدالناصر فى المطار • رجال المباحث والمخابرات كانوا يعرضون عليها بدائل مغرية من أجل إعادة نشاط المركز الذى كانت تترأسه فى إطار مواكب للنظام وليس معارض له بالطبع • تتأمل قصة لقائها بأحمد راسخ أحد رجال المباحث العامة كنموذج لما تريد أن تصوره لنا من تعاملها القوى الواثق مع هؤلاء الأمنيين الذين لا يجارونها فى قوة منطقها • قصة حوار آخر دار بينها وبين أحد رجال المباحث • تروى أن معتقليها ومعذبيها عرضوا عليها تعيينها فى منصب وزيرة الشؤون الاجتماعية بدلاً من الدكتورة حكمت أبوزيد • المؤلف يدحض الواقعة تاريخياً • محاولات النظام الناصرى لضم (أو احتواء) زينب الغزالى لم تقف عند هذا الحد ، وإنما استمرت بعد القبض عليها • بعض تفصيلات الحوار بينها وبين شمس بدران عن دور عبدالعزیز على فى حركة الإخوان المسلمين فى ١٩٦٥ • المذكرات انتهجت النهج السائد فى الكتابات العربية المعاصرة والذى يحرص على التقليل من شأن الرأى الآخر وأصحابه ، بل واتهامهم بالعمالة • صاحبة المذكرات تروى قصة طلاقها من زوجها الحاج محمد سالم سالم فى غموض شديد • تذكر أنها وفقت ، دون قصد ، إلى أن تقتل رجلاً سلطوه عليها فى السجن ليفعل بها الفاحشة • المذكرات تتحدث عن علاقات صاحبته بأقطاب الإخوان المسلمين ، وتورد آراءها من وجهة نظرها • توثق علاقاتها بعبدالفتاح عبده إسماعيل وهو أحد أبرز المتهمين فى قضية الإخوان فى ١٩٦٥ • توحى بأن عملها كان بإذن وموافقة المرشد العام للإخوان المسلمين • تفعل هذا بوعى شديد للصورة التى تقدم من خلالها مذكراتها وذكرياتها • تتحدث عن علاقتها مع الأستاذ سيد قطب وأسرته • حديث السيدة زينب الغزالى عن المرشد الثانى للإخوان المسلمين المستشار حسن الهضيبى • تبدو حريصة على اتهام على عشاوى بالعمالة للمباحث • فى مقابل هذا التعريض الشديد بعلى عشاوى

تذكر بكل تقدير وفخر موقف عبدالفتاح إسماعيل فى مواجهة شمس بدران • حرص زينب الغزالى على التصوير الدقيق لميلها العميق إلى النزعة الإنسانية التى كانت تملكها تماماً وهى تزامن اليهوديات فى السجن • تصوير كثير من المشاعر الإنسانية واللحظات الصادقة فى حياة البشر • تصوير زينب الغزالى الصادق للحظات شعورية مهمة • رأى المؤلف فى أن الجزء الأهم من هذه المذكرات لم يكتب بعد.

١٦٧ الفصل الرابع: مذكرات إنجي أفلاطون

• التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات • ملامح تميز الفنانة إنجي أفلاطون ، فهى أولاً الفنانة السياسية ، وهى ثانياً نموذج بارز للاقتناع الفكرى ، وهى ثالثاً وهذا هو الأهم نموذج للصلاية المحترمة ، وهى رابعاً ظلت - قدر ما استطاعت - مخلصه لفنها إلى أبعد الحدود • ملامح القدرة التى تمكنت بها هذه الفنانة من وسائلها الفنية • العنصر البارز فى نجاح كاتبة هذه المذكرات وهو «الفن» • حديث صاحبة المذكرات عن شجرة عائلتها بدءاً من الجد الأكبر وزير الجهادية والبحرية فى عهد الخديو إسماعيل ، والذى سماه الطلبة بأفلاطون • والدها عالم الحشرات الكبير وعميد كلية العلوم فى جامعة القاهرة • والدتها التى تزوجت فى سن الرابعة عشرة • البيوت التى تربت فيها فى شبرا • الشعور بالسعادة والفخر الذى كانت تحس به فى فترة مبكرة من حياتها • حياة والدها فى بيته بالمعادى ورحلاتهم معه فى الصحراء الممتدة من المعادى ، وإلى دير سانت كاترين وإلى البحر الأحمر • تقدم انطباعات مهمة جدا عن المدارس الأجنبية فى مصر ينبغى لكل تربوى ولكل صاحب قرار (وصاحبة قرار) أن يطالعها • إنجي أفلاطون تصور كثيراً من الملامح الصعبة لبيئة هذه المدرسة التى قدر لها أن تقيدها للدراسة فيها • صاحبة المذكرات كرهت مدرسة القلب المقدس بكل شعورها ووجدانها ، واكتشفت فيها نفس النظام غير العادى الذى يفرق بين الأغنياء والفقراء حتى فى سلك الرهينة (!!) • تتحدث بسعادة واعتزاز عن دراستها فى مدرسة الليسيه حيث لاقت ما نشدته من حرية السلوك • لم تنجذب إلى حفلات الطبقة الراقية حيث يكون من الممكن لها أن تجتذب عريساً من بين شبان هذه الطبقة • انتباهها للحديث الاسترجاعى عن هوايتها المبكرة للفن • بداية تعرفها بأستاذها الأول كامل التلمسانى الفنان التشكيلى الطليعى • اهتمامها بها وتشجيعه لها إلى الحد الذى جعله يشركها فى المعارض الطليعية لجماعة الفن والحرية رغم صغر سنها وكونها لا تزال طالبة فى الليسيه!! • صاحبة المذكرات تتحول بفضل الرسم أو ترتقى لتجد نفسها كائناً مميّزاً بين المثقفين المصريين على حد تعبيرها.. • تنتقل بنعومة شديدة إلى صفوف اليسار • حديثها عن انتماءاتها السياسية وانخراطها فى الحركة الشيوعية وتضحيتها فى المقابل بما كان متاحاً لها من السفر لدراسة الفن فى فرنسا • نواجه مع الفنانة إنجي أفلاطون ما واجهته من خياراتها المهمة فيما يتعلق بأمرين جوهرين

هما: اللغة والجنس • تحدثنا عن مشكلة أخرى واجهتها وهي تمارس نشاطها اليسارى وهى الفوارق الطبقيه • قضية المرأة والحركة النسائية فى مصر : تمزج فى هذا الحديث بين تجربتها الشخصية وبين آرائها اللاحقة فى الهيئات التى مارست النشاط اليسارى • تجربة اليسار المصرى فى توظيف النشاط النسائى المصرى من أجل تحقيق أهدافه • محاولتها وهى وزميلاتها العمل من خلال الجمعيات النسائية الموجودة على الساحة • تخصص فقرات للحديث بالتفصيل عن «اللجنة التحضيرية لأنصار السلام» • تروى قصة بيان اللجنة الذى وقع عليه كل من: يوسف حلمى المحامى، وسعد كامل، وسيزا نبراوى، والدكتور محمد صبرى السوربونى، وحفنى باشا محمود، وكامل البندارى باشا، ومحمد على عامر، وعزيز فهمى • تروى قصة إصدار مجلة «الكاتب» • قصة إصدارها كتابها الثالث «السلام والجللاء» • مشاركتها فى مؤتمر السلام العالمى فى فيينا • دورها فى مرحلة الكفاح المسلح فى القناة فى ١٩٥١ • قصة المظاهرة التى اشتركت فى تنظيمها فى ١٤ نوفمبر ١٩٥١ فى ذكرى يوم الشهداء • دور جماعة «صوت الفن» فى تنظيم هذه المظاهرة • تجربتها الدولية فى مجال النشاط النسائى • رحلتها إلى باريس بالطائرة، طرائف زميلتها فى الرحلة السيدة سعاد زهير والدة الأستاذ لينين الرملى • مشاركتها فى أول مؤتمر عالمى للطلبة فى براغ • انطباعاتها عن حملة الحكومة فى ١٠ يوليو ١٩٤٦ ضد الحركة الوطنية حيث تم اعتقال ٣٠٠ من خيرة المناضلين الوطنيين • مشاركتها فى العام التالى فى مهرجان الشباب الدولى (يوليو ١٩٤٧) ونشاطها فى هذا المهرجان • قصة زواجها من زميلها فى النشاط اليسارى حمدى أبو العلا • كيف تعرفت بزوجها وكيف أحست بالاقتراب منه • قصة لقاء بالمصادفة مع خطيبها فى مقر نيابة الصحافة حيث كان يعمل • معرفة الناس بعلاقتها بخطيبها «وكيل النيابة» ورأيهم فى هذه العلاقة • سخرية القدر حين يطلب مصطفى مرعى من حمدى أبو العلا أن يتراجع ضد مَنْ ستكون خطيبته • المذكرات حافلة بالامتنان للمساعدات القيمة التى وفرها لها زواجها من حمدى أبو العلا • تجربتها فى العودة إلى الرسم والتحاقها برسم الفنانة السويسرية مارجو فيون • إنجى أفلاطون تواصل تصوير ملامح حياتها فى الريف وما ترى أنه كان بمثابة أثر لهذه الحياة على وجدانها • نشاطها الفكرى فى التأليف من أجل الدعوة إلى معتنقاتها • قصة إصدارها كتابها الأول «٨٠ مليون امرأة معنا» الذى كتبه فى ١٩٤٧ وصدر فى عام ١٩٤٨ • طه حسين كتب مقدمة هذا الكتاب • والدفاع الحماسى الجميل الذى تولاه عنها عالم أزهري محترم لم تكن تعرفه ولا يعرفها وهو الأستاذ خالد محمد خالد • السبب الذى جعل رئيس تحرير جريدة المصرى يستغنى عن خدماتها • الوعى السياسى والأيدىولوجى يشكل انطباعاتها عن حريق القاهرة • تشير بأصابع الاتهام إلى الملك والبوليس السياسى • الفترة التى شهدت قيام الثورة فى ١٩٥٢ وانطباعات زملائها الشيوعيين • الأسباب التى بدأت تدفعها هى وأمثالها إلى التحفظ على سلوك حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

● التحفظ على سلوك حدثو تجاه التعاون مع هذه الحركة ● طبيعة موقف الحزب الشيوعي المصري وجريدة «الراية» من ثورة ٢٣ يوليو ● هذا الموقف الواضح دفعها هي وزوجها إلى الانضمام إلى هذا الحزب بعد استقالتهما من تنظيم «حدثو» ● بدايات متابعها هي وزوجها حمدى أبو العلاء فى عهد الثورة ● قضت عاماً كاملاً من السعادة والهدوء والتأمل فى الإسكندرية مع زوجها ● التجربة التى عاشتها لمدة سنتين كزوج لأحد المعتقلين ، يعيش بعيداً عنها وهما فى بداية زواجهما ، وتضطر إلى زيارته فى سجن القناطر كل أسبوع ● تعترف أنها كانا يفتقدان بعضهما ، ولكن هذا كله يهون إلى جوار ما سياتى مما يتوقعانه ● قصة اعتقال زوج شقيقتها الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله ● موقفها وموقف زوجها وموقف اليسار المصرى فى حرب ١٩٥٦ ● الانتخابات البرلمانية ١٩٥٧ ● قصة ترشيح سيزا نبراوى فى دائرة مصر القديمة ● تشير إلى جهود أبو بكر سيف النصر ونبيل الهلالى وفتحى رضوان وجاكين خورى وحكمت أبوزيد فى تأييد سيزا نبراوى ● تروى تفاصيل الموقف الذى وقفته الحكومة بجوار مرشحها الأستاذ أحمد سعيد مذب صوت العرب الشهير ● تروى ما تعرض له الدكتور عبدالعظيم أنيس مرشح اليسار فى دائرة الوايلى من تعذيب على يد الباحث والبوليس ● المسألة التى تعتقد أنها أفقدتها حياة زوجها ● الجزء الخاص بحديثها عن وفاة زوجها ● الفترة الممتدة ما بين ١٩٥٧ (وفاة زوجها) و١٩٥٩ ، وهى الفترة التى شهدت تألق نشاطها الفنى ● مواجهتها لحملة اعتقالات ١٩٥٩ التى كانت تتوقع بالطبع أن تشملها ● تحدثنا عن اختفائها وهروبها ● كيف عرفت بمحاولة أجهزة الباحث القبض عليها ● تروى قصة هروبها واختفائها فى بيت صديقة لها فى القاهرة ثم فى السويس لمدة خمسة وأربعين يوماً ثم فى شبرا ، حيث كانت تتخفى فى زى بنت البلد ● تقع أخيراً فى قبضة الشرطة ● تحدثنا عن قصة القبض عليها وكيف استطاعت التخلص من التقرير الذى كان بحوزتها ● انطباعاتها عن الضباط ورئيس النيابة الأستاذ أحمد موسى ونبله وإنسانيته وتشيد به ● حريصة على أن تفخر بواقعيتها وذلك فى مقابل تفاؤل زميلاتها بالإفراج القريب ● نيل الدكتور محمد عبدالمنعم المفتى الذى هيا لها الإقامة فى مستشفى قصر العينى بدعوى المرض ● محاولات إدارة السجن التغلب على الإضراب التى شاركت فيه ● قصة الزيارة التى تمكنت والدتها من الحصول على إذن بها حيث التقت الأم مع ابنتها إنجى فى حضور أحد الضباط ● حرص إنجى أفلاطون على أن تثرى معلوماتنا ومعرفتنا بما أدركته من الخبرة والتجربة فى السجن ● تحدثنا عن تفصيلات التفتيش والتأديب فى السجن !! .

٢٤٣ الفصل الخامس، حملة تفتيش أوراق ذاتية للدكتورة لطيفة الزيات

● التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات ● مغزى عنوان المذكرات ● أستاذة الأدب استخدمت قدراتها وخبراتها الأكاديمية فيما قرأت ونقدت ودرست وحللت من قبل ● يشعر

القارئ في صفحاته الأولى أنه يقتقد « التركيز » ، فإذا ما وصل إلى صفحاته الأخيرة شعر أنه في حاجة إلى « التخفيف » • صاحبة المذكرات توهمننا بذلكاء وخبرة أستاذة الأدب أنها «تعترف» بينما هي «تعتبر عن رأى ذاتي» وواضح وصريح • صاحبة المذكرات تؤكد أنها تختط رحاب الجنس إلى الرحاب الإنسانية الأكثر رحابة وشمولاً ، وهي تعترف في موضع آخر بهذا المعنى • تتحدث عن انطباعاتها عن هذا الامتزاج الذى استمر فترة طويلة من الزمن • حرصها على الاعتذار لنفسها ولقارئها عن تجربة زواجها الثانى • لطيفة الزيات تتنازل عن الأسلوب والحبكة تنازلاً مقصوداً لأنها تنتهى إلى معطيات أخرى تجيد استخدامها • صاحبة المذكرات تحدثنا عما كان بريخت يطلبه من الممثلين من الحيدة • تصور البيت القديم الذى نشأت فيه فى دمياط ، وإن بدا أنها تؤرخ للمكان من خلال علاقتها به • الدكتورة لطيفة الزيات تنتهز الفرصة للحديث عن جوانب فولكلورية فى نشأتها لأنها تؤمن فيما يبدو بأن كتابة السيرة الذاتية لا تكتمل بدون مثل هذا الحديث ، وهى عندما تروى قصة الشعبان تبدو متحاملة على أهلها بدون مناسبة • تتأمل زيجتها الثانية مع قرار مسبق اتخذته تجاهها • المذكرات تبدو وكأنها بحث عن الذات فى الآخرين ، وهو نوع أشق من البحث عن الذات فى الذات نفسها • الطريقة التى تروى بها المؤلفة فى شىء من الارتياح والمباشرة والتفلسف الواضح قصة طلاقها • حرص لطيفة الزيات على أن تعقد المقارنات الذكية بين صورتها أمام الناس وبين حقيقتها فى داخلها يوم طلاقها • تروى بصدق شديد لحظات تفكيرها وتصميمها على الطلاق • صاحبة المذكرات تبدو غير ناجية من التعالى على الطائفة الأخرى من السجينات الإسلاميات اللاتى زاملنها فى السجن • لا تخلو مذكرات الدكتورة لطيفة الزيات وروايتها عن حياتها ومراحلها من طرائف كثيرة • حديثها عن قدرتها وهى فى السجن على التهريب والتنويه • لطيفة الزيات تستعيد ذكرياتها عن فترة الثلاثينيات التى عاشتها فى مدينة المنصورة • تأمل أثر الزمن فى حياتها ، وكيف أثر على شخصيتها سلباً وإيجاباً .

الفصل السادس: مذكرات رقية سينما للسيدة اعتدال ممتاز ٢٧٥

• التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات • المذكرات تتمتع بقدر كبير من الإخراج الممتاز جداً • رأى المؤلف فى الغلاف الجميل الذى زين به الفنان عبدالسلام الشريف هذا الكتاب • الكتاب أفضل سيرة ذاتية كتبت عن أداء الوظيفة التى قامت بها المرأة فى المجتمع المصرى المعاصر • اعتدال ممتاز لا تزعم أبداً أنها تحتكر الصواب • أهمية الخبرة المباشرة كسبيل للنجاح • عملها (ونجاحها بالتالى) كان نتيجة طبيعية لتعاونها مع زملائها على مدى الأعوام الطويلة • حديثها عن زوجها الأستاذ أحمد رشدى صالح • تعتبر عن الانتماء الحميم للزوج • اعتدال ممتاز أرجعت الفضل فى عملها فى هذا المجال إلى

والدها • المذكرات تروى تاريخ الرقابة على السينما فى مصر • تمصير الوظائف فى هذا الجهاز • المذكرات تدرب أذواقنا على الفهم السليم والذوق الرفيع • تروى قصة اتصال أحد المسئولين بالسراى الملكية (حوالى عام ١٩٥٠) للسؤال عن اسم الرقابة التى سمحت بعرض فيلم عن مارى انطوانيت وقوله غاضباً متوعداً: «يجب أن تشنق، ونعنى كلمة تشنق» • قصة فيلم «الفرسان الثلاثة» وما حدث له فى عهد الملكية ثم فى عهد الجمهورية • الرقابة تطبق دستوراً غير مكتوب - يشبه الدستور الإنجليزى - أى أنها تطبق القواعد التى تلائم زمانها ووقتها وطبيعة الكيان السياسى والاجتماعى السائد فى كل مرحلة من مراحل التاريخ • قصة صاحبة المذكرات مع المغفور له الأستاذ يحيى حقى مدير مصلحة الفنون، ثم مع المغفور له الأستاذ عبد المنعم الصاوى وما تعكسه هذه القصة من أهمية إيمان المرأة المصرية بدورها فى الحياة العامة وكيف أن هذا الإيمان (ولا شىء غيره) هو المحدد الأول لنجاحنا كمجتمع • العلاقة بين الرقابة وبين الجهات التعليمية التى تقدم عروضاً فنية فى نطاقها المحدود : فى الجامعة الأمريكية ، وفى كلية آداب الإسكندرية • قانون الأحداث الصادر سنة ١٩٥٤ أدى إلى قيام الرقابة بتقسيم الأفلام إلى نوعين: للكبار فقط ، وللعرض العام • المذكرات حافلة بالشكوى من الأفلام المصرية التى أنتجتها مؤسسة القطاع العام • أسفها الشديد لعجز الرقابة فى ظل القوانين والقواعد التى كانت سائدة وقائمة عن أن تقوم بواجبها المفروض • المشكلات التى نشأت عن دخول الدولة فى مجال الإنتاج السينمائى فى الستينيات، وما ترتب على هذا من تزايد معاناة اللجان التى كانت تتولى فحص الأفلام • تروى قصة أفلام ممتازة كانت ضحية للضغط المختلفة التى أثرت على ظهورها أمام المشاهد المصرى • من هذه الأفلام فيلم «كليوباترا» • آثار الأخذ بسياسة مقاطعة الأعمال الفنية على قرارات الرقابة • تفاصيل ما حدث عقب حرب يونيو ١٩٦٧ من التصريح بعرض هذا الفيلم فى القاهرة ثم إيقاف هذا التصريح • نواجه بمجمل آراء أعضاء مجلس الرقابة تجاه هذا الموضوع، ومن بينهم الأستاذ نجيب محفوظ • صاحبة المذكرات ظلت حريصة على موقفها المحبذ لعرض فيلم «كليوباترا» على الجمهور المصرى • فيلم «سانت باولو» مُنع عرضه لأنه كان يصور أمريكا والأمريكيين فى صورة إنسانية على حين كان يشوه صورة الصينيين • تروى نموذجاً للتدخل الحماسى لوزير التربية والتعليم الذى أدى فى النهاية إلى ضياع القيمة الخلقية التى فى فيلم «شقة العاشق» • تورد نموذجاً لتأثير علاقتنا بالاتحاد السوفيتى على السينما • تعرض للفروق الجوهرية بين الأعمال الفنية المختلفة، وهى ترى أن بعضها متميز وأن بعضها الآخر غير متميز • موقف الرقابة من هذه الأفلام غير الممتازة : «قصر الشوق» ، «امرأة ورجل» • تستعرض صورة حية لاختلافات الأذواق والعوامل الحاكمة للتقييم واتخاذ القرار من خلال روايتها لموقف مجلس الرقابة من كثير من الأفلام المعروضة عليه • نستطيع بفضل المذكرات أن نتصور كل قضية من هذه القضايا الرقابية وهى تحمل كثيرا من

الإجراءات التي لا تنتهي • صاحبة المذكرات كانت تعنى عناية شديدة بالناحية الفنية لا بالناحية الأخلاقية فحسب • الأثر الذى كان ينشأ عن كثرة التغييرات الوزارية حيث تعود مناقشة الملف لتبدأ من نقطة البداية • وزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة أشير بخطه : «لايعرض فيلم شقة مفروشة إلا بعد مشاهدته بواسطة المجلس ومعاملته المعاملة الموضوعية بصرف النظر عن تمويله بواسطة المؤسسة ثم إخطارى بالنتيجة» • معركة مستمرة ومتواصلة بينها (أو بين الرقابة) من ناحية، وبين مؤسسة السينما التى هى مؤسسة الدولة (القطاع العام) المستولة والمعنية بإنتاج الأفلام • نرى هذه المؤسسة وقد تحولت إلى أكبر كيان مخالف لأوليات القيم والدوق والفن • الحديث عن سلبيات المؤسسة المصرية العامة للسينما واستخفافها بالجمهور وبالقيم • موقفها كرقبية تجاه نوع من الأفلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأفلام العنف وهو «أفلام الكاراتيه» • وصف المسارات الحكومية التى كانت الرقابة تجدها نفسها مدفوعة إليها • نماذج لمشكلات الرقابة مع كل من الهيئة العامة للمسرح، والموسيقى، وإدارة العلاقات الثقافية الخارجية، وقصور الثقافة الجماهيرية • أسفها من أن تتولى بعض الجهات الثقافية القيام بأدوار تسمى إلى الوطن، فضلاً عن إهدارها للمال العام • دراسة العلاقة بين «الرقابة ووسائل الإعلام» باهتمام شديد • أسأها وتجاه سلوك بعض من يتتومون إلى مهنة الصحافة • علاقة الرقابة بالإذاعة • موقف الصحافة العدائى من الرقابة • علاقة الرقابة بالتلفزيون • ملخص رأيها فى أحد مشاهد فيلم «الخرساء» • علاقة الرقابة بأجهزة الفن والإعلام وأجهزة الإنتاج الفنى • احتكاك حاد ببعض الأجهزة السياسية والبرلمانية • إحدى قصصها مع الاتحاد الاشتراكى • تفصيلات ما دار بشأن فيلم «ميرامار» • رأى المؤلف فى تمتع الرئيس السادات بثقافة حقيقية • موقف السادات الذكى من صورة المرأة فى هذا الفيلم • نهاية صراعها مع الاتحاد الاشتراكى حول فيلم «ميرامار» • موقف الدكتور محمد حلمى مراد وهو وزير للتربية والتعليم من فيلم «شقة العازب» ، وهو الفيلم الذى تحول بسبب تشده من فيلم يصور قيمة اجتماعية إلى شىء آخر • عصبية قرار الدكتور محمد حلمى مراد الذى صدر عن سماع، وترتب عليه نوع من تضييع القيمة الفنية دون مقابل تربوى يذكر • تجار بصوت عال من الانتقاد للدور الذى قام به سلفها المستشار مصطفى درويش • تنتقد على سبيل المثال توسعه بل جرأته فى الترخيص بعدد كبير من الأفلام التى لم يكن غيره ليترخص بعرضها • قصة المطالبة بمنع عرض فيلم «الحب أقدم مهنة فى التاريخ» فلما صدر قرار وزير الثقافة بوقف عرضه طالب أعضاء مجلس (الأمة) بتأجيل رفعه يوماً إلى أن يتمكنوا من رؤيته!! • الفقرات التى تعبر فيها عن المشاعر القاسية التى كانت تتنابها وهى تؤدى وظيفتها فى حذف اسم «مصر» أيام الوحدة مع سوريا • تأكيدها على احترامها العميق لكل القيم السماوية وتمسكها بكتاب الله وأحكامه • علاقتها بالقضايا الدينية من خلال الرقابة • تفاصيل الضجة التى ثارت حول مسرحية «نار الله» للأستاذ عبدالرحمن

الشرقاوى • معاناة أصحاب الأديان من الأخطاء المغلوطة التى تقدمها بعض الأفلام السينمائية • تقدم نموذجاً لفيلم دينى مهم هو فيلم «زوجة القسيس» • الاعترافات الاجتماعية والأمنية كثيراً ما تكون ذات شأن بارز فى مواءمة عرض الأفلام التى تتعلق بالدين من قريب أو بعيد • تروى أنها عانت من أجل فهم هذا الفيلم بسبب لغته الإيطالية • الفيلم عرض فى بلاد الفاتيكان نفسها • صاحبة المذكرات تفاجأ باعتراض القساوسة المصريين عليه!! • تظلمت الشركة ووجدت من أحد أعضاء مجلس الرقابة وهو مسيحي سندا لها فى استمرار العرض.. ومع هذا فإن مجلس الرقابة بإجماع الآراء وافق على استمرار المنع • الرقابة فى لندن وباريس • تنبيهها إلى حقيقة الخطورة فى أفلام العنف وإلى أنها تفوق بكثير خطورة أفلام الجنس.

٣٣١ الفصل السابع: مذكرات طبيبة للدكتورة نوال السعداوى

• التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات • تتمتع الدكتورة نوال السعداوى بشخصية قوية ، قد تكون هذه القوة بمثابة رد فعل أو انفعال ، وقد تكون قوة غريزية ، وقد تكون قوة فطرية لم يصبها الإضعاف أو التوهين • تجسد الشخصية الرقيقة وغير القابلة للكسر • حرصها على التعبير عن أنها ظلت تعيش القلق تجاه وضع المرأة فى المجتمع المصرى المعاصر • بعض ملامح الطفولة التى تحرص صاحبته على إبرازها • تصل بسرعة إلى دراستها بكلية الطب • وإذا بها فى المشرحة ... وإذا بها تجرد الرجل عارياً أمامها • تفضل الحديث عن قلبها بقدر أقل من الكبرياء الذى تحدثت به عن عقلها • تحرص نوال السعداوى على أن تنشئ علاقة ارتباط قوية وحاسمة بين استجابتها للعاطفة وبين يقظتها • بعد تجربة طويلة ممتدة مع المجتمع ومع نظراته وكلامه وتعليماته وآرائه نراها تحدث نفسها مرة أخرى • تخوض المعركة وتحس النجاح المقبل عليها فيها • عادت لتعانى مرارة الوحدة • من باب ما يطلق عليه «إدعاء الحكمة بأثر رجعى» تروى الدكتورة نوال السعداوى نفورها من العلاقة التقليدية بالرجل فى إطار الزواج التقليدى • تجربة إقدام ابن عمها على تقبيلها فإذا هى تقذف بذراعها فى الهواء وتصفمه • صراع العقل والقلب فيما تواجهه من تجربة التعبير عن الصراع بين الحب والإرادة • تبرز نفسها وكأنها تكاد تخلط خلطاً تاماً بين كل ما هو حقيقى وما هو خيالى • نوال السعداوى تهتدى إلى مَنْ تظن أنه يستحق أن يكون شريك حياتها أو هكذا هى تريد أن توهمنها أو تقنعنا • تكتفى بتصوير لحظة اتفاقهما من خلال الجدل • تكتفى بأن تقدمه على أنه الرجل الذى يقول لها بكل حنان : «لم أر امرأة مثلك أبداً..» • تنتقل من الحوار إلى الاعتراف الذى تريد أن تقدمه لاجتة إلى السرد • تترك تيار وعيها يتحدث عما حدث يومها من انفعال نفسى • تيار الوعى يحدثنا حديثاً جميلاً • صاحبة المذكرات تقدم لنا عبارات محملة بكل ما تريد أن تقوله • تثبت لنا ما أرادت إثباته من قبل

ومن بعد فى حياتها : إنها لا تتمرد على الطبيعة ، لكنها تتمرد على نظرنا للطبيعة ومفهومنا لها ، وإنها تؤمن بالأسرة كما تؤمن جميعاً أو بأفضل مما تؤمن جميعاً • تصور بعض ما كانت تشعر به وهى التى تنوق فى بعض الأحيان إلى الآخر وإلى وصاله • صاحبة المذكرات صريحة فى تعبيرها عن الرغبة ، مع وعيها بأن هناك أساليب أخرى أكثر فعالية فى التعبير عن هذه الرغبة • صاحبة المذكرات تحيد تصوير أكثر من مظهر من مظاهر شعورها (المفاجئ) بالحب .

٣٥١ الفصل الثامن : يوميات امرأة عاملة للسيدة إقبال بركة

• التعريف بالمذكرات ، وبصاحبة المذكرات • إقبال بركة تتمتع بقدرتين رائعتين : قدرتها على التعبير الواضح الصريح ، وقدرتها كذلك على التعبير القوى عن أفكار واضحة حاسمة وجريئة • تشرك الجمهور فى الخبرة والتجربة والرأى • حاجتنا إلى كتاب آخر يضم سيرتها الذاتية • الكتاب مزيج من تجارب شخصية بحتة ، ومن تجارب إنسانية لاقت صداها فى فكرها ووجدانها على نحو ما عبرت لنا فى فصول الكتاب • الكتاب يضم واحداً وستين مقالاً ما بين تجربة شخصية وإنسانية • الكتاب يتمتع بكثير جداً من الخصائص التى تجعل منه كتاباً حقيقياً لا مجموعة فصول فحسب • كتابات إقبال بركة تعبر عما يموج فكرها به من فلسفة لا تياس من أن تلمح الاستقطاب حتى على سطح التجربة وذلك من خلال ما تدركه من آيات الحركة • المحاور الرئيسية التى تناولتها إقبال بركة • المحور الأول: المرأة والغواية • المحور الثانى: الأمومة فى حياة المرأة العاملة • المحور الثالث: فلسفة العلاقة بين الرجل والمرأة • المحور الرابع: المشكلات الاجتماعية العامة • المحور الخامس: تجارب ذاتية من الحياة اليومية • المحور السادس: المرأة العاملة ووظيفتها • المحور السابع : العلاقة الزوجية • المحور الثامن: العلاقات النسائية • أبرز ملامح الكتاب هو الرضا النفسى العميق حتى فى حالات الثورة • صاحبة المذكرات تتمتع بثقة شديدة وبقدرة أشد على إبراز هذه الثقة فى كل فقرة من فقرات الكتاب • إقبال بركة تؤمن بربة البيت ودورها إلى الحد الذى تشخص فيه مشكلات المجتمع المصرى بأنه يحتاج إلى ربة بيت .

٣٦٣ الفصل التاسع : بعض أوراقى للسيدة سلوى العنانى

• التعريف بصاحبة المذكرات ، وبالمذكرات • كتاب أدبى لأنه استكمل معظم مقومات العمل الأدبى ، ففيه من العاطفة صدقها ، ومن البيان جودته ، ومن المعانى توليدها ، ومن الأفكار استحداثها • الكتاب ينبض بحرارة أخرى ويجمع بين الأدب ، والمرضى ، وحرارة الصبر • صاحبة المذكرات كانت من أولئك المتمردين البنائين • هؤلاء هم الأمثلة الفردية على الصدق مع النفس • جدوى أن يعبر الأدب عن كل الجزئيات الصغيرة التى قد تشغل حياة بعض البشر • الكتاب يحكى تجربة شخصية لا بد أن نحترمها وأن نحترم قدرة صاحبها على التعبير عنها • وقبل هذا قرارها بالتعبير عنها، فالإرادة هنا هى مفتاح مثل هذا العمل

الأدبي • الكتاب يجيد الحديث عن أثر الزمن في الألم • سلوى العنانى تتحدث كثيراً إلى نفسها وتحدث كثيراً أيضاً إلى أطيافها • رأيها الصادر عن تجربة : معظم الأطباء يفشل في أن يقدم للمريض ما يحتاجه فعلاً ، معظمهم يفشل في أن يصحح صديقاً لمرضاه • تأمل قطرات الدم التي تنتقل إلى الإنسان في عمليات نقل الدم وتأمل بشيء من الاسترجاعات : لمن كان هذا الدم • صاحبة المذكرات تعود إلى ربه لتجار بالدعاء وتسأله الغفران من اليأس • بعض المعانى التي يمكننا أن نفهمها من حديث سلوى العنانى عن طبيعتها الراحل وهى تخاطبه • ما ترويه عن إحدى محاولاتها المتعددة للحصول على الشفاء • قصتها مع الطبيب الفلبيني الذي شاع أمر علاجه للناس بدون جراحات • عاشت هذه التجربة بشعور مزدوج كصحفية وكمريضة • المعاشة المزدوجة للتجربة جعلتها بالطبع تصل إلى ما لم تكن تصل إليه لو أنها كانت قد عاشت التجربة من جانب واحد فقط • نجحت في تسجيل مشاعرها وتأملاتها وخبراتها على نحو كفييل بأن يثير فينا كثيراً من المشاعر والانفعالات الحسية التي تتفاعل معها • حرص صاحبة المذكرات على أن تعبر عن الإيجابيات التي تجدها في واقعها، وتجد هذا الواقع من أجل ذلك، يستحق حمد الله عليه .

الفصل العاشر: ثريا رشدى ومحاولة لتسجيل ومضات من حياة زوجها

• التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات • المذكرات تروى قصة سيدة أحببت زوجها ٣٧٧
أقصى ما يكون الحب • صاحبة المذكرات تكتب هذه الصفحات التي تحكى قصتها الخاصة جداً مع زوجها الدكتور رشاد رشدى ، وما تمتع به من وعى متقدم فى المكانة الاجتماعية وفى الحياة الثقافية والفنية فى مصر المعاصرة • فارق السن بينها وبين رشاد رشدى • تستأنف إجاباتها عن الأسئلة المثارة فى وجدان القارئ عن هذا الزواج الذى قد يبدو غير متكافئ بالمرءة.. ولكن السيدة المحبة تفاجئ قراءها بقصة الحب على نحو ما تمت فعلاً • تخرج بالقارئ سريعاً من جوهر العلاقة وشكلها إلى الصيغة التى انتهت إليها • الحديث عن ثمار هذه العلاقة • صاحبة المذكرات تحيد تناول النقاط التى تحب أن تتناولها • حديثها عن بداية معرفتهما • تتحدث بتقدير شديد لكل الخطوات التى مضت فيها هذه العلاقة سريعاً حتى توجت بالزواج • حديثها عن نقطة الذروة فى علاقتها بالرجل الذى أحبته • تتحدث بحب وهيام ووجد عن تعمق علاقتها بحبيبها وزوجها طيلة واحد وعشرين عاماً هى عمر زواجهما ، ثم طيلة الأعوام التى انقضت منذ رحيله وحتى كتابتها لمذكراتها • تحيد التعبير المتدله عن هذه العلاقة • صاحبة المذكرات ترى نفسها بحكم المشق ، ملزمة بأن تقدم لوحة كاملة تكمل بها اللوحات • لوحاتها ثرية بالصورة والانطباعات • تروى كثيراً من الجزئيات التى تحفل بها حياتها مع زوجها مازجة على نحو ما توقع ، بين العام والخاص ، وهى منحازة تماماً لزوجها ولإنجازاته ، وليس لنا ولا لغيرنا أن ينتقدها فى هذا الانحياز • طبيعة انفعالها هى وزوجها فى مواجهة أسى هزيمة واجهت وطننا فى ١٩٦٧ ، وكيف كان زوجها الدكتور رشاد رشدى يرى الانفعال المناسب فى هذه الظروف • ثريا رشدى بذكائها تتدارك

الموقف ، فتجعل لهذه المعاناة بعض فائدة ، إذ خرجت بسببها واحدة من أروع أعمال رشاد رشدى وأثاره • ثريا رشدى تروى انطباع نزار قباني حين حضر عرض المسرحية • ثريا رشدى لا تغفل الحديث عن إنجازات زوجها فى الميدان الأدبى والفنى • انطباعاتها عن النصر العظيم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ • تروى كيف أن الدكتور رشاد رشدى قد عُين مديراً لأكاديمية الفنون على غير رغبة منه كما تقول (سنة ١٩٧٥) ، فقد كان قد رتب حياته (الباقية) على التفرغ للكتابة والإبداع الفنى • أول لقاء لرشاد رشدى مع الرئيس السادات • تتحدث بلسان رشاد رشدى الذى قد يمنعه (البروتوكول) قبل أن يمنعه (الموت) من أن يقول كل هذا الذى قالته وصرحت به • ما ترويه عن رأى زوجها فى الرئيس عبدالناصر • توظف الأدب والصحافة لتسليط الأضواء الكاشفة على عهد عبدالناصر • السر وراء العبارات الطويلة التى أوردتها لنا ثريا رشدى على لسان زوجها محدثا الرئيس أنور السادات عن الرئيس عبدالناصر • مع أن رشاد رشدى أكبر من أن يكون معولاً من معاول الهدم ، فإن الحقيقة السياسية التى تفرض نفسها لا تترك مهمة المعاول لمجرد الأنفجار البسطاء فى دنيا الحياة العامة • المذكرات تساعدنا على فهم المعانى البسيطة والموحية التى أرادت السيدة ثريا رشدى التعبير عنها • دراما الحوار بين الرئيس والمفكر • رؤية مهمة وجديدة لنظرة كل من الدكتور رشاد رشدى والرئيس أنور السادات إلى الرئيس عبدالناصر • الرؤية تدعمها آراء الرجلين وما سجلناه من روايات مكتوبة أو مذاعة • التباين والتباين • حصر السلطة على الصيغة التى يظهر بها إلغاء انتداب رشاد من رئاسة الأكاديمية • الخبر ينشر فى الصفحة الأولى • فى لوعة شديدة تحكى السيدة ثريا رشدى أثر هذا الخبر المؤسف على زوجها • تتحدث باستفاضة عن رد الفعل على رشاد رشدى وخطوته الإيجابية فى هذا الصدد • أسفها لانهاى هذه الخطوة الأخيرة • تصل بنا ثريا رشدى إلى قمة «التراجيديا» فى قصة حياتها مع زوجها.

الثورة والحرية

يكاد هذا الكتاب أن يكون مخصصاً للفكرة التي يلخصها عنوانه وهي فكرة الثورة والحرية ، والواقع أن الحرية بمعناها الدقيق لا تقف عند حدود الحرية السياسية أو عند حدود ممارسة الحقوق السياسية للمرأة أو للرجل ولكنها في حقيقة الأمر تنسحب إلى حرية الإرادة ، وحرية العمل ، وحرية الفكر ، وحرية التفكير ، وحرية الأداء ، وإذا أردنا أن نجد مجالاً يشع بالتعبير عن مدى وجود وصمود هذه الحريات فإن هذا المجال يتمثل في المقام الأول في موقف الأمة وموقف المجتمع من المرأة.

والشاهد أن البحث في وضع المرأة كميدان لدراسة الحرية الاجتماعية والحرية بوجه عام يمثل نموذجاً جيداً لدراسة هذه الظاهرة في أفقها الطبيعي ، وليس مثل هذا التقرير بحاجة إلى براهين كثيرة للتدليل على صحة ما يقول به ، ذلك أن نظرنا إلى الحرية لا يمكن أن تنمو إذا كانت الأمومة المسئولة عن تربيته تعيش طرازاً آخر من الحياة يفتقد الإحساس بمعنى الحرية من ناحية وبقيمتها من ناحية أخرى.

ويمكن لى أن أخص الفكرة بأن أحاول وضع استطراد كان لابد منه كي يكمل قول زعيم أول ثورة مصرية في العصر الحديث وهو أحمد عرابي حين قال: لقد ولدتنا أمهاتنا

أحراراً .. وقد قفز أحمد عرابي مباشرة إلى قوله ولن نورث أو نستعبد بعد اليوم .. بينما أرتنا السنوات والعقود المتصلة أن أمهاتنا ولدتنا أحراراً ، ولكنهن بما فرض عليهن جعلتنا لا نبحت عن هذه الحرية لأنهن كن قد افتقدنها .. وفاقد الشيء لا يعطيه .

لست أحب أن أعود إلى التراث الإسلامى فى عصوره الأولى لأذكر القراء بمواقف السيدات المسلمات الأوليات اللاتى تشبعن بروح العقيدة وفكرتها وأصبحن يدفعن بابتائهن دفعا إلى ساحات الوغى من أجل الحق والحرية.

لست أنكر بعد هذا ولا أظن أحداً ينكر مدى قسوة الفترة الحالكة التى ظللت حضارتنا على مدى بعض القرون ، وكيف تمكنت هذه الفترة الحالكة من أن تحجب نور الحرية عن المرأة المصرية وأن تذهب بها إلى وضع متدن من حيث قدرتها على تصريف أمورها ، والاختيار بين الطرق المتاحة لها ، والواقع أن هذا الوضع الذى شهدته المرأة المصرية فى عصور الانحطاط قد تكرر على أيدي حكام هذه الفترة من العثمانيين الذين آثروا أن يعمموا فى الممالك الإسلامية نموذجاً لحجاب المرأة كان أقرب إلى التأثير بالنمط الأوربي فى عصور الظلام بأكثر من تأثيره بالنمط الإسلامى فى جماعات التشدد ، وانسحبت الإرادة العثمانية تجاه حقوق المرأة إلى أن تصبح مبلورة تماماً لكل قيود المرأة بدلا من الحقوق الطبيعية التى كانت تحظى بها من قبل.

وجاء الاستعمار البريطانى فى مصر ليكرس الوضع القائم لأنه وجد فيه خير طريق مههد لسلب الشعب حقه فى الحرية ، وحلمه من أجلها ، وعمله فى هذا السبيل.

ولن أمضى فى هذا الطريق من دون أن أشير إشارات سريعة إلى مدى ما كانت تعانيه المرأة المصرية فى ظل هذا الوضع فى مجال التربية والتعليم على سبيل المثال .. فقد ظلت الفتاة المصرية حتى قرب منتصف القرن تعاني من تعسف حتى فى النظام التعليمى وعلى حين كانت الدراسة فى المرحلة الثانوية خمس سنوات للذكور فإنها كانت ست سنوات للإناث ، وهكذا كان محكوماً منذ البداية بل من قبل البداية على المرأة أن تظل متأخرة عن الرجل لسبب واحد فقط هو أنها أنثى .

فإذا افترضنا أن توأما من ذكر وأنثى ولدا فى نفس اليوم وسلكا سبيلهما فى التعليم (الأولى - الألتزامى - الأبتدائى) معاً ثم ذهبا فى نفس اليوم إلى المدارس الثانوية فإن أمام الفتى خمس سنوات حتى يدخل الجامعة ، ولكن أمام الفتاة ست سنوات حتى تبدأ هذا الطريق .. ويتكفل هذه السنوات الست بطولها أن تخرج الفتاة عن طريق التعليم لتبدأ حياة جديدة فى بيت الزوجية .. أو فى غيره.

بل إن هذا التعليم المصرى فى ظل التشريعات والنظم البريطانية كان يقف بالفتاة المصرية عند نقاط نهاية لا تتعدها فى أكثر من منظومة من منظومات السلم التعليمى ، كانت المدارس الابتدائية على سبيل المثال تؤهل لنوع من الدراسة القصيرة يخرج مدرسات لرياض الأطفال .. ولم يكن أمام هؤلاء المدرسات إلا أن يبقين فى هذه الوظيفة طيلة أعمارهن ، ولم يكن متاحاً لهن أن يسلكن السبيل إلى دراسة ثانوية ولا إلى غيرها .

وكان هناك سلم تعليمى آخر ينتهى بمدارس المعلمات الراقية ولم يكن فى وسع المتخربات من هذه المدارس أن يعملن إلا بالتدريس فى المدارس الابتدائية فحسب دون أن يتقدمن خطوة أخرى فى سلم التعليم أو سلم الوظيفة ، وهكذا كانت هذه السلالم التعليمية أو الأوعية التربوية تستغرق السواد الأعظم من الفتيات المصريات بحيث تصرفهن عن السبيل الواسع الذى يمكن من دخول المدارس العليا أو الجامعة فى مرحلة لاحقة .

وسوف نرى بالتفصيل المعقول كيف سارت امرأة مصرية رائدة هى الدكتورة بنت الشاطىء فى هذه السبل المختلفة سبيلاً بعد سبيل تبدأ كل طريق من بدايته بعد أن كانت قد وصلت إلى نهاية الطريق السابق المسدود ، حتى استطاعت أن تبدأ طريقها مرة ثالثة من البداية لتجتاز الابتدائية فالثانوية ولتدخل الجامعة ولتستكمل بعد ذلك دراساتها العليا من أجل الماجستير والدكتوراه فى هذه الجامعة .

ونحن نراها وهى تجاهد فى كل هذه السبل بكل ما تستطيع من قدرات عقلية وإنسانية وتحارب فى الوقت ذاته معركة «داخلية» مع والدها الذى لم يكن ليرغب لها فى أن تمضى فى أى من هذا السبل ، ومع أن هذا الوالد كان يقف فى مواجهتها صراحة ، وفى غير صراحة أيضاً إلا أن أصدقاءه وأساتذته كانوا ينصفون ابنته منه ومن قراراته ، ولم يكن هذا العون الخارجى الذى أتى لبنت الشاطىء على أيدي هؤلاء المشايخ إلا نتاج ثقافة إسلامية حقيقية كانت تؤمن بحق المرأة فى الثورة وفى الحرية .

ونحن نعرف أن نظريات بنت الشاطىء فى الجامعة من شهيرات هذا الجيل كن قد وصلن إلى الجامعة بتشجيع آبائهن أو بموافقاتهم كما فى حالتى السيدتين أمينة السعيد وسهير القلماوى اللتين كانتا ابنتين لطبيين مشبعين بالقدرة على تقدير الأمور ووزنها وتحقيق حلمهما فى بناتهما .. نعرف هذا الجانب ولكن من واجبتنا أن نستدرك لنذكر أنفسنا بما يمثله الجانب الآخر ، وهو أنه إذا كانت بنت الشاطىء قد نجحت فى هذا الذى نجحت فيه فإن كثيرات وكثيرات جداً من أبناء جيلها ممن كانت لهن نفس ظروفها

الاجتماعية قد فشلن فى أن يخضن غمار هذه المحاولة التى خاضتها بنت الشاطىء ونجحت فيها.

على أنى أود أن أسارع لأردف بالقول : إن الأمر فى ثورة المرأة وحريتها لم يتوقف عند حدود التعليم والشهادات والتفوق والتوظيف ولكنه شأن كل ثورة وشأن كل كفاح تشعب وتفرع لتحقيق نجاحاته فى مجالات كثيرة تتعلق بالإرادة وبالمشاركة السياسية ، ولعلنى أقفز هنا إلى نموذج مناقض لفكرة الشهادة والتعليم العالى أو الجامعى والدراسات العليا وقد جسدت هذا النموذج الفنانة إنجى افلاطون التى قادها إدراكها السياسى المبكر إلى أن تتخذ مواقفها الواضحة من التعليم ووجاهته فقد رفضت بكل إصرار أفضل الفرص التى أتاحت لها لاستكمال دراساتها فى الخارج حتى مع كون هذه الدراسة مرتبطة بمجال هوايتها الفنية ، وهى تؤثر أن تمضى فى طريق الحركة اليسارية لأنها تؤمن أن هذا هو واجبها تجاه نفسها.

وهكذا نرى الحرية الحقيقية فى عصر الليبرالية وقد أفسحت مجالاً كبيراً للمرأة ذات الإرادة أن تثور من أجل التعليم واستكماله على نحو ما فعلت بنت الشاطىء ، أو أن تثور على التعليم واستكماله على نحو ما فعلت إنجى افلاطون.

وليس فى هذا أى قدر من المفارقة فهذه هى طبيعة الثورة وهذه هى طبيعة الحرية.

وإذا ما تأملنا هذا المعنى على نحو جيد فسوف نواجه أيضاً بنمطين يبدوان متناقضين من أنماط ثورة المرأة وحريتها ، ونحن نرى سيدة مثقفة أتيج لها أن تكون أولى السيدات اللاتى يتولين إدارة الرقابة كما كانت من قبل أول مصرية (وأول مصرية على الإطلاق) يعمل بالرقابة - فنرى ثورتها من أجل الالتزام بالقيم والنظام ونرى ثورتها هذه وهى تواجه أجهزة كثيرة من أجهزة الدولة والتنظيم السياسى والبرلمان والإعلام وذلك من خلال أدائها لعملها المرتبط بالقيم ومنظومة الأخلاق والحفاظ على المجتمع .. وفى مقابل السيدة اعتدال ممتاز التى تؤدى هذا الدور بقدر كبير من الثورة والتمرد على كل المستويات التى تحاول أن تحد من سلطانها نجد طبيعة [من الجيل الثانى أو الثالث من الطبيبات المصريات] وهى تحاول أن تفلسف نوعاً من الثورة على التقاليد على مستوى العائلة وعلى مستوى بيت الزوجية وعلى مستوى علاقات العمل وتنطلق نوال السعداوى من هذه الثورة إلى محاولة لإدراك الحرية معترفة فى أكثر من تجربة بأن هذه النتائج لم تكن هى ثمرة الحرية التى نشدتها على نحو أو آخر.

وعلى كل الأحوال فإن المرأة المصرية التى تعيش هذه الأيام أزهى العصور التى تعترف لها بحقوق كثيرة ، كانت على مستوى المسئولية الكفيلة بالاحتفاظ لها بهذه الحقوق .

على أننا قد نظلم أنفسنا ونظلم المرأة على أنفسنا حين نهمل دراسة التراث الفكرى الذى أوصلنا وأوصل المرأة المصرية إلى الأوضاع المتميزة التى هى عليه اليوم ، والحاصل أنه لا بد لنا أن ندرك مدى الجهد المتواصل الذى بذلته أجيال رائدة من السيدات المصريات حتى هيان المجتمع لقبول الإنجازات الأخيرة التى تحققت للمرأة.

لا بد لنا أن نتأمل جهد المريية المصرية الأولى نبوية موسى من أجل الدفاع عن حق المرأة المصرية فى إدارة المؤسسات التعليمية بل عن حقها قبل ذلك فى أن يسمع لها صوت فى العملية التعليمية .. لقد كانت معركة نبوية موسى الأولى مع الاستعمار البريطانى متمثلا فى دنلوب المستشار الانجليزى العتيد لوزارة المعارف ، ولولا وقوف سعد زغلول [وزير المعارف فى ذلك الوقت] فى صف نبوية موسى بصلافة وشموخ لكانت ثورتها الأولى قد انتهت إلى أن تكون أقرب ما تكون إلى زوبعة فى فنجان.

وسرعان ما حققت المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ طفرة بارزة فى المشاركة السياسية.

ومن حسن الحظ أن المجد والجاه اللذين حظيت بهما اثنتان من زوجات زعماء الوفد الأوائل الثلاث قد خدم الحركة النسائية المصرية بل ربما نقول إنه صب كله فى خدمة هذه الحركة النسائية المصرية .

وعلى مدى ربع قرن على الأقل (هو الأعوام التالية لثورة ١٩١٩) ظلت هاتان السيدتان بجاههما ونفوذهما بمثابة منارات للحركة النسائية المصرية من خلال بيت الأمة حيث عاشت السيدة صفية زغلول ، ومن خلال قصر هدى شعراوى الذى رعى الحركة النسائية كما رعى الفنون والآداب وكما احتفى ببعض تقاليد عصر النهضة.

وإلى جوار هاتين السيدتين نشأت اتجاهات كثيرة وقيادات عديدة تولت قيادة العمل الأهلى أو ما يسمى الآن بالمجتمع المدنى وكانت قيادتها على نحو رائع.

ثم جاءت الثورة فى ١٩٥٢ ووجدت كل هذه التيارات وقد مهدت لها الطريق لإقرار إصلاحات اجتماعية لم يكن من الصعب قبولها على نحو واسع .. وهكذا فإن أول برلمان للثورة ضم المرأة المصرية متجاوزاً بهذا الضم ذلك الجدل الطويل والممل حول حق المرأة فى الحرية السياسية ، وحول المدى الذى يمكن لها أن تصل إليه : هل ترشح نفسها أم يكتفى لها بأن تكون ناخبة لا مرشحة .. وكان المد الثورى بطبيعته أقوى من أن ينتظر السماح له

بمثل هذا النموذج من إشارات المرور ، وبعد سنوات كانت السيدتان المصيرتان الشهيرتان كأستاذتين للأدب من أعلى المتحدثين صوتاً في المؤتمر القومي الذي واكب إقرار الميثاق (١٩٦٢).

وهكذا لم يكن من الجائز أن تتأخر المرأة عن دخول الوزارة فدخلتها بالفعل في سبتمبر ١٩٦٢ وإن كانت سرعان ما تركتها في أكتوبر ١٩٦٥ ثم عادت لتكون موجودة فيها باتصال منذ نهاية ١٩٧٠ وحتى الآن.

على أن القاعدة الاجتماعية القائلة بأن الناس على دين ملوكهم قد جاءت لتكسر من حدة النجاح الذي أحرزته المرأة في الثورة والحريات ، ذلك أن الرئيس جمال عبدالناصر وأغلب زملائه من قادة الثورة كانوا يحكمون النشأة الاجتماعية والطبقية والتربية الفكرية أقرب إلى النمط المتحفظ في بيوتهم .. وهكذا كانت هناك كوابح قوية أمام مشاركة المرأة في الحياة السياسية أو الاجتماعية وإذا بالحضور الطاغى لزوج زعيم الوفد ينتهي إلى أن يتحول إلى نوع من اللوم اللاحق أو البعدي لسيدة مصرية تخطت الحدود في حياة عامة لم تتعود مثل هذا الحضور.

ولكن الآثار المدمرة لهزيمة ١٩٦٧ فجرت طاقات المرأة في العمل التطوعي ، ولم يكن من باب المصادفة أن السيدة المصرية التي أبلت أحسن البلاء في هذا الميدان كانت هي نفسها زوج الرئيس «القادم في ١٩٧٠» .. ولأن قاعدة الناس على دين ملوكهم تنتصر لنفسها دائماً في المجتمعات فقد كان ما تحقق بوجود ونشاط والحاح ودينامية جيهان السادات أمراً واقعاً يفوق كل ما هو ممكن للأفاق النظرية أن تطالب به.

وهكذا لم يمض عقدان حتى كانت السيدة سوزان مبارك تحقق في سهولة ويسر أمانى كثيرة من أمانى المرأة التي لم يكن من الممكن تحقيقها إلا في إطار الحلم بالثورة والحرية.



هذا إذاً كتاب عن حياة المرأة المصرية في إطار قضية أكبر هي قضية «الثورة والحرية» وفي هذا الكتاب يقرأ المؤلف للقارئ بعض ما كتبه المرأة المصرية عن نفسها في عشرة كتب مهمة صدرت خلال العقدين الأخيرين ، وفي بعض هذه الكتب بعض ما أرادت المرأة المصرية أن تسجله عن نفسها ، وفيها كذلك بعض ما يمكن لنا أن نقرأه مما لم ترد أن تسجله بنفس الدرجة.

وفي الأبواب العشرة التي يضمها هذا الكتاب نستطيع أن نتأمل كثيراً من أحوال المرأة المصرية .

ونحن نرى البابين الأولين يتحدثان عن شخصيتين من أبرز شخصياتنا العامة وهما تمزجان حديثهما عن العام بحديث عن الخاص ، فهما تقدمان لنا جزءاً من ذكرياتهما ، لا الذكريات كلها ، وتخصان بهذا الجزء شركة الحياة التي كانت بينهما وبين زوجيهما الراحلين ، فنقرأ للسيدة بنت الشاطي قصة حياتها من منظور علاقتها بزوجها العظيم الشيخ أمين الخولي ، ونقرأ للسيدة جيهان السادات قصة حياتها كزوجة لزوجها العظيم الرئيس محمد أنور السادات.

كذلك نرى نموذج السياسة التي جاهدت قدر ما استطاعت من أجل تحقيق ما اعتقدت أياً كان هذا الذي اعتنقته ، ونرى هذا الجهاد متمثلاً في صور ثلاث ، فنرى صورة النشاط الناري كما في حالة السيدة إنجي أفلاطون يبدأ ناراً ويستمر ناراً وتظل النار تحت الهشيم .. وصورة النشاط العلني يتحول إلى نشاط سرى ثم يعود ليتحدث عن نفسه كما هو في حالة السيدة زينب الغزالي .. وصورة النشاط الذي يفتر ثم يعود إلى الانتظام وهو نشاط السيدة لطيفة الزيات التي تحدثنا عن الجوانب النفسية المنعكسة عن ممارستها للنشاط السياسي وعن انقطاعها عنه أيضاً في مقابل حديث السيدتين إنجي أفلاطون وزينب الغزالي عن مشاركتيهما وممارستيهما الدائبة والمستمرة.

كما يستعرض الكتاب نماذج بارزة للمرأة المصرية التي تشارك الرجل عمله وحياته ونشاطه المهني ، وتعرض مثله لصعوبات الحياة ومشكلاتها وبيروقراطيتها وإنجازاتها ومكاسبها وشكوكها وضربيتها ووطناتها وعذابها ونعيمها وزخرفها وتقلباتها: هذه المرأة تطل علينا بصورتين: من خلال شريط سينمائي طويل وممتد وممتع ، ومن خلال شرائح سينمائية متعاقبة ، فأما الشريط فيمثل كتاب اعتدال ممتاز «مذكرات رقيقة سينما» ، وهو بلاشك أفضل كتاب يروي تجربة المرأة المصرية العاملة ، وأما الشرائح السينمائية المتعاقبة (Slides) فيضمها كتاب إقبال بركة «مذكرات امرأة عاملة».

كما نستعرض في هذا الكتاب ملامح بارزة في شخصية المرأة المصرية من خلال ثلاثة كتب مهمة تتناول تجارب خاصة جداً أو غير مسبوقه في أدبنا العربي المعاصر ، فهذه السيدة ثريا رشدي تحكي قصة حبها وزواجها من منظور التجربة الإنسانية الخاصة جداً فتنجح في ذلك نجاحاً كبيراً ، وتقدم لنا كتابة ذاتية في صورة موضوعية ، وكتابة موضوعية في صورة ذاتية ، وبالإضافة إلى تجربة الحب والارتباط نجد أدبية وصحفية لامعة هي السيدة سلوى العناني وهي تروي لنا معاناتها مع المرض المزمن بروح الفنان وقلب المؤمن وعقل المرأة ، وقبل هاتين نجد الدكتورة نوال السعداوي تتناول حياتها في كتابها «مذكرات طيبة» وتتعمق مع القراء مشاعر الأنثى بفلسفة نائرة.

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحريّة

1

على الجسر
للدكتورة بنت الشاطئء

دار الخيال

(١)

أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب بواكير الأعمال الكاملة لبنت الشاطي.. وفي مطلع هذه الأعمال قصة حياتها التي كتبها بعنوان «على الجسر» تقصد كما ذكرت هي في العنوان الذي على الغلاف وفي الصفحة الأولى الجسر الذي «بين الحياة والموت».

ولعل القارئ يعلم أن بنت الشاطي الأديبة المصرية الكبيرة التي حصلت على جائزة الدولة التقديرية في أواخر السبعينيات كانت تلميذة الأستاذ أمين الخولي ثم زوجته ، ولها من العالم الكبير ابتتان توفيت إحداهما في شبابها.. وهاتان غير مجموعة كبيرة من أبناء الشيخ من زوجته الأولى تبوأ كل منهم مكانة رفيعة في دنيا التخصصات العلمية والجامعية.. ولقد كانت الدكتورة بنت الشاطي واحدة من الذين صوتوا على منح الدكتورة سمحة الخولي ابنة زوجها وأستاذها جائزة الدولة التقديرية في الفنون بعد حصولها هي على الجائزة في الآداب بأربع سنوات.. وكثيراً ما كانت السيدتان تجلسان متجاورتين في المجلس الأعلى للثقافة وغيره من المجتمعات الثقافية في القاهرة.

□

وقصة حياة الدكتورة بنت الشاطي حافلة بالإنجازات والمواقف المشرفة ، ولعلها تقريباً آخر قصة حياة لمن لاقوا التعذيب وذاقوا مرارة الحياة وهم يسعون إلى العلم ، فبعد الدكتورة بنت الشاطي وعصرها كانت مظلة التعليم قد امتدت بحيث أتاحت لكل ذي

رغبة أن ينهل وأن ينال الشهادات والمراكز ، وساعد تقدم الحضارة والبنية الأساسية على إتاحة الحد الأدنى الذى يضمن تيسير وصول المرأة إلى منابع العلم ووصول منابع الثقافة إلى الناس فى سهولة وسرعة أيضاً .. وبالإضافة إلى هذين العاملين فقد كان هناك عامل ثالث هام جدا حين أصبح الأهلون على تباعد مستوياتهم (الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ..الخ) مقتنعين بأهمية تعليم البنات أو على الأقل بعدم «حرمانية» هذا التعليم أو شذوذه .

ولقد كان والد بنت الشاطىء من الأصدقاء القريين جداً لكثير من أفراد أسرة والدة كاتب هذه السطور ، التى كانت واعية تمام الوعى لمراحل كفاح سيدة من الجيل السابق عليها ، بذلت جهداً جهيداً حتى بدأت تأخذ مكانة فى المجتمع لا بخفة ظلها ، ولا بجمالها، وإنما بما حققت من نجاح فى الدراسة وما تلاها.. ولقد كانت هذه السيدة هى بنت الشاطىء نفسها التى مثلت ذروة فى معركة التحدى الحقيقية للمرأة العربية المسلمة فى القرن العشرين حين نزعت منها كل الأسلحة ، وسدت أمامها كل الطرق ، ولم يهيا لها إلا ذلك الإيمان والطموح وهما كفيلا بتحقيق أعظم الانتصارات.



ومع هذا كله فإن الدكتورة بنت الشاطىء فى كتابها الممتع تأبى أن تفيض فى الحديث بصوت مرتفع عن هذه الحياة الطويلة العريضة التى بذلت فيها كل ما آتاه الله من قدرات وتوفيق ، تأبى الدكتورة بنت الشاطىء أن تأخذ منحى طه حسين فى الأيام أو أحمد أمين فى حياتى أو توفيق الحكيم الأكثر فناً وتفناً حين عرض حياته بطريقة فنية فى أكثر من عمل مثل كل منها مرحلة من المراحل ، وتعمد الدكتورة بنت الشاطىء إلى أن تركز حياتها فى بؤرة واحدة هى علاقتها بالشيخ أمين الخولى ، وفى هذا تصدر الدكتورة بنت الشاطىء عن إيمان عميق بأن حياتها كانت قبل معرفتها بالرجل طريقاً إليه ، وبعد رحيله انتظاراً للقاء الثانى به فى الحياة الآخرة ، وهى تقول فى هذا المعنى :

«وتجلت فينا ولنا وينا ، آية الله الكبرى الذى خلقنا من نفس واحدة فكنا الواحد الذى لا يتعدد ، والفرد الذى لا يتجزأ ، وكانت قصتنا أسطورة الزمان ، لم تسمع الدنيا بمثلا قبلنا وهيئات أن تتكرر إلى آخر الدهر».

وهى تعتقد بكل يقين أنها عرفت زوجها الحبيب قبل أن تتلمذ عليه وقبل أن تلقاه ، وأن إحساسها بتوحد شخصيتهما فى نفس واحدة قديم وأبدى ، وهى تكتب هذه المعانى المتوهجة تحت عنوان «معاً على الدرب الواحد» فتقول:

«وَأَنْ لِي بَعْدَ كُلِّ تِلْكَ الرَّحْلَةِ الشَّاقَّةِ ، أَنْ أَعْرِفَ جَوَابَ مَا طَالَمَا سَأَلْتُ عَنْهُ:

«أَيْنَ وَمَتَى يَأْتِرِي لَقِيَتَهُ ، وَسَمِعْتُ صَوْتَهُ مِنْ قَبْلِ ؟» .

«فَمِنْذَ قَابَلْتَهُ ، تَجَلَّى لِي السَّرُّ الْمَحْجُبُ الَّذِي حَيْرَنِي أَمْدَافً طَوِيلًا ، وَكَانَتْ مَجَاهِدَتِي الصَّعْبَةَ سَعِيًّا دَائِبًا لِكَيْ أَصِلَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْكَشْفِ الَّتِي يَفْنَى «أَهْلُ الْحَقِيقَةِ» أَعْمَارَهُمْ فِي سَبِيلِ الْوَصُولِ إِلَيْهَا...» .

«فَلَقَدْ آمَنْتَ مِنَ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لِلْقَائِنَا ، أَنَّهُ اللَّقَاءُ الَّذِي تَقَرَّرُ فِي ضَمِيرِ الْغَيْبِ مِنْذَ خَلَقْنَا اللَّهُ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا» .

«وَأَنْ عَدْتَنَا الدُّنْيَا اثْنَيْنِ فِي الْحِسَابِ الرَّقْمِيِّ وَالْوَاقِعِ الْعَدْدِيِّ» .

«اثْنَيْنِ ، لِكُلِّ مِنْهُمَا اسْمُهُ وَنَسَبُهُ وَلِقَبُهُ وَصِفَتُهُ وَصُورَتُهُ ، وَعَمَلُهُ وَشَخْصِيَّتُهُ» .

«وَبِهَذِهِ الثَّنَائِيَّةِ الْعَدْدِيَّةِ يَتَعَامَلَانِ مَعَ الدُّنْيَا وَالنَّاسِ» .

«وَلَكِنَّهُمَا فِي جَوْهَرِ حَقِيقَتِهِمَا وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ...» .

«لَا كَمَا تَخَيَّلْتَ الْأَسَاطِيرَ عَنِ النَّفْسِ وَالْقَرِينَةِ» .

«وَلَا كَمَا تَغْنِي الشُّعْرَاءُ بِالرُّوحِ الْوَاحِدَةِ فِي جَسَدَيْنِ» .

«وَلَا كَمَا تَمَثَّلُ الصُّوفِيَّةُ رُؤْيَا الْفَنَاءِ فِي ذَاتِ الْحَبِيبِ» .

«وَلَا كَمَا تَأْمَلُ الْفَلَّاسِفَةُ فِي وَاحِدَةِ الْوُجُودِ» .

«وَلَا كَمَا تُحَدِّثُ الْعُلَمَاءُ عَنِ الْخَلِيَّةِ الْوَاحِدَةِ قَبْلَ أَنْ تَنْقَسِمَ» .

«وَأِنَّمَا هُوَ سِرٌّ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ...» .

«تَجَلَّتْ فِيهِ آيَةُ اللَّهِ الَّذِي خَلَقْنَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا!» .

«وَكُنَّا أحيانًا نَفْتَرِقُ» .

«يَذْهَبُ كُلُّ مِنَّا إِلَى عَمَلِهِ ، أَوْ يَسَافِرُ فِي بَعْضِ شَأْنِهِ» .

«وَقَدْ يَمِضِي أَحَدُنَا إِلَى أَقْصَى الْمَشْرِقِ ، وَالْآخَرَ إِلَى أَقْصَى الْمَغْرِبِ» .

«لِأَنَّ الدُّنْيَا لَا تَعْرِفُ إِلَّا أَنَّنَا اثْنَانِ!» .

«وَالْحَيَاةُ تَفْرُضُ عَلَيْنَا أَنْ نَعَانِيَهَا بِهَذِهِ الثَّنَائِيَّةِ الْعَدْدِيَّةِ» .

«وَرِغْمَ هَذَا ، كُنَّا النَّفْسَ الْوَاحِدَةَ» .

«وَذَلِكَ مَا أَعْيَا الدُّنْيَا وَيَعْيِيهَا أَنْ تَفْهَمَهُ أَوْ تَتَصَوَّرَهُ وَتَتَمَثَّلَهُ» .

«إلا أن يقال فيه إنه من تآلف القلوب واندماج النفوس وتعانق الأرواح».

«وراء عالم الواقع ومقاييس المادة ، ومنطق الحس وأبعاد المنظور».

«وكنا أحياناً تنخاصم!»

«وربما مرت علينا فترات مغاضبة يحسبها أهلونا وأصدقائنا من لهفة الحب ودلال

العاشقين».

«ويلمح فيها أرفههم حساً ، وهج الضرام المتوهج في أعماقنا يتلمس متفساً!».

«دون أن يتصور أحدهم ، أن المخاصمة أو المغاضبة ، ليست إلا صراعاً حتمياً بين

جوهرنا الواحد ، وبين الثنائية المزدوجة التي يفرضها علينا واقع الحياة وقانون المادة وأوضاع

الدنيا!».

«ومضى العمر كله وما كفتت عن التساؤل:

«أكان يمكن أن أضل طريقى إليه ، فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه؟».

«وحتى آخر العمر ، لم يتخل عنى إيماني بأنى ما سرت على دربي خطوة إلا لكى

ألقاه.. وما كان يمكن أن أحميد عن الطريق إليه ، وقد عرفته فى عالم المثل ومجالى الرؤى

وفلك الأرواح».

«من قبل أن أبدأ رحلة الحياة..».



وهكذا نرى بوضوح إلى أى حد كان التقدير الزائد المتزايد من الدكتورة بنت الشاطىء

لقصة علاقتها بالشيخ الخولى فصاحبة هذه المذكرات تصمم على أن تجعل حياتها كلها

داخل هذا الإطار الذى يجمعها بهذا الرجل ، وحتى بعد مرور عشرين عاماً على رحيل

هذا الرجل فإن الدكتورة بنت الشاطىء ظلت تعيش ذكره الماضيه والقادمة (انطلاقاً من

شعورها الدينى العميق بالقدوم المحتم للآخرة) ، وهو المعنى الذى تعبر عنه بأنها واقفة على

الجسر ، ومن المؤكد أن الدكتورة بنت الشاطىء ظلت على رأيها هذا بعد عشرين عاماً ،

حتى إنها لم تجد ما تود أن تضيفه إلى كتابها حين أعادت طبعه فى ١٩٨٦ غير كلماتها التى

كتبتها فى تقديمه سنة ١٩٦٦ ، والتى قالت فى نهايتها :

«أستعيد هذا كله

وأستحضره وأسترجه ، بيقظة واعية..»

فأترنح على الجسر:

ضائعة الحيلة مبعثرة الخواطر ممزقة الرؤى

ويختلط فى سمعى صدى النعى المصمى بنجوى العليف المائل».

وتمتزج فى صدرى ريح العدم ، بعبير الأنفاس الطيبة للراحل المقيم».

ويتصادم فى وجدانى نشيج الباكين وأنين المحزونين وتأبين الرائين ، ودعاء المعزين ،
بإيقاع الشجى الساحر للصوت الحبيب».

وتتزاخم على الأفق من حولى مواكب المشيعين والمودعين ، متداخلة فى مشاهد حركاته
ولفتاته ، وجولات نضاله ومواقف بطولته ، ومجالس أستاذيته وندوات مدرسته !».

وتتماحى الحدود والقواصل:

بين الحاضر المفجع

والماضى السعيد الحافل

والغد المحجب فى ضمير الغيب ، المطوى فى غيابة المجهول..

وتتداخل الأبعاد والآماد

حيث أقف على الجسر ، ما بين الحياة والموت

وما باختيارى أن تبطئ خطواتى عليه..

ولا بإرادتى تخلفت عنى عبر

ولا علم لى بموضع قدمى فى الخطوة التالية

قصارى ما أعلمه هو أن «كل نفس ذائقة الموت

وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت».

«وإلى أن يحين الأجل.

سأظل ممزقة بين الحياة والموت.

لا أدرى إلى أيهما أنتمى ، وعلى أيهما أحسب؟

وملء مسمعى صدى النعى مختلطاً بنجوى الطيف المائل

وعلى دربنا المتألق بنور حبه وكرم سجاياه ، تلوح بصمة الزائر الرهيب الذى تسلل إلى

دارنا خفية فى وضع النهار»

فلم يتلبث غير لحظة خاطفة ، ثم مضى عنا إلى حين ..
وفى أرجاء دنيانا التي تزدهى بلامحه وتزهو بأثاره وتتشبث بذكراه
تبدو معالم الجسر المارد العجيب الممتد بين الوجود والعدم ..
تتحدى أعتى القوى وأمنع الحصون
وتتطاول أبعاده فتطوى الآفاق من بر وبحر وهواء وفضاء ..
وإن بدا للغافلين من تهاويل الأحلام ، وآفانين الوهم والخيال ..

(٢)

وعلى خلاف ما يتوقع القارئ من كتاب أدبي لأديبة وكاتبة ملكت ناصية الكلمة فإن هذا الكتاب الذى هو قصة حب (مع احترامنا لسمو هذا الحب) يخلو تماماً من الحديث عن الجوانب التى جذبت هذه الفتاة فى هذا الرجل الذى أحبت ، وليس من الصعب على القارئ أن يفهم أن الحديث عن مثل هذا الجانب كان مستحيل التحقق فى كتاب سيدة نشأت وعاشت فى بيئة دينية شرقية محافظة ومتحفظة إلى أبعد الحدود .

ليس فى هذا الكتاب على طول فقراته ، وإطناب عباراته ، وكثرة تفصيل المشاعر ، وصياغة المعانى المختلفة فى جمل متساوية ، أو فى نظم جميل ، صورة من صور اندلاع العاطفة ، ولا مقدماتها ، وإنما هو كله تعبير تام عن آثار هذه العاطفة فى نفس صاحبها ، وقد لا يرضى عن هذا الكتاب المتطلعون إلى التصوير الحسى الصادق للعاطفة الصادقة ، ولكن الذين يفهمون أن علاقة الحب التى كانت بين الزوجين لم تكن إلا تعبيراً «رقيقاً» عن علاقة التلميذ المحب للأستاذ المعشوق سيجدون فى وسعهم أن يتفهموا روح هذا الكتاب وهذه القصة على نحو أروع ، حين يدركون أن للعلم مكاناً سامياً فى دنيا العواطف التى قد لا تدور حتى الآن فى آداب العالم المعاصر إلا حول الآهات والنظرات .

ولقد افتقد طه حسين هو الآخر هذه الشجاعة حين خلت سيرته الذاتية «الأيام» التى صور فيها كثيراً من تفاصيل حياته المضطربة من حديث عن مغامراته العاطفية أو محاولاته (على الأقل) ، وانتبه إلى هذا الدكتور زكى مبارك حين نقد الأيام فى الثلاثينيات ، وعرج على مقارنة طه حسين بروسو وما فعل من رواياته لحياته وأحداثها بصراحة تمتازة ، اقترب من درجتها ومهاراتها طه حسين ولكنه - أى طه حسين - عجز فى رأى زكى مبارك - عن

أن يصف هيامه بالعدارى كما فعل الأديب الفرنسى ، والتفت إلى هيامه بالنعال (مشيراً إلى اضطرار الدكتور طه حسين إلى الحديث عن عبثه بنعال زملائه حيث كانوا يتركونها عند باب حجرة سيدنا.. إلخ) بدلاً من الهيام بالجمال.

وهكذا شُغلت الدكتورة بنت الشاطىء بكثير من المواقف والتأملات عن أن تروى للناس، وللنساء بصفة خاصة كيف تنقد العواطف الصادقة ، وكيف تتوجه هذه العواطف إلى تحقيق الغاية الإلهية من الارتباط الصادق الذى لا تدوم الحياة إلا به .

وفيما عدا عبارات قليلة غاية فى الاحتشام لا نجد تعبيراً كثيراً عن الجوانب غير العقلية فى هذا الحب الصادق الرهيب بين الزوجين ، ولقد كان أمين الخولى كما نعرف رائد مدرسة العقل فى أدينا المعاصر ، وكانت للدكتورة بنت الشاطىء مكانة مرموقة فى هذه المدرسة بالطبع ، ومن المؤكد أن علاقة الزوجين قد تجاوزت هذه الدائرة .. ومع هذا فإن الآثار الأدبية التى تصور هذا الجانب تكاد تكون نادرة إلا فى عبارات قليلة كتلك التى تضمها قصيدتها التى عنوانها : «بعد عام» والتى نظمته بعد عام من رحيل زوجها الحبيب حين تقول فى ٩ مارس ١٩٦٧ :

ومضى عام وما زلت هنا

أنقل الخطو ،

على الجسر إليك..

مرت الأيام يغذونى الجوى

كيف لم أهلك أسى

حزنا عليك؟

كلما قلت دنا ميعادنا

خاننى الظن..

ولم أرحل إليك

مزقت أيدى المنايا شملنا

وأرانى دائماً..

بين يديك!

هل مضى عام؟

أما كنت هنا
منذ يوم فات كالدهر الطويل؟
لم نزل فى حيرة من أمرنا
هل مضى عام على يوم الرحيل؟
وصدى نعيك فى أسماعنا
لم يزل يدوى ، فيغشانا الدهول
قد كان دهرأ من عذاب
ولئن خلناه كالحلم الرهيب
درينا ،
قد صار كالقفر اليباب
غير طيف منك ، عنه لا يغيب
دارنا ،
لم يبق فيها من ثقاب
غير رؤيا لمحة ، فيها ثوب!
طيفك المائل يحدو خطوتى
نحو مئوى لك
دان ، وبعيد ..
هاتفأ أن أحتمى فى وحشتى
بيقين الملتقى ،
خلف السدود
لحظة تأتى فتنهى محنتى
بالتثام الشمل
فى دار الخلود..
لحظة تنسخ ما كابدته

من عذاب البين
من رفض الحياة
من وجود عافنى أو عفته
عاث فيه اليأس
واغتال مناه! .

(٣)

ونحن نرى صاحبة هذه التجربة فى قصيدة أخرى بعنوان «عود على بدء» وهى إحدى القصائد التى تضمها سيرة حياتها «على الجسر» ، نراها وهى حريصة على أن تؤكد على هذه المعانى شبه العدمية إن صح التعبير ، فهى تنطلق لتؤكد على استواء الخير والشر والرفض والصبر ، لأنها ترى نفسها وقد انتهت وانطوت من قبل أن تنتهى ، ولكن واقع الأمر أن الدكتورة بنت الشاطىء فى القصيدة التى نستعرضها بعد قليل تستشرف مع قرائها هزيمة ١٩٦٧ وتعبّر بقدرة لا متناهية عن حالة من التوحد المطلق مع الوطن فى محتته التى هزت أركانه ، وهى تشير على استحياء شديد إلى ما كان الوطن وأبناؤه يعانونه من حالات القهر واليأس والخواء والاعتراب:

كلما قلنا : برتنا
من جراح القهر باليأس العقيم
واسترحنا
استوى خير وشر
واستوى رفض وصبر
حومت مصر على أشباحنا
تنبش الأنقاض عن جرح الهشيم
أحيت الهامد من أشجاننا
واستعرت ، موغلات فى الصميم

وكأنا ما يشنا
وانطوينا ، وانتهينا
كلما قلنا : اكتفينا
بالذی قد كان
من وهم السراب
واستوی لیل وفجر
واستوی أمن وذعر
عادت الروح فشدتنا إليها
بوئاق ، من حنين وولاء
وأنا صوتها عبر الخواء
ملؤه شجو ، ولوم وعتاب
فاشرأبت نحوها أرواحنا
وكأنا ما اغتربتنا
وانسحبتنا ، وانتهينا
كلما قلنا : فرغنا
من معاناة جنون وصراع
وأكاذيب الأمانی ،
ودعاء لا يجاب
وتمزقنا حطاما
إثر ما ولی وضاع
وغفونا ، أو غفت أشلاؤنا
بأكف الموج ، فی طی العباب
واستوی بحر وبر
واستوی هد وجزر

هبَّ من عمق الدياتجى طيفها
يجمع الأشلاء من يم الضياع
وكأنا ما انحططنا ،
وانسحقنا ، وانتهينا»

(٤)

ثم ها هي بنت الشاطي تقترب مرة أخرى من جوهر مأساة الوطن في هزيمة ١٩٦٧
وتجد نفسها تتوحد مع هذه المأساة التي جاءت على غير موعد لتضاعف مأساتها ، وربما
لتكررها في صورة أكبر وأضخم ، ونرى بنت الشاطي في أقصى آيات الألم والقهر لما
أصاب الوطن من هزيمة ساحقة جدت إحساسها بالألم بينما هي تحاول أن تقنع نفسها بأنه
قد آن الأوان للألم أن يتوقف ، ولكن ها هو الألم يتجدد على الرغم من أنها كانت تظن
أن معينه قد نضب ، وأنها قد تعاطت كل الدواء المطلوب فإذا بها تواجه آثار الهزيمة التي
حاقق بالوطن ، وجعلت أبناءه يعانون في سيناء وعلى ضفة القناة كل ما عانته هي في
محتتها الشخصية من ألم وعذاب ، ولكنها مع هذا تأمل أن يجدد الأمل في هؤلاء الشباب
خصوصية مصر ، فتبدو هي والوطن في حال جديد وكأنها (هي والوطن) قد نجوا من
الشيخوخة والعقم والفناء ، وهذا في رأي أقصى ما يمكن لشاعر أن يصل إليه في حديث
باك وشكوى مرة حين يرى الأمل ويريه لمستعميه ناصعاً يبدد كل ما أصابهم وأصابه من
يأس .

وهي تصف أبناء مصر في محتتهم على شط القناة وفي سيناء وتقول:

كلما قلنا ، جرعنا
كأسنا ، لم نبق قطرة
وأسغنا كل ما سيط بها
من نقيع السم ، من صاب وحنظل
وتداويتنا منها بها ،
عللا نجرعها بعد نهل

واستوى صحو وسكر
واستوى حلو ومر
خايلتنا فى دياجير الغلس
برؤى النبع الإلهى المقدس
ويمناها تراءت كأسها
ذوب نور ونقاء
ورحيق لم يدنس
وبها طافت على أبنائها
فى ثرى سينا ، على شط القنا
وسقتهم جرعة من ترياقها
عودتهم برقها الطيبات
أن يسيفوا ما أسفنا من قذى
أو يطيقوا ما أطلقنا من عذاب
جددت فيهم خلايا خصبها
ورأت سحر صباها والشباب
وكأنا ما هرمننا ،
وعقمنا ، وانتهينا».

(5)

أظن الأوان قد آن لنسترجع مع القارىء ما تقدمه بنت الشاطىء فى سيرة حياتها عن قصة هذه الحياة ، فيها نحن قد أدركنا فيما سبق من فقرات هذا الباب معالم الحب الذى أضاء حياة صاحبه حين بلغت مرحلة النضج والاكتمال ، ولكننا لا نزال بحاجة إلى تأمل حياتها فيما قبل وصولها إلى هذا الحب ، وهى قصة كفاح فريدة تستحق أن تروى مراراً وتكراراً. ولست أنكر أن كثيراً من الجيل الذى أنتمى إليه لا يعرفون مسن قصة الدكتورة بنت الشاطىء فى حياتها وجهادها الذى امتد لأكثر من ستين عاماً إلا قشوراً متفرقة ، أو

هم لا يعرفون على الإطلاق ، وليس على هؤلاء حرج بقدر ما على الثقافة التي نعيش دنياها التي يوجهها أدباء مشغولون أو مغرضون أو غافلون.

ولقد قرأت قصة حياة بنت الشاطي أول ما قرأتها مما سمعته من والدتي حين كنت لا أستطيع القراءة بعد ، ثم قرأتها مرات عديدة كانت آخرها وأنا أعد لكتابة هذا الباب فإذا بي أحس أن والدتي فيما روته لي منذ زمن بعيد كانت قد أعطت بنت الشاطي حقها بأكثر مما استطاعت بنت الشاطي نفسها أن تحصل على هذا الحق لنفسها في هذا الكتاب ، وهذا هو بيت القصيد فيما أكتب اليوم ، ذلك أني أحب أن أقول أو أن أقرر أن أهم ما في هذا الكتاب هو ما ليس فيه ، فقد كان في وسع مؤلفته أن تجعل من قصة حياتها مادة لكتاب أعظم كثيراً من هذا الكتاب العظيم الذي جعلت محوره زوجها العظيم ، كان في وسع الدكتورة بنت الشاطي أن تفرد الصفحات الطوال لما أجملته في سطور وعبارات معدودة ، ولكن الحب الأعمق أبعد الدكتورة بنت الشاطي عن حب النفس وحب الذات ، وهذا شيء عظيم ، ولكنه أبعداً عما يحب القراء أن يقرأوه من سيرتها ، وهذا هو الذي يستحق النقد.

كان في وسع هذه السيدة أن تنتبه إلى إيجابيات كثيرة في تجربتها الفريدة ، فتحيلها إلى مادة للحوار الداخلي بينها وبين نفسها ، وبينها وبين قارئها ، وللصراع الذي يدور في المسرح ، وللعقد التي تدور في القصة ، وللديالوج الذي يكون في كل حوار ، ولكنها تلتفت عن هذا كله ، ولعلها فيما فعلت كانت أصدق تعبيراً عن حياتها التي مضت على هذا النحو من الإسراع حين أسرعرت أو ضاعفت السرعة في مرحلة كفاحها حتى دخلت الجامعة ، ثم هي تسرع أيضاً حين تروى تفاصيل هذا الإنجاز الذي حققته في سرعة بالغة بالنسبة إلى ظروفها التي عاشتها في ذلك الزمان ، بل إننا نراها حريصة على الاكتفاء بالحديث عن رأس الموضوع دون أن تتناول تفاصيله على نحو ما سنرى من هذه الكلمات التي تكتبها بروح الألم:

«... وكان من الغريب حقاً ، أنني حين فتحت قلبي وعقلي للجامعة ، عن يقين واثق بأن لديها ما تقدمه إلى من جوهر العلم ومنهج المعرفة ، واجهتني أزمة من عجز البيئة الجامعية عن فهم معنى التلمذة العلمية ، بحيث اضطرتني إلى أن أخوض معها معركة عنيفة ، لكي أفرض عليها تلمذتي للأستاذ الخولي ، دون أن تكون مستعدة لقبولها».

«كانت البيئة الجامعية تنظر إلى هذه القضية ، من حيث هي علاقة شخصية أو ظاهرة عارضة غير مألوفة ، على حين كنت أنظر إليها من حيث هي قضية مبادئ خلقية وقيم

علمية ، وكرامة عقلية ، فكان صراعاً طويلاً مجهداً ، احتسبت كل أذى فيه امتحاناً لأهليتي لما تعلقته به وطمحت إليه ، وجهاداً في سبيل ما آمنت أنه حق وواجب».

وتردفت بنت الشاطئ معبرة عن أملها في صراحة ووضوح بقولها :

«ولست الآن بحيث أقص حديث هذه المعركة ، وإنى لأدري أن عدداً من زملائي خاضوها كذلك بصورة أو بأخرى ، نضالاً عن تلمذتهم للأستاذ الخولي ، فلم تعد القضية خاصة بي ، فيما أروى من ذكريات حياتي ، وإنما هي جزء من تاريخ جامعتنا ، يستكملة الزمن في غد قريب أو بعيد ، دون أن يفلت منه شيئاً ذا بال».



كان في وسع بنت الشاطئ إذن أن تعتمد إلى لحظات حرجة من حياتها فتبدع في تصويرها بدلاً من أن تجيد إجمالها ، وتعنى بتفاصيلها قبل أن تخلص للقارئ إلى الإنجاز الذي حققته ، ولكن بنت الشاطئ كانت وهي تسير هذه الخطوات المسرعة تتعجل النهايات التي حققتها ، فضاعت منها يوماً بعض لذة الحياة ، و ضاعت من قارئها في كتابها «على الجسر» متعة قراءة أدب الحياة الحق.

(٦)

ومع هذا كله فإنني لا بد أن أحاول أن ألخص للقارئ ما حاولت صاحبة التجربة تصويره من تجربتها الثرية في أيامها الأولى قبل أن تلتقي بزوجها العظيم ، وهي تتحدث عن معاناتها من أجل التعلم حديثاً يكاد يفطر القلب حين نرى أباها وهو المتعلم يحارب تعليمها بكل صورة ممكنة من صور الحرب الضروس ، مرة بعد أخرى ، على الرغم من وقوف والدتها إلى جوارها ، ومساندة جد أمها لها كذلك. بل ومساندة شيخ والدها في الطريقة وزملائه في المعهد الديني ، وسنقرأ فقرات مختلفة نرى فيها كيف اجتازت صاحبة التجربة هذه العقبات واحدة وراء أخرى حتى استطاعت في النهاية أن تصل بجهداها وكفاءتها إلى باب الجامعة باقتدار ، ولنبداً معها ببداية الدراسة في المدرسة الأميرية الأولى : «عدنا (أي من قرية والدها في المنوفية) من رحلة الصيف حوالى عام ١٩٢٠ ، وقد كانت مشحونة بأصداء الثورة ، فلم نكد ننفذ عنا غبار السفر الطويل حتى سارعت إلى ملعب الأصحاب على شط النهر ، فألفيته في عز النهار خالياً موحشاً!».

ومضى النهار كله وأنا مظلة على الشط من النافذة البحرية فى بيت جدى لأمى ، دون أن ألمح لأترابى أثراً ، وكأنما ابتلعهن الماء أو سحبتهن جن النهر إلى القاع! «
«وسعيت فى الأصيل إلى دور الحى ، أسأل من الخبر ، ففوجئت بأن الصغيرات قد بدأت الدراسة المنتظمة فى «مدرسة اللوزى الأميرية للبنات» .
«وتطوعن جميعاً فمعرضن على أزياءهن المدرسية الأنيقة ، والكتب المصورة ، والكراسات المتنوعة ، والأدوات المدرسية التى وزعت عليهن» .
«وطاب لهن كذلك ، أن يسمعننى حديثاً عجيباً عن «الأبلوات اللطيفات ، وقاعات الدرس المزينة جدرانها بالصور ، وقاعة المائدة الفسيحة المنسقة ، وعن «دادة أم حبيبة» التى تباع لهن الحلوى فى فترات الفسح!» .

(٧)

وبعد فقرات تصور صاحبة المذكرات كيف استعانت على إقناع أبيها بالسماح لها بالانتظام فى المدرسة بجد والدتها وكيف توصل الرجلان إلى حل وسط:
«ومضت أشهر ذات عدد ، وأنا أتبع بنات الحى بصرى وقلبي فى رحلتهم اليومية إلى المدرسة ، ثم أخلو فى ليالى المسهدة الطوال إلى الهم والحسرة» .
«وزهدت فى الدنيا بقدر ما يحتمل عمرى الغض ، وبان على من الذبول والشروذ والانتواء ما جعل أمى تفرغ إلى جدها - الشيخ محمد الدمهوجى - رحمه الله ورضى عنه - تلتمس منه النصيحة والرأى ، فى موقفها الحائر الصعب بين حرصها على ألا تتدخل فيما يريد لى أبى ، وفزعها من عواقب ما أكابد من قهر وحرمان» .
«وتدخل الجلد - رحمه الله - لحسم الموقف ، فمازال بوالدى حتى انتزع موافقته المكرهمة على التحاقى بمدرسة اللوزى للبنات ، بشروط ثلاثة:
«ألا دخل لوالدى إطلاقاً بأى طلب للالتحاق أو إجراء من إجراءاته ، أو أى شأن يتصل بالمدرسة من قريب أو بعيد!» .
«أن أتابع دراستى الدينية فى البيت ، دون أن يترتب على دخولى المدرسة أى تهاون أو تقصير فى دروسى الخاصة» .

« أن أنقطع نهائياً عن الخروج إلى المدرسة ، بمجرد أن أشارك سن البلوغ! ».

« وفرجت ، وكنت أظنها لا تفرج! »

« وأصبح جدى فسعى سعيه حتى ألحقنى بالمدرسة بعد مشقة بالغة ، إذ كانت السنة المدرسية على وشك الانتهاء ، وقدم الأوراق المطلوبة بوصفه نائباً عن ولى أمرى! ».

« وكان المفروض أن ألتحق بالسنة الأولى ».

« ومازلت حتى هذه اللحظة ، أذكر أن يومى السعيد الأول بالمدرسة ، كان يوم خميس على التحديد ، وأذكر الحجرة الدراسية التى دخلتها فى نهاية الجناح الشرقى للمبنى الفخم ».

« بل مازلت أتذكر كذلك المقعد الإضافى الذى جىء به فوضع لى أمام المقعد الأخير من الصف الأول ، حيث جلست أودى امتحان النقل إلى السنة الثانية مع تلميذات السنة الأولى ، ولم يكن قد مضى على دخولى المدرسة سوى الدقائق المعدودات التى استغرقها طريقي من «مكتب حضرة الناظرة» إلى حجرة السنة الأولى ، عبر فناء المدرسة الرحب النظيف ، والممر الممتد أمام الجناح الشرقى الذى يقع (فصلى) فى نهايته! ».

« وأديت الامتحان فى أقل من ثلث الوقت المحدد له ، فما كادت معلمة الفصل «أبلة عزيزة الدمياطى» تلقى نظرة على إجابتى ، حتى هتفت دون أن تكتم دهشتها: «عجيبة! هذه إجابة غير منتظرة من أى تلميذة».

« وكتمت ضحكة كادت تفلت منى ، فما كانت الأسئلة بالنسبة لى ، سوى لعب عيال! ».

« وإن عجبت فعجبنى للمعلمة التى تتصور أنى مبتدئة فى العلم ، فتستغرب ، مثل هذه الإجابة منى! ».

« وأغرانى التفوق بالإقبال على دروسى الخاصة فى البيت ، التماساً لرضا والدى ، وحرصاً على أن يطمئن فلا يروعنى بالحرمان من الذهاب إلى المدرسة ، وقد أعاننى على مضاعفة جهدى فى البيت ، أن علومى المدرسية لم تكن تكلفنى أى جهد ، فضلاً عما اكتشفته منذ اليوم الدراسى الأول ، من أن حصيلتى من دروسى الخاصة ، هى التى تبهر المدرسة فترى فى أعجوبتها النادرة ».

« وقد ضقت أول الأمر بجفوة الزميلات ، غير أن الجفوة ما لبثت أن ذابت ، فى عالم صبان الغض البرىء ».

وبعد صفحات أخرى تحكى الدكتورة بنت الشاطي بقدر من الوجع الظاهر قصة الخطوة التالية التي كان لابد منها لتخرج في المدرسة الراقية:

«عندما أتممت الدراسة بمدرسة اللوزي وقد تجاوزت سن العاشرة التي حددها والدي لحجزي في البيت مع الحريم».

«كنت في بداية الطريق أتصور أنني قد أكتفى من التعليم المدرسي بتلك المرحلة الأولى، غير أنني لم أكد أجتازها حتى كرهت أن تواصل زميلاتي تعليمهن في المدرسة الراقية، وأتخلف عنهن واقفة عند ذلك الشوط القصير».

«ولقد كانت المدرسة الراقية، تشغل الطابق العلوي من مبنى مدرستنا، فكنا طوال المرحلة الأولية نرنو مستشرفات إلى ذلك الدور الأعلى ونرى فيه منتهى أملنا! والمفروض أن تختار المدرسة الراقية تلميذاتها ممن أتمن الدراسة بتفوق، وقد كنت أولى الناجحات».

«ومرة ثانية لجأت إلى جد أُمِّي، أستعين به على إقناع والدي ليسمح لى بمواصلة التعليم في المدرسة الراقية. فلما أعياه أن يقنعه، ذهب إلى جامع البحر، يستعين بشيوخ المعهد على عناد أبي، وإصراره على حجزي في البيت، ولم أبلغ بعد سن الحجاب».

«وطالت المجادلة بينهما حتى صارت إلى خصومة حادة، دون أن يتزحزح والدي عن موقفه. وخرج جدي منفعلًا بالغيظ والغضب، فلم يلتفت إلى دابة كانت تعبر الطريق مسرعة أمام الجامع لحظة انصرافه، فألقت به على الأرض المرصوفة بحجارة صخرية، فلم ينهض على ساقيه بعد ذلك قط!».

«حملوه إلى البيت، وجاء أكبر أطباء المدينة فشخص الحالة بأنها اشتباه في كسر عظم الفخذ، لا يرجى جبره في تلك الشيخوخة العالية، وإن كان لا خطر منه على حياة الشيخ، لقوة بنيته وسلامة أجهزته الحيوية».

«ومضت شهور الصيف وأحوالي يطوفون بالجد على أطباء العظام ومشهورى المجبرين، إلى أن أنتهى به المطاف إلى فراشه، ليمضى ما بقى من سنوات عمره كسيحاً مقعداً».

«وعشت معه محتته، وأرهقني الشعور بعقدة الذنب أن كنت السبب المباشر لتلك

الإصابة التي لا تجبر ، فلزمت غرفته لا أكاد أبرحها إلا لقضاء حاجة له ، حتى إذا حان موعد افتتاح الدراسة بالمدرسة الراقية ، أصر على ذهابي إليها ، لا يبالي ما قد يلحق به من أذى ، وكان أهل البلدة لا يكادون يرتابون في أن ما حدث له ، ليس إلا كرامة من كرامات والدي التقى الولي الصالح» .

«غير أن والدي رق للشيخ الكسيح في محنته ، فتخلى له عنى ، أقوم على خدمته وأعيش إلى جواره» .

«وسكت على مضمض ، حين أرسلنى جدى إلى المدرسة الراقية» .

«وكانه كره أن يتصدى لمعارضة الشيخ المقعد ، فى الرغبة الوحيدة التى تعلق بها ، وزادته المحنة إصراراً عليها وتشبثاً بها» .



عند هذا الحد قد يبدو للقارئ أن صاحبة المذكرات قد وصلت إلى تحقيق أمانيتها فى الالتحاق بالمدرسة الراقية وكان هذا هو نهاية المطاف ، ولكننا نجد أنها مع ضميرها تدفع لهذا الوصول ثمناً غالياً من الشعور الشديد بالذنب الكبير ، ولربما يدفع هذا الشعور فى الحالات الطبيعية أمثالها أن تتوقف عند هذه المرحلة التى كابدت حتى بدأتها ، لكننا نجد أنها بعد ثلاث سنوات وقد عادت الكرة بغريها التعليم بالتعليم فإذا هى ترغب فى بداية رحلة جديدة من طلب العلم ولكنها تجد الطريق أمامها مسدوداً ومع ذلك فهى تحاول فتحه ، ويأتيها العون فى هذه المرة على غير ما قد نتوقع من الأم المجاهدة المغامرة من أجلها: «حتى أتممت المرحلة التعليمية بالمدرسة الراقية بنجاح ، وبعدها بدا الطريق أمامى مسدوداً» .

«فمن ناحية ، كنت قد بلغت من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وهى سن الحجاب التى تفرض حجزى فى البيت مع الحريم!» .

«من ناحية أخرى لم يبق فى دميأى مجال لتعليم البنات بعد المدرسة الراقية ، وإنما كان على الراغبات فى مواصلة التعليم ، إما أن يقضين شهوراً أربعة فى «دراسة صيفية» تعدهن لوظيفة معلمات فى المدارس الأولية للبنات ، وإما أن يتقدمن لامتحان القبول فى مدرسة المعلمات بالنصورة وهى أقرب عاصمة إلى بلدتنا ، من عواصم المديرىات التى فيها مدارس للمعلمات» .

وتروى لنا بنت الشاطئ أنها عند مفترق الطرق الأولى لم تكن لتقتنع بدراسة هزيلة تؤهل لشىء هزيل ، وإنما هى تطمع إلى ما يبدو من الخيارات المتاحة أمامها على أنه الأعلى والأكثر تحدياً لقدراتها:

«ولم أفكر بطبيعة الحال ، فى تلك الدراسة الصيفية الهزيلة التى أُلجأت إليها ضرورة طارئة للتعجيل بتخريج معلمات من أدنى المستويات ، بل تطلعت متحمدة كل دواعى اليأس والقنوط ، إلى مدرسة المعلمات بالمنصورة. وشاءت الظروف أن يتحدد موعد امتحان القبول بها ، أثناء غياب والدى عن دمياط ، فى إحدى رحلاته المتتابعة بحضور موالد آل البيت وأولياء الله الصالحين ، ما بين القاهرة وطنطا ودسوق. وكان من عادته فى مثل هذه الرحلات ، أن يمرج فى طريق العودة على قرية «أبى حريز» بمديرية الشرقية ، ليزور شيخه فى الطريق وإمامه فى التصوف ، العارف بالله «الشيخ منصور أبى هيكل الشرقاوى» فتستغرق الرحلة الواحدة نحو عشرة أيام ، على حين لا يحتاج الامتحان إلى أكثر من أربعة أيام».

«ورقّ لى قلب أمى ، حين رأت إصرارى على أداء الامتحان ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، فجازفت وتسللت بى من دمياط ذات صباح إلى المنصورة ، حيث تركتني بالقسم الداخلى فى مدرسة المعلمات ، على أن أعود بعد أيام الامتحان الأربعة ، مع زميلاتي من بنات دمياط».

«ولا أصف هنا مدى انفعالى بذلك الجو المدرسى فى مستواه العالى الذى لا عهد لنا بمثله فيما مضى. وقد رحلت أطوف بأرجاء المبنى الكبير مأخوذة بالنسق البديع لعنابر النوم، وقاعة المكتبة ، وحجرات الدراسة. وكان نظام الامتحان يسمح لمن أتمت التعليم بالمدرسة الراقية ، أن تؤدى امتحان القبول للسنة الثانية معلمات مباشرة. أما اللواتى لم ينلن الشهادة الراقية ، فيتقدمن لامتحان القبول بالسنة الأولى».

«وأديت الامتحان الأول ، للسنة الثانية ، وأنا أقهر فى أعماقى شعور الخوف من والدى ، حتى إذا فرغت منه ، وأخذت أول قطار إلى دمياط ، عاودنى ذلك الخوف الذى أفلحت فى مقاومته لمدى أيام ، فعاد أفسى ضراوة وحدة».

«وتمهلت عند باب بيتنا فترة لم تطل ، ثم انطلقت إلى بيت جدى التمس الأخبار عن

بيتنا فى غيبتى ، وأتزوّد بمدد من التشجيع يعيننى على مواجهة والدى إن كان قد علم بالخطوة الجريئة التى خطوتها فى غيبته».

«لكن الأزمات مرت بسلام...».

«أو هكذا بدا لنا ، حتى دنا موعد الموسم الدراسى ففوجئت بأن زميلتى اللاتى أدين معى الامتحان ، تلقين من إدارة المدرسة إخطاراً بقبولهن ، ومع بيان بالملابس والأمتعة الشخصية المطلوبة منهن للقسم الداخلى».

«ولم أتلق معهن مثل هذا الأخطار ، مع أن المدرسة أذاعت من قبل نتيجة الامتحان ، وكنت أولى الناجحات فى القبول للسنة الثانية!».

(١٠)

يتصاعد الخوف والشك والقلق فى نفس بنت الشاطى لهذا الأمر الغريب الذى حدث ، أتقبل الناجحات جميعاً ما عدا الأولى ، ومع هذا فإنها تجتهد العون من أسرته نفسها ، وإن لم يكن من والدها:

«... وأشار جدى بأن نبعث خطاباً مسجلاً إلى المدرسة ، نستفسر فيه عن الموقف الغريب ، وسرعان ما تلقينا الرد ، بأن والدى تقدم إلى المدرسة بوصفه ولى الأمر ، فسحب كل أوراق التحاقى بها!».

«فعلها أبى إذا ، دون أن يتكلف من جهد مجادلة أو مغاضبة!».

«وجن يأسى ، فأمسكت عن الطعام حتى خيف على من الموت ، وتكاثر أهلى وزملاء والدى عليه ، فلم يدعوه حتى وعد بأن يرسل خطاباً إلى إدارة المدرسة!».

«وما كان لى ولا لأحد سواى أن نرتاب فى صدق كلمته ، غير أن الذى حدث فعلاً - كما أخبرنا بعد أن افتتحت الدراسة ولا خبر من هناك - أنه وضع ورقة بيضاء فى مظروف كتب عليه عنوان المدرسة ، وألقاه فى صندوق البريد ، فتحلل بذلك الإجراء الصورى ، من تبعه الحنث بوعدده!».



هكذا كان الأب المحافظ المتزمت لايزال يلجأ إلى كل الوسائل والسبل الكفيلة بالتوقف

بإينته عن المضى فى هذا الطريق حتى ولو لجأ إلى مثل هذه الحيلة ، ولكن أمها المغامرة من أجلها تسعى سبيلاً آخر تنجح من خلاله فى أن تهيم لابنتها السبيل إلى ما هى راغبة فيه ومقدمة عليه :

«بعد شهرين من بدء الدراسة ، كانت أمى - رحمها الله - قد ظفرت لى بالإذن فى التعليم ، ممن لا يملك والدى أن يعصى له أمراً: صحبت أبى فى سفره إلى إمامه وقدوته «الشيخ منصور أبى هيكال الشرقاوى» وعرضت عليه القضية ، ومازالت تستعطفه وترجوه ، حتى أذن لى فى التعلم ، على مسمع من والدى!».«

«وعادت لى بالبشرى فردت الروح إلى ، ثم سارعت فجهزت لى ملابسى وأمتعتى المطلوبة للقسم الداخلى - وكأنه جهاز عرسى - وسافرنا إلى المنصورة لتفاجأ بأن المدرسة استنفدت كل العدد المقرر قبوله من الطالبات ، فلم يعد لى فيها مكان!».«

«وقبل أن نفيق من ذهول الصدمة المباغته ، استطردت ناظرة المدرسة فأشارت علينا بتقديم طلب التحاق إلى مدرسة جديدة للمعلمات ، تقرر فتحها فى مدينة حلوان ، وما تزال هناك فرصة لقبولى بها ، لأن الدراسة فيها لم تكن بدأت بعد».

«وتطوعت السيدة الناظرة ، فزودتنا بشهادة رسمية من المدرسة ، بأنى نجحت بتفوق فى امتحان القبول للسنة الثانية بها».

(١١)

ثم نأتى مع بنت الشاطئ فى روايتها إلى ذروة العطاء الحنون من الأم العظيمة التى تتصرف بتلقائية رائعة وبفدائية نادرة:

«... وخرجنا ، وفى ظنى أن أمى سوف تعود بى إلى دمياط ريثما تدبر أمر الرحلة إلى مدينة حلوان التى لم نكن سمعنا باسمها من قبل ، ولا كان لنا علم بطريق الوصول إليها وما يتكلفه من نقود».

«لكن أمى لم تلبث فى المنصورة إلا ريثما باعت سواراً ذهبياً كانت تتزين به ، وقطعت لنا تذكرتى سفر بالدرجة الثالثة ، فى أول قطار إلى القاهرة».

ثم نجد صاحبة التجربة وهي تواجه مدينة القاهرة لأول مرة فى حياتها ، فتصدقنا الوصف الدقيق لحالتها فى هذه المدينة الكبيرة:

«والقى بنا القطار [أنظر إلى دقة هذا التعبير وروعه] فى ضجيج الزحام بمحطة مصر ، غريبتين ضائعتين ، لا نكاد ندرى موضع أقدامنا فى ذلك العالم الصاخب المجهول ، وأذكر أننى أغمضت عيني ، كأننى أتقى شبح الضياع ، على حين مضت أمى تسأل من تتوسم فيهم الخير ، عن طريق الوصول إلى «شارع زين العابدين» بالسيدة زينب ، حيث كان خالها يسكن فى بيت يملكه هناك».

«وصحبنا الخيال إلى حلوان ، لنفاجأ بأن المدرسة الجديدة لن تبدأ الدراسة فى ذلك العام ، إلا بفصول الفرقة الأولى!».

«وتشاغلت ناظرة المدرسة عن ملح ما بدا علينا من بوادر الخيبة ، بقراءة الخطاب الذى حملناه إليها من المنصورة ، ثم أقبلت علينا بوجه باش ، فأعربت عن ترحيبها بقبولى ، لو أنى تنازلت عن حقى فى دخول السنة الثانية التى نجحت فى امتحان القبول بها».

«ووقع خالى إقرارا بالتنازل ، ونحن لا نكاد نصدق أن باب الفرج قد فتح أمامنا بعد بأس غالب!».

«وأحست أمى ، كأن عبئاً ثقيلاً أزيح عن كاهلها ، فاسترسلت - متأثرة بلطف حضرة الناظرة وأنس محضرها - تفضى إليها بما لقينا فى طريقنا من نصب ، فما كان من السيدة الكريمة إلا أن أذنت لى فى الإقامة بالمدرسة إلى أن يحين موعد افتتاح الدراسة بعد أسبوعين».

«وودعتنى أمى ، وهى مطمئنة إلى رعاية الله فى ضيافة هذه السيدة الطيبة ناظرة المدرسة. وعادت إلى دمياط لتقف وحدها فى مهب الإعصار ، وعلى وجهها نور الاستشهاد!».

(١٢)

وبعد أن تصف صاحبة التجربة على عجل ذكرياتها عن المبنى الجميل الذى كانت تشغله المدرسة وحديقته ، والليالى التى قضتها هناك فى القسم الداخلى لهذه المدرسة ،

حيث عاشت وحيدة حتى تبدأ الدراسة ، ثم وفود الطالبات على السكن قبل افتتاح الدراسة بيومين ، بعد هذا الجو الذي يتصور لنا من خلاله أنها مقبلة على الاستقرار في دراستها إذا هي تفاجئنا بالصدفة الجديدة في حياتها حيث لم توافق الوزارة على هذه الخطوة من جانب الناظرة:

«استدعيتى حضرة الناظرة ذات يوم إلى مكتبها ، ولم يكن قد مضى فى عطلتى الجديد الآمن غير شهرين ، وأنبأتنى بأقصى ما تستطيع من عطف وترفق ، أن وزارة المعارف رفضت رسمياً اعتماد قبولى طالبة بالمدسة ، حيث لا تميز اللوائح أن أقبل إلا فى السنة الثانية التى نجحت فى امتحانها».

«وغشيتنى ما يشبه الدوائر لحظة» ، كانت نفسى خلالها تفتش عن خيط من الرجاء ، يعصمنى من الانهيار.

وتماسكت وأنا أردد ، وكأني أخاطب نفسى :

«هل أستطيع الانتظار إلى العام التالى ، حيث تكون المدرسة قد افتتحت فصولاً للسنة الثانية؟ ولكن من يضمن لى أن يردنى والذى إلى المدرسة ، بعد عودتى إليه؟».

«وقالت الناظرة وهى تبالغ فى مواساتى :

«بل تبقي هنا فى ضيافتى ، وعلى مسئوليتى ، إلى أن أراجع وزلوة المعارف فى قرارها ببشأنك ، فلعلها ترجع عنه ، أو فلتدبر لك مكاناً فى السنة الثانية معلمات طنطا ، حيث أعظم أن يها أماكن خالية».

«ورغم تأثرى العميق بهذه الرعاية الكريمة ، أشفقت على نفسى من الاغترار بأمل كان يبدو لى فى منطقة السراب ، فاستسلمت للقنوط وأمضيت أياماً تعسة ، منطوية على نفسى أجتز الصلعة».

(١٣)

وبعد اجتياز هذه العقبة التى لم تكن فى الحسبان يأتى الفرج متمثلاً فى موافقة مدرسة طنطا ولكن الظروف تأبى إلا أن تعاند صاحبتنا:

«... حتى جاء رد مدرسة معلمات طنطا بعد حين ، بقبول التحاقى بالسنة الثانية فيها ، بشرط النجاح فى الكشف الطبى ، حيث لم أكن قد أدت هذا الكشف فى المنصورة».

«وجاء عمى - وكان قد عين ناظراً لمدرسة البنين فى إحدى قرى إمبابة - فتسلمنى من المدرسة ، ومضى بى إلى القاهرة حيث أنزلنى فى ضيافة أسرة صديق لوالدى من كبار رجال التعليم «الشيخ موسى قمر ، الأستاذ بالمدرسة السنية للمعلمات ودار العلوم ، رحمه الله».

«وتقرر أن أجرى الكشف فى القسم الطبى بوزارة المعارف ، كى أذهب بعده مباشرة إلى طنطا ، مستكملة مسوغات القبول».

«ونصح الأستاذ الشيخ موسى لعمى أن يمضى بى إلى أحد أطباء العيون لإجراء كشف تمهيدى قبل إجرائه رسمياً فى الوزارة. وقد نجحت فى ذلك الكشف التمهيدي ، وإن يكن الطبيب قد أوصى بعمل نظارة طبية ، ضماناً للنجاح ، مع احتمال الشدة فى الكشف الرسمى».

«وإذ كان عمى يلبس نظارة ، سألته ونحن فى طريقنا إلى منزل الضيافة ، عما إذا كانت نظارته طبية؟ فلما رد بالإيجاب ، اقترحت عليه أن يعيرنى إياها يوم الكشف الطبى فى الوزارة!».

«قال وهو يقدمها إلىّ :

«جربها أولاً ، لنرى هل هى على مقياس بصرك؟».

«فلم أفهم بالضبط ماذا يعنى بمقياس البصر ، إذ كنت لغفلتى وسذاجتى أتصور أن كل النظارات الطبية سواء! ومادام عمى يملك إحداها ، فأولى بى أن أستعيرها منه ، بدلاً من إرهاقه بشراء نظارة أخرى».

«وجربتها مع ذلك إجابة لطلبه ، فلم يشق على أن أميز المرئيات بها!».

(١٤)

وتقع صاحبتنا فى سوء الحظ ، فإذا هى ترسب فى الكشف الطبى بسبب هذه الخطوة التى اتخذتها عن جهل ، ولكن الله ييسر لها الأمور مرة رابعة:

«... وهكذا توجهت فى الصباح التالى ، يصحبنى عمى ، إلى القسم الطبى بمبنى وزارة المعارف ، حيث أدخلونى ، وعمى النظارة المستعارة ، إلى (خواجاية) ترطن بلغة أعجمية لا أفقه منها حرفاً ، وقيل لى إنها «المسر جارفس» رئيسة القسم الطبى للبنات بالوزارة!».

«ولم أسترح قط إلى هذه السيدة الأجنبية ، في جفاف أساريرها وخشونة ملامحها ، وما يبدو في حركتها ولهجة صوتها ، من مخايل الكبر والتعالى . وخيل إلى أنها ازدردت سحتى الإقليمية وزبى البلدى ، فلم تستغرق معى فى إجراء كشف النظر سوى دقيقة واحدة التقطت فيها مؤشرا وأشارت إلى الصف الأعلى من لوحة علامات الإبصار ، مرة واحدة للعين اليمنى وأخرى للعين اليسرى ، ثم صرفتنى فى ضيق لم تحاول إخفاءه» .

«وانتظرنا على باب مكتبها ، حتى خرج سكرتيرها الخاص فأعلن نتيجة الكشف : ٦ على ٦٠ لكنتا العينين ، وتأشيرة بسقوطى فى كشف النظر!» .

«جرنى عمى جرا ، وأنا منهارة من اليأس ، فذهب بى إلى طبيب العيون ، الذى ما لبث أن اكتشف سر المسألة» .

«وأمر فتوجهنا إلى متجر كبير للنظارات ، قرب ميدان «العتبة الخضراء» حيث استسلمت لعملية فحص وتجربة ، زودنى بعدها بنظارة طبية على مقياس بصرى ، استطعت أن أميز فتحات الدوائر السفلى من لوحة علامات النظر» .

«وعدت إلى وزارة المعارف ، فى صحبة «الأستاذ الشيخ موسى قمر» هذه المرة ، فرفضت «مسز جارفس» أن تستقبلنى ، ولم تستجب لرجاء السيد مراقب تعليم البنات فى إعادة الكشف الطبى ، وذلك - فيما فهمت من الحوار حول الموضوع - حق مقرر لى بمقتضى اللوائح» .

«ولم ييأس «الشيخ موسى» ، بل راح يطوف بمكاتب الوزارة ، مكرراً عشر مرات وعشرين ، قصتى مع نظارة عمى ، حتى استطاع آخر الأمر أن يظفر لى بخطاب من سعادة مراقب تعليم البنات ، إلى مدرسة معلمات طنطا ، لتقبلنى بالسنة الثانية ، بعد أن تعيد الكشف الطبى على» .

(١٥)

هكذا رزق الله صاحبة المذكرات بحنان هذا الشيخ ومثابرتة معها واقتناعه بقضيتها وعمله من أجل هذه القضية إلى هذا الحد وكأنه تعويض من الله عن عناد الأب ومعارضته لرغبتها فى التعلم :

«وتطوع الأستاذ الشيخ فسافر بي إلى طنطا ، وانتظر حتى أتمت طبية المدرسة إجراء الكشف وأعلنت نجاحي فيه».

«وتركتني الشيخ الجليل في رعاية زميليه مدرسي اللغة العربية بالمدرسة ، وودعني بعد أن اطمأن إلى استقرارى في القسم الداخلى ، واستكمل ما كان ينقصنى من حاجاته!».



وبعد أن ينتهى العام الدراسى تعود بنت الشاطىء إلى أسرتها وقد اجتازت امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، وإذا هي تفاجأ فى البيت بما يقوض عليها سعادتها ، وإذا هي فى هذه المرة أمام خيار أصعب من كل الخيارات السابقة ، لكنها تجرد أن عليها أن تضحي عند هذه اللحظة.

«... وعدت إلى البيت بعد أن اجتزت امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، لأواجه ما طوته عنى أمى فى رسائلها إلى من مأساتنا:

«مات جدى الشيخ ، وواروه الثرى دون أن أتزود منه بنظرة وداع أخير».

«ومضى دون أن أشيعه إلى مثواه ، بكلمة ولاء وعهد ووفاء ، تؤنس وحشة رحلته إلى حى الموتى ، فى الطرف الأقصى من البلدة».

«وتعرض بيتنا بعده لهزة عاصفة كادت تقوضه ، إذ عاد أبى بصر على حجزى بالمنزل ، وردى إلى الطريق المستقيم الذى انحرفت عنه».

«وألفيت أمى مضغوطة بين شقى الرحى: لا تستطيع أن تتخلى عنى ، كما لا تستطيع فى الوقت نفسه أن تعرض البيت للخراب ، وفيه شقيقات لى خمس ، وشقيقان أصغرهما رضيع فى الشهور الأولى من عمره!».

«وكلا الأمرين ، أحلاهما مر!».

«وكانت أمى أقرب إلى أن تحمينى بأى ثمن ، غير أنى ما كدت أذكر ما أصاب جدى بسببى ، حتى تهيبت التضحية الفادحة التى تريد أمى أن تتحملها من أجلى! وروعنى التفكير فى احتمال أن يصيبها مثل ما أصاب الجد ، إن هى جازفت بإغضاب أبى ، على ما نعلم من سره البائع!».

«كما روعنى أن أتمثل إخوتى السبعة الصغار ، حطاما مبعثراً بين أنقاض البيت الموشك على الانهيار».

«هنالك قررت أن دورى قد جاء ، لأحتمل عن أمى العبء الباهظ ، فأكون قربان الفداء لسلامة البيت».

«وساعدت الظروف على حسم الموقف ، حين أصبت بانهيار عصبي أعيا الرقاة والأساة دواؤه ، فانقطعت عن المدرسة ، وتقرر شطب اسمي من سجل طالباتها ، لعجزى عن الانتظام فى الدراسة».

(١٦)

هكذا نرى صاحبة هذه المذكرات لأول مرة فى حياتها وهى تجد نفسها مضطرة إلى أن تضحي من أجل أمها ، وهى ترى والدها لا يعبأ بما حدث لها ، وهى تجيد إلى حد كبير وصف ما حدث بالضبط دون أن تتعمق مشاعرها فى تلك اللحظات ، إنما هى على العهد بها تسرع فى رواية هذا الذى حدث على هذا النحو الخاطف:

«... ولم بيد على والدى أى قلق من ناحيتى ، بل لعله كان بحيث يؤثر لى أن أموت ولا أحيى عن طريق العلم الحق ، وعد كل ما أعانى ، تكفيراً عن خطيئة خروجى إلى المدارس!». .

«أمى هى التى كانت شقية بمحتى ، وقد تضاعف همى بشقائها ، فإذا بنا معاً ، فى دوامة من العذاب!». .

«ومن أجلها تماسكت!». .

«ولأجلها رحت ألتمس منفذاً عبر الطريق المسدود ، بعد أن أراحنى اليأس من هم التطلع والطموح».

«رحت ألتمس منفذاً ، لتطمئن أمى إلى أن كل ما احتملناه فى الشوط الذى فات ، لم يذهب عبثاً».

□

ومع هذا كله أو رغم هذا كله فإن بنت الشاطئ تنجح فى الحصول على شهادة المعلمات بتفوق بارز :

«كان المنفذ الوحيد أمامى ، أن أستعير الكتب المدرسية المقررة على طالبات السنة النهائية بمدارس المعلمات ، حيث عكفت على تحصيلها ثم تسللت من البيت خفية ، وأبى غائب عن المدينة فى إحدى رحلاته ، فأديت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا ، وخرجت منه - وأنا الوحيدة التى تقدمت إليه من المنزل - أولى الناجحات

فى مصر ، بفارق مائة وثلاثين درجة فى المجموع ، عن الطالبة التى تلينى فى ترتيب النجاح!». .

(١٧)

هكذا أصبحت بنت الشاطىء وفى يدها شهادة الكفاءة للمعلمات من مدرسة طنطا ، وقد حصلت على الأولية فى هذا الشهادة ، وأصبحت مؤهلة تماماً لأن تمضى فى سلك الوظيفة لو أرادت ، أو أن تكتفى من التعليم بهذه الشهادة المعتبرة يومها ، لكنها تحكى عن التحول الذى حدث فى حياتها وهى على وشك الحصول على هذه الشهادة ، وهو تحول رزقها الله به بالصدفة ، وجعلها تترك هذا السبيل الذى مضت فيه فى مدارس المعلمات لتبدأ طريفاً آخر ينتهى بها إلى الجامعة:

«... وقد بدا الأمر حينذاك ، أشبه بمصادفة عابرة ، لا تلبث أن تمضى دون أن تغير متجه خطواتى ، أو تترك فى دنياى أثرًا ذا بال:

«حدث ذاك ، يوم أخذت مكانى فى جانب من قاعة الامتحان الشفهى لشهادة المعلمات ، أنتظر دورى لأؤديه بعد الطالبات الرسميات».

«وكان الأساتذة الممتحنون قد ضاقوا بتعثرهم فى تلاوة السور القرآنية والنصوص الشعرية المقررة ، فلما جاء دورى وتلوت مجودة ما اختاروا لى من سورتى النساء والنور ، سئلت عما أحفظ من النصوص الشعرية ، فكان جوابى أن سألت: من أى عصر؟».

«وعجب الممتحنون من سؤالى ، ثم طلبوا نصاً من العصر الجاهلى فأنشدتهم أبياتاً من معلقة طرفة بن العبد ، ومرثية لمهلل بن ربيعة التغلبى فى أخيه كليب».

«قالوا : أسمعينا شيئاً من شعر صدر الإسلام».

«فبادرت أنشد لامية كعب بن زهير «بانت سعاد».

«ثم مازالوا ينتقلون بى من عصر إلى عصر وهم فى دهشة من حفظى ، حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث فاجأتهم بسوالى:

«من شعرى أو من شعر سواى؟».

«ولم ينسنى مر السنين ، ما بدا عليهم من عجب ، وقد قال أحدهم:

«إن كنت شاعرة فأسمعينا إحدى قصائدك».

«وأنشدتهم قصيدة لى «فى الحنين إلى دمياط» مطلعها :

«دمياط حبك حركت أشجانه آلام قلب فى الغرام مصفد

ثم أتبعها أخرى : صورة شعرية لزوجة صياد خرج إلى البحيرة فى ليل عاصف».

«ولم يبق لديهم ما يمتحنوننى فيه ، فأقبلوا على يسألوننى عن وجهتى فى التعليم بعد نيل هذه الشهادة لكفاءة المعلمات».

«وكان أقصى ما يقف عنده الشوط الذى سرت فيه ، إتمام الدراسة «بالقسم الإضافى فى معلمات بولاق» ومدتها سنتان ، تتخرج بعده الطالبات معلمات فى المدارس الابتدائية أو الأولية الراقية ، على حين لا يتاح لحاملات شهادة الكفاءة إلا التعليم فى المدارس الأولية والإلزامية».

«وأجبت عن سؤال السادة الممتحنين :

«فى نيتى أن أعكف على تحصيل المواد المقررة على القسم الإضافى ، ثم أتقدم من المنزل لأداء امتحانه النهائى».

«فأنكروا ما سمعوا من جوابى ، وزينوا لى أن أعدل عن هذا الطريق القريب ، إلى طريق الجامعة ، ففيها وحدها المجال الرحب الذى يستحق أن أتعلق به وأسعى إليه».

(١٨)

وتعترف بنت الشاطىء أن هذه كانت هى المرة الأولى التى تعرف فيها أن هناك شيئاً يستحق الاحترام ، اسمه الجامعة ، فقد كانت معلوماتها المتناثرة عنها أنها ليست إلا كياناً غريباً وأن وجود هذا الكيان فيما سمعته لم يكن إلا مرتبطاً بالزيف والضلال ، وهى تعبر عن هذا المعنى باستخدام فعل «الرجم» فى محل فعل «الوصف» :

«وفى ظنى أنى لم أكن حتى ذلك اليوم ، قد سمعت عن الجامعة إلا كلمات مبهمه ترجمها بالزيف والضلال ، ولا تصورت أن هناك علوماً أخرى غير تلك التى أتلقاها على مناهج الأزهر ، وليس فى مكتبة بيتنا غير كتب علوم الإسلام والعربية ، وليس فى بيت جدى بدمياط ، سوى خزانة كتب ومخطوطات إسلامية ، من مخلفات الشيخ الدهوجى الكبير».

«وإذ فهمت من كلام الأساتذة الممتحنين ، أن الطريق إلى الجامعة يحتاج إلى زاد من اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، عجبت بدورى لشططهم فى تقدير طاقتى وعدتى ، وإنى لمن بيئة لم تدنسها كلمة من لغة الفرنجة!». «وانصرفت ، وليس فى نيتى إطلاقاً أن أشغل نفسى بالتفكير فى هذه «الجامعة» التى زينوا الى الاتجاه إليها».

(١٩)

ولكن.. ها هى بنت الشاطىء تبدأ بعد هذا طريقها الحق فى الحياة ، فهى تجمع بين درب التوظف ودرب الدراسة من أجل التقدم للامتحان الأعلى فى القسم الإضافى الذى يبدو لها وكأنه نهاية المطاف ، وهى فى هذه المرحلة لم تبدأ بعد الاقتناع بالطريق الآخر (طريق الجامعة) ، لكنها مع ما كانت قد بلغته من سن متقدمة تواجه أيضاً بوالدها وهو يحارب هذا الاتجاه الجديد - القديم:

«أتاحت لى أولويتى فى شهادة كفاءة المعلمات ، فرصة اختيار المدرسة التى أعين للتدريس فيها ، وكان من المتوقع أن يرفض والدى احترافى للتدريس رفضاً باتاً ، لكن زملاءه من أصدقاء الأسرة ، تكاثروا عليه حتى أقنعوه بأن الوسيلة الوحيدة التى تجدى مع مثلى ، هى أن يدعى أجرب مهنة التدريس ، فلن ألبث أن أزهد فيها وأصد عنها باختيارى دون إكراه منه لن يزيدينى إلا شغفاً باليمنوع!».

ونحن نجد ذكاءها يقودها إلى البعد عن مدينتها الحبيبية كى تنجح فى تخطيطها لمستقبلها:

«... وكان يسعدنى أن أعود إلى مدرسة اللوزى بدمياط ، معلمة فيها بعد أن كنت تلميذة بها ، لكنى آثرت العمل فى مدرسة البنات الملحقه بمعلمات المنصورة ، فأقيم فى القسم الداخلى بها ، بمنأى عن جو بيتنا المشحون بالضباب والدخان ، ومن ثم أستطيع أن أجد فى تحصيل المنهج المقرر على القسم الإضافى ، استعداداً للتقدم بعد عامين ، إلى امتحان إجازته».

«وأقبلت من اليوم الأول على التحصيل ، قانعة بالهدف الذى يبدو قريباً منى ، دون أن يساورنى أى طموح إلى الطريق الآخر البعيد ، الذى ألقيت به عمداً فى طوايا النسيان ، كى لا أبدد طاقتى بتطلع عقيم إلى منطقة السراب!».

«ومضى على عملى بالمنصورة عام وبعض عام ، ملأت كل دقيقة منها بالتدريس نهاراً والتحصيل ليلاً. وكنت كلما أجهدتى العمل المزدوج ، روحت عن نفسى بمطالعة كتب من صنف جديد ، غير الذى كان متاحاً لى فى مكتبة بيتنا».

«وأدين «لمكتبة السروى» فى المنصورة بهذا الأفق الجديد الذى فتحتة أمامى بأيسر جهد وكلفة ، إذ كانت تتبع أسلوباً مبتدعاً فى تأجير الكتب!».

تشير الدكتورة بنت الشاطىء إلى الأساليب التى كانت بعض مكتبات بيع الكتب فى الأقاليم تأخذ بها فى تسهيل إطلاع القراء على الكتب وإعادتها من دون شرائها.

(٢٠)

ونصل مع الدكتورة بنت الشاطىء إلى مرحلة أخرى من مراحل كفاحها التعليمى ، حين تتأهل بما هو كفى لها بالاستمرار فى التعليم ، فإذا بالنظم التعليمية المصموم بها فى ذلك الوقت تقف عائقاً أمامها وأمام استمرارها فى التعليم :

«وحان الموعد المحدد رسمياً لتقديم طلب أداء الامتحان لإجازة القسم الإضافى ، فبادرت بإرساله بالبريد المسجل إلى مدرسة المصلحات فى بولاق ، وبينى وبين الامتحان أربعة أشهر تكفى لتثبيت الدروس التى حصلت عليها واستيعاب المواد المقررة».

«غير أنى فوجئت بطلبى مردوداً إلى من إدارة المدرسة ، مع الاعتذار عن رفضه بأن اللوائح لا تجيز التقدم إلى امتحان القسم الإضافى من المنزل ، وإنما هو حق للمقيدات فى المدرسة وحدهن».

«ولبثت أياماً وليالى ، أغرى نفسى براحة اليأس وأروضها على الاستسلام».

«لكنى عدت فذكرت ما مرى من أزمات ، وأطلت التفكير فيما صنع لى «الأستاذ

الشيخ موسى قمر» عندما سقطت فى الكشف الطبى بنظارة عمى!».

□

وتسافر بنت الشاطىء إلى القاهرة هذه المرة بمفردها لعلها تجد حلاً لمشكلتها الجديدة كما وجدت من قبل حلولاً متعددة للمشكلات السابقة:

«وتعلقت به آمالى ، وأنا آخذ القطار من المنصورة إلى القاهرة ، فى إجازة مرضية ، وفى

تصورى أنى ما أكاد أصل فى صحبة الشيخ الجليل إلى سعادة مراقب تعليم البنات ، حتى

يأذن لي في دخول الامتحان ، بصفة استثنائية ، إن لم تبررها ظروفى الخاصة ، فلقد يكفى لتبريرها أنى كنت أولى الناجحات فى شهادة الكفاءة ، للفوج الذى يوشك على التخرج من القسم الإضافى».

«لكن الأمر جرى على غير ما توقعت : صحبنى عمى «الأستاذ الشيخ موسى قمر» وهو صديق للأسرة ولكن بنت الشاطىء تعبر عنه على نحو ما نعبر عن أصدقاء الأب بالعم] إلى سعادة المراقب الذى أصغى إلى قصتى فى عطف واهتمام ، ثم كان الحل البديل الذى اقترحه السيد المراقب ، أن أعدل عن التمسك بدخول امتحان القسم الإضافى ، وأتقدم بدلاً منه إلى امتحان الشهادة الابتدائية ، وهو مباح لمن شاء أن يتقدم إليه من طلبة المنازل».

(٢١)

ونحن نرى بنت الشاطىء فى هذه اللحظة وقد تصورت نفسها على موعد مع القدر فى هذا اللقاء ، فإذا هى تقبل من الرجلين ما عرضاه عليها لتوهما .

«ولم يدعأ لى فرصة للتفكير أو التردد ، إذ كان موعد تقديم طلب الامتحان ينتهى فى يومنا ذلك ، وأمر سعادة المراقب فجىء لى باستمارة من ديوان الوزارة ، وجلست فى مكتبه لكى أملأ خاناتها ، فلما توقفت عند «اسم التلميذ باللغة الأوروبية» تطوع أحد موظفى المراقبة فكتبه على ورقة مستقلة ، وكان علىّ أن أنقله إلى «استمارة طلب الامتحان» كما أنقل الرسم!».

«سألت فى حيرة :

«لكن كيف أؤدى الامتحان فى هذه اللغة ، ولا علم لى بأى حرف منها؟»

«وأجاب الشيخ موسى :

«لا بأس عليك ، تستطيعين بشهادة مرضية تأجيل الامتحان إلى الدور الثانى فى شهر سبتمبر ، وبيننا وبينه سبعة أشهر تفرغين فيها لتعلم القدر المقرر على الشهادة الابتدائية من اللغة الإنجليزية ، ولست فى حاجة إلى بذل أى جهد لتحصيل بقية العلوم ، بل تكفيك مراجعة سريعة لمواد الامتحان فى الشهادة الابتدائية».

ثم تروى لنا بنت الشاطي بامتنان بعض فضل الشيخ موسى قمر عليها وعلى استكمالها لتعليمها فتقول:

«وبادر - رحمه الله - فالتمس من سعادة المراقب أمراً بنقلى من مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة ، إلى إحدى المدارس الأولية بحى السيدة زينب فى القاهرة ، قريباً من مسكن الأستاذ فى شارع الخليج المصرى ، كى أمضى فترة الاستعداد للامتحان ، مع ابنته «فتحية» التلميذة بالسنة الرابعة بالمدرسة السنوية الابتدائية ، ومعها أستطيع أن أراجع الدروس المقررة عليها للشهادة ، على أن أنفرد بدرس خاص فى اللغة الإنجليزية».

«ولم تمض أيام حتى كنت قد أتممت إجراءات النقل من المنصورة إلى القاهرة ، واستقر بى المكان فى ضيافة أسرة الشيخ موسى قمر ، وفى صحبة ابنته الصديقة العزيزة. وقد ألزمت نفسى فى درس اللغة الإنجليزية ، حفظ قدر معين من مفرداتها يومياً ، وفى حسابى أننى كلما تزودت بقدر كاف من مفرداتها ، أمكننى التصرف فى الإجابة عن أسئلة الامتحان ، بما تهيأ لى من قدرة على الإنشاء!».

تأمل بنت الشاطي نفسها فى هذه اللحظة وقد أصبحت تسير على الطريق الآخر ، الطريق الذى انتهى بها إلى ما نعرفه جميعاً ، وقد جاءت أولى خطواتها على هذا الطريق أقرب إلى المصادفة:

«... وهكذا تجهد ، عن غير قصد ، إلى ذلك الطريق الآخر البعيد الذى سمعت عنه لأول مرة فى طنطا منذ عامين ، من أعضاء لجنة الامتحان الشفهي لشهادة المعلمات ، فصرفت عنه بالى وقتئذ ، بأساً من إمكان الوصول إليه».

«ثم لما وجهت إليه ، لم ألبث أن اكتشفت أن طريقى الأول الذى سرت فيه حتى شارفت نهايته ، يسير فى اتجاه مواز لا يلتقى أبداً مع الطريق الموصل إلى الجامعة ، عبر المرحلة الابتدائية فالثانوية».



وتعترف بنت الشاطي بأنها لم تكن تدرك فى ذلك الحين حقيقة الآثار السلبية لهذا الازدواج التعليمى الذى كان الوطن يعانى منه:

«ولا أظن أننى التفت فى تلك السن الغضة - مع ضالة خبرتى وتجربتى ، وبعدى عن الحياة العامة - إلى لوم ذلك الوضع الثنائى للتعليم ، بل لم ألتفت كذلك إلى دعمه التطبيقية

الاجتماعية والاقتصادية ببطيئة عقلية وفكرية ، تجعل المقدرة المالية وحدها جواز المرور عبر المراحل الابتدائية والثانوية والعالية ، وتتفاوت بها حظوظ أبناء الأمة وفرص تعليمهم ، ومجال عملهم بعد التخرج ، تفاوت ما بين الإقطاعيين والأجراء».

«ذلك لأنى ما قصدت إلى دخول مدرسة ابتدائية أو ثانوية ، بعد أن صدتنى التقاليد عنها وانتهى بى موقف والدى إلى اليأس منها. كل الذى شغلنى هو تحصيل المقررات المدرسية على كل مرحلة ، ثم التفكير فى وسيلة أتسلل بها إلى لجان الامتحان للمراحل الموصلة إلى الجامعة ، كما فعلت فى طريقي الأول».

«هنالك أدركت أن المناهج التى درست عليها ، سواء منها ما تلقيته فى بيتنا على أبى وزملائه المشايخ ، وما حصلته باجتهادى من مواد الدراسة لكفاءة المعلمات والقسم الإضافى ، كانت قد فصمتنا تماماً عن الثقافة العصرية المتاحة لتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ، كما حصنتنا ضد جرثومة لغات الفرنجة وزيف العلم الحديث ، فبلغت أقصى الشوط فى طريقي الأول من الكتاب والمدرسة الإسلامية إلى المدرسة الأولية والراقية ، فمدرسة المعلمات والقسم الإضافى ، ولم أعرف حرفاً واحداً من لغة أجنبية ، ولا شاهدت أى جهاز من الأجهزة العملية التى يجرى عليها التلاميذ العصريون دروسهم العملية فى الطبيعة والكيمياء ، ولا كان لى ولا لأمثالى ممن أخذوا طريق التعليم الأولى ، عهد بكتاب من كتب العلوم الحديثة التى كانت محرمة على غير من يأخذون الطريق إلى الجامعة!».

(٢٣)

وتتلور أمام عيني بنت الشاطئ هذه المعانى المتعلقة بالسياسة التربوية بوضوح شديد حين تروى كيف أتيح لها بالصدفة فقط أن تجتاز اللغة الإنجليزية :

«كنت قد جازفت - بعد قياس مستوى تلميذات المدرسة السنوية الابتدائية - فدخلت امتحان الدور الأول للشهادة ، وأديت امتحان اللغة العربية والحساب والجغرافيا والتاريخ ، واثقة من أن إجاباتى فيها تعطينى درجاتها النهائية ، بحيث يكفينى بعد ذلك - وقد ضمنت تجاوز الحد المقرر لمجموع الدرجات - أخذ أدنى درجة للنجاح فى اللغة الإنجليزية».

«وإذ كانت الفترة القصيرة التى تعلمتها فيها ، لم تكف لاستيعاب قواعد اللغة (الجرامر) والإملاء ، وضعت أملى كله فى موضوع الإنشاء ، اعتماداً على قراءتى لكتاب «السندباد البحرى» المقرر علينا ، واطمئنتنى إلى إمكان إجابتى عن أى سؤال فيه».

«وجاء سؤال الإنشاء ، يطلب إلينا كتابة عشر جمل فى «كيف نجا السندباد من وادى الأفاعى؟» فألفيت الموضوع سهلاً ، غير أنى لم أكد أمضى فى كتابة جملة وثانية ، حتى توقفت بغتة ، أحاول عبثاً أن أتذكر كلمة «نسر» بالإنجليزية!». .

«والنسر هو بطل ذلك الفصل كله من قصة السندباد ، بحيث كان من المستحيل أن أستغنى عن ذكره ، فى ست جمل أو سبع من العشر المطلوبة».

«وهممت بمغادرة قاعة الامتحان ، وقد رسخ فى بالى أن الله سبحانه لا يريد لى أن أمضى فى ذلك الطريق!». .

«وفيما أنا ألقى بقلمى الرصاص من يدى فى حركة يأس وقنوط ، وقع بصرى فجأة على صورة نسر مبسوط الجناحين مرسوم على قلمى ، فما تماكنت أن هتفت فى دهشة وفرح :

«وجدتها!». .

«وجدت كلمة نسر ، محفورة بالإنجليزية تحت صورته ، على قلمى!». .

«وأقبلت على ورقة الإجابة أكتب الجمل العشر ، وفى يقينى أن الله معى .. على الطريق».

على هذا النحو تروى بنت الشاطىء كيف تهيأت لها معرفة «المفردة» اللغوية الإنجليزية التى كانت فى حاجة إليها للنجاح ، بعد أن أوشتكت على اليأس من المعرفة فإذا بهذه الكلمة مكتوبة من حيث لا تدرى على القلم المصاحب لها فى الامتحان ، وهى تروى كل هذا بروح الإيمان بالله ، وقدرته على توفيق من يشاء .

(٢٤)

ويتأكد هذا المعنى حين نقرأ مع صاحبة هذه المذكرات قصتها فى امتحان العام التالى مع علم الطبيعة وكيف رسبت فيه :

«فمن بين الأسئلة المطلوب الجواب عنها ، فهمت سؤالاً واحداً فحسب ، وقدرت أنه يكفينى لأنجح به ، لو أنى أجبت عنه إجابة صحيحة كاملة ، تعطينى درجاته الست ، الحد الأدنى للنجاح فى المادة!». .

«كان السؤال عن :

«طرق نقل الحرارة ، مع ذكر خاصية الترمس فى حفظ الحرارة».

«وأجبت عن الشق الأول ، بما حفظته عن ظهر قلب من كتاب الطبيعة ، عن: الحمل والإشعاع والتوصيل ، ثم وقفت عند الشق الثاني ، لا أفهم ما دخل الترمس - وقد حسبته البُقل (مفرد البقول) المعروف - فى سؤال عن الحرارة؟».

«وسألت مراقب اللجنة عما إذا كان هناك خطأ مطبعى فى الكلمة؟».

«فأجاب فى حسم : وحينئذ استنتجت أن أهل العواصم والمدن الكبرى قد يستخدمون الترمس فى ترطيب المياه الحارة ، على نحو ما قرأت عن استخدام الحصى ونوى المشمش لتنقية المياه العكرة!».

«ولم أتردد فى الإجابة بهذا الاستنتاج الذى هدتنى إليه فطنتى!».

«وأيدته بالمشهود المألوف ، من حرص باعة الترمس فى (عصارى الصيف) على رص قلى المياه فوق عرباتهم ، اجتذابا (للزباين) بجرعات هنية من ماء رطبه الترمس ولطف من حرارته!».

«وخرجت من قاعة الامتحان ، وأنا لا أشعر بأى قلق مما أجبت ، إلى أن سألتنى إحدى الزميلات عن موضع اشتباهى فى كلمة «الترمس» التى سألت عنها مراقب اللجنة؟».

«ولم يفتنى أنها نطقتها بضم الميم ، فحسبتها كذلك لهجة قاهرية! وقلت لها إننى لم أكن أعلم أن الترمس - بكسر الميم - يستعمل فى المدن لتلطيف الحرارة!».

«صاحت الزميلة فى دهشة :

«أى ترمس؟ إنما السؤال عن هذا الترمس!».

«وأشارت إلى اسطوانة معدنية فى يدها ، ثم فتحتها وصبت لى منها جرعة من شراب الليمون الثلج!».

«ولم أكن شاهدت من قبل هذا الترمس ، ولا سمعت عنه قط».

«سألتنى الزميلة «تحية ماهر» :

«فقيم إذن تعملون الشراب فى الرحلات الطويلة؟».

«قلت وأنا أذكر متاع أبى فى رحلته السنوية إلى الحرمين الشريفين:

«فى الزمزية!».

«ولم أصدق أن الشراب الثلج الذى قدمته إلى من ترمسها ، قد بقى فى حر يونية ، من مطلع الشمس إلى الظهيرة القائظة ، لكن الزميلة أضافت ، إنه لا يحتفظ بدرجة البرودة فحسب ، بل يحتفظ كذلك بدرجة الحرارة للشراب الساخن ، لمدى يوم كامل!».

«وتطوعت «تحية» بإعارتى الترمس إلى اليوم التالى ، لأجرب بنفسى خاصيته فى حفظ الحرارة!».»

«أنسانى العجب ، سوء موقفى فى الامتحان وما يحتمل من رسوبى فيه، وقضيت بقية نهارى وأكثر ساعات الليل ، أمام الترمس أجربه على سوائل متفاوتة فى درجة حرارتها ، وأنا أعتقد أنه جهاز مسحور!».»

«حتى إذا استيقنت من عجب خاصيته فى حفظ الحرارة ، تذكرت بغتة إجابتى المضحكة ، فتعللت بأن لجنة التصحيح سوف ترأف بى وتجبر درجتى فى الطبيعة إلى الحد الأدنى للنجاح ، إذا ما تجمعت فى كشف الرصد ، درجاتى فى المواد الأخرى ، وأكثرها يصل إلى النهايات الكبرى أو قريب منها!».»

«وبهذا التعلل ، استطعت أن أكمل ما كان باقياً من مواد الامتحان!».»

(٢٥)

وتبدأ بنت الشاطىء فى رواية مرحلة جديدة من حياة الفتاة - التى كانت - حيث يتاح لها أن تبدأ تسلك طريقها الطويل إلى التحضر الحقيقى:

«وعشت على هذا الأمل حتى ظهرت نتيجة الامتحان ، وقد رسبت فى الطبيعة ، ولى حق إعادة الامتحان فيها بالدور الثانى ، لارتفاع درجتى فى المجموع».»

«وأديته فى شهر سبتمبر التالى ونجحت فيه ، لأروع بعد نجاحى بشائعة تناقلتها الزميلات ، عن احتمال إلغاء امتحانى جملة ، لأننى تقدمت إليه بعد عام واحد من نيل الشهادة الابتدائية ، والمدة المقررة بمقتضى اللوائح ، لا يجوز أن تقل عن ثلاث سنين!».»

«وأسرعت إلى ديوان وزارة المعارف ، أستعدى «سعادة مراقب تعليم البنات» على هذه اللانحة الظالمة التى لا يحل فى رأى ، أن تطبق على تلميذة مثلى تحمل شهادة الكفاءة للمعلمات وتمارس بها التدريس فى مدارس الوزارة. وكنت قد عرفت الطريق إلى سعادة المراقب ، فى أزمتين سابقتين!».»

«وفى مكتبه بالوزارة ، وجدت عدداً من رجال التعليم ، لم يكادوا يسمعون قصتى حتى راحوا يتندرون ، بحكاية «الترمس» التى كانت فكاهة الموسم فى لجان تصحيح الامتحان!».»

«ورب ضارة نافعة!».

وتفسر الدكتورة بنت الشاطي استشهادها بهذه العبارة فتقول:

«لقد كشفت هذه الفكاهة للأستاذ المراقب عن المشقة التي أكابدها في عبور الطريق التعليمي ، فبادر من فوره وأمر بنقلي من وظيفة معلمة بالمدارس الأولية ، إلى وظيفة كاتبة بكلية البنات للجيزة ، وتفضل فاتصل بكلية تليفونياً ، ليوصي ناظرها السويدية «مدام برج» بتدريبي على اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وإتاحة الفرصة لي ، لدخول المعمل في بعض ساعات فراغى من العمل . كما تم ترتيب إقامتي بالقسم الداخلى في الكلية ، مقابل مشاركتي في الإشراف على عودة الطالبات الخارجيات إلى بيوتهن في سيارة المدرسة».

وعملت «مدام برج» بالوصية: فبدأت في التحدث معي من اليوم الأول باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، ولم يكن سبق لي أن عرفت أى أجنبي أو تحدثت إليه!».

«ثم كان أول ما عهدت إلى به من العمل ، كتابة خطاب رسمي باللغة الإنجليزية ، في بعض الشؤون الإدارية. فلما حملته إليها وأنا أتوقع أن أحظى بإعجابها لتفنتي في الإنشاء ، لم تزد على أن شطبت بقلمها الأحمر ، على كل ما أنفقت يومى في كتابته ، وردت الخطاب إلى ، آمرة أن أكتبه في سطرين اثنين!».

«وزادت فاستدعت سكرتيرة الكلية «مس فريدة قربان» وعهدت إليها في أن تهذب من ملبسى شبه الريفى ، وتدربنى على أنماط السلوك في الحضر ، لأتكيف مع الوسط العالى للكلية».

«ومضت بى «مس قربان» إلى حجرتى الخاصة ، فأمرتنى فوراً بانتزاع «المشط البراق» الذى يمك شعرى أن يرسل . ثم فتحت خزانة ملابسى فاخترت منها ثوباً قطنياً بسيطاً كنت أنوى ألا أرتديه إلا فى ساعات خلوتى ، وقالت إنه وحده الذى يناسب الكلية ، دون ثيابى الأخرى التى تفنتت خياطتنا بدمياط فى حياكتها وزخرفتها!».

«على أن الموقف لم يبلغ ذروته من القسوة ، إلا حين دعتنى «مس قربان» لتناول وجبة الغداء فى مطعم الكلية الأنيق الفخم ، حيث بهرنى البريق الساطع من أدوات المائدة الفضية والبللورية. ولم أكن حتى ذلك اليوم ، قد استعملت فى تناول طعامى أدوات عصرية ، ومن ثم اعتذرت عن عدم الأكل بوعكة صحية طارئة ، تخرجاً من ارتباكى فى استعمال أدوات المائدة ، وإشفاقاً على ميزانيتى الضئيلة ، من ثمن ذلك الطعام الغالى!».

ثم ها هي بنت الشاطيء بعد كل نجاحاتها الدراسية والتحصيلية تواجه على حين فجأة بمشكلة من نوع جديد وهي مشكلتها مع التعامل مع أدوات المائدة ومع تناول الطعام بطريقة أخرى غير تلك الطريقة التي تعودت عليها ، وعلى الرغم من المكانة الاجتماعية السامقة التي وصلت إليها بنت الشاطيء ، فإنها لا تجد أى حرج فى أن تروى تفصيلات هذه «المشكلة البروتوكولية» التي واجهتها فى بداية حياتها الجديدة وكيف أنها عانت من هذه المشكلة حتى أذن الله لها بالفرج:

«... وأقمت على ذلك نحو أسبوعين ، لم أذق فيهما طعام الكلية ، وإنما اكتفيت ببعض شطائر من الفول والطعمية والجبن ، تعودت أن أتزود بها فى طريق عودتى بعد توصيل التلميذات بسيارة المدرسة ، حيث كنت أتخلف ساعة فى منزل الشيخ موسى قمر ، لتلقى درس فى اللغتين الإنجليزية وآخر فى الفرنسية ، قبل أن آخذ طريقى إلى الكلية سيراً على قدمى ، من شارع الخليج إلى كوبرى قصر النيل فكوبرى بديعة - الجلاء - توفيراً لسته مليمات يتكلفها ركوب الترام».

«حتى استرابت «مس قربان» فى إصرارى على عدم تناول الطعام بالكلية ، مع ما يبدو من سلامة صحتى ! وتطوعت فعرضت على أن تقدمنى إلى «مسز جارفس» كبيرة الطبيبات ، فى زيارتها الدورية القادمة للكلية!».

وأحسست كأن عقرباً لسعنى!».

«فما كنت قد نسيت قط صرامة موقفها منى فى الكشف الطبى ، ولعلها لو رأتنى موظفة فى الكلية ، لأمرت بفصلى فوراً من الخدمة!».

«ولم أجد أمامى سبيلاً إلى الفرار من «مسز جارفس» واتقاء مواجهتها ، إلا أن أصارح «مس قربان» بأن الجنيهات الستة التى أنسلمها مرتباً شهرياً ، يستهلكها حتى آخر مليم منها ، ثمن الكتب وأجر الدروس الخصوصية فى اللغتين الأوروبيتين. أما المبلغ الضئيل الذى تقتطعه أمى من مصروف البيت لتعيننى به ، فلا يكاد يقوم بالزاد البسيط الذى أتبلع به ، فضلاً عن خجلى من الجلوس إلى مائدة الطعام بالكلية ، وليس لى أدنى خبرة باستعمال أدواتها الفاخرة».

«وكان الرد العجيب أن موظفات الكلية لا يدفنن أى أجر لما يتناولن من طعام! وأما

مسألة استعمال أدوات المائدة فيحلها أن نتناول طعامنا في غير المواعيد المحددة للطالبات ، إلى أن يتم مرانى على الطريقة المصرية لتناول الطعام وسلوك المائدة!». «وأحسست بفرحة الفرج بعد الضيق ، تشوبها حسرة على ما فاتنى من غذاء شهى وسخى ، طوال الأيام التى عشت فيها على القول المدمس والطعمية والجبن القريش!». .

(٢٧)

وهكذا تواصل بنت الشاطىء تعليمها وعملها من خلال كفاح شديد تضطر فيه إلى العمل فى الصحافة مبكراً جداً على نحو ما يعرف القراء ، وتعبير عن هذا العناء كله وتقول :

«وفيما كنت أمارس هواية الكتابة ، وأحمل عبء عملى فى كلية البنات وعبء تحرير «مجلة النهضة النسائية» وإدارتها ، تابعت تحصيل المواد المقررة على طلاب البكالوريا ، وتقدمت لامتحانها من المنزل».

«وهكذا مشيت على الدرب الوعر ، فكلما قطعت شوطاً منه تقدمت إلى امتحان شهادته خفية عن التقاليد الساهرة على حراستى كيلا أنحرف عن الاتجاه المرسوم لى ، وخفية كذلك عن الأوضاع الطبقيية والنظم التعليمية واللوائح المدرسية ، التى أقامت الحواجز والسدود ، فى طريق مثلى ، إلى الجامعة!». .

«حتى وصلت بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب ، من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة ، إلى باب الجامعة أحمل شهادة (البكالوريا أدبى) التى ظفرت بها صيف عام ١٩٣٤ ، مع قلة من الناجحين: من منازلهم».

(٢٨)

وعند هذا الحد تبدأ صاحبة هذه المذكرات تفكر بصورة جديدة فى الالتحاق بالجامعة بعدما أصبحت مؤهلة لهذا الحلم بحصولها على شهادة البكالوريا :
«... وهناك ألفت الباب موصداً فى وجهى بقضبان من فولاذ!». .

«كنت على يقين من استحالة دخولي الجامعة طالبة منتظمة ، كى لا أبوء بلعنة من غضب والدى الذى ما شككت فى أنه (سوف) يبرأ إلى الله منى لو فعلتها!». .

«لكننى طمعت فى أن ترق الجامعة لحالى بعد أن تسمع حكايتى ، فتأذن لى فى تحصيل مقررات قسم اللغة العربية ، على أن أؤدى تباعاً كل عام ، امتحان السنوات الأربع للدرجة الليسانس». .

ولكنها تفاجأ بأن اللوائح الجامعية لا تعترف بنظام الانتساب ! :
«وهؤلاء هم حراس اللوائح ، يتسمون ضاحكين من قولى ، ويتندرون بسذاجتى التى ابتدعت فكرة التقدم للامتحانات الجامعية (من منازلهم)!». .

ولمدة عام كامل ، بقيت واقفة تجاه الباب الموصل لا أتزحزح ولا أريم!». .
«لم يكن قد بقى لى إلا أن أنكص على عقبى وأكر راجعة من حيث أتيت». .
«لكننى لم أفعل!». .

«فهل كان إصرارى على الوقوف هروباً أحقق ، من مواجهة صدمة الخيبة بعد كل الذى كابدت؟». .

«أو كان استجماعاً لقواى ، تأهباً للجولة الجديدة فى المعركة ، بعد أن أجهدتنى الجولات السابقة». .

«لم أكن أدرى على وجه اليقين». .

«وإن أحسست أن هناك قوة خفية وراء أبعاد المنظور ، تقيدنى إلى ذلك الباب الموصل ، وتحول بينى وبين طريق الرجوع!». .

(٢٩)

وتكتفى صاحبة المذكرات من حديثها المنتظر عن تهيئتها لقائها الأول بالشيخ أمين الخولى بعبارات قصيرة لكنها ، لحسن الحظ ، تحمل كل المعانى التى تريد أن تعبر عنها وعن شعورها بها:

«... وأجهدتنى الخيرة ، فانقطعت عن مجلس أبى فى الأمسيات ، حيث كنت أقرأ عليه الكتب الأمهات فى التفسير والحديث». .

«وانقطعت كذلك عن رحلتى اليومية كل صباح إلى دار «الشيخ دسوقى جوهرى» فى

أقصى الطرف الشمالى الغربى للقريه ، وقد كنت أسعى إليه لأقرأ عليه أهمهات كتب البلاغه».

«ثم لم أجد مخرجاً من حيرتى ، إلا أن أفضى بهومى إلى الشيخ الجليل ، وقد كان لى - رحمه الله - المعلم الصديق ، والمستشار المؤمن ، والراعى الأمين».

«وهناك فى حديقه داره الحلويه على حافة الحقول المنبسطة إلى مد البصر ، جلست أشكو إليه ما أجد من حيره وتردد ، بين الصدود عن الجامعة والزهد فى درجتها العلميه بعد أن عبثت الحزبيه بكل ما بقى لها من حرمة ، وبين حرصى على لقاء أستاذ هناك ، أعتقد أن تجربتى مع الجامعة لا يحسمها إلا أن ألقاه».

«وبدأت أقص على شيخى بعض ما يتناقل الطلاب من حكايات ونوادير ، عن علم الأستاذ الخولى وقوه حجته وجبروت عقله وشخصيته ، فهز الشيخ الجليل رأسه وهو يقول بصوته الهادى العميق:

«أعرفه يا ابتى ، وإنك لجدير بالتلمذه عليه!».

«وقبل أن أهتدى إلى صيغه متواضعة لا تنم عن غرورى ، أسأله بها عما عسى أستاذ محدث أن يقدمه لمثلى فى علوم العربيه والإسلام ، مضى الشيخ الجليل يحدثنى عن أمله الكبير فى أن أشارف الآفاق الرحبه لمنهج الأستاذ الخولى فى تجديد الفكر الدينى ، وتحجير العقل الإسلامى من أغلال الجمود والتقليد التى تخنق حيويته وتعطل انطلاقه مع الزمن!».

«سألت فى عناد :

«كذلك فعل الأئمة من السلف الصالح ، وآخرهم الإمام الشيخ محمد عبده ، فهل من جديد يضيفه المحدثون؟».

«وكان جوابه :

«أجل يا ابتى ! وكذلك تتتابع الأجيال على تلقى الأمانة الصعبة ، فيسير كل جيل من حيث انتهى سلفه ، دون أن يتجمد الفكر الإسلامى عند الذى وصل إليه جيل مضى!».

ثم استطرد يقول متمهلاً :

«ولكن فيم تعجلك بالحكم؟ هلا انتظرت حتى تلقى الأستاذ الخولى ، وسوف يشوقنى أن أسمع حديثك عنه بعد أن تحضرى درسه ، فقد كان آخر عهدى به ، يوم انتقل من التدريس بمدرسة القضاء الشرعى ، إلى المفوضيه المصريه فى روما ، إماماً لها!».

«وصكت الكلمه مسمعى ..».

«انتقل إلى روما؟».

«العاصمة الدينية لبلاد الفرنجة ، أعداء العرب والإسلام؟» .
«كيف خيل إلى الوهم أن هذا الأستاذ ينتمى إلى مثل بيئتي ، وبينه وبينها تلك الهوة السحيقة؟» .
«كيف تصورت أنى عرفته قبل أن ألقاه ، وإنى لمن قوم يتقربون إلى الله بلعن الفرنجة الذين عاش بينهم وخالطهم؟» .
«وعدت أسأل شيخى فى إنكار :
«ومن روما تزود ببضاعة الفرنجة ، ليجدد بها الفكر الإسلامى؟» .
«فتبسم ضاحكاً من قولى وأجاب معقّباً :
«وإلى بلاد الفرنجة سافر الإمام الشيخ محمد عبده ، وفيها عاش . وفى بلاد الفرنجة تعلم ولدى محمود - الدكتور محمود فوزى عميد وزراء الخارجية - وفى روما نفسها ، كان يعمل قنصلاً للمفوضية المصرية مع الأستاذ الخولى إمامها ، بعيداً عن ديار الإسلام!» .

(٣٠)

أما حديث بنت الشاطىء عن اللقاء نفسه ، اللقاء الأول بين الحبيبين أو بين المحب وبين منْ أرادَه حبيبا فيبدو لنا وكأنه قد حدث لتوه وكأنها ما تزال تستعيد المشاعر المتضاربة التى غذت نفسها فى تلك اللحظات ما بين تهيّب وتشوق ، وهى لا تزال سعيدة باللقاء حريصة على أن تستعيد ذكراه ، مع أن الرجل قد رحل :
«من بعيد ، «أقف عند نهاية المطاف أستجدى الزمن رجعة إلى الأمس السعيد الذى ولى وراح»
«وأتسول غفوة حاملة تحملىنى إلى حيث أفضى بى المسعى إلى دربه ، فى يوم ميلاد لى جديد!» .

«هناك ..» «حيث أخذت مكانى فى قاعة الدرس بالجامعة ، متحفزة للجولة الباقية لى على الطريق ، ومستجمعة كل رصيدى المتضخم من زهو الطموح وإرادة التفوق ، ومتأهبة لعرض بضاعتى التى تزودت بها من مدرستى الأولى ، فى تحد واثق من النصر» .
«ودخل «الأستاذ الخولى» بسمته المهيب المتفرد ، فألقى علينا التحية واقترح ، لكى نتعارف ، أن يعرض علينا مباحث المادة المقرر علينا درسها من علوم القرآن ، ولكل طالب أن يختار مبحثاً منها ، يعده ويعرضه للمناقشة فى الوقت الذى يحدده» .

«وبادرت فأعلنت اختياري للمبحث الأول ، فى «نزول القرآن».

«وعندئذ سرت فى القاعة همهمة ساخرة من هذه المبادرة الحمقاء ، فتوقعت أن يحسمها الأستاذ بالمشهور من جده وصرامته ، لكنه لم يلق إليها بالا ، واستطرد يعرض بقية المباحث ، وأنا أتشأغل عن غيظى المكظوم ، بالفرج على عدد من الزملاء فى صراعهم المكشوف على المباحث الأخيرة ، إرجاء للموقف الصعب».

«وعاد الأستاذ يسأل كل طالب منا ، عن الوقت الذى يحتاج إليه فى إعداد بحثه ، فأجبت فى عناد وشموخ:

«يكفينى يوم أو بعض يوم!».

«قال فى نبرة إشفاق وتحذير :

«كذا!!؟ فكرى ملياً ، فرجما بدا لك أنك فى حاجة إلى مزيد من الوقت».

«وأبيت أن أترجع!».

«ولماذا أترجع ، ومبلغ علمى أن المادة مبذولة جاهزة ، ومصادرها الأصلية فى متناول يدى ، فلن يحتاج الأمر معى إلى أكثر من بضع ساعات للمراجعة ، وبضع ساعات أخرى للتنسيق والكتابة!».

«ولم يفتنى أن الأستاذ يرانى تورطت فى هذا التعجل ، فكأنى خشيت أن يأخذ عنى فكرة خاطئة ، فقلت أسأله مدلة [أى فخورة] بما أملك من ذخائر علمه:

«هل يكفى أن أراجع فى موضوعى كتاب «البرهان» للبدر الزركشى ، وكتابى «الانتقان ، واللباب» للجلال السيوطى ، مع الاستئناس بالسيرة الهشامية ، وطبقات ابن سعد ، وتفسير ابن جرير الطبرى؟».

أجاب :

«كتاب واحد منها يكفى الآن ، لو أنك عرفت حقاً كيف تقرئين!».

(٣١)

عند هذه اللحظة تبدأ صاحبة المذكرات إحساسها بالصدمة ، الصدمة التعليمية الحقيقية التى جعلتها تفتيق وتتحول من طريق التحصيل إلى الطريق الذى كان لابد لها أن تمضى فيه ، وهو طريق التفكير:

«وكان هذا ، آخر ما توقعت أن أسمع!».

«المثلى يقال ذلك ، وما من كتاب من أصول العربية والإسلام يعينى أن أقرأه؟» .
«وكبحت غضبي وأنا ألتمس للأستاذ العذر ، فلعله يتصور أنني كغيري من الطلاب ،
وفيهم حقاً من لا يعرف كيف يقرأ!».
«ما ذكرت هذه الكتب إلا لأنى قرأتها واستوعبت ما فيها ، وإنما كان سؤالى عن
مصادر أجنبية ، ظننت أن الأستاذ قد يضيفها إلى مراجعى!».
«فما زاد على أن قال :
«لو أدركت الفرق بين المصادر والمراجع ، لما تورطت فى مثل هذا السؤال المنكر!».

(٣٢)

على هذا النحو تصل بنت الشاطىء إلى ذروة «الصدام» المحبوب فى لقائها بأستاذها ،
وهو اللقاء الذى تترجم بعد هذا مباشرة إلى العلاقة الرائعة التى بدأنا بتحليلها فى حديثنا
فى هذا الباب ، وهما نحن نراها وقد روت بعض ما مرت به فى حياتها الأولى من جهاد
علمى ومدرسى واجتماعى ، وكأن كل هذه المعاناة لم تكن إلا طريقاً للوصول إلى
الحبيب! أى إلى هذا الأستاذ الذى استنكر عليها ألا تعرف الفرق بين المصدر والمراجع .
فهل لنا الآن بعد كل هذا الطريق أن نتأمل فيما ترويه بنت الشاطىء عن المكونات
الأخرى لوجدانها الثرى!

الحق أن بنت الشاطىء كانت حريصة على إبراز دور الميتافيزيكيات فى هذه الحياة فى
جميع مراحل حياتها ، وهى على سبيل المثال تحكى عن رؤيا رأتها فى إحدى ليالى صباها
فتقول:

«غير أنى عندما أويت ليلتها إلى فراشى ، رأيتنى فى المنام جالسة فى مقعدى بحجرة
الدراسة ، وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة لمكانى ، ويعطينى لفافة
خضراء ثم يحلق عالياً فى السماء . ولما فتحت اللفافة ، وجدت فيها مصحفاً شريفاً لم تكن
عينى قد وقعت من قبل على مثله فخامة وبهاء!».

«وكنت بحكم نشأتى فى بيئة بحرية نهريّة تموج بالأساطير وتجسم تهاويل الخيال ، ثم
بحكم بنوتى لشيخ متصوف يعد الرؤيا الصادقة من علامات صفاء البصيرة وإشراق
الوجدان. أقول: كنت بحكم ظروف نشأتى وبيئتى ، أنفعل بالأحلام وتأثر بالرؤى ، فلما
صحوت من نومى ، أدركت عن يقين أن حياتى كلها مرتبطة بهذا المصحف ، هدية السماء
إلىّ فى رؤياى».

«ومن يومها ، لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ العلماء ، وصار مكاني المفضل في خلوة أبي بجامع البحر ، أحاول أن أسبق عمرى وأتجاوز القدر المدروس لى من علوم الإسلام».

«ومن رؤيا الصبا هذه ، امتد الخيط غير المرئى ، بين ذلك الشوط الأولى على شط النهر ، وبين ما انتهى إليه طريقى العلمى من تلمذتى للأستاذ أمين الخولى ، وتخصصى فى دراسة النص القرآنى ، على منهجه».

«أقول هذا وأنا أتمثل نفساً من قومى ، يهزون رءوسهم حين يسمعون ما أروى من حديث رؤياى ، استنكاراً لتأثرى بحلم عابر فى منام صبية لم تكمل العاشرة من العمر».

«ولعلمهم لو نشأوا فى مثل بيئتى ، وتلقوا ما تلقيته من ميراثها النفسى والعقلى ، لما أنكروا من الأمر شيئاً».

«ومن عجب أنهم لا يستغربون قصة أجنبية تقوم عقدتها على رواسب فى أعماق الذات من عهد الطفولة».

«وإنهم ليقرأون بشغف وتقدير ، بحوث علماء النفس المحدثين فى الأحلام وبواعثها وآثارها وأصدائها وظلالها ، حتى إذا قالها قائل منا ، من صميم واقعه ، عجبوا وتندروا ، ناسين أننا بشر ، قد يغلب أثر الرؤيا فىنا ، حكم الواقع».

(٣٣)

وفى موقف آخر تعود صاحبة هذه المذكرات إلى الاعتراف أو الإقرار بدور هذه القوى الخارجية فى تشكيل وجدانها وإحساسها بالتوفيق فى خطوات حياتها:

«ففى استعدادى لامتحان الشهادة الثانوية ، قسم أول ، عام ١٩٣٢ ، أفرغت جهدى فى تحصيل المقرر علينا من دروس الإنجليزية والفرنسية ، وكتب الطبيعة والكيمياء».

«وسرقتنى الوقت فغفلت عن إحضار كتاب «تاريخ أوروبا الحديث» المقرر على السنة الثالثة الثانوية ، ولم أنتبه إلى ذلك حتى افتقدته قبيل الامتحان».

«ولم يكف الوقت لاستيعاب كل ما فى الكتاب ، فساورنى ليلة امتحان التاريخ شعور بالقلق ، لم أملك حياله إلا أن أفوض أمرى فيه إلى الله تعالى».

«وأخذتني سنة من نوم ، فرأيت فيما يرى الخالم أننى فى قاعة الامتحان أقرأ من ورقة التاريخ ، أول سؤال فيها عن «مارتن لوثر وحركة الإصلاح الدينى».

«وصحوت من غفوتي ، فلم أتردد في مراجعة هذا الفصل الذى كان قد فاتنى من الكتاب ، واثقة كل الثقة أن الامتحان فيه» .

«وحين وزعت علينا أسئلة التاريخ فى الصباح التالى ، لم أعجب لصدق الرؤيا ، وازددت يقيناً بأن الله معى .. على الطريق» .

(٣٤)

ولابد لنا فى نهاية هذا الباب من كتابنا أن نعرض للقارئ قصة اختيار صاحبة المذكرات لاسمها الجميل الشهير الذى عرفت به طيلة حياتها:

«... فى تلك الأيام على التحديد ، عندما بدا لى أن أتجاوز لقلمى نطاق المجلة الشهرية المحدودة التوزيع - حيث لا احتمال لأن تصل إلى محيط والدى والأسرة - إلى الصحف اليومية والمجلات الكبرى ، فكرت فى التستر وراء اسم مستعار ، لئلا يعلم أبى بالأمر فيغضب وينكر ويصدر قراراً يحرم فيه على مكاتبه الصحف والاتصال بها ، وذلك ما لم تكن تقاليد البيئة والجيل تسوغه لحريم العلماء!» .

«ولم يطل بى التفكير فى اختيار الاسم المستعار ، بل كان أول ما خطر على بالى هو أنى أتمنى إلى الشاطىء ، مهد مولدى وملعب طفولتى ومدرج حدائتى ومجلى تأملاتى ، والمسرح الذى شهد مأساة فاجعة قيدتنا إليه بقيود لا فكاك منها» .

وهكذا اختارت عائشة عبد الرحمن لنفسها هذا الاسم الجميل الذى ظلت تعرف به طول العمر «بنت الشاطىء» .

«وإن كنت تعلمت من ذلك الدرس القاسى الذى ألقاه على ، أن أتخاشى التفاضح فى القرية ، وأنجنب التشدق بالألفاظ الفخمة التى لا تدور على ألسنة القوم هناك ، كيلا يظنوا بى أنى أنعمالم عليهم وأغض من أميتهم!» .

«بل لقد تعمدت كذلك أن أتكلم بلهجة ريف المنوفية ، كى أتقى سماع عبارة «ما نابك من غربتك إلا عوج ضبتك» ، بما تثير فى وجدانى من إحساس بجرح انتمائى إلى البلدة الجميلة الطيبة» .

«وإذا كنت قد حرمت فى القرية ، من يومئذ ، لذة الزهو بما حصلت من مبادئ العلم ، فقد بقى لى فى دمياط مجال الزهو بما أتيج لى دون لدانى وصواحبى ، من حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف والمدائح النبوية والأناشيد الصوفية» .

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحريّة

2

**السيدة من مصر
للسيدة جيهان السادات**

دار الخيال

(١)

أتيح للقارئ العربي بهذا الكتاب أن يقرأ للسيدة جيهان السادات بعض ما كان يود قراءته لها ؛ لا سماعه عنها منذ زمن بعيد ، وهذه هي السيدة الأولى التي لم تُسبق إلى ما سبقت إليه في عصرنا الحديث ، والأولى (سابقاً) في البروتوكول المصري ، تتحدث إلى القارئ العربي على مدى صفحات طوال حديثاً لا تعوزه الصراحة ، ولا يكتنفه الغموض ، ولا تحيط به المخاوف .. وهو مع هذا حديث متحفظ في كثير من ثنياه لا يضيف أعماقاً ولا أبعاداً ولا أسراراً إلى ما عرف الناس عن صاحبتة من خلال شائعاتهم التي قد يصدقونها بعد أن يرووها ، أو من خلال صحافةٍ تزين للناس ما تزين ، ثم تروى لهم عكس ما زينت بالأمس .

هذا كتاب يتمنى منه القارئ أن يتعمق ذات صاحبتة ، فإذا هي لا تساعد على هذا حتى وإن فرضت ذاتيتها في كثير من أرجائه .. كتاب يود القارئ لو طالت بعض فصوله عما هي عليه ليستقرى تجربة سيدة أظهرت من الآثار الفاعلة والفعالة ما لم يظهره كثير من المتكلمين . ومع هذا فإن القارئ لا يجد من تجربتها إلا نتائجها ولا من أعمالها إلا ما يطالع الناس من إنجازات .. وباستثناء موقف أو موقفين فهي لا تدلنا على الإطلاق على مفاتيح نجاحها وكأنما جاء نجاحها كما يظن كثير من الناس صدفة مع أنه لم يكن كذلك .

ومع هذا كله فإن هذا الكتاب نموذج ممتاز للصدق النفسى الممتاز الذى تُكتب به الكتب

التي تتناول السيرة الذاتية.. وهو نوع ثالث من الصدق غير الصدق الواقعي ، وغير الصدق الفني ، صدق يتواءم مع ما في نفسيات القراء الذين توقعهم المؤلف حتى وإن لم يكن النقاد من هؤلاء القراء المتوقعين.

وهذا كتاب من أربعة عشر فصلاً شاءت مؤلفته (أو وافقت على) أن تجعل له ترتيباً كترتيب الأفلام السينمائية ، تبدأ الفصل الأول بما ينتهي به الفصل الرابع عشر ، ثم هي تختار من حياتها ومن حياة زوجها - الراحل العظيم - علامات هامة تجعلها محاور لفصول كتابها الكبير ، فهي تحدثنا في الفصل الأول عن طفولتها في القاهرة ، ولكنها لا تعطى هذا الحديث حقه بقدر ما تعطى الجانب الذي تريد إثباته للناس من عراقة جذورها وأصولها «البريطانية» دون أدنى حاجة عند القارئ المحب لها إلى هذا ليزداد حباً ، ولا عند القارئ المبغض ليقبل كرهاً. وتنتقل السيدة جيهان السادات في سرعة بالغة في الفصل الثالث إلى تصوير علاقتها بحبيب عمرها ولا تنسى أن تدلنا في هذا الفصل على خطاب ثلاثة لها آثرت عليهم هذا الثائر ، وتروي لنا السيدة جيهان السادات في الفصل الرابع قصة قيام الثورة بما لا يزيد ولا ينقص في معلوماتنا ، ولكنها تستطيع أن تجدد فينا التقدير العميق لمكانة أنور السادات حين تضع في أول هذا الفصل صورة رجال الثورة أجمعين في صورة بروتوكولية يقف فيها أنور السادات إلى جوار عبدالناصر مباشرة .. وربما انطبق على هذه الصورة قول القائلين بأهمية الصور التي تغنى عن كتب أو فصول على أقل تقدير.

ثم تخصص السيدة جيهان السادات الفصل الخامس للحديث عما أسمته فترة عبدالناصر ، وهو تعبير سيئ حتى وإن كان مترجماً ، ويأتي بعد هذا أعظم فصلين في هذا الكتاب أو أعظم فصلين كتبتهما السيدة جيهان السادات على الإطلاق وهما الفصلان السادس «الحياة في القرى» والسابع «أوجاع مصر» وقد أجادت السيدة جيهان السادات في تصوير القرية المصرية في الفصل السادس على نحو لا يتأني إلا للأدباء المطبوعين ، وربما ساعدها على ذلك نضج تجربتها حين كانت تختزن في عقليتها ما كتبه بعد ذلك من تجربة الحياة في القرية المصرية ، وربما ساعدها أكثر تحررها التام من ذاتها حين كتبت وهي (بنت المدينة) فكتبت وقد توفر لها الاطمئنان النفسى أنها تكتب من علٍ فهي تُنصف في طمأنينة ، وتتقد في طمأنينة أيضاً.

أما الفصل الخاص بأوجاع مصر والذي يتحدث عن هزيمة ١٩٦٧ فلا بد للمؤرخين الأفاضل أن يحتفظوا به بين الوثائق التي يريدون بها تصوير ما حدث في ذلك اليوم الأغر كما يقولون ، أو ما حدث من جراء ذلك اليوم الأغر ، ولا بد لنا أن ندرك كيف أن السيدة

جيهان السادات كانت هي الأخرى في صباح ذلك اليوم وفي ضحاها مؤمنة تمام الإيمان أننا قد دمرنا من الطائرات الإسرائيلية فوق المائة ، فإذا كانت الزوجة «الأكثر دينامية» بين زوجات الثوار والمستولين جميعاً على هذا اليقين فقل يومها إن على الدنيا السلام ، وقد كان بالفعل .

تخصص السيدة جيهان السادات بعد ذلك الفصل الثامن للحديث عن الفترة الأولى من حكم زوجها حين كان عليه أن يتخلص من مناوئيه ، وتجعل السيدة جيهان السادات عنوان هذا الفصل «الخيانة والغدر» ، وهو عنوان جميل جداً من دون أن تقصد السيدة جيهان السادات ، فأما الخيانة فكانت - كما تريد السيدة جيهان السادات أن تقول - من هؤلاء المساعدين ، وأما الغدر فقد سبق إليه أنور السادات حين غدر (وهذا حقه) بمن كانوا يريدون الغدر به في الصباح ، فأبقاهم ليلتهم في المعتقلات إلى أبد الأبدين ، حتى وإن خرجوا من المعتقلات المادية بعد حين .

وتحكي السيدة جيهان السادات في الفصل التاسع قصة الحوادث التي سبقت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتجعل لهذا الفصل عنواناً رومانسياً لا علاقة له بالموضوع أبداً «دم إبراهيم» ، ولكنها تبدأ هذا الفصل بالحديث عن رحلتها للعمرة!! وتحكي للقارئ (السائح) بعض معلومات من معلومات الأدلة السياحية عن الأراضي المقدسة والإسلام ، وبعثة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام .

تخصص السيدة جيهان السادات بعد هذا الفصل العاشر للحديث عن نشاطها في المجتمع تحت عنوان «مكتب السيدة الأولى».. ثم عن جهودها في مجال الأحوال الشخصية للمرأة المسلمة بوجه خاص تحت عنوان «المرأة في المجتمع الإسلامي» وهو عنوان الفصل الحادي عشر.. ثم تقص علينا قصة السلام ومبادرته (الفصل ١٢) ثم قصة اغتيال زوجها (الفصل ١٣: باسم الله)... وهكذا .

(٢)

لعلنا نبدأ الآن في مدارسة كتاب السيدة جيهان السادات ، وقبل أن نشرع في هذا لابد أن نذكر لها بكل العرفان والشكر مبادرتها إلى كتابة هذا الكتاب على النحو الذي نراه اليوم وغداً في المكتبة العربية .

وقد نجحت السيدة جيهان السادات بهذا الكتاب أن تضع نتاج قلمها بين حصيلة

الأقلام الكثيرة التي تناولت هذا الفترة من عمر هذا الوطن ، وقد أحسنت صنعاً حين تصدت لهذه المهمة أياً ما كان دافعها إليها ، وربما كان هذا هو النتاج الفكري غير الأكاديمي للسيدة جيهان السادات في المكتبة العربية ، ولعل في هذا ما يشفع لها حتى وإن كانت حائزة للدكتوراه في آداب اللغة العربية حين ننقد كتابها.. ومع هذا فلا بد لنا أن ننقد هذا الكتاب على النحو الذى ننقد به كتب التراجم الذاتية حتى وإن كتبها الذين ترمسوا بالكتابة قبل أن يكتبوا ترجمتهم.

(٣)

ولأنى أحب السيدة جيهان السادات حباً حقيقياً فإنى أفضل أن أبدأ بالإشارة إلى أضعف ما فى هذا الكتاب.

وأضعف ما فى هذا الكتاب هو أنه ترجمة حرفية للطبعة الانجليزية [الأمريكية].. وللكتاب حين يكتب أن يختار اللغة التي يكتب بها ، وله فى ذلك أن يصدر عن تقديره للغة أو لأهلها ، وله فى ذلك أيضاً أن يصوغ عباراته ومجازاته (اللفظية واللغوية كذلك) على النحو الذى يروق لأهل اللغة التي كتب بها. وله أن يترك الأمر بعد ذلك لأى صديق قادر على الصياغة ليكتب تلك الفقرات مرة أخرى.

ولكن مشكلة كتاب السيدة جيهان السادات أننا نقرأ فيه بالعربية ما كتب فيه بالانجليزية على نحو ما تتحمله اللغة الإنجليزية ، أى على نحو ما تكون الكتابة بالإنجليزية حتى بعد أن أصبح المعنى مكتوباً بحروف عربية. وتزداد الطامة حين نجد أن هذه الروح لا تنحصر فى فقرة أو فقرتين ، وإنما هى تمتد طوال الكتاب كله: تسيطر على فصوله وصفحاته بل وفقراته.. حتى ليكاد المرء يفقد إحساسه بالتواصل مع المؤلفة .. أقصد ذلك التواصل الذى يكون بين المرء ومواطنيه.. أو كما يقول المصريون والايطاليون فى لغتهم الدارجة : بلدياته!؟

وتتضح صعوبة هذا الخلق (الذى قد ينفر القارئ من كتاب السيدة جيهان السادات) فى روح كثير من الفقرات وفى نص كثير من الفقرات.. والأدهى والأمر أن يتبلور هذا أيضاً فى وحدات القياس ومفردات التمييز ، فنجد السيدة جيهان السادات تلجأ فى تعبيرها عن المسافات إلى الوحدات الأمريكية فتقيس المسافات بالميل لا بالكيلومتر ، فالمسافة بين القاهرة وبورسعيد (١١٠ أميال) وبينها وبين الإسماعيلية ٨٠ ميلا ، وهكذا تفعل فى

المسافات الصغيرة أيضا : ألف ياردة من قصر عابدين .. بوسع القارئ أن يراجع الصفحات أرقام ٢٤ و ٨٤ و ١٤٧ و ٤٧٢ على سبيل المثال.

وهكذا لا يأتي الحديث عن الأوزان إلا بالرطل ، ولا عن الحرارة إلا بالدرجات الفهرنهايتية لا الدرجات المئوية (انظر صفحة ٣٢٩) ، وكذلك نجد الحديث عن دبل الخطوبة: الخاتميين (صفحة ١٢٣) ، وعن المهر وتقسيمه .

على هذا النحو تشكل أمامنا من نصوص هذا الكتاب مأساة ، ولكن هذه المأساة لا تعبر عن إحساس بالتبعية عند هذه السيدة كما قد يحب البعض (أو قد يسارع) أن يحكم عليها ، ولا عن إحساس هذه السيدة بضرورة مجازاة الأمريكان ، ولا عن شغفها بمجاراتهم ، ولكنه في واقع الأمر يمثل ما هو أهون من ذلك كله وما هو أخطر من ذلك كله وهو الإهمال ، إهمال القارئ العربي ، مع أن بين القراء العرب من هو أهم بتوجيه هذا الكتاب إليه من كل القراء الأمريكان.. ولنذكر أن ما في هذا الكتاب من تاريخ لن يندرج إلا تحت تاريخ مصر حتى وإن كتبه أو نشره الأمريكيون!!

ولكن الذى لا يجوز أبداً هو أن يهمل الكاتب أهل لغته الأصلية حين يقدم لهم نسخة (عربية) من الطبعة الإنجليزية فلا يكلف نفسه بضع ساعات يقرأ فيها الطبعة العربية ، ويشير بقلمه فقط على الفقرات التى يعرف بحسه العربى أنها لن تروق لمواطنيه ، أقول يؤثر فحسب ويترك التنفيذ لمن لهم القدرة على التعديل .



على أن السيدة جيهان السادات قد أضاعت فرصة ذهبية أتاحت لها حين ألفت هذا الكتاب ، فقد كان فى وسعها أن تتناول كثيراً من القضايا التى أحاطت ببعض تصرفاتها وسياساتها من دون أن يعرف الجمهور وجهة نظرها فى هذه القضايا ، على الرغم من تطلع الناس لسماع وجهة النظر هذه وترقبهم لرأى السيدة جيهان السادات شخصياً فيها.. فإذا بها تخذل محبيها الذين كانوا على استعداد لتبنى وجهة نظرها وإعادة رواية رؤيتها للقضايا على نطاق أوسع.. وقد كان فى إمكان السيدة جيهان السادات أن تخلص هذه القضايا وتبحث لها فى ثنايا كتابها عن مواضع مختلفة تضع فيها رؤيتها لهذه القضايا بحيث يجد فيها المؤرخون بعد ذلك بنوداً أو نصوصاً يدافعون بها أو يستشهدون بها فى مواجهة الحملات الأخرى التى لم ولن تتوقف ضد هذه السيدة لسبب وجيه هو أنها زوجة الرجل الذى استطاع أن يحول تاريخ المنطقة التى قادها على نحو لم يسبق إليه .

تحملت السيدة جيهان السادات حقيقة بالشجاعة في كتابها هذا ، واستطاعت اختراق كثير من مناطق الخطر في التاريخ أو في الكتابة التاريخية ، بيد أن الفرصة كانت متاحة لها أن تمضى في هذا الخط الشجاع إلى أبعد مما وصلت إليه إن لم يكن من أجل الحقيقة فمن أجل دفاعها عن معتقداتها وأرائها ، ومن أجل الدفاع عن نفسها تجاه ما قد توارثه الأقلام من شائعات محيطة بنشاطها واسع النطاق الذي لم تسبق إليه ، وربما لن تلحق لأنه يندر بعد وقتها أن تجد من يؤمن بما آمنت به بعدما أصاب سيدها اسمها السيدة جيهان السادات رذاذ كثير من جراء تصديها الشجاع لكثير من العمل الشجاع.

ومما يعجبني في هذا الكتاب [وأرجو أن يعجب القراء كذلك] أن هذه السيدة لم تنجح في تغليف عباراتها الناقدة لبعض السياسات أو الساسة ببعض ما يحفظ على هذه الآراء ظاهرة الموضوعية ، ولعل هذا الخلق في الكتابة الصريحة كان خيراً كله ؛ حين أتاح للقارئ مثل هذه الآراء الصريحة الواضحة من دون لف أو دوران ، ربما كانت طبيعة الأثني في السيدة جيهان السادات وراء مثل هذا الأسلوب ، ولكن الذي لاشك فيه أن تمرسها بمثل هذه الأدوار لم يكن إلا تمرس سيده تحولت إلى سيده أولى مرة واحدة .. فلم تعان ما عاناه زوجها على سبيل المثال من أجل الوصول إلى مكانة «السيد الأول». ولهذا فلم يتمكن منها خلق «التقية».. وهي اليوم تخوض الحياة أيضاً ، ومعها ماض لم يكن فيه لخلق التقية نصيب يذكر.

ولعل أبرز الأمثلة على هذا التوجه في مذكراتها ما نراه في صفحة ٢١ من حديثها إلى السيدة سوزان مبارك في انتقاد وزير الدفاع المشير أبو غزالة ومقارنة العرض الذي يجري تحت إشرافه بالمعروض التي كانت في عهد الوزير السابق المشير الجمسى.



أما أبرز الأخطاء التاريخية في هذا الكتاب فهي تلك التي تتعلق بالأشخاص وسنعدد بعضها:

(١) الحديث عن الدكتور فؤاد محيى الدين نائب رئيس الوزراء على أنه رئيس الوزراء ثلاث مرات (حوالي صفحة ٣١ و٣٢).

(٢) الحديث عن مجمع الأديان الذي كان السادات ينوى بناءه في سيناء على أنه يضم معبداً يهودياً ومسجداً (وتنسى الكنيسة!!!).

(٣) الحديث عن الدكتور يوسف رشاد رئيساً للمخابرات الملكية (تقصد الحرس الحديدي) صفحة ١٤٨ (ربما يكون القصور في اختيار المترجم لهذا المصطلح ، أو في افتقاد تعليق للمترجم يوضح قصده من الترجمة على هذا النحو).

(٤) الحديث عن إسماعيل شيرين على أنه عدل الملك السابق فاروق مع أنه زوج أخته (ربما يكون سبب العيب من الترجمة أيضاً).

(٥) الحديث عن على صبرى فى ١٩٧١ على أنه رئيس الوزراء (صفحة ٢٩٨) مع أنه لم يكن كذلك إلا فيما بين ١٩٦٢ و١٩٦٥ ، وفى ذات الصفحة الحديث عن الفريق فوزى وزيراً للدفاع (كان للحربية).

(٦) الحديث عن حكمت أبوزيد (صفحة ٣٠٦) على أنها السيدة فى الوزارة .. مع أنها كانت فى الظل تماماً وبعيدة عن الوزارة تماماً منذ ما قبل نهاية حكم عبدالناصر بخمس سنوات .. وستجد هذا الخلط دائماً فى أسماء الوزارات الثلاث كأنهن لم يكن فى المكانة الأولى فى الدولة.

(٧) يأتى ذكر عبد الآخر محمد عبد الآخر (حلمى عبدالآخر) على أنه وزير للعدل (صفحة ٤١٨) ، بينما لم يكن كذلك أبداً ، وإنما كان وزيراً للشئون مجلسى الشعب والشورى.

(٨) يأتى الحديث عن وزيرة الشئون الاجتماعية وقت استصدار قوانين الأحوال الشخصية الجديدة (صفحة ٤٢٢ على أنها الدكتورة عائشة راتب) ، ويتكرر هذا الخطأ مع أن كل الناس يعرفون أن الدكتورة أمال عثمان هى التى كانت وزيرة الشئون فى ذلك الوقت ، حتى وإن بدأت عائشة راتب التفكير مع جيهان السادات فى هذه التعديلات قبل ذلك ، وإلى أن تركت الوزارة فى ١٩٧٧ .

(٩) الحديث عن الميثاق (صفحة ٣٦٨) على أنه «القانون» ، وهذا ناشئ عن الترجمة من الإنجليزية دون وعى بالمسميات الاصطلاحية العربية .

(١٠) الخلط الواضح الذى ينبئ عن خطأ فى الوعى بالتاريخ عند من كتب هذه المذكرات حين تروى السيدة جيهان السادات (صفحة ٤٣٥) أحداث يوم من أيام ١٩٧٧ فتقول إنه كان عليها أن تستعد لمحاضراتها من أجل طلبتها فى الجامعة .. بينما لم تكن السيدة جيهان السادات فى ١٩٧٧ قد تخرجت بعد فى الجامعة!!! كانت لا تزال طالبة!!! وربما انطبع فى ذهنها أنها كانت تعد لمحاضرة عامة .. ولكنها لم تكن لطلبة على الإطلاق!!!

نأتى بعد هذا إلى بعض الأخطاء التى فرضتها الترجمة غير الدقيقة لهذا الكتاب ، وهى الترجمة التى كان ينبغى لها أن تحظى بمراجعة أشد اهتماماً وأطول نفساً وأقدر على صياغة المعانى فى لغة عربية أكثر سلامة ودقة وتعبيراً :

(١) من الأمثلة الشاهدة على الجمل التي قد تترجم (هكذا) بحسن نية فيكون لها أسوأ الأثر في صياغتها العربية حين تبدو كأنها تعبر عن معنى غير مقصود على الإطلاق ، تلك العبارة في صفحة ١٠٦ في حديث جيهان عن خروجها مع أنور السادات قبل عقد قرانهما: «... ونخرج معاً وبدون أى ارتباط رسمي.. ولكننا لم نستطع أن نسيطر على أنفسنا. لقد فقدنا السيطرة على عواطفنا وملأ الحب قلوبنا» ، ماهو المقصود حقيقة؟

(٢) نرى التعبير عن الناس بألقابهم من دون الأسماء الأولى على نحو ما يحدث ، مع ما يمثله هذا من خطورة على فهم الكتاب حين يقرأ بالعربية.. فالوزير عثمان في هذه المذكرات ليس عثمان أحمد عثمان على نحو ما نتحدث العربية في مصر ، ولكنه هو أمين عثمان الذى قُتل قبل الثورة.

(٣) نرى قصة «الأمال العظيمة» وهى أثر أدبى عالمى مشهور ، وأصبح لترجمته العربية وجود محسوس ، ولكن القائم على ترجمة كتاب جيهان السادات يجهل ذلك ، وعلى هذا النحو الاسم المترجم لهذه القصة هو: «التوقعات العظيمة» (صفحة ١١٤).

(٤) فى الحديث عما يقول الزوج لوالد العروس نرى ألفاظاً من قبيل «وأخذها تحت رعايتى.. وأعد بأن أعطيها حمايتى» (صفحة ١٢٦) وفى (صفحة ١٤١) مثل ذلك: القسم الذى أخذه مع والدى!! وهذا هو منتهى التعبير عن عجز الترجمة عن الوصول إلى الكلمات البسيطة التقليدية التى يعرفها ويتداولها كل الأزواج والأصهار فى هذه المناسبة ، وهى كلمات يحفظها كل العامة بحكم حضورهم المتكرر فى هذه المناسبة السعيدة.. أما هذه الكلمات الغريبة فتصدم قراءنا.

(٥) أما أسوأ أخطاء الترجمة فهو التعبير عن زوج عمته بابن عمى (من صفحة ٨٧ وحتى صفحة ١٠٣) ، وهكذا يمكننا أن نشكك هل كانت عمه «دينا» عروس جمال هى عمته أم خالتها؟ فكلا الأمرين يعنيهما نفس اللفظ فى اللغة الإنجليزية ، وقد أشرت فى موضع آخر من كتبى إلى الصعوبة التى تنشأ عن أن أولاد العم وأولاد الخال وأولاد العمه وأولاد الخالة (والإناث منهم كذلك) يجمعهم جميعاً لفظ واحد فى اللغة الإنجليزية ، بل إن الصعوبة تتضاعف أيضاً حين نجد أزواج هؤلاء (إناثاً وذكوراً) يتمتعون بنفس اللقب.

ومن العجيب أن الكتب التى تكتب عن تاريخنا باللغة الإنجليزية لا تنتبه إلى التفريق ،

فإذا ما تمت ترجمتها إلى اللغة العربية وقعت الترجمة في المحذور فجعلت ابن العمدة - على سبيل المثال - ابن خال أو ابن عم أو ابن خالة حسبما يتراءى للمترجم أن يترجم اللفظ الإنجليزي في هذه اللحظة ، وربما جاز أن يترجم اللفظ على نحو صائب يتمشى مع الحقيقة فيجعله ابن العمدة .

(٦) الحديث عن «المطوف» الذى يتولى إرشاد الحجاج بمسمى «الدليل الرسمى» (صفحة ٣٢٤).

(٧) فى وصف السادات مبتدعاً (صفحة ٣٥٤) وهى تقصد بالطبع مبدعاً أو غير تقليدى (مع التحفظ على المدلولات الثلاثة والفروق الأساسية فيها).

(٨) فى صنفحة ٣٥٥ وصف سياسات عبدالناصر بالانعزالية وهى تقصد الانغلاقية (اقتصادياً).

(٩) طه حسين أصبح (صفحة ٣٦٥) أشهر فقهاء مصر فى الأدب العربى!! تعبير جميل ولكنه غريب!!

(١٠) مع هذا ينبغى أن نشيد بتعبير جميل جاء كنتيجة للترجمة الحرفية فأصبح أكثر دلالة على المقصود من التعبير الاصطلاحى المستتر ، أقصد تعبير «استئصال الأمية» بدلاً من «محو الأمية» (صفحة ٤١١).

(١١) هل سمع القارئ ووصفاً لمحاربين قديمين حارباً بعضهما بأنهما شريكان قديمان فى المعركة (صفحة ٤٤٠)؟؟ وهل سمعت عن كنيسة تسمى كنيسة عيد الصعود؟؟ (صفحة ٤٤١) ربما تكون القيامة!!!



هل لنا بعد هذا أن ننتقل إلى مجموعة ثالثة من الملاحظات التى تتناول مضمون كتاب جيهان السادات مباشرة ، ولنستأذن القارئ أن نمضى فى تعقب بعض أفكارها المباشرة وغير المباشرة.

فعلى سبيل المثال تنهى جيهان السادات مقدمة كتابها متمنيةً أن يساعد القراء «على فهمكم لمنطقتنا بما يغريكم على زيارتها» وهى عبارة تليق بخطاب إلى صديق أو بمنشور سياحى لا بكتاب سيرة ذاتية. ومن المفهوم أن مثل هذا الهدف وارد ولكنه فى كل الأحوال هدف ثانوى وليس بالهدف الأول.

ويرتبط بهذا النهج ما نلاحظه عن أن الملك فاروق يحظى باهتمام خاص فى كتاب

السيدة جيهان السادات ، وهو اهتمام مكثف ربما لم يحظ به الرئيس جمال عبدالناصر ، إذا أخذنا الأمور من منطق نسبية علاقتها بالرجلين اللذين حكما مصر في فترتين متواليتين .. ويبدو أن السيدة جيهان السادات تجد لذة في ظلم الملك فاروق بما كان يتردد من شائعات قديمة: ففي صفحة ٧٧ مثلاً نجدها تروى ببساطة أن فاروق كان لديه «تليفونات خضراء في كل مكان من قصوره واستراحاته ، وأنه فرض قانوناً يحرم تركيب التليفون الملون لدى أى إنسان آخر» ، وهذه جزئية لا تستأهل الوقوف عندها مثلها في ذلك مثل الحديث عن سياراته الحمراء.. إلخ ، ونجد كثيراً من الشائعات الشعبية التي تجد السيدة جيهان لذة في روايتها في حق حاكم سابق ، مع أنها تعلم أنها هي نفسها قد عانت بنفسها من مثل هذه الشائعات ، وبعد أربع عشرة صفحة نجدها تشجع الرواية المكررة من أن فاروق أخطأ في توقيع اسمه على مرسوم التنازل فوق مرتين ، وترد الأمر إلى جهله باللغة العربية !!! هكذا مع أن هناك أعذاراً أكثر منطقية ، فهناك من يقول إن هذه هي الأصول البروتوكولية ، وهناك من يقول إن السبب كان عصبيته.. إلخ !! وبعد عشر صفحات تعبر صاحبة المذكرات مرة أخرى عن سعادتها بالظلم الذى يتعرض له الملك فاروق وذلك بدون أى داع.

(٤)

وليس من الصعب علينا أن نكتشف أن أسلوب صاحبة هذه المذكرات في تسجيل مشاعرها يعكس ، حتى من دون أن تدري ، بعض المشاعر المعبرة عن انتمائها الدائم لما يسميه دارسو الاجتماع بالطبقة الوسطى الصاعدة وبعض معتقداتهم الخاطئة. وهى تقول - على سبيل المثال - فى وصف المدارس الأجنبية:

«إلا أن المدارس الأجنبية ظلت مفتوحة ومستمرة فى تقديم تعليم أفضل من المدارس الحكومية الجديدة».

ومن العجيب أن ترد هذه العبارة على لسان سيدة كانت فى ذلك الوقت من سيدات الصف الأول فى الحكومة الجديدة التى أجلت الإنجليز عن أرض الوطن ، ومع هذا فإن المذكرات لا تجد حرجاً فى أن توردها مثل هذا النص ، وأن تقول: إلا أن المدارس الأجنبية ظلت مفتوحة !! وأن تردف: لحسن الحظ .

طبعاً حسن الحظ هذا هو رأى السيدة جيهان ، ومع أن صاحبة المذكرات لا تتمتع بالوعى السياسى الذى يصور لها حقيقة الأمر شأنها فى ذلك شأن قادة الثورة أنفسهم ، فإن المفترض أنها وقد بلغت من العلم ما بلغت وأصبحت مدرسة للأدب القومى فى الجامعة الكبرى فى وطنها لا بد وأن تكون قد وصلت إلى الحقيقة ، لكنها فيما يبدو لم تصل إلى مثل هذه الحقيقة وأشباهاها فيما يتعلق بتاريخنا الاجتماعى وتطورنا التعليمى والتربوى على المستوى القومى!!!!



ويتكدرس خلق «التوجه نحو الأجنبى وثقافته» بقدر لا يتناسب على الإطلاق مع وطنية السيدة جيهان السادات وانتمائها ، بل ومع توجهها الفعلى فى الفترات التى تألفت فيها على مستوى الوطن ، ونحن نراها حريصة على أن تورد كثيراً من الصور البيانية أو الأدبية لا لشيء إلا ليتمشى الكتاب مع طبيعة الكتابة الإنجليزية ، ويحدث هذا على سبيل المثال فى الإكثار من الجمل الاعتراضية التى تتحدث عن الطبيعة ، وليت هذا الخلق وجد فى مذكراتها على نحو ما هو شائع فى الأدب الإنجليزى ، ولو حدث هذا لأمكن ابتلاعه ، ولكننا نلاحظ بكل وضوح أن التشويه (أو اسنوه) هو السمة الغالبة لكثير من هذه الصور التى تقرأها فى هذا الكتاب بالصياغة العربية فإذا هى بلا معنى وبلا مضمون ، وذلك كالحديث عن الكثبان الرملية التى تبدو متماثلة ، مع أننا قد نعرف أن كل حبة رمل مختلفة عن غيرها (صفحة ٦٧) .. إلخ.

(٥)

يعكس هذا الكتاب إحساس السيدة جيهان السادات بذاتيتها المتميزة فى كثير من المواقف ، وللسيدة جيهان السادات أن تحس بهذه الذاتية وأن تعبر عنها ، لكن المشكلة أن بعض هذه التعبيرات تأتى صارخة أو زاعقة أو فاقعة بأكثر مما يحتمل الموقف نفسه ، وإليك نماذجاً منها على سبيل المثال:

(١) فهى أم الأبطال فى ١٩٧٣ ، وهى أم الشهيد فى ١٩٦٧ (صفحة ٣٤٣).

(٢) وقد كان لها شأن فى جماعات الإخوان المسلمين (صفحة ٧١).

(٣) وقد زودت الشيخ حسن البنا عن طريق جاره ببعض المال (صفحة ٧٦).

- (٤) وتنبأ لها عرّاف بأنها ستصبح سيدة مصر الأولى (صفحة ١٣٦).
- (٥) وكانت المحلات فى أول الثورة تضع لافتات تكتب عليها أن «حرم السادات تشتري حاجياتها من هنا» (صفحة ١٧١).
- (٦) وقد رشحت نفسها فى انتخابات المجلس الشعبى بالمنوفية مستقلة (صفحة ٣٦٦) على الرغم من أننا جميعاً نعرف أنه لم تكن هناك أحزاب بعد!!
- (٧) ولا تنتبه إلى الخطأ الذى تقع فيه حين تنتقد ما تعبر عنه بأنه (تراخى القضاة) فى قاعة المحكمة (صفحة ٥٥٨).
- (٨) وسيد مرعى الذى أنابه السادات لتسلم جائزة نوبل ليس إلا (حما ابنتى) وتنسى صفات الرجل وتاريخه السياسى كله (صفحة ٤٨٦).
- (٩) بل إن السيدة جيهان السادات تذكر تاريخ قيام وحدة مصر وسوريا بتاريخ ميلاد ابنتها نهى (صفحة ٢٠٦)!!!
- (١٠) وقبل هذا كله فإنها هى بين أخواتها كانت بمثابة سيدنا يوسف بين إخوته (صفحة ٦٣).

(٦)

- ولا يخلو الكتاب من بعض الأفكار التاريخية المغايرة للحقيقة وللواقع التى يبدو أنه لم يكن للسيدة جيهان دور فى أن تقحمها على كتابها:
- (١) فهى فى صفحة ٧٧ تتعاطف مع المستعمر الإنجليزى لمصر ، مع أنه مستعمر ، حتى وإن كان قد بذل جهداً فى إصلاح أحوالها من أجل مصلحته.
- (٢) وفى صفحة ١٨٨ نقرأ أن الأوتوبيسات وعربات الترام كادت تنحطم تحت ضغط السكان قبل قيام الثورة؟؟ ولست أدري من أين جاءت بهذه المعلومة وكأن القراء لا يعرفون شيئاً عن هذه الفترة التى لم تكن الأوتوبيسات فيها تجد من يركبها.
- (٣) نصف السيدة جيهان السادات مرتب زوجها فى أول حياتهما (نهاية الأربعينيات) بأنه كان ضئيلاً.. مع أن هذا المرتب كان ٣٤ جنيهاً (صفحة ٣٨). وكأنها بهذا تستنفر الناس ضدها وتستفزهم بأقصى ما تستطيع من درجات الاستفزاز.

(٤) تروى السيدة جيهان السادات أنها كانت فى أول الثورة تساعد الناس بأن ترسل لأصحاب العمارات متوسطة للمستأجرين فى تأجير الشقق (صفحة ١٧٣) وهى معلومة تتناقض مع ما كان سائدا أيامها من كثرة المعروض من الشقق.. وربما كان العكس هو الصحيح!!

(٧)

على الصعيد الاجتماعى نجد السيدة جيهان السادات وقد دخلت بإرادتها فى كثير من الأشراف حين تفرص على أن تتحدث عن عادات أهلها وقومها بلغة السائح العابر:

(١) فهى فى صفحة ١٢٥ تقول بالنص: «تقضى التقاليد فى مصر بأن تجلس العروس فى مواجهة زوجها أمام المأذون.. ولكن لسبب صغر سنى ناب عنى أبى ووضع يده فى يد أنور».. ومعنى هذا الكلام أن الزوجات فى مصر كبيرات السن فى العادة إلا السيدة جيهان!! مع أن الرواية خاطئة من جميع النواحي. ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أنه من النادر جداً أن تتولى العروس المصرية أمرها بنفسها من دون وكيل، سواء صغرت أم كبرت.

(٢) فى صفحة ٥٣ تتحدث عن أحد أفراد طائفة الرفاعية الذى يخرج الثعابين فتسميه «الصفوفى» وتقول: «وبفضل (موسيقاه الجميلة) يستطيع الصفوفى أن يخرج الثعابين دون ضرر»، وبودنا أن نعقب فنقول إنه لو أن هذا الانجاز يتم بفضل الموسيقى وحدها لأمكن أن يحدث هذا لنا عن طريق شريط تسجيل، ولكن هذا لا يحدث!

(٣) فى صفحة ٢٨ تقول السيدة جيهان السادات: «رأيت وزيرة الشئون تضرب صدرها بيديها صارخة إلى الله»، وتعلق وهذه طريقة التعبير عن الحزن التى ورثناها من أيام الفراعنة.. ربما لا نكون بحاجة إلى سؤال د. أمال عثمان عن مكان وقوع هذا التصرف، فهى كما نراها حتى الآن من أكثر سيدات مصر ثباتاً واتزاناً فى كل المواقف!!

(٤) تتحدث عن أحاديث الريفيات المكشوفة عن العلاقات الزوجية (صفحة ٢٤٠) وكيف كانت تحمر خجلاً حين تسمعها.. من دون أن تتعمق مثل هذه الظاهرة وهى التى تقدم نفسها فى صورة المصلحة الاجتماعية البارزة، بل إنها تكاد تكون كذلك بلا جدال.

لست أدري بعد هذا كيف سمحت السيدة جيهان السادات لكثير من فقرات مذكراتها أن تصاغ بالطريقة التي تفرض على رؤيتها تسطيحاً للأمر وتبسيطاً غريباً لها (تحت مظنة الكتابة السهلة) وهو ما يتجلى في كثير من المواضع بلا داع أو مبرر ، والأمثلة على هذه كثيرة:

(١) فهي تقول بالنص في صفحة ٣٩١: «كانت قوانيننا تجاه المرأة مزيجاً من القانون الوضعي والشريعة ، وهو ما أطلق عليه أنور الامتزاج بين العلم والإيمان».. هل رأيت قبل هذا ياسيدى القارئ مثل هذا الخلط الرهيب إلى أبعد الحدود في عبارة سيدة محترمة ، وكأنا الشريعة هي الإيمان ، والقانون الوضعي هو العلم!! بينما الشريعة والقانون وجهان لشيء واحد ليس هو العلم وليس هو الإيمان.

(٢) كذلك ما نراه [دعك مما نقرؤه] في روايتها لقصة إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام (صفحة ٣٢٩) ولشاعر الحج (صفحة ٣٣٠).. وهو كلام لا يليق صدوره عن أحد إلا أن يكون صادراً عن السياح من قرائها الأمريكيين.

(٣) وتحدث السيدة جيهان السادات عن خصوم زوجها في ١٥ مايو بأنهم العدو (صفحة ٣٠٢) ، وهكذا تعطينا انطباعاً أن مثل هذا الاختلاف يتحول عندها إلى عداوة.. وتصرُ السيدة جيهان السادات على هذا اللفظ ومشتقاته بعد ذلك.. عدونا.. الأعداء.. إلخ.

(٤) تعلق السيدة جيهان السادات كذلك (صفحة ٣٤٣) على نصر الله لجنده في حرب ١٩٧٣ بالملائكة بكلام مبهم لا يليق صدوره ولا نسبته إلى سيدة مسلمة ظهرت في نهاية الكتاب وهي محرمة بملابس الاحرام !!

(٥) تحكى لنا قصة أول عملها بالعمل الاجتماعى عن ضرورة الرشوة .. واضطرابها إليها لتسهيل بعض الأمور.. وتختم الحكاية بقولها فى بساطة شديدة وخطيرة (صفحة ٢٥٣): «إذا كانت هذه هى طريقة رجال الأعمال فليكن».. وللأسف يقع هذا الحديث اللاأخلاقى فى جوهره فى كتاب هو فى المقام الأول كتاب تربوى قبل كل شيء!!

(٨)

أعتقد بعد (أو قبل) كل هذه الملاحظات أنه كان ينبغى علينا أن نشير إلى بعض ما فى هذا الكتاب من جمال الفكر والبيان فى مواضع عديدة منها على سبيل المثال حين تحدثنا

السيدة جيهان السادات عن اعتناقها للسلام بعد ما رأت من أهوال الحرب في ١٩٦٧ «إن أى إنسان يرى ما رأيته لا يمكن إلا أن يؤمن بالسلام» .. ونحن نرى هذا الكتاب يروى لنا كيف ثمالكت هذه السيدة نفسها لفترات طويلة إلى أن جاءت اللحظة التي لم تستطع فيها المحافظة على توازنها حين رأت الديدان فى جرح الجندى فى فمه:

«وفى عنابر الحروق المزدحمة ، كان الهواء ثقيلًا برائحة اللحم المحروق مثل رائحة اللحم المتفحم ، ولم أكن أستطيع التغلب على مشاعرى إلا بالتركيز كلية فى وجوههم وأنا أحاول جاهدة التهوين عليهم ، وكنت أقول لكل واحد منهم إنه بطل من أبطال مصر ، وأجلس فى بعض الأحيان إلى جانبه ساعات إلى أن ينام قائلة له إنه أكثر حظاً منى ، لأنه سوف يحمل جرحاً يدل على شرفه ، وكان بعضهم يموت أمامى ، وكنت أردد الآية الكريمة: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى» (صدق الله العظيم)».

«ولم يحدث فى خلال هذه الفترة أن فقدت تماسكى إلا مرة واحدة فقط ، فقد كنت أتجول مع السيدات المتطوعات فى دورة روتينية ، وبدأت أغسل أرجل جندى شاب ، ثم سببت له بعض العصير ، وهو يقول: «الله يخليك يا أمى» ، وبينما كنت أقرب الكوب من فمه توقفت فجأة لا أستطيع حراكا ، فقد كانت شفته وأنفه مجروحين جرحاً غائراً ، وكانت الديدان تزحف فى الجرح ، وحاولت ألا أنظر إلى الجرح لكى أستطيع رفع الكوب إلى فمه ، ولكننى لم أستطع وشعرت بأننى على وشك أن أفقد الوعى . وأخيراً تغلبت على شعورى وسألته أن ينتظر لحظة ، وعدوت إلى حجرة مجاورة ، وقالت لى إحدى المتطوعات وهى السيدة عقيلة السماع: «ماذا حدث ، إنك تبدين شاحبة؟ هل أنت بخير؟» ، وبعد أن استعدت قدرتى على الكلام قصصت عليها ما رأيت ، فسألتنى ألا أشغل نفسى ، وستأخذ هى على عاتقها تنظيف الجرح . وسألها الجندى عنى ، فأخبرته أننى متعبة وأننى شعرت بأننى سوف أفقد الوعى ، وأننى لم أرد أن يرانى متعبة ، وأننى أستريح الآن ، وطلب الجندى الشاب من السيدة عقيلة أن تبلغنى شكره».

(٩)

كذلك فإننا نعجب أيمًا إعجاب بصاحبة هذه المذكرات حين نقرأ آراءها [المكثفة] فى انتحار المشير عبد الحكيم عامر وهى آراء قريبة جداً من آراء زوجها ومن آراء المصريين فى

مجموعهم ، أما آراؤها فى موقف عبد الحكيم من عبد الناصر فتكاد تكون ناصرية تماما ، وهى حريصة مع هذا على أن توحى لنا بما ترويه عن هذه الواقعة بمدى قسوة عبد الناصر فى منع زملائه من تشييع جنازة زميلهم عبد الحكيم عامر ، ومن أنها دون الناس جميعاً تركت الاسكندرية وذهبت إلى الصعيد للعزاء فى وفاة ذلك الرجل :

«... وبكيت وأنا أقف وحدى إلى جوار قبر عامر فى قريته «أسطال» وأقرأ الفاتحة على روحه. وقد شعرت بحزن عميق لأن عبدالناصر طلب من أعضاء مجلس الثورة ألا يحضروا جنازة زميلهم القديم نظراً لتهديده لنظام الحكم. ولكنى تركت بيتى فى الإسكندرية وذهبت مباشرة إلى قريته لأقدم عزائى إلى عائلته ، ولكنى اكتشفت أنهم غادروها إلى القاهرة ، وذهبت بدورى إليهم فى منزلهم فى الجيزة لتقديم عزائى ، ولكن لم يرحب بى أحد ، فقد صرخت بناته بمجرد أن رأينى: «إنه لم ينتحر.. إن الحكومة هى التى قتلت» ، ولكنى لم أذهب إلى هناك كممثلة للنظام ولكن كصديقة ، وفى حديقة المنزل قابلنى أحد أبنائه وكان ضابطاً فى الجيش وصرخ قائلاً: «لماذا.. لماذا؟» ، ولم أكن أقدر بالطبع أن أشرح له كيف تحول والده إلى رجل غير واقعى ، وأخيراً إلى عدو لمن كان أخلص أصدقائه. وإذا كان عامر قد شعر بمهانة الهزيمة فقد كان لابد أن ينتحر فى الخامس من يونيو ، وكان الكل سيفهم عندئذ أن كبرياءه لم تتحمل هزيمة مصر ، وكانت حادثة الانتحار وقتها سوف تكون مأساوية ، أما الآن فهى مثيرة للشفقة».

(١٠)

وقد استطاعت السيدة جيهان السادات بذكاء شديد أن تضمن هذه المذكرات حديثها الممتاز [والمنصف للحقيقة أيضاً] عن الزعيم الليبى معمر القذافى وزوجته وآرائها فى كليهما:

«... أما فى ليبيا فإن تصرف العقيد «معمر القذافى» كان غاية فى السوء. فبدلاً من مساعدة مصر قام بجميع المحاولات للإفساد علينا ، فقد تعهد لأنور قبل الحرب بتقديم قطع غيار لطائراتنا الميراج التى كان يبلغ عددها خمساً وعشرين طائرة ، وتقديم أربعة ملايين طن من البترول لتعويض خسارتنا من حقول البترول المصرية التى قرر أنور إغلاقها من أجل سلامتها ، كما تعهد بالسماح باستخدام ميناء طبرق فى حالة تدمير ميناء

الإسكندرية. أما بالنسبة للإسكندرية فإنها لم تمس ، ولكن كما قال أنور بعد ذلك فإن قطع الغيار والبتروول لم تصل أبداً».



وتردف السيدة جيهان السادات بذكر انتقاداتها الواضحة لموقف الرئيس القذافي من حرب أكتوبر ١٩٧٣ :

«حتى مجاحنا المبكر فى الحرب لم ينل رضا القذافى . فقد غضب لأن أنور لم يخبره عن الموعد المحدد لقيام الحرب وقامت الإذاعة الليبية بعد عبور القوات المصرية للقناة بيومين بترديد أنه لا فرصة لنا فى النصر: «الجنود المصريون جنباء تعودوا على الهزائم ، وسوف تهزمهم إسرائيل للمرة الرابعة».

«وتصاعدت الهجمات الليبية عندما نجح الإسرائيليون فى اليوم العاشر من الحرب التى استمرت ثمانية عشر يوماً فى فتح ثغرة فى خطوطنا فى منطقة الدفرسوار سمحت لبعض القوات الإسرائيلية بالدخول إلى الضفة الغربية للقناة ، كانت مصر فى حاجة للدعم من جيرانها العرب أكثر من أى وقت آخر ، لكن ليبيا لم تقدم سوى الإهانات».



وتصل السيدة جيهان السادات فيما ترويه من أصداء تصرفات العقيد القذافي إلى استشهاد جيد الدلالة تروى فيه انطباعات المشير أحمد بدوى قائد الجيش الثالث ووزير الدفاع فيما بعد هذا حين روى لها أنه بكى حين سمع الهجوم على الجيش المصرى من إذاعة ليبيا لا من إذاعة إسرائيل وهى تقول:

«وفى وقت لاحق قال لى قائد قواتنا فى الدفرسوار أحمد بدوى: «عندما سمعت الإرسال الإذاعى ، اعتقدت أن الشائعات آتية من إسرائيل ، ولكن عندما أدركت أنها من ليبيا فإنى أعترف بأننى بكيت ، كيف يمكن لإخواننا اتخاذ موقف معاد لنا؟».

(١١)

ولا تغف السيدة جيهان السادات فى انتقادها للعقيد القذافي عند هذا الحد ولكنها تشير بكل وضوح إلى مواقفه المبكرة من مصر ، ومنذ ما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وهى تشير إلى تفاصيل كثيرة ومهمة على وجه التحديد ، كما أنها تحكى بعض صور معاناة السادات والنظام المصرى من القذافي قبل هذه الحرب فتقول :

«... قام القذافي فى شهر أغسطس عام ١٩٧٢ ، ودون اتصال بنا أو حصول على موافقتنا ، بإعلان نيته على قيام جمهورية مصرية ليبية جديدة بحيث يكون أنور رئيساً للدولة الجديدة ، بينما يتولى هو منصب نائب الرئيس ومنصب القائد العام للقوات المسلحة المشتركة. وعندما سمع أنور بهذه الخطة لم يملك إلا الضحك ، لأنه لن يسمح للقذافي بالتحكم فى الجيش المصرى. كيف سمح القذافي لنفسه بإعلان اتحاد كهذا دون الحصول على موافقة مصرية».

«التقى أنور لأول مرة بعد الثورة الليبية مباشرة فى عام ١٩٦٩ بالقذافي ، وكان القذافي عندئذ شاباً مندفعاً يريد الخير لبلاده. وكان يسأل أنور نصائحه وفى المقابل كان أنور يحترم المثالية فى هذا الشاب القائد الذى قام بالثورة الليبية على نمط ثورة الضباط الأحرار فى مصر».

«لقد كان أنور يعتبر القذافي كابنه وكان يدعو دائماً إلى زيارتنا فى منزلنا فى القاهرة وفى ميت أبو الكوم ، وفى السنة الأولى من رئاسة زوجى كان القذافي يقول له دائماً: «إنك بمثابة أب لى ، فإذا ارتكبت أخطاء فانصحنى».

(١٢)

وفى هذا الإطار تحرص السيدة جيهان السادات على أن تروى بالتفصيل قصة أحد المواقف المندفعة التى قام بها العقيد القذافي فى أثناء فترة الوفاق المعلن بينه وبين السادات ، وتبدو القصة متوافقة مع طبيعة الرئيس القذافي وحماسته لخدمة قضايا وطنه:

«... بعد عدة شهور من طرح خطة الوحدة. قام القذافي مرة أخرى بتصرف غير مسئول ولكن بطريقة أكثر خطورة ، فبناء على طلب القذافي بزيادة الحماية البحرية وتكريماً له ، وافق أنور على إعارة غواصتين إلى ليبيا يديرهما مصريون. وكادت أول أوامر تصدر من القذافي للقطع البحرية المصرية أن تقترب بالعالم من الدمار ، فقد قام بتوجيه تعليمات إلى قبطنى الغواصتين قائلاً: «تسللوا إلى المياه الدولية فى البحر الأبيض المتوسط وقوموا بإغراق الباطنة البريطانية» الملكة اليزابيث رقم ٢» قبل وصولها إلى إسرائيل».

وهنا مباشرة تعلق السيدة جيهان السادات على نتيجة مثل هذا التصرف وتقول :

« إن إغراق السفينة عمل جنونى ، فقد كانت مكتنظة بالسياح البريطانيين والأمريكيين فى طريقها إلى إسرائيل» .

«وقد اكتشفت خطة القذافى هذه عندما قام قبطان إحدى الغواصتين بإرسال إشارة لقيادتنا البحرية فى الإسكندرية يخبرهم عن الأمر الذى تلقاه ، وقامت القيادة بدورها بإبلاغ أنور بما حدث. لم يستطع أنور أن يتصل بالقذافى شخصياً ليجعله يقوم بإلغاء أوامره ، فقد كان القائد الليبى قد ذهب كعادته ليستريح فى إحدى الخيام فى الصحراء ولينتظر حدوث أى أزمة دولية ، مما دفع أنور ليقوم بنفسه بإصدار أوامر للغواصتين بالعودة الفورية إلى قاعدتنا فى الإسكندرية» .

«لم أر زوجى يشعر براحة أكثر مما شعر به عندما تسلم رسالة تفيد بأن الغواصتين قد عادتا بأمان إلى مصر. لقد قال أنور:

«إن القذافى له عقلية متهورة والمشكلة هى أن اللعب التى يلعب بها أسلحة حقيقية» .

«إن الرجل الرشيد الحكيم يجب أن يضع فى اعتباره الآثار والنتائج التى تترتب على إغراق السفينة «الملكة اليزابيث» . فلن تدمر غواصتنا وتغرق بواسطة الأسطول السادس الأمريكى فحسب ، ولكن رأى العام العالمى لن يسامح العرب على قتل الرجال والنساء والأطفال الأبرياء الذين ليس لهم علاقة بالنزاع العربى - الإسرائيلى» .

(١٣)

وعلى الرغم من أن القارئ كان يتوقع من صاحبة هذه المذكرات الإفاضة فى حديثها عن دورها كزوجة لنائب الرئيس ، وعن الرئيس جمال عبد الناصر نفسه فى أعوامه الأخيرة ، فإن السيدة جيهان السادات آثرت أن تكتفى بالحديث عن العموميات ، ولكنها فى ذكاء شديد توظف هذه العموميات المعروفة فى تفسير توثق العلاقة بين الزميلين القديمين ، وهو ما أدى إلى استخلاف عبد الناصر للسادات:

«... أما فى القاهرة فكان عبدالناصر يتقبل هذه الأخبار بمنتهى المرارة. فعدم إخلاص صديقه (عبد الحكيم عامر) وأخبار موت هذا الصديق وهزيمتنا كانت قد أنهكته. وارتفعت نسبة مرض السكر فى دمه. وكان يأتى إلى منزلنا للجلوس مع أنور ، وكان يزداد

ألمى كلما نظرت إليه ، كان جسده منحنيًا كأنما يحمل جبلاً من الحزن ، وأصيب بحساسية حتى إنه كان يتعذب كلما لمست الملابس جسده ، وكنت أتساءل إلى متى سوف يحدث ناصر؟».

(١٤)

وتحفل مذكرات السيدة جيهان السادات بكثير من الآراء التي تصور بها «الجوانب الأخرى» للقرارات السياسية الكبرى ، وذلك من خلال المواقف التي عايشتها والتفاصيل التي ألت بها بحكم قربها من الرئيس ، ولابد على سبيل المثال أن نقرأ بأناة وروية حديثها عن قبول السادات لوقف إطلاق النار في حرب أكتوبر:

«مع ازدياد الدعم الأمريكي لإسرائيل لم يتبق لأنور [تقصد الرئيس السادات] إلا خيار واحد ، ففي التاسع عشر من أكتوبر أعلن قبوله لوقف إطلاق النار ، وأرسل بريقة للرئيس السوري حافظ الأسد يقول فيها: «إننى قد قبلت وقلبي ينزف ألماً الدعوة لوقف إطلاق النار.. إننى على استعداد لمحاربة إسرائيل مهما طال الأمد ، ولكننى لا أستطيع مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية. إننى لن أسمح لقواتى المسلحة بأن تدمر مرة أخرى».

□

وتحرص صاحبة المذكرات على أن تصف الحالة النفسية والذهنية للسادات فى هذه الفترة على نحو ما تصورتها أو على نحو ما أحست بها فتقول :

«لقد بدا حزينا وهو يرى أحلامه باستعادة سيناء تذهب بعيداً أو تضمحل ، وعند موعد الإفطار فى رمضان كنت أرجوه كل ليلة أن يأكل شيئاً ، ولكنه كان يكتفى بهز رأسه بأنه ليست لديه شهية للأكل ، لقد تألمت لألمه ، فهذا الرجل الذى ينام عادة ثمانى ساعات أو تسعاً يعمل الآن لمدة ثمانى عشرة ساعة أو عشرين ساعة يومياً.. حتى عندما أحضرت له طبقاً من الحساء رفض تناوله. لقد كان يعيش على عصير الفواكه فقط. لقد قلقت عليه فى صمت وأنا أراه يفقد صحته ويزداد لونه شحوباً وانهار وقف إطلاق النار وكانت القوات المصرية تشتبك مع القوات الإسرائيلية فى الضفة الغربية من القناة».

وتؤكد جيهان السادات في هذه المذكرات على اعتقادها في الفكرة القائلة بمسئولية الولايات المتحدة الامريكية عن معاناة مصر والعرب واستمرار المشكلة الفلسطينية ، وتبدو جيهان السادات أكثر شجاعة في مواجهة الأمريكيين بهذا الرأي فهي تلقى عليهم بالعبء فيما هو أكثر من مجرد تأمين سياسة إسرائيل أو دعمها أو الانخداع بها ، وهي تصرح بأن وزير الخارجية الأمريكي الدكتور هنرى كيسنجر قد أذّر أنور السادات في ديسمبر ١٩٧٣ بأن الولايات المتحدة قد تهاجم مصر :

«... الأمريكيون هم الذين قاموا بتصعيد الحرب وهم القادرون على وضع حد لها. وفي اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر جاء هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى لمقابلة أنور وذلك للمرة الثانية خلال أربعة أسابيع. وفي زيارته الثانية هذه أحضر معه ورقة عمل من الحكومة الأمريكية ، لقد علمت وزارة الدفاع الأمريكية (البيتاجون) من خلال التصوير الجوى أن المدفعية والدبابات المصرية تطوق القوات الإسرائيلية الموجودة فى غرب القناة. كما أنهم كانوا يعلمون بأن أنور كان يجهز لتصفيتهم. وقام كيسنجر بإنذار أنور بأنه إذا قام بذلك فإن الولايات المتحدة سوف تضطر إلى أن تهاجم مصر. فالسياسة العالمية للولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن تسمح بأى احتمال لانهزام الأسلحة الأمريكية بواسطة الأسلحة الروسية للمرة الثانية ، وأن القوات الأمريكية فى جميع أنحاء العالم قد وضعت على أهبة الاستعداد».



«وفي شهر يناير ١٩٧٤ تم التوقيع على الاتفاقية الأولى لفض الاشتباك بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية ولعبت الولايات المتحدة دور الوسيط بيننا وبين إسرائيل ، بحيث تقوم مصر باستعادة الضفة الشرقية لقناة السويس بينما تسحب إسرائيل من ضفتها الغربية ، وبصعوبة بالغة انتهت حرب أخرى بعد أن تركت آلافاً من الجرحى والقتلى المصريين. لقد كان عدد ضحايانا أكثر من الإسرائيلين بخمس مرات».

ومن الممتع حقاً أن تتأمل في الفقرات التي كتبتها صاحبة هذه المذكرات كي تصف بها انطباعاتها عن الساعات الفاصلة التي سبقت اندلاع حرب أكتوبر ، وهي تبذل جهودها في أن تحمل هذه العبارات بالقدر الكافي من القلق والتعبير عنه ، ولكن يبدو أنها روت ذكرياتها عن هذه اللحظات في ساعة كانت أبعد ما تكون عن جو المعركة ، ولهذا صارت العبارات مفتقدة نوعاً ما الحماسة المتوقعة في مثل هذا الموقف المجيد :

«وبينما كنا نتمشى أنا وزوجي في الحديقة في يوم الخامس من أكتوبر قلت له: «أنور.. إننى أعلم بأنك تبذل أقصى جهدك من أجل استعادة أرضنا ، فإذا ذهبت مصر إلى الحرب وفشلت فلن يدينك أحد. إن جميع قادة العالم سوف يفهمون حقنا في أرضنا وسوف يقدرّون محاولتك». لقد بدأت أبحث عن كلمات أقولها لزوجي حتى أشعره بأنى أؤيده بالرغم من الهزيمة العسكرية التي كنت أشعر بأنها حتمية. قلت له: «إننا نعيش مرة واحدة ونموت مرة واحدة ، فلنواجه مصيرنا بشجاعة ، فلا حياة بدون كرامة. إنه من الأفضل عمل شيء ، حتى ولو لم ننجح فهذا أفضل من هذا الاستمرار في قبول عار الاحتلال الإسرائيلي».

«توقف أنور فجأة واستدار نحوى وقال: «إننى على يقين بأننى سوف أنتصر». لقد صعقت عند سماعى ذلك. لقد كنت أحاول تشجيعه ولكنى تبينت أنه لا يحتاج إليه. كيف يمكن لأنور بأن يكون متأكداً واثقاً؟ ولكننى أدركت أن هذه الثقة قد جاءت من الله سبحانه وتعالى. فى تلك اللحظة بدأت أقتنع أنا أيضاً ، لأننى أعرف أن الله سوف يكون إلى جانبه».

«فى صباح اليوم التالى ، السادس من أكتوبر ، العاشر من رمضان ، وبعد انتهائى من حزم حقيبتى سألته فى محاولة لمعرفة موعد إعلان الحرب: «هل أدع الأولاد يذهبون إلى المدرسة اليوم؟».

«فأجاب: بالطبع ولم لا؟».

«قمت باحتضانه أمام الباب الخاص وأنا لا أدرى أكون هذا آخر وداع؟»

«وحتى أجعله لا يحس بشعورى بالتشاؤم قلت له: سيخرج الأولاد من المدرسة فى الساعة الواحدة ظهراً فهل سيكون مناسباً؟ فقال: دعيهم يذهبون إلى المدرسة بصورة طبيعية».

«وعندما ركب سيارته أشرت إليه بالتحية وقلت: «ربنا يبارك فيك ويكون إلى جانبك». الساعة الواحدة لقد شعرت من أنور بأن الحرب لن تبدأ قبل الساعة الواحدة ظهراً، لذلك قمت بإلغاء مواعيدى المدرجة بعد تلك الساعة ، لأننى أردت أن أكون على انفراد [بعد] المقابلات الصباحية حتى أننى لم أسمع كلمة واحدة فى مواعيدى الأخير مع «نهلة» زوجة الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب. وعندما غادرت المنزل أسرع بصعود السلم متجهة نحو قاعة الجلوس».

«وحالما وصلت نهى إلى البيت سألتها: «هل سمعت الأخبار؟».

«أجابت نهى باستغراب شديد: «أى أخبار؟».

«أجبت بطريقة كأنى ألوم نفسى على زلة لسانى: «لا ، لا شىء».

(١٧)

وتستأنف السيدة جيهان السادات حديثها راوية باعتزاز وحب وفخر تفصيلات انطباعاتها ومشاعرها عن اللحظات التى بدأت فيها المعركة المجيدة مع إسرائيل فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ :

«أدرت الراديو فى غرفة نومى فى الطابق الثانى ولكننى لم أسمع سوى المسلسلات. لقد نحييت جانباً تفكيرى فى التنبه على رؤساء الجمعيات النسائية فى الهلال الأحمر ليبدأوا فى الاستعداد لاستقبال الجرحى ، لأن التحركات المفاجئة فى مستشفياتنا سوف تكون إشارة واضحة للجواسيس الإسرائيليين الذين يعيشون بيننا دائماً ، وأنور حريص على سرية الموضوع حتى أننى لم أشرك بناتى فى أفكارى ، ولكنهن شعرن أنه ليس طبيعياً جلوسى وأنا أضع الراديو على أذنى ومضين يسألتنى: «بماذا أنت مهتمة يا أمى» ولكننى لم أجب».

«وفجأة وبعد الساعة الواحدة والنصف ظهراً ، قام قسم الأخبار بقطع البرامج العادية وأصدر البيان الذى كنت أنتظر سماعه «انتباه»: لقد قامت قوات العدو بشن هجوم ضد قواتنا فى منطقة السويس ، وقواتنا مشتبكة الآن لرد المعتدين». لقد شككت فوراً فى أن البيان ادعاء ليعطينا العذر فى البدء فى هجومنا. وكنت على حق. فقد جاء بعد ذلك بقليل بيان آخر يقول: «يقوم السلاح الجوى المصرى بضرب المواقع الإسرائيلية فى سيناء ، وتقوم

قواتنا بعبور قناة السويس». إن الحرب التي أطلقنا عليها «حرب أكتوبر» ، والتي أطلق عليها الإسرائيليون «حرب يوم الغفران» قد بدأت.

«لقد شحنت عزيمتى وقمت بإنذار رؤساء الجمعيات النسائية فى الهلال الأحمر.. وطلبت إلى الشعب التبرع بالأغطية والمواد الطبية لجنودنا.. لقد كان الأمر الذى لا يصدق يحدث الآن بالفعل ، حيث يقوم جنودنا المصريون بالقضاء على المقاومة الإسرائيلية على طول خط بارليف الذى يبلغ ١١٠ أميال وارتفاعه ٤٧ قدما ، وبلغت تكاليفه ٢٣٨ مليون دولار ، وهو خط الدفاع الإسرائيلى الذى قال لنا الروس عنه بأنه لا يمكن تدميره إلا بقتلة نووية».

(١٨)

وتحاول صاحبة هذه المذكرات أن تصور بطريقة سريعة وصادقة انطباعاتها الباكرة عن الانتصار المصرى فى أول أيام حرب أكتوبر المجيدة :

«لقد كان جنودنا يصرخون (لست أعرف كيف اضطر المترجم إلى استخدام هذا الفعل بالذات واللغة العربية حافلة بأفعال الصباح والجأر والتهليل) «الله أكبر» وهم يعبرون القناة خلال «عملية بدر». لقد اختار أنور اسم «بدر» ليطلق على العملية السرية للعبور العسكرى وذلك حتى يبعث الشجاعة فى قواتنا لأنها تذكرهم بغزوة بدر البطولية التى قام بها المسلمون بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ضد أعدائهم من كفار مكة فى شهر رمضان أيضاً من سنة ٦٢٤م حيث قام ثلاثمائة مسلم ومعهم ألف من الملائكة أرسلهم الله لهم بالتغلب على ما يقارب الألف من المشركين المدججين بالسلاح.

«لقد قام سلاحنا الجوى بقصف ٩٠٪ من الأهداف الإسرائيلية خلال عشرين دقيقة وقامت مدافعنا الميدانية بقصف أهداف إسرائيلية أخرى على طول الحاجز الترابى من خط بارليف. لقد قامت وحداتنا المتلهفة للانتقام من هزيمة سيناء عام ١٩٦٧ بعبور القناة بواسطة قوارب من المطاط ، وذلك قبل الموعد المحدد بذلك ، ثم قاموا فوراً بالوصول إلى خط بارليف حيث أقاموا سلاالم من الحبال لتتمكن باقى القوات من اللحاق بهم بسرعة وقاموا بسد الأنابيب التى أقامها الإسرائيليون لقذف النابالم ، وصعق العالم عندما قام سلاح المهندسين المصرى بفتح فجوات فى رمال خط بارليف بواسطة مضخات مائية ذات قوة عالية ثم أقاموا الجسور المتحركة لتتمكن دباباتنا من العبور».

«خلال الساعات الست الأولى فقد الإسرائيليون توازنهم ، وكان عنصر المفاجأة تاماً ، فقد قمنا بعملية خداع لهم حيث نشرنا مقالات في صحفنا تقول بأن القادة العسكريين يستعدون للذهاب إلى مكة لأداء العمرة ، وجعلنا الجنود المصريين فى ضفة القناة الغربية يتظاهرون بأنهم يستريحون ويمصون قصب السكر وكأنهم فى إجازة ، وذلك كله تحت نظر وسمع الإسرائيليين وخلال أربع وعشرين ساعة كانت المقاومة الإسرائيلية قد تحطمت ، وتحطمت معها أسطورة الجندى الإسرائيلى الذى لا يقهر ، فى الوقت الذى كانت فيه قدرة مصر ترتفع عالية فى عيون العالم».

(١٩)

ومن الفقرات المهمة فى هذه المذكرات ما ترويه صاحبته عن استشهاد شقيق زوجها الشهيد الطيار عاطف السادات ، ورد فعل الرئيس السادات وحقيقة انفعالاته حين وصل إليه النبأ فى أثناء الحرب ، وهى تروى أنها علمت بالنبأ قبل الرئيس نفسه ، كما تروى أنها خشيت إبلاغه النبأ خوفاً على روحه المعنوية ، لكنها فى النهاية اضطرت إلى أن تسوق إليه الخبر بالتدريج:

«لعدة أيام شعرت كأننى أطير من الفرحة ، وكنت أشتغل ليلاً ونهاراً دون أن أشعر بالتعب ، فالنشوة جعلتنى أشعر بالنشاط الدائم. وكذلك كان أنور فى قصر الطاهرة فى قمة انفعاله. وكنت قد قمت بالانتقال إلى هناك لأكون بجانبه. الصدمة الأولى التى عكرت صفوى جاءت حين أخبرنى طيار جريح من الطيارين الذين قاموا بأول طلعة ضد إسرائيل بأن طائرة الميراج التى كان يقودها عاطف ، شقيق أنور والبالغ من العمر ستا وعشرين سنة ، قد أسقطت واحترقت بعد خمس دقائق فقط من ابتداء الهجوم. ذهلت للخبر ، فمن الذى يستطيع أن ينجو من حادث كهذا ؟ وأدركت الحقيقة على الفور وهى أن عاطف قد استشهد».

□

ثم تردف صاحبة المذكرات بذكر تفصيلات انفعالات الرئيس السادات فنلمس صدقها وقدرتها على تصوير الموقف على نحو ما حدث بالفعل:

«لم أخبر أنور بذلك فوراً ، فلم أجرؤ على ذلك ، وكذلك فعل حسنى مبارك قائد القوات الجوية. لم يكن هناك أحد يود تحطيم روح زوجى المعنوية ، أو يسبب الضيق له

وهو يعمل ليل نهار. عاطف مفقود. وبعد ذلك بيومين قلت له إنهم يقومون بالتحري عنه في جميع المستشفيات. لقد أخبرت أنور شيئاً فشيئاً بالحدث الأليم».

وهنا تبدأ صاحبة المذكرات في وصف علاقة الأخوين وكيف كان الرئيس السادات ينظر إلى شقيقه كابن:

«لقد كانا على صلة دائمة ، كان عاطف يقوم بقضاء عدة أسابيع في زيارتنا كل سنة ، وفي معظم الأحيان كان يشاركنا في احتفالاتنا الدينية ، وكان أنور مثالاً وقدوة لعاطف. وكان فارق السن بينهما كبيراً ، فقد كان أنور يكبر عاطف بسبع وعشرين سنة ، مما جعل أنور يرى فيه ابناً له وليس أخاً ، وأخيراً وبعد مرور ثمانية أيام على بدء الهجوم واجهت أنور بالحقيقة المرة وأخبرته بأن أخاه قد استشهد».

وتذكر السيدة جيهان السادات ما لحظته من انفعالات الرئيس السادات فنلمس صدقها وقدرتها على تصوير الموقف على نحو ما حدث بالفعل:

«صعق أنور عند سماعه الخبر ووقف أمامي يهز رأسه لمدة دقيقة كاملة قائلاً: «لقد شعرت بذلك ، لقد شعرت بذلك» ، ورأيت الدموع تملأ عينيه وذلك للمرة الثانية في حياتي ، لقد بكى أنور مرة واحدة من قبل عندما ماتت أمه بين ذراعيه ، أما الآن فقد حاول تجميع شتات نفسه قائلاً: «إن جميع الذين قتلوا في سبيل وطننا ، وضحوا بأنفسهم هم أبنائي ومنهم أخي» ، وبخزنه الشديد عاد فوراً إلى العمل ، محاولاً ألا تكون حسرته الشخصية أكثر من حسرة الآخرين الذين فقدوا أحداً من أسرهم».

(٢٠)

كذلك تحرص صاحبة هذه المذكرات على أن تنقل لقرائها صورة الحياة المتوترة الصعبة التي عاشتها مع الرئيس السادات فيما قبل اتخاذ القرار بالحرب حين كان الرئيس يعاني من تأخر الدعم السوفيتي الكفيل بخوض المعركة ، وهي تقدم فيما ترويه مبررات قوية لغضب الرئيس السادات الشديد من سياسات السوفيت وكأنها بهذا الذي ترويه حريصة على أن تصور بدقة الأجواء النفسية التي سبقت اتخاذ السادات لقراره الشهير بطرد الخبراء السوفيت حيث تقول :

«وفي ربيع عام ١٩٧٢ بدأ أنور يفقد صبره مع السوفيت ، فقد وعده ليونيد بريجينيف

بإرسال شحنة من الأسلحة كان من المفروض أن تصل قبل الانتخابات الأمريكية في شهر نوفمبر ، لقد كان التوقيت في غاية الأهمية لأن أنور كان يريد أن يطمئن على الاستعداد العسكري المصرى ضد إسرائيل في حالة تردد الرئيس الجديد للولايات المتحدة الأمريكية في إجراء محادثات للتسوية في الشرق الأوسط ، ولكن بينما كان أنور في انتظار صفقة الأسلحة طيلة الربيع ، عقد لقاء قمة بين بريجينيف والرئيس الأمريكى الجديد نيكسون ، وفى شهر مايو أعلنت القوات العظميان عن قيام سياسة جديدة عرفت بالوفاق ، ونتيجة لذلك قام بريجينيف بتأجيل إرسال الأسلحة السوفيتية التى وعد بإرسالها إلى مصر وذلك خشية أن يبتعد عن نيكسون وأن تفسد روح السياسة الجديدة».

والشاهد أن صاحبة المذكرات قد نجحت إلى حد بعيد في تصوير الأجواء النفسية التى كان الرئيس السادات يمر بها ، وكانت هى بالطبع تلاحظه وتشعر به:

«... في القاهرة أصبح أنور كثير الصمت وشرود الذهن ، وكان يجلس بمفرده للتفكير في حديقة استراحة القناطر ، وهى بيت حكومى يقع بعيداً عن التجمعات وضوضاء المدينة ، لم أسأله ماذا ينوى أن يفعل؟ لأن ذلك عمله ولا يحق لى التدخل فيه ، ولكنى قمت بتوفير جو هادئ ومريح له بعد أن أرسلت أولادى إلى بيتنا فى الجزيرة ، وفى بداية الصيف كان يجلس يومياً فى الحديقة ولم تكن قد وصلت حتى ذلك الوقت الأسلحة السوفيتية ، وفى شهر يوليو ، وبعد مرور شهرين على إعلان سياسة الوفاق ، وقبل ثلاثة شهور فقط من الانتخابات فى الولايات المتحدة ، تسلم أنور رسالة جديدة من الروس يعلمونه فيها بأنه ليست هناك ضرورة لتسليح مصر لأنها سوف تكون عاجزة عن تحقيق نصر ضد إسرائيل فى جميع الظروف».

(٢١)

وفى هذا الصدد تحدثنا السيدة جيهان السادات عن مدى الغضب الذى كان مسيطراً على الرئيس السادات وهو فى طريقه لإلقاء خطابه الذى أنهى فيه الوجود السوفيتى فى مصر فتقول:

«لم أر أنور غاضباً إلا نادراً ، ولكن فى بيتنا الصيفى فى المعمورة كان وجهه محتقناً من الغضب وهو يخاطبنى ويقول: «يجب أن ألقى خطبة للشعب» وانصرف متوجهاً إلى

محطة التليفزيون وقال لى وهو يغادر المنزل: «إننى سوف أقوم بطرد الخبراء العسكريين السوفييت من مصر».

«لقد صعدت عند سماعى هذا القرار. فهناك ما يزيد على خمسة عشر ألف خبير سوفيتى يعيشون ويعملون فى مصر. إذا قام أنور بإغضاب الروس وأمرهم بمغادرة البلاد فإن الدولة الشيوعية العظمى قد تقوم بالقضاء على حكومة زوجى. كما أن هذه الخطوة قد تزيد من توتر العلاقات مع الولايات المتحدة. فقد شعرت بأن قرار الطرد سوف يدفع أمريكا لتقديم مزيد من الضغوط على مصر لصالح إسرائيل».

«وسألته بسرعة: «أنور هل أنت متأكد من حكمة القرار؟ ماذا سيفعل الروس لك؟ وما هو الموقف بالنسبة لأمريكا؟»، ولكنه ذهب دون أن يجيب. وكنت كلما فكرت فى هذا القرار ازدددت اقتناعاً بأنه الصواب ولو أنه صعب».

والحاصل أن السيدة جيهان السادات لا تكف عن التعبير عن رأيها فى عدم جدوى صداقة لا تفى بما هو مطلوب من الصديق.

وتبالغ السيدة جيهان السادات فى وصف مشاعر الجماهير الإيجابية تجاه قرار السادات بطرد الخبراء السوفيت ، مع أننا نكاد نتذكر أن حالة من الوجوم كانت تسود الأوساط العامة نتيجة مثل هذا القرار الذى كان فى ظاهرة كفيلاً بأن يضحى ببعض القوة التى كانت متجمعة أو محسوبة لقواتنا المسلحة وذلك على الرغم من كراهية الشعب فى عمومها للاستعانة بأجنىبى أو وجوده بين صفوف قواتنا المسلحة:

«وأنا أستمع إلى تصريح أنور على شاشة التليفزيون ، سمعت أول أصوات البهجة فى الشارع المجاور لمنزلنا ، حيث بدأ الناس بالرقص والغناء ، وأينما كنت أذهب بسيارتى فى الأيام القليلة التالية كان الناس يحيطون بها ملوحين بإشارات النصر. لم يكن أحد فى مصر يحب الروس لذلك كان قرار أنور بمعارضة الروس قراراً سياسياً ناجحاً ، فقد كان شعب مصر يمقتهم ولا يحبهم. وكان آلاف الروس فى مصر منعزلين وبخلاء مما أدى إلى انعدام شعبيتهم».

والشاهد أن السيدة جيهان السادات تحرص دون مبرر ظاهر على أن تصور العلاقات المصرية - السوفيتية وكأنها كانت على الدوام فى حالة برود ، وأن تظهر مدى التباعد والتحفظ فى هذه العلاقات ، بل إنها تؤكد على أن هؤلاء السوفيت كانوا منطوين على أنفسهم ، وتؤثر جيهان السادات أن تتحدث عنهم بالتسمية التى كان يفضلها السادات (الروس ، روسيا) على الرغم من أننا نعرف أن الاتحاد السوفيتى لم يكن روسيا وحدها:

«لم يختلط الروس بالمصريين لتناول وجبة طعام أو شراب بل انطوا تماماً على أنفسهم ، فباستثناء السفير السوفيتي وزوجته فإننى لم أقابل أى شخص روسى فى القاهرة ولا حتى فى الإسكندرية التى كان يقيم بها عدد كبير من الجالية السوفيتية. إن الصداقة والكرم يمثلان دعائم قوية فى عاداتنا وتقاليدينا وديننا ، لكن الروس لم يهتموا بذلك أبداً. لم يهتموا بحضارتنا ولم يشاركوا فى احتفالاتنا ولم يدعونا إلى بيوتهم» .

«ولم يكونوا حتى ضحوكين ، فالمصريون يحبون الابتسامة المشرقة فى الشوارع وفى الأسواق ، ولكن الاكتئاب كان يعلو وجوه الروس دائماً. لقد كان أصحاب المحلات يكرهونهم. فالروس هم الوحيدون بين الأجانب الذين كانوا يعيشون فى مصر فى حب مفقود. لقد كانوا يرفضون إعطاء قرش واحد كربح للشعب الذى يعانى الفقر الشديد ، وكلما أرادوا شراء شئ مما نجيد صناعته مثل أعمالنا النحاسية والمفروشات كانوا يقومون دائماً بالبحث عن الأشياء الرخيصة. هذا كله باستثناء الذهب ، فقد كانوا دائماً يتلهفون لشراء ذهبنا ؛ لأن أسعار الذهب فى مصر كانت أرخص بكثير عما كان فى الاتحاد السوفيتي. لقد قاموا بشراء الكثير من الأساور والقلادات والقطع الذهبية حتى أن المصريين كانوا يقولون إن الروس اشتروا الأسنان الذهبية».



هكذا تصل السيدة جيهان السادات بعد كل هذا التصوير الجيد إلى أن تبرر ما ذكرته من قبل من شعور البهجة الذى عمّ المصريين حين أصدر الرئيس السادات قراره بطرد الخبراء السوفيت وهى تقدم هذه الصورة وكأنها استنتاج طبيعى ، أو كأنها نتيجة حتمية للمقدمات التى سبقتها مما أجادت تصويره :

«.... وهكذا غادر الروس مصر فى شهر يوليو عام ١٩٧٢ ، حيث تركوا أنور فى الوضع الذى كان يتمناه غير تابع لأى جهة. لقد قال لى إن تزويدنا بالخبراء الروس فى الحرب التى كان يستعد لها سوف يدفع السوفييت فى حالة انتصارنا على إسرائيل إلى الادعاء بأنهم هم المنتصرون. لقد أراد أنور أن يخبر العالم بأن المصريين قادرون على تولى أمورهم بأنفسهم ، بالإضافة إلى هذا كله فإن طرد الروس كان بمثابة مناورة للتغطية حيث بدت القوى العظمى وإسرائيل تقنع بأن أنور قد تخلى عن خطته فى محاربة إسرائيل لاستعادة أرضنا».

ولا يفوت السيدة جيهان السادات أن تلمس أوتاراً مهمة في نفسيات الأمريكيين الذين يقرأون هذه المذكرات فنراها وهي تحدثهم بذكاء عن مدى معاناتها من عجرة اليهود المؤيدين لإسرائيل وهي تقفز من هذا الحديث إلى الحديث عن تغير الوضع بفضل مبادرة زوجها ، وكأننا نحن (العرب أو المصريين) كنا مسئولين عن هذا السلوك الصهيوني كله :

«في رحلته إلى الولايات المتحدة في ١٩٧٤ عندما كان أنور يزور الأمم المتحدة رفض عمدة نيويورك إبراهيم بيم لقاءه. وكان مستر بيم مثل كثيرين آخرين يساوى بين النزاع السياسى بين مصر وإسرائيل ، والنزاع الدينى بين كل اليهود وكل المسلمين. لكنه كان مخطئاً ، فبالرغم من أن بعض التعاطف الدينى لا يزال قائماً بوضوح ، إلا أن اليهودى فى الولايات المتحدة أمريكى وليس إسرائيليا وكان بيننا شجار. وتساءلت وقتها عما إذا كان العمدة بيم يعتقد أنه عمدة تل أبيب أم عمدة نيويورك».

«وقد واجهت أنا نفسى موقفاً عدائياً فى نفس الزيارة من موظفة بروتوكول فى لوس أنجلوس ، وأنا أستقل السيارة قادمة من المطار . ردت بصعوبة عندما سألتها عن اسمها وعمما إذا كان لديها أطفال وعمما إذا كانت تستمتع بالطقس المشمس فى كاليفورنيا الجنوبية. وسألت مسئول المدينة الذى كان يرافق أنور عندما وصلنا إلى الفندق: «ما حكاية هذه السيدة؟» ، وبدا عليه الحرج ، وقال موضحاً: «لقد رفضت فى البداية أن تقابلك تماماً مدعية أنها مريضة. وقلت لها إنها كموظفة بروتوكول ليس من شأنها أن توافق أو لا توافق على ضيوفنا. لكنها يهودية وكان الأمر صعباً عليها».



وتردف صاحبة المذكرات بعد هذا كله بالحديث عن أن الأوضاع قد تغيرت ، وتبدو وكأنها تفتأ عين الواقع لأننا حتى كتابة هذه السطور نعرف أن الحاجز لم يتلاش تماماً ، بل إن ممارسات بعض الصهاينة تعيد بناءه مرات ومرات:

«الآن انقضى كل ذلك والعكس يحدث فى الواقع ، فقد تلقينا دعوات كثيرة جداً لحفلات واستقبالات فى كل أنحاء أمريكا لتسلم شهادات تكريم من الجامعات ومفاتيح عشرين مدينة مختلفة على الأقل ، ومنذ تلك اللحظة وفى أى مكان من العالم أذهب إليه

كنت أرى أن أكثر الذين يتحدثون عن زوجي بتأثر شديد مصحوب عادة بالدموع في أعينهم هم اليهود».

(٢٣)

ويحفل حديث صاحبة هذه المذكرات عن العلاقات مع الإسرائيليين بعد معاهدة السلام بقدر كبير من الرومانسية المبررة وغير المبررة أيضاً:

«.... ففي ٢٥ مايو ١٩٧٩ وبعد شهرين من عودته طرنا إلى العريش ومعنا الوزراء للاحتفال بأول مرحلة لعودة سيناء. لم يكن قلبي قط كبيراً مثلما كان في هذا اليوم. لقد وفي أنور بوعدده للشعب المصري لاستعادة أرضه. وقد وفي بالوعد دون سفك الدماء. كم بدت العريش جميلة وهادئة في ذلك اليوم. أشجار النخيل كانت تلوح على الأرض المنبسطة ومن خلفها البحر الأزرق. كانت هناك ذكريات كثيرة. فهنا بدأنا أنور وأنا حياتنا الزوجية معاً قبل ثمان وعشرين سنة. وفيها ذقت مصر أسمى ذل بفقدان هذه الأرض لمدة إحدى عشرة سنة. الآن وبطريقة سلمية تعود إلينا ثانية. وعندما حمل حرس الشرف العلم المصري ليرفرف مرة أخرى على أرض سيناء انحنى أنور أمامه وقبله وفعل كل الوزراء نفس الشيء. وكثير من مخضرمي الحرب الذين تجمعوا معنا في العريش لمشاهدة عودة الأرض التي حاربوا ببسالة من أجلها، لقد دمعت عيونهم كما دمعت عيناى. إنه من أجل هذه اللحظة صلى زوجي وعمل لمدة طويلة. من يصدق أن ذلك كان سيحدث فعلاً؟».

وتردف السيدة جيهان السادات بالقول:

«لقد شعرت بقيمة هذا الإنجاز عندما قبلنا زوجي وأنا في سبتمبر دعوة بيجين لزيارة إسرائيل. وعندما وصلنا إلى حيفا عن طريق البحر تم استقبالنا بإطلاق إحدى وعشرين طلقة تحية لنا. وكان ينتظرنا على الشاطئ جموع من الناس يتزاحمون بشدة لدرجة أنك لا تستطيع رش الملح بينهم. كانت لافتاتهم تقول: «مرحباً بالسادات» و«مرحباً.. مرحباً»، لقد كانت الإثارة واضحة في أعينهم وفي ابتساماتهم بما يكفى لإدراك أنها لم تكن حفلة ترحيب أمرت بها الحكومة، بل حفلة ترحيب حقيقية خالصة».

«وقلت لأنور بينما كنا نستعد للنزول إلى أرض إسرائيل: «لماذا قضينا كل هذه السنين نحارب هؤلاء الناس؟»، وضحك أنور وقال: «ليس هذا يا جيهان وقت الكلام فيه».

«كانت إليزا بيجين كريمة جداً ، فقد صحبتني لزيارة المستشفيات ومركز للمعاقين ومدارس ترميز وحتى لإلقاء محاضرة بالجامعة عن جهودنا في مصر من أجل المعوقين. وفي إحدى المستشفيات تم استقبالي استقبالاً حاراً وجعلوني أشاهد جهاز فحص آلي «سى. إيه. تى ، وكان الإسرائيليون فخورين به للغاية بعد أن حصلوا عليه مؤخراً. ولم أستطع السكوت فقلت: «ونحن لدينا واحد أيضاً فى الوفاء والأمل». وحملق أنور فى وجهى قائلاً: «لا تقولى ذلك.. هذا جديد بالنسبة لهم وهم فخورون به» ، وقلت: «حسناً وأنا أيضاً فخورة بجهاز الفحص الآلى «سى. إيه. تى» الذى لدينا» ، وأضفت مؤكدة: «كنت سعيدة جداً لأننى قابلت «لسيه رايبين» زوجة إسحق رايبين رئيس الوزراء السابق فى حفل غداء. فقد التقينا من قبل فى عام ١٩٧٥ فى مؤتمر المرأة العالمى التابع للأمم المحدة الذى عقد فى مكسيكوسيتى لكنى لم أتحدث إليها ورفضت حتى مصافحتها لأنهم كانوا يحتلون أرضنا. أما الآن فقد احتضنت كل منا الأخرى».

«قلت لها: «اعتذر عن فظاظتى فى مكسيكوسيتى».

«وردت قائلة: «لا عليك».

«وأردت أن أبلغها بالارتياح الذى أشعر به الآن ، فقلت لها: «كسيدة أردت أن أجلس معك لبحث مشكلات مشتركة بيننا لكن السياسة منعت ذلك .. دعينا نجلس معاً الآن» ، وجلسنا».

(٢٤)

وتصل الرومانسية فى حديث السيدة جيهان السادات عن العلاقات بين المصريين واسرائيل إلى حدود خطرة تجعلها دون أن تدري تذكر أن ابنتها جيهان كانت مفتونة بشعب اسرائيل !! إلى هذا الحد تصل الأمور ، نعم إننا نستطيع أن نقدر رومانسية صاحبة المذكرات ولكن لا بد لها أن تقدر أن الجماهير تنظر إليها على أساس أنها سياسية قادرة على التوفيق بين الاعتبارات المختلفة وهى تتحدث أو تكتب ، مهما كانت اقتناعاتها الشخصية ، ومهما كانت طبيعة الانفعالات الشابة وغير الشابة:

«وكانت ابنتى جيهان مفتونة بشعب إسرائيل ، أينما كانت تذهب للفرجة كان الناس يلتفون حولها فى الشوارع للترحيب بها. وفى أحد المحلات توقفت لشراء أشياء تذكارية

ورفض صاحب المحل أخذ أى ثمن لها وأصر قائلاً: «من فضلك اقبلها كهدية من بلدنا لأسرتك».

«كانت لا تزال هناك لحظات تبعث على الصدمة والذعر. فقد كنت أرتعد قليلاً كلما أرى هليكوبتر إسرائيلية تذكرنى بالرعب الذى كانت تحدثه فى الحروب. كانت الصدمة أقسى عندما طرنا بالفعل بالهليكوبتر مع عزيزا وايزمان فى الطريق إلى المطار ونحن نعود إلى مصر. قال هذا الرجل الرائع الذى أحبه زوجى كثيراً جداً جداً: «هل تحبين أن تأتى إلى المقدمة وتجلسى بجانب الطيار؟ يمكنك من هناك أن تشاهدى أفضل».

«ظللت أحملق فى الطيار فى زيه العسكرى وهو يشير إلى المناطق الزراعية التى نحلق فوقها والمناطق الصناعية والمناطق التى يقطنها عرب ويهود معاً. هذا الضابط نفسه بهذه الطائرة نفسها يمكن أن يكون واحداً من الذين كانوا يقتلون جنودنا قبل ذلك بسنوات قليلة. الآن يأخذنا فى جولة للفرجة وهو فخور بنا».

«وعدنا إلى القاهرة ، وأسقطت من اعتبارى الانتقادات التى كانت قد بدأت تظهر فى الصحافة المصرية تنهم أنور بأنه دفع أكثر مما ينبغى ثمناً للسلام مع إسرائيل. هل هم غير مهتمين باستعادة سيناء؟ ولم أدهش أيضاً للمظاهرات المتفرقة ضد الحكومة من جانب المتطرفين الإسلاميين . بالليل عندما أعلن زوجى والرئيس كارتر معاً أنه تم التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل اضطر البوليس لتفريق مظاهرة فى جامعة أسيوط بالغاز المسيل للدموع. أدركت أن هؤلاء المتطرفين لن يوافقوا أبداً على السلام ، لكنى اعتقدت أنهم سيرون قريباً جداً أنه لم يكن لدى مصر بديل».

«وأخذت النيران التى كانت على وشك أن تلتهم زوجى تنتشر».

(٢٥)

ونخصص السيدة جيهان السادات عدة صفحات من كتابها للحديث عن حواراتها مع الرئيس السادات فى أيامه الأخيرة ، وتحفل هذه الحوارات بقدر ملحوظ من التعبير عن مرارة صاحبتهما تجاه تصرفاتها غير المنتبهة بالقدر الكافى إلى ما تحبته الأقدار ، وهى التى لم تتمكن من أن تكتشف حقيقة مشاعر زوجها فى أيامه الأخيرة بقرب منيته ، ونحن نقرأ فى عبارات السادات نموذجاً ما للحكمة البشرية المصفاة التى تدرك فى ذكاء أو إلهام بعض نعم الله بحكمته وإرادته:

«وثلاث مرات فى سبتمبر قال لى: إنه سيقابل ربه ، ورددت عليه وأنا أمزح فى أول مرة بينما كنا نسير معاً فى الحديقة وسألته «إنه أمر شيق يا أنور.. متى أخبرك الله إنك ستقابله»، وفى المرة الثانية أخذت أمزح أيضاً على الرغم من أننى أحسست باضطراب ، فهذا ليس السادات الذى عرفته ، الواقعى ، القوى الذى لم يعش مطلقاً فى الوهم ، وفى المرة الثالثة ، لم أقل شيئاً على الإطلاق».

«وفى بداية شهر أكتوبر وخلال جولة أخرى لنا معاً قال لى: إن الله منحنى أكثر مما كنت أحلم ، فلقد انتصرنا فى الحرب وانتصرنا فى السلام ، لقد وضعت أسس الديمقراطية فى مصر ، ووضعت مبادئ الرخاء الاقتصادى ، فماذا يريد إنسان أكثر من ذلك؟ لقد أنجزت مهمتى التى فرضها الله على».

«وسألته: «لماذا تعتقد أنك أنجزت مهمتك؟ إن الله لا يكشف مطلقاً أسرار له لأى قلب بشرى...».

«ولكن إجابته كانت جاهزة: «إننى لم أدع مطلقاً ياجيهان أنى أعرف أسرار السماء، ولكنى أشعر أن حياتى بفضل الله أدت دورها...».

«وبدأ يتحدث عن مكان الدفن ورغبته فى أن يدفن عند جبل سيناء ، ولكن كلما تكلم هو عن هواجسه وما يجول بداخله تحدثت أنا بإسهاب عن الحياة المستقبلية التى نتطلع إليها سوياً».

«وسألته بمرح: «إلى أين ستأخذنى أولاً؟ إلى الغابة السوداء فى ألمانيا أم إلى فيينا حيث نستطيع أن نغنى على الدانوب؟ وأجابتى: «آه ياجيهان» ، وواصلنا السير ، ورفضت أن أستجيب أو أستسلم لهبوط معنوياته ، فلازلت على هذه الأرض وأريده أن يكون عليها أيضاً ، وفى الثانى من أكتوبر قلت له ونحن نسير فى حديقة منزلنا بالجيزة : أنور.. أنت تفسد (جمال) لماذا تدعه يذهب إلى أمريكا ، يجب أن تقول له لا».

«وابتسم أنور فى وجهى قائلاً: أريد أن أفعل كل شىء من أجله خلال وجودى على قيد الحياة ، وسوف ترين أنه ليس مدللاً ، فعندما أرحل فسوف يظهر لك أنه رجل بمعنى الكلمة وأنه قادر على تحمل المسئوليات».

«وسألته: «كيف تعدنى بذلك؟ إنك سترحل وأنا سأرحل معك».

«وردد: سوف ترين ياجيهان.. سوف ترين...».

وتمضى السيدة جيهان السادات فى نفس الخط لتروى تفصيلات أحد المواقف العائلية التى كان ينبغى عليها وعلى بعض أفراد أسرتها أن تستشف منها أن الرئيس السادات كان على وشك الرحيل .. وتكاد السيدة جيهان السادات بهذه القصص والآراء تعبر تعبيراً صادقا ودقيقاً عن طبيعة أفكار المصريين وتصوراتهم وتأملاتهم فى مثل هذه المواقف المرتبطة بالقدر والحياة والموت:

«... وفى الثالث من أكتوبر غادر جمال القاهرة متوجهاً إلى كاليفورنيا ، وعانق والده وعانقنى مودعاً وهبط درجات السلم متوجهاً إلى سيارته ليعلم أن رحلته سوف تتأخر لمدة نصف ساعة ، فصعد السلم ثانية ليمضى الوقت المتبقى مع والده» .

«وقال لى جمال فيما بعد: «إن أبى كان يتصرف بغرابة شديدة فى ذلك اليوم ، فعندما تركته قلت له: «لا إله إلا الله» ، لكنه لم يجب كالمعتاد «محمد رسول الله» ولم يقل أى شىء ، فقط ابتسم: «وقال لا تبغ كثيراً فى الولايات المتحدة يا جمال وعد سريعاً» .

«وسألته: «وماذا قال أيضا يا جمال؟» وأجاب جمال وعلامات القلق على وجهه قال: خذ بالك من والدتك ، وهو لم يقل لى من قبل على الإطلاق هذه الجملة ، وكان عادة يقول: خذ بالك من شقيقاتك. وقلت له لأهدى من روعه : «هذا ما ستفعله فقط» .

ثم تردف صاحبة المذكرات هذا كله بالحديث عن اليوم السابق على استشهاد زوجها: «وفى الخامس من أكتوبر قضيت الصباح أعمل فى رسالة الدكتوراه ، وكالعادة لم يكن لدى لحظة أضيعها وحسدت أنور لجلوسه فى الحديقة يحاول أن يقرأ فى حين كانت ياسمين ابنة جمال التى تبلغ من العمر عامين ونصف العام تدور حوله . لكم كان أنور يبدو مستسلماً وسعيداً من نافذتى ، كان يتطلع كما أعلم للعرض العسكرى فى اليوم التالى ، واستعداداً لهذا اليوم أعددت حلته الجديدة وكويت وشاحه الكبير وأرسلت حذاءه «البوت» لتلميعة ، «وباستثناء جمال فقد كان كل أولاده وأحفاده يعتزمون الحضور ليشاركونا إحياء الذكرى الثامنة لانتصارنا على إسرائيل ، ولن يكون هناك خطر من أفراد القوات المسلحة فى العرض العسكرى فإن السادس من أكتوبر يوم عيد وفرحة لنا جميعا وهو يوم راحة من التوتر الذى كان يجتاح قلبى وفى هذا اليوم بالذات لا يجب أن تكون هناك سحابة واحدة فى سماء مصر تعكر صفونا فى هذا اليوم العظيم» .

(٢٧)

وتصدقنا السيدة جيهان السادات الرواية عن حقيقة مشاعرها فى الأيام الصعبة التى تلت رحيل الرئيس السادات ، وهى فيما ترويه عن هذه الأيام تتواءم مع ما نعرفه عن طبيعة التجربة الإنسانية التى تدفع أهل المتوفى إلى زيارة قبره كثيراً فى البداية .. كما أنها من ناحية أخرى تعبر بدقة عن حالة الذهول التى كانت تجتاحها :

«وكنت كل يوم فى البداية ، أتسلل من منزلنا لزيارة قبره ، لأشعر بقربه ولأهدئ روجه . وكنت أوسى نفسى ، إن أنور فى الفردوس ، فلقد مات أنور شهيداً ، والشهداء على الإسلام ينتقلون إلى الفردوس مباشرة ، ولقد بورك أنور مرتين: فإن الله قد أخذ روجه بسرعة وبأقل معاناة ، والله سبحانه يحب الألم هؤلاء الذين يحبهم أكثر».

«وبالرغم من أنى كنت أعرف دائماً أن زوجى سوف يقتل لشجاعته ولرغبته فى السلام ، فلم أكن مهياً لذلك .. لقد تحطم قلبى».

«وكان الناس الذين يحبوننى يقولون وهم واقفون فى ذهول وحزن ، عند قبر زوجى ، كلما ذهبت حتى فى أوقات متأخرة من الليل:

«فليباركك الله ياسيدتى».

«الله معك ياسيدتى».

ومع أن هذه العبارات « الفصحى » لاتعبر تماماً عن العبارات العامية التى تقال فى مثل هذه المواقف من قبيل « البركة فىك ياسيدتى » إلا أن القارئ العربى يستطيع إدراك النصوص التى قيلت بالضبط :

«وكان بعضهم يصلى ، وبعضهم يبكى ، والبعض الآخر يحملق فقط فى ذهول».

(٢٨)

ولا تنسى السيدة جيهان السادات أن تصور مشاعر أسرتها الصغيرة بعد رحيل الرئيس السادات فتغلبها إحساساتها ومشاعرها ، وحسناً فعلت حين تركت هذه الأحاسيس والمشاعر تتغلب عليها فى هذه الفقرات التى منها قولها:

«وكان أولادنا محطمين».

«وقال جمال وهو فى أعماق حزنه ، وهو الذى كان يجلس دائماً خلف أبيه فى احتفالات السادس من أكتوبر:

«لو كنت معه فقط ، لكنت دفعته على الفور إلى الأرض ، وألقيت بجسمى فوقه».
«وكنت أحاول أن أهدئ من ولدنا قائلة:

«لا يا جمال ، إن حياته ليست فى يدك ، ولكنها فى يدى الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد كان يستطيع أن يفعل شيئاً لتأجيل أجله».

«ولكن جمال كان مكسور النفس وظل لمدة شهر بعد ذلك فى حزن عميق ، شاعراً أنه قد تخلى عن أبيه».

«وعانت ابنتنا الصغرى ، نانا ، أيضاً بشكل فظيع ، فكانت تزور قبر أبيها كل يوم لمدة شهر ، وتأتى للبيت كل مرة والدموع تنهمر على خديها . ولم تستطع التخلص من حزنها ، وكنت أخاف أن يكون هذا بداية مرض يلزم بها ، فحثتها برفق:

«لا تذهبي كل يوم يا نانا ، إن أباك لن يرضى أن يراك حزينة بهذا الشكل».

«ولكنها استمرت فى زيارتها حتى اضطررنا لمنعها».

(٢٩)

وتحرص صاحبة المذكرات على أن تشير بطريقة غير مباشرة إلى معاناتها من التصرفات التى كانت تنسب إليها وتستغل اسمها فى أنشطة أو تجاوزات لم تكن توافق عليها ، ومن حسن الحظ أن السيدة جيهان السادات كانت واعية لأن تتحدث عن هذه الجزئيات فى كتابها هذا المهم ، فمن الواجب الدينى علينا ونحن فى مواقع القدوة أن «نذب الغيبة عن أنفسنا» على نحو ما علمنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حسن الحظ أن السيدة جيهان السادات وجدت الشجاعة لأن تورد بعض ما تواتر عن استقلالها للتنفيذ وأن تواجهه فى ذات الوقت بموضوعية وشجاعة حيث تقول:

«فجأة فى كل مكان أذهب إليه أسمع شائعة أخرى عن «فسادى» وفى وقت من الأوقات عرض «إبراهيم لطفى» رئيس مجلس إدارة بنك ناصر المصرى توحيد القوى مع «الوفاء والأمل» من خلال استثمار مشترك فى أسطول صغير من سيارات الليموزين يتم

تأجيرها للسائقين ، على أن تخصص نصف الأرباح للوفاء والأمل ، ولكن عندما أرسل البنك السيارات الليموزين والسائقين إلى الوفاء والأمل حتى يتفقدوا أعضاء مجلس الإدارة ، أخبر السائقون بطريق الخطأ الناس بأنهم سلموا السيارات شخصياً لى فى الوفاء والأمل ، وانتشرت الكلمة بسرعة عن طريق المعارضين ورددوا أنني اشترت السيارات لاستخدامى الخاص ، وحتى عندما قرر مجلس إدارة الوفاء والأمل عدم الاستمرار فى المشروع على الإطلاق لعدم جدواه المالية ، فإن الشائعة لم تمت ، واستمر الحديث عن «سيارات جيهان» ينتشر سريعاً ، وكان على أن أنفى صحته فى حديث مع التلفزيون».

«لقد كان وقتاً سيئاً حيث بدأ بعض الأفراد الذين قلما قابلتهم فى استخدام اسمى لتبرير تصرفاتهم غير القانونية ، وقد قام أحد الموظفين السابقين بالوفاء والأمل بملء سيارة لورى ضخمة بأجهزة التلفزيون وأدوات أخرى من المنطقة الحرة فى بورسعيد وأبلغ موظفى الجمارك بأنه يحمل هذه البضائع من أجل أعمال الخير وبناء على أوامر من قرينة السادات ، ولحسن الحظ ألقى القبض على هذا الشخص بينما كان يحاول تكرار هذه الخدعة لثالث مرة ، وذلك عندما اتصل أحد مسئولى الجمارك بمكتبى للتأكد من الأوراق، ولو لم يتصل بى أحد فإننى ما كنت قد عرفت مطلقاً ماذا حدث».

(٣٠)

وفى نفس هذا الإطار الذى تدافع فيه صاحبة المذكرات عن صورتها تضرب السيدة جيهان السادات المثل بنموذج آخر أكثر تحديداً من السلوك غير المسئول كان أكثر إيلاماً لها:

«... وحادثة أخرى كانت أكثر إيلاماً ، ففى خطاب من ضابط بالبحرية فى عام ١٩٨٠ يقول: «لقد صدمت وأصبت بخيبة أمل ، وإننى دائماً معجب بعملك مع جنودنا ، ولكن ليس ذلك ولا اقترانك بالرئيس يمنحك الحق فى أن تستولى على الأرض التى اشتريتها لأسرتى فى الإسكندرية» ، وأحسست باضطراب كامل ذلك لأن الأرض الوحيدة التى أمتلكها كانت ١٢ فداناً أمتلكها مناصفة مع ابنى جمال فى «ميت أبو الكوم» ، وازداد اضطرابى عندما أرسلت أحد الأشخاص من مكتبى للتحقيق فى هذه المسألة ، وأبلغنى بأن الضابط على حق حيث توجد لافتة كبيرة على أرضه كتب عليها أن هذه الأرض مملوكة لجيهان السادات».

«وسرعان ما اكتشفت الحقيقة ، فقد وضعت هذه اللافتة بواسطة «جيهان طلعت السادات» ابنة طلعت شقيق أنور ، فقد اشترى زوجها الأرض من ضابط البحرية ، ثم اختلف الشريكان على مساحة الأرض المخصصة وقد حاولت ابنة شقيق أنور أن تحل المشكل بتخويف الضابط فوضعت اللافتة ، ولغرض ما أسقطت «طلعت» من اسمها الذى كتبه على اللافتة ، فعندما يدرك الضابط أن حرم الرئيس معنية بهذا النزاع فإنه سيتخلى عن موقفه ويستسلم».

«وشعرت بالغيظ والضيق ، وكذلك أنور ، وطلب أنور من جيهان ابنة طلعت أن تسوى نزاعها على الأرض فوراً فى المحكمة ، وبصورة قانونية وتم حل المسألة ، إلا أن الشائعات ظلت باقية».



وتعترف صاحبة المذكرات بأن الرئيس السادات كان على النقيض منها أكثر هدوءاً حين يواجه مثل هذه الهجمات أو الشائعات فتقول:

«وكان أنور أكثر هدوءاً منى فى مواجهة معظم الهجمات التى كانت تشن ضده وضدى ، وكان يقول لى: «لا تلقى بالألما يقولون ، فإذا لم يجدوا أمراً تتورطين فيه فإنهم سيجدون شيئاً آخر ليرفضوه أو يشككوا فيه».

وهنا تعقب السيدة جيهان السادات بقولها:

«لقد كان على حق بالتأكيد وكنت أعرف أننى لا أستطيع إرضاء كل شخص ، ولكنى أيضاً كنت أعرف أننى لم آخذ أى شىء من مخصصات أعمال الخير ، وقد حاولت أن أتجاهل الاتهامات الطائشة ضدى ، إلا أنها ظلت ضارية ، والهجمات استمرت».

(٣١)

ويحفل هذا الكتاب بكثير من الطرائف فى كثير من فصوله ، ومن هذا ما ترويه صاحبة المذكرات عن استقبال السادات لاليزابيث تايلور فى مصر بعد أن قام بمبادرته ومضى فى سبيل السلام وهى تحرص ربما دون أن تدري على أن تقدم لنا هذا الموقف بطريقة نسائية طريفة :

«فى سبتمبر من عام ١٩٧٩ ، استفسرت الممثلة الأمريكية اليزابيث تايلور عما إذا كان بإمكانها زيارة مصر ، وتحمست ، فاليزابيث هى ممثلى المفضلة لأنها لم تكن فقط جميلة ولكنها أيضاً كانت مفعمة بالروح الفنية الهائلة ، وكنت دائماً أتطلع إلى مقابلتها ، ولكن مثلها مثل الذين زاروا إسرائيل كان محظوراً عليها لعدة سنوات دخول دولتنا».

«وبالقطع بعد اتفاقات كامب ديفيد لم يعد هناك حظر بالنسبة للذين زاروا إسرائيل من قبل ، والقائمة السوداء العربية لم تعد تنطبق علينا ، ومن ثم فقد كانت سعادتى بالغة أن أدعو اليزابيث تايلور إلى احتساء فنجان من الشاي معى فى منزلى بالقاهرة ، واتفق كل أبنائى على الخضوع لرؤيتها وقضينا معاً وقتاً جميلاً ، ولكن اليزابيث تايلور كانت تشعر بخيبة أمل لأنها لم تشاهد أنور الذى كان فى الإسماعيلية ، وقلت لها: «ربما أستطيع أن أرتب لك لقاء معه قبل أن تغادري القاهرة».

«واتصلت بأنور تليفونياً فى الإسماعيلية وأبلغته «معى شخص هنا يريد مقابلتك» ، إلا أنه أخطرني بأنه مشغول جداً بدرجة يتعذر معها مقابلة أى شخص ، فأجبت «بالسوء الحظ يا أنور.. سوف تصاب اليزابيث تايلور بخيبة أمل» ، وبعد برهة من الصمت قال ضاحكاً: «فى هذه الحالة دعيها تأتى ، مرحباً بها».



وفى نهاية هذا الباب يجدر بى أن أذكر ما كان يجب على أن أبدأ به ، وهو أنى سعيد غاية السعادة بصدور هذا الكتاب الذى يروى بعض ملامح هذه السيدة العظيمة التى لا تتكرر كثيراً ، ولكننا نرجو الله أن تتكرر ، وإلى أن تتكرر فإنى أدعو الله لها بالصحة ، والسعادة ، وهناءة البال ، والمزيد من التوفيق ، وحب الناس.

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحزبية

3

**أيام من حياتي
للسيدة زينب الفزالي**

دار الخيال

(١)

هذه مذكرات صارخة تتناول فيها كاتبها السيدة زينب الغزالي تجربتها مع المعتقلات في عهد الرئيس جمال عبد الناصر ، وتنطلق من هذه التجربة إلى الحديث عن تجربتها الأوسع والأطول والأعرض في النشاط السياسي والإسلامي منذ منتصف الثلاثينيات .

كتبت هذه المذكرات في بداية موجة الحديث الصريح عن المعتقلات في عهد عبدالناصر وطبعت هذه المذكرات ونشرت فلاقته رواجاً شأنها شأن كل المذكرات والروايات التي نشرت عن هذه الفترة التي لم يكن أحد يعرف عنها شيئاً مسجلاً ومكتوباً على صحائف ، ثم أعيد طبع هذه المذكرات مرة بعد أخرى على نحو ما يطالعنا به الناشر في تعداده للطبعات الصادرة من هذه المذكرات في ظهر الغلاف الداخلي ، ولكن قراءة هذه المذكرات اليوم قد يعطى الفرصة للاتجاهات المتقدمة للنشاط السياسي الإسلامي لتضع أيديها على ما قد يُسمى في لغة الخطاب الإعلامي المصري باعترافات كثيرة ، وعلى غاية من الأهمية ترويه بثقة شديدة السيدة زينب الغزالي .

وسوف نحاول ، بإذن الله ، أن ننظر إلى هذه المذكرات بعيون غير متأثرة بالهوى الجامح الذي تخلقه المعاصرة ، وكأننا نستعير سلفاً عيون منتصف القرن الحادي والعشرين حين يكون الخلاف السياسي والمقائدي الذي أدار كثيراً من محاور هذه المذكرات قد تباعد عن التأثير على حكم القارئ على ما يقرأ في مثل هذه المذكرات ؛ إنما نريد في هذا الفصل

أن نتحدث عن مجموعة من المعانى والمغازى المختلفة دلنا عليها هذه المذكرات حين كتبها صاحبها على هذا النحو من السرد المتصل الذى لا يتوقف إلا ليتناول جزئية من الجزئيات التى ينبغى لها أن تتضح فى ذهن القارئ حتى يمضى فى التسلسل الذى أراده المؤلف لما تريد أن تتحدث عنه.

(٢)

نطالع السطور الأولى لكتابة هذه السيدة فلا نجدها تبدأ بتعريفنا بنفسها من حيث سارت حياتها طبيعية حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ، ولكنها تبدأ الكتاب بما هو مطلوب يومها من الحديث عن خصومتها مع عبدالناصر وتجعل عنوان الفصل الأول من كتابها «عبدالناصر يكرهنى شخصياً» ، وتروى لنا تجربتها الأولى مع أجهزة الأمن فى منتصف الستينيات ، وتدبر حوارات متعددة إلى أن تصل إلى عبارة تضعها على لسان واحد من رجال الأمن يقول لها فيها إن عبدالناصر يكرهها شخصياً.. وهكذا يتناول الكاتب أو المحرر الذى صاغ عناوين الكتاب وترتيبه (وأغلب الظن أنه شخص آخر غير السيدة زينب الغزالي) هذا السطر فيجعله عنوان الفصل ومدخل الكتاب كله.

«... وجاءتنى السكرتيرة فى أمسية استجمعت فيها شجاعتها لتتقل إلى وجود زوجى ما أخفوه عنى. كان الأمر خطيراً على ما بدا من موقف زوجى المذكر بشجاعتى والمشجع على الصبر والاحتمال وقوة الإرادة ، وأخذت الأوراق من السيدة فإذا هى قرار «بحل المركز العام لجماعة السيدات المسلمات» ، وأخذت السكرتيرة تتحدث إلى قائلة: «طبعاً يا حاجة الأمر شديد بالنسبة إليك». قلت: «الحمد لله ، ولكن ليس من حق الحكومة أن تحل الجماعة ، إنها جماعة إسلامية» ، أجبته: «لا أحد يقدر أن يقول للحكومة هذا ، لقد بذلنا مجهوداً كبيراً جداً ، ولكن عبدالناصر مصرّ على حل الجماعة ، هو يكرهك شخصياً يا حاجة زينب!! لا يطيق أن يسمع اسمك على لسان أى إنسان. عندما يذكر اسمك يثور ويغضب وينهى المقابلة».

«قلت: «الحمد لله الذى جعله يخافنى ويغضبنى وأنا أبغضه لوجه الله ، ولن يزيدنا طغيانه ، نحن معشر المجاهدين ، إلا إصراراً على أن نرضى ضمائرنا ونعيش لدعوتنا ، إنها دعوة التوحيد وستتصر بإذن الله ، وأرخص ما نبذله لها أن نستشهد فى سبيلها».

«ليس لعبد الناصر الحق فى أن يحل جماعة السيدات المسلمات. إن الله تبارك وتعالى هو الذى يعقد للمسلمين آياتهم ، والذى يعقده الله لا يحله البشر».

«قالت والدموع فى عينيها: «ياحاجة المسألة خطيرة ، ونرجو الله أن لا تنتهى بحل الجماعة ، ربما كانت كلماتك هذه تسجل ، أو أنها قد سجلت فعلاً ، ربما كان هنا جهاز تسجيل». كانت تسر فى أذنى بهذه الكلمات وكأنها تخشى تسجيل كلماتها ، واستمرت تسر إلى: «ياحاجة أنا أطلب منك شيئاً صغيراً وهو التوقيع على هذه الورقة ، فإذا وقعتها سيلغى قرار الحل». فسألتها أن تطلعنى على الورقة فإذا هى استمارة انتساب للاتحاد الاشتراكى ، فقلت لها: «لا والله ، شئت يدي إذا وقعت يوماً على ما يديننى أمام الله بأننى اعترفت بحكم الطاغوت جمال عبدالناصر الذى قتل عبدالقادر عودة وزملاءه. إن الذين غمسوا أيديهم فى دم الموحدين ، خصوم لله وللمؤمنين. الأشرف لنا أن يحل المركز العام للسيدات المسلمات».

«قبلت رأسى وهى تبكى وتقول:

«أثقتين بأننى ابتتك؟»

«قلت : نعم».

«قالت : فاتركى هذا الموضوع».

«قلت: سترك الأمر ، ولن أوقع هذه الورقة ، إن فيها ولاء للطاغية ، وهذا أمر مستحيل إتيانه والله يفعل ما يختاره لعباده».

«ومرت أيام المستشفى وتقرر خروجى مع استمرار العلاج».

على هذا النحو من المواقف «الفرادى» تقدم السيدة زينب الغزالى كثيراً من الحوادث والوقائع دون أن تربطها بخيط متواصل مع ما بعدها أو مع ما قبلها ، وكأنها تكتفى بالجو العام الذى تصوره ، وكأنما هى تعلم أن كتابها سيوظف على مستوى هذه الوقائع الفرادى دون أن يتنبه أحد إلى أن يسأل فى كل واقعة ذلك السؤال المنطقى الذى يقول: وماذا حدث بعد ذلك؟

(٣)

ومع هذا فنحن لسنا بصدد التحقيق فى مثل هذه الواقعة ، لأنها فى رأينا المتواضع لا تضيف إلى فهمنا لتجربة هذه السيدة التى عبرت عن كثير من ملامح تجربتها على نحو

جيد وموح بما أرادت التعبير به وعنه ، ، وبهنا أن نذكر للقارئ أن السيدة زينب الغزالي كانت ككثير من شباب وشابات أمتنا العظيمة فيما بين الثورتين (١٩١٩ - ١٩٥٢) من أولئك الذين يرتبطون بعلاقة قوية بزعامة النحاس باشا وحزب الوفد ، وقد يرتبطون في نفس الوقت بتقارب فكري أو وجداني مع المغفور له حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين .. وأحب أن أنتهز هذه الفرصة لأقول إن هذا كان شأناً طبيعياً جداً ، فكل هؤلاء أبناء وطن واحد وثقافة واحدة ، ولم يكن هناك أدنى مبرر لأن يتحول الخلاف السياسي إلى خصومة شديدة على الرغم من أن عدداً لا يستهان به من ممارسي العمل العام في هذه الفترة قد انزلقوا إلى هذا الطريق من دون أن يدروا ، وما تزال أصداء مثل هذه الخصومات تتردد في الكتابة عن هذه الفترة ، وليس من شك أن من الطبيعي أن يقدر المواطن المصري جهود النحاس وزعامته الوطنية التي لا جدال في عظمتها وسموها ، وأن يقدر أيضاً المعاني الإنسانية الجميلة التي بدأت بها جماعة الإخوان المسلمين دون أن يكون مضطراً إلى تأييد ما نسب إلى الجهاز السري للإخوان أو الرضا به ، ويبدو أن زينب الغزالي كانت من هذه الأغلبية طيلة ما قبل الثورة ، ولكن الظروف فيما بعد هذا دفعتها إلى طريق آخر كانت فيه - في نظر الحكومة وأجهزتها المختلفة - واحدة من أبرز نشطاء العمل السياسي السري وأخطرهم على أمن الدولة.

مكتبة نورالدين

للسيدة زينب الغزالي إذن أفنعة متتالية أو مركبة في حياتها ، وهي إذن ليست شخصية تقليدية ، ولا سهلة المراس ، وهي كذلك في حديثها عن نفسها ، سواء كتبت أو أملت أو أجابت به.

(٤)

والشاهد أننا نجد السيدة زينب الغزالي في هذه المذكرات حريصة ولكن على استحياء شديد على أن توضح طبيعة انتمائها وعقيدتها السياسية ، وهي لا تفصل القول في هذه النقطة المهمة ولكنها تناولها تناوياً سريماً جداً حين يأتي السياق إلى الموضوع الذي لا بد لها فيه من أن توضح هذا الانتماء ، ولكنها في الحقيقة كانت قد سبقت وأشارت في موقع متقدم من كتابها إلى جهودها في الوساطة بين مصطفى النحاس وحسن البنا ، وذلك حيث تروي هي نفسه في صفحة ٢٥ فقرة سوف نستشهد بها عما قليل ، ولكننا هنا لا بد أن ننقل للقارئ انطباعاتها الأولى عند سماعها نبأ وفاة النحاس باشا حيث تقول:

«... وأرادت عليّة أن تغيّر الموضوع وأن تخرج بي خارج الأسوار ، ونقلت لى نبأ وفاة مصطفى النحاس باشا ، وخنقتنى عبارات الوفاء وأنا أدعو ربى «اللهم إنك غنى عن عقابه وهو فقير إلى رحمتك ، اللهم فارحمه» ، وعرفت منها أنه مات بعد دخولى السجن بيومين أو ثلاثة ، وحدثتني عن جنازته ، عن الألوّف المؤلّفة التي كانت تسد جميع الطرقات ، عن المظاهرات ، عن خطف النعش حتى مسجد الحسين ، عن الهتافات بألا زعيم بعد النحاس ، عن بعض شعارات الإخوان وسط مسيرة الجنازة ، عن محاولات أجهزة الدولة الوقوف أمام هذا الطوفان ، عن تعليق الإعلام الخارجى على ما حدث.. وكان حديثاً طويلاً مطمئناً صريحاً».

«لقد انتهزت جماهير الشعب فرصة وفاة النحاس.. لتبدى رأيها صريحاً واعتقادها سليماً فهتفت معلنة مدوية تشق بهتافها سماء مصر: «لا زعيم بعدك يا نحاس» ، فكأنها بتلك الصرخات المدوية تعبر عن حرمان مكبوت فى النفوس والقلوب والمشاعر ، والوجدان ، فكأنها تقول:

«أيتها الزعامات الباطلة اسقطى ، أيتها الأقنعة الزائفة انكشف الغطاء ، ووضح خداعك وغشك ، أيها المنقذ أغرقك السراب والوهم ، يا حبيب الملايين أمرت الفجار فزيفوها فصدقتهم ، وما أنت إلا وليد إعلام مأجور وكاتب مأمور ، أيتها الخشب المسندة ستحرق النار.. نار الحق فتصبحوا رماداً تذرّوه الرياح سراباً وأهل الحق ظمأى».

«وسألت عليّة وماذا بعد ذلك؟ قالت: يتهامس الناس على اعتقال عشرين ألفاً من المشيعين».

«نعم لقد كانت جنازة النحاس أذان حق وإعلان صدق عن سريرة مصر والمشاعر الحبيسة فى نفوس أبنائها والحرية المكبوتة. وشدنى الحديث إلى ذكريات كثيرة عن مصطفى النحاس ، ذلك الرجل الذي لم يحقد يوماً على أعدائه ، وكان لا يعز عليه أن يعترف بالخطأ إذا أخطأ ، لقد كان زعيماً وطنياً».

(٥)

والواقع أن السيدة زينب الغزالي - حتى لو أرادت أن تصور غير ذلك - لم تكن فى

بداية حركتها السياسية مبالاة تماماً إلى العمل السياسي الإسلامى الذى نعرف طبيعته فى الحركات التى تنسب إلى الإخوان المسلمين أو إلى جهازهم السرى ، ومن الواضح أنها كانت تنحو فى السياسة بنفسها وبجمعيتها منحى جمعية الشبان المسلمين مثلاً ، ولكن (شيئاً ما) دفعها دفعاً منذ مرحلة متأخرة فى حوالى ١٩٤٨ إلى أن تسلك سبيل الإخوان المسلمين وهى تعبر عن هذا المعنى بوضوح شديد حيث تقول فى بداية الباب الثانى :

«..... لم تكن صلتى بجماعة الإخوان المسلمين حديثة كما توهمها العابثون ، إذ كانت تعود بتاريخها إلى سنة [١٣٥٧هـ] ١٩٣٧م ، فى ذلك اليوم البعيد المبارك ، وبعد ما يقرب من ستة أشهر على تأسيس جماعة السيدات المسلمات كان أول لقاء لى مع الإمام الشهيد حسن البنا. كان ذلك عقب محاضرة ألقىتها على الأخوات المسلمات فى دار الإخوان المسلمين وكانت يومئذ فى العتبة ، كان الإمام المرشد فى سبيله لتكوين قسم للأخوات المسلمات ، وبعد مقدمة عن ضرورة وحدة صفوف المسلمين واتفاق كلمتهم دعانى إلى رئاسة قسم الأخوات المسلمات ، وكان هذا يعنى دمج الوليد الجديد الذى أعتز به «جماعة السيدات المسلمات» واعتباره جزءاً من حركة الإخوان المسلمين ولم أعد بأكثر من مناقشة الأمر مع الجمعية العمومية للسيدات المسلمات ، التى رفضت الاقتراح وإن جذت وجود تعاون وثيق بين الهيئتين».

(٦)

لا تروى لنا السيدة زينب الغزالى الكثير ولا القليل عن ديناميات اتخاذ القرار داخل جماعة السيدات المسلمات ، ولماذا أثر أصحاب القرار أو صاحبات القرار فى هذه الجماعة أن يرفضن الاقتراح وأن يتعدن بأنفسهن عن الاندماج تحت زعامة حسن البنا حتى وإن قبلن فى ذات الوقت بالتعاون الوثيق؟ من حق القارئ أن يتساءل ولكن السيدة زينب الغزالى لا تجيب!

وهى تستأنف حديثها فتقول :

«وتكررت اللقاءات مع تمسك كل منا برأيه وتأسست الأخوات المسلمات ولم يغير ذلك من علاقتنا الإسلامية شيئاً ، وحاولت فى آخر لقاء لنا فى دار السيدات المسلمات أن أخفف من غضبه (ها هى أيضاً تحدثنا عن غضب الإمام حسن البنا دون أن تذكر سبب هذا

الغضب ولا مظاهره) بعهد آخذه على نفسه أن تكون السيدات المسلمات لبنة من لبنات الإخوان المسلمين على أن تظل باسمها واستقلالها بما يعود على الدعوة بفائدة أكبر ، على أن هذا أيضاً لم يرضه عن الاندماج بديلاً (هنا ينبغي لنا أن نتوقف لنسأل هل كان حسن البنا حريصاً كل هذا الحرص على اندماجها ولماذا؟؟) ودارت الأحداث بسرعة ووقعت حوادث سنة ١٩٤٨ وصدر قرار حل الإخوان ومصادرة أملاكهم وإغلاق شعبها وزُجَّ بالآلاف في المعتقلات وقامت الأخوات المسلمات بنشاط يُشكرن عليه ، وكانت إحداهن السيدة تحية الجبيلي زوجة أخى وابنة عمى ومنها عرفت الكثير من التفاصيل ، ولأول مرة وجدت نفسى مشتاقة إلى مراجعة كل آراء الأستاذ البنا وإصراره على الاندماج الكلى..».

«وفى صبيحة اليوم التالى لحل جماعة الإخوان كنتُ بمكتبى فى دار السيدات المسلمات وفى نفس الحجره التى كان بها آخر اجتماع لى بالمرشد الإمام».

من هذا نفهم أن المرشد هو الذى كان يذهب إليها وليس العكس ، ويعطينا هذا فكرة عن مدى تمكن الأخلاق الحضارية من شخصية المغفور له حسن البنا ، فهو جتلتمان حقيقى.

«ووجدت نفسى أجلس إلى مكتبى وأضع رأسى بين يدى وأبكى بكاءً شديداً ، فقد أحسست أن حسن البنا كان على حق ، فهو الإمام الذى يجب أن يُبايع من المسلمين جميعاً على الجهاد لعودة المسلمين إلى مقعد مسئوليتهم ، وإلى وجودهم الحقيقى الذى يجب أن يكونوا فيه ، وهو مكان الذروة فى العالم يقودونه إلى حيث أراد الله ويحكمونه بما أنزل الله ، وأحسست أن حسن البنا كان أقوى منى وأكثر صراحة فى نشر الحقيقة وإعلانها ، وأن هذه الشجاعة والجرأة هى الرداء الذى يجب أن يرتديه كل مسلم ، وقد ارتداه البنا ودعا إليه».

«ثم وجدت نفسى أهتف بالسكرتير ليوصلنى بالأخ عبدالحفيظ الصيفى الذى كلفته بنقل رسالة شفوية للإمام البنا يذكره فيها بعهدى فى آخر لقاء لنا.. وحين عاد لى بتحتيته ودعائه استدعيت أخى محمد الغزالى الجبيلى وكلفته بإيصال ورقة صغيرة بواسطته أو بواسطة زوجته إلى الإمام المرشد ، وكان فى الورقة: «سيدى الإمام حسن البنا.. زينب الغزالى الجبيلى تتقدم إليك اليوم وهى أمة عارية من كل شىء إلا من عبوديتها لله وتعبيد نفسها لخدمة دعوة الله ، وأنت اليوم الإنسان الوحيد الذى يستطيع أن يبيع هذه الأمة بالثمن الذى يرضيه لدعوة الله تعالى ، فى انتظار أوامرك وتعليماتك سيدى الإمام..».

(٧)

وتروى صاحبة هذه المذكرات قصة لقائها الأخير بحسن البنا حيث أنهت إليه انضمامها إليه ، وللقارئ العادى أن يعجب الآن : لماذا رفضت الانضمام بحجة الأخذ برأى الجمعية العمومية ثم قبلته بشكل فردى من جانبها؟! :

«... وعاد شقيقى ليحدد لى لقاءً سريعاً فى دار الشبان المسلمين ، كان المفروض أن يحدث وكأنه مصادفة ، ولم أكن أعدم مبرراً لتواجدى هناك ، فقد كنت ذاهبة إلى صالة دار الشبان لإلقاء محاضرة ، والتقيت بالأستاذ البنا فقلت له ونحن نصعد الدرج: «اللهم إنى أبايعك على العمل لقيام دولة الإسلام وأرخص ما أقدم فى سبيلها دمي ، و«السيدات المسلمات» بشهرتها» ، فقال: «وأنا قبلت البيعة وتظل «السيدات المسلمات» الآن على ما هى عليه» ، وافترقتنا على أن يكون اتصالنا بواسطة منزل أختى».



ها هى ذى السيدة زينب الغزالى شأنها شأن أبناء جيلها [ومن بينهم رجال ثورة ٢٣ يوليو بالطبع] تضم جمعية السيدات المسلمات إلى رعاية حسن البنا بقرار فردى ، فإذا ما احتاجت قبل هذا إلى رفض هذا الاندماج فيما يبدو ، بحثت الأمر على مستوى القاعدة وأخذت رأى الأعضاء فرفضوا ، ولكنها عند الوحدة والاندماج لا تسلك نفس السلوك ، إنما هى ورقة تكتبها نتنازل بها عن كل شيء!! :

«... وكانت أول رسالة من الإمام الشهيد تكليفاً بالوساطة بين النحاس والإخوان ، وكان رفعة مصطفى باشا النحاس خارج الحكم حينذاك ، وحدد النحاس المرحوم أمين خليل للقيام بإزالة سوء التفاهم ، ورضى به الإمام الشهيد وكنت أنا حلقة الاتصال ، وفى ليلة من ليالى فبراير سنة ١٩٤٩ جاءنى أمين خليل يقول لى: «يجب اتخاذ إجراءات سريعة ليسافر البنا من القاهرة ، فالمجرمون يأتمرون به ليقتلوه ، ولم أجد وسيلة للاتصال به مباشرة فقد اعتقل أختى ، فحاولت الاتصال بالإمام الشهيد شخصياً ، وأنا فى طريقى للاتصال بلغنى خبر الاغتيال (!!) ونقله إلى المستشفى ، ثم تواترت الأخبار بسرعة بسوء حالته وذهب شهيداً إلى ربه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

هكذا تنتهى رواية السيدة زينب الغزالى عن علاقتها بالمغفور له حسن البنا وبالإخوان المسلمين ، ومع هذا فإن الباحث المتصف لا يستطيع أن يأخذ الأمر على هذا النحو من دون

أن يناقش احتمالاً آخر يقول بأن زينب الغزالي كانت منذ بداياتها تنتوي ما بدأته صراحة في ١٩٤٨ أو بعد الثورة مثلاً ، ولكننا نؤثر أن غمضى مع صاحبة المذكرات على نحو ما أرادته هي من تصوير حياتها ، وإن كنا مع هذا لانقبل الأمور على علاتها ، ولا نترك النصوص للقارئ من دون تعليق سريع ، وها نحن أولاء قد أوضحنا ما ينبغي توضيحه .

ومع هذا فليس هذا هو الاحتمال الوحيد ، فمن الوارد ألا تكون علاقة زينب الغزالي بالإخوان المسلمين قد بدأت إلا بعد هذا ، لكنها بذكاء السياسيين الذين يكتبون تجاربهم بعد حين ، ويحنكة هؤلاء السياسيين وحنكتهم في الإيحاء بما يقصدون كانت السيدة زينب الغزالي واعية لأن تصور الأمور أو تعيد تصويرها على أنها بدأت في عهد المرشد الأول ، وهكذا يصبح لها سهم قديم في حركة الإخوان!

(٨)

ونحن نرى السيدة زينب الغزالي على سبيل المثال حريصة على أن تدلل على وجود علاقة الانتماء بالإخوان من قبل قيام الثورة من خلال ما ترويه في هذه الواقعة:

«وجاءت حكومة اتحاد الأحزاب [تقصد الوزارة الائتلافية] وأصدرت أمراً بحل جماعة السيدات المسلمات واعترضت أمام القضاء الذي حكم لنا في عهد حكومة حسين سرى باشا سنة ١٩٥٠ بالعودة للنشاط. وكان المحامي في القضية الأستاذ عبدالفتاح حسن «باشا» وجاءت حكومة الوفد وعاد الإخوان إلى نشاطهم وهم على بيعتهم للإمام المرشد حسن الهضيبي ، وأحببت في اليوم الأول لافتتاح المركز العام للإخوان المسلمين أن أعلن ولائى للدعوة بطريق غير مباشر إلى أن يقضى الله في الأمر بما يريد ، فتبرعت بأعلى شيء كنت أعتز به في أثاث منزلى وهو طقم صالون أرابيسك مطعم بالصدف ليؤث به مكتب المرشد العام».

«وسارت الأمور هادئة مطمئنة ، وزارنى الشهيد عبدالقادر عودة وشكرنى على التبرع وقال: «يسعدنا إذا أصبحت زينب الغزالي الجبيلي من الإخوان المسلمين».

«قلت: «أرجو أن أكونها بإذن الله». فقال: «قد كانت والحمد لله».

«وصارت الأمور فى هدوء ومودة بينى وبين كثره من أعضاء الجماعة حتى جاءت

حكومة الانقلاب العسكري بقيادة اللواء محمد نجيب ، الذي كان قد زارني قبل الانقلاب بأيام بصحبة الأمير عبدالله الفيصل وسراج الدين والشيخ الباقوري وشقيقي على الغزالي بمناسبة وجود الأمير عبدالله الفيصل في مصر [هكذا تقول السيدة زينب الغزالي من دون أن تقدم لنا سبباً لاجتماع هؤلاء الرفقاء فيما قبل الثورة وإجماعهم على التجمع معاً لزيارتها هي بالذات ، صحيح أن كلا منهم شخصية عامة لا نستطيع أن نفرض على تحركاته قيوداً ، ولكن هل حقاً اجتمع وزير الداخلية السابق (سراج الدين) مع شيخ معهد المنيا الديني (الشيخ الباقوري) مع أحد أحفاد مؤسس المملكة السعودية (الأمير عبدالله الفيصل) ومدير سلاح المشاة الذي هو في الوقت نفسه رئيس نادي الضباط في مكان واحد في زيارة هذه السيدة وما هي المناسبة؟]. وقد تعاطف الإخوان مع الانقلاب وكذلك السيدات المسلمات لفترة أحسست بعدها أن الأمور لا تسير كما كنا نأمل وأنها ليست الثورة المنتظرة تنويعاً لجهود سبقت على أيدي العاملين لإنقاذ هذا البلد .. وأخذت أنقل رأيي لمن ألقاه من الإخوان. وحين عرضت مناصب وزارية على بعض الإخوان ، وأوضح رأيي في مجلة «السيدات المسلمات» ، فما كان لأحد من الإخوان أن يقسم يمين الولاء لحكومة لا تحكم بما أنزل الله .. ومن يفعل منهم ذلك يجب فصلهم من الإخوان وواجب الإخوان أن يحددوا موقفهم بعد أن اتضحت نوايا الحكومة».

«وزارني الشهيد عبدالقادر عودة طالباً مني تأجيل الكتابة في هذا الموضوع ، وأمست عددين ، ثم عدت إلى الكتابة إلى أن زارني الشهيد عبدالقادر عودة للمرة الثانية حاملاً في هذه المرة أمراً من المرشد بعدم الكتابة في هذا الموضوع ، وتذكرت بيعتي للبنا - رحمه الله - واعتقدت أن الولاء قائم بها للهضيبي ، وامثلت للأمر».

«ومنذ ذلك الوقت والبيعة تحكم تصرفاتي حتى ما يبدو منها خاصاً كرحلة مؤتمر السلام في فيينا التي لم أقم بها إلا بعد أن حصلت على إذن الإمام المرشد الهضيبي».

هكذا نرى السيدة زينب الغزالي وهي تتحوط مسبقاً لأي هجوم يصفها باليسارية لأنها حضرت بالفعل مؤتمراً للسلام في فيينا ، وهي تؤكد هنا أنها حصلت على إذن المرشد العام !! ، وهكذا كانت هذه السيدة إذا تمتع بالانتماء للوفد وللإخوان وللإسار العالمي في وقت واحد ، وهو أمر لا يتعارض بالطبع مع العقل وإن تعارض مع صورة هذه الفترة في أذهاننا .

وينبغي لنا ، بعد هذا كله ، أن نتأمل هذه العبارات الواضحة القوية التى تجرى على لسان السيدة زينب الغزالي وهى تحدثنا فى مرحلة متأخرة عن حوار دار بينها وبين زوجها تذكره فيه بشروطها التى أعلنته بها حين تقدم للزواج منها ، فقد كانت قد اشترطت عليه أن يتركها تمارس نشاطها ، بل ويصل الأمر إلى حد أن تشرط عليه ألا يسألها عن أسماء من تقابلهم من الشباب أو من غيرهم . وعلى هذا النحو نجد صورة شديدة الوضوح لحرية المرأة فى العمل الإسلامى السياسى نستطيع أن نرفعها - أى الصورة - عالية جداً فى وجه طرفين معاصرين مهمين : الطرف الذى يتشدد - باسم الإسلام - فى منع نشاط المرأة إلى أن يضعها فى قمقم ، والطرف الآخر الذى يتهم الأصوليين الإسلاميين المعاصرين بأنهم يفعلون ذلك .

واقراً معى يا سيدى القارئ هذه العبارات الواضحة الصريحة القوية التى لا تحتل أى لبس ولا تأويل على أى مستوى من المستويات حيث تقول السيدة زينب الغزالي :

« ولما كانت جماعة الإخوان المسلمين معظلاً نشاطها بسبب قرار الحل الجاهلى لسنة ١٩٥٤ [هكذا تصف السيدة زينب الغزالي قرار الثورة بأنه جاهلى] كان ضرورياً أن يكون النشاط سرياً . ولم يكن عملى فى هذا النشاط يعطلنى عن تأدية رسالتى فى المركز العام لجماعة السيدات المسلمات ولا يجعلنى أقصر فى واجبى الأسرى ، غير أن زوجى الفاضل المرحوم محمد سالم سالم لاحظ تردد الأخ عبد الفتاح اسماعيل وبعض لبنات طاهرة زكية من الشباب المسلم على منزلنا . فسألنى زوجى : هل هناك نشاط للإخوان المسلمين؟ أجبت : نعم .. فسألنى عن مدى النشاط ونوعيته .. قلت : إعادة تنظيم جماعة الإخوان .. »

« ولما أخذ يبحث الأمر معى قلت له : هل تذكر يا زوجى العزيز عندما اتفقنا على الزواج .. ماذا قلت لك ؟ قال : نعم اشترطت شروطاً ، ولكنى أخاف عليك اليوم من تعرضك للجبايرة . ثم صمت وأطرق برأسه فقلت له : أنا أذكر جيداً ما قلت لك ، لقد قلت لك يومها : إن هناك شيئاً فى حياتى يجب أن تعلمه أنت لأنك ستصبح زوجى ، وما دمت قد وافقت على الزواج فيجب أن أطلعك عليه على ألا تسألنى عنه بعد ذلك ، وشروطى بخصوص هذا الأمر لا أتنازل عنها ، أنا رئيسة المركز العام لجماعة السيدات المسلمات ، وهذا حق ، ولكن الناس فى أغلبهم يعتقدون أنى أدين بمبادئ الوفد السياسية ،

وهذا غير صحيح ، الأمر الذى أؤمن به وأعتقدُه هو رسالة الإخوان المسلمين ، ما يربطنى بمصطفى النحاس هو الصداقة الشخصية(!!!!!!) ، لكنى على بيعة مع حسن البنا على الموت فى سبيل الله ، غير أنى لم أخط خطوة واحدة توقفتى داخل دائرة هذا الشرف الربانى ، ولكنى أعتقد أنى سأخطو هذه الخطوة يوماً ما بل وأحلم بها وأرجوها» .

«ويومها إذا تعارضت مصلحتك الشخصية وعملك الاقتصادى مع عملى الإسلامى ووجدت أن حياتى الزوجية ستكون عقبة فى طريق الدعوة وقيام دولة الإسلام فسكون على مفرق طريق ، ويومها أطرقت إلى الأرض ثم رفعت رأسك والدموع محبوسة فى عينيك لتقول : أنا أسألك ماذا يرضيك من المطالب المادية فلا تسألين ولا تطلين أى شىء من مهر أو مطالب زواج ، وتشرطين علىّ ألا أمنعك عن طريق الله ، أنا لا أعلم أن لك صلة بالأستاذ البنا ، والذى أعلمه أنك اختلفت معه بشأن طلبه انضمام جماعة السيدات المسلمات إلى الإخوان المسلمين . قلت : الحمد لله ، اتفقنا أثناء محنة الإخوان سنة ١٩٤٨ قبل استشهاد البنا ، وكنت قررت أن ألغى أمر الزواج من حياتى ، وأنقطع للدعوة انقطاعاً كلياً» .

«وأنا لا أستطيع أن أطلب منك اليوم أن تشاركنى هذا الجهاد ، ولكن من حقى أن أشترط عليك ألا تمنعنى من جهادى فى سبيل الله ، ويوم تضعنى المسئولية فى صفوف المجاهدين فلا تسألنى ماذا أفعل ولتكن الثقة بيننا تامة ، بين رجل يريد الزواج من امرأة وهبت نفسها للجهاد فى سبيل الله ، وقيام الدولة الإسلامية وهى فى سن الثامنة عشرة ، وإذا تعارض صالح الزواج والدعوة إلى الله ، فسيتهى الزواج وتبقى الدعوة فى كل كيانى» .

(١٠)

على هذا النحو تروى السيدة زينب الغزالى . وهى لا تمثل إلا طرفاً واحداً على كل حال - كل تفصيلات الحوار الذى دار بينها وبين زوجها حين بدأ يستشعر قيامها بدور فعال فى تنظيم سرى ، ونحن نراه هو الآخر لا يعلم صلة لها بحسن البنا فإذا بها تقص عليه ما تقصه علينا ، ثم تبدأ فى حوارها إلى أن تأخذ منه الموافقة على نشاطها الجديد:

«... ثم توقفت عن الكلام برهة ونظرت إليه قائلة : هل تذكرت ؟ قال : نعم . قلت :

اليوم أطلب منك أن تفي بوعدك .. لا تسألني بمن ألتقى . وأدعو الله أن يجعل أجر جهادى قسمة بيننا فضلاً منه سبحانه إذا تقبل عملى . أنا أعلم أن من حقلك أن تأمرنى ومن واجبى أن أطيعك ولكن الله أكبر فى نفوسنا من أنفسنا ، ودعوته أعلى علينا من ذواتنا . ونحن فى مرحلة خطيرة من مراحل الدعوة . قال : سامحيني ، اعملى على بركة الله . يا ليتنى أعيش وأرى غاية الإخوان قد تحققت ، وقامت دولة الإسلام .. يا ليتنى فى شبابى فأعمل معكم» .

«وكثُر العمل والنشاط ، وتدفق الشباب على بيتى لسبلاً ونهاراً ، وكان الزوج المؤمن يسمع طرقات الباب فى جوف الليل فيقوم من نومه ويفتح للطارقين ويدخلهم إلى حجرة المكتب ، ويذهب إلى حجرة السيدة التى تدير أعمال البيت فيوقظها ويطلب منها أن تعد للزائرين بعض الطعام والشاى ، ثم يأتى إلى فيوقظنى فى إشفاق وهو يقول : بعض أولادك فى المكتب وعليهم علامات جهد أو سفر ، وأرتدى ملابسى وأذهب إليهم يأخذ هو طريقه إلى مكان نومه وهو يقول لى : إذا صليتم الفجر جماعة فأيقظيني لأصلى معكم إن كان ذلك لا يضر ، فأجيب إن شاء الله . فإن صلينا الفجر أيقظته ليصلى معنا ثم ينصرف ، وهو يحى الموجودين تحية أبوية مملوءة بالشفقة والحب والحنان » .



ألا ترى يا سيدى القارى أن المسألة إذن فى حاجة إلى إعادة نظر فى مدى التدهور الذى أصاب الحركة النسائية المصرية حتى صارت إلى ما صارت إليه اليوم سواء على مستوى العلمانيين أو الأصوليين أو الإسلاميين إنخ هذه السلسلة من الأسماء التى قد لا تعنى شيئاً على الإطلاق اللهم إلا الانصراف إلى الأسماء دون الجوهر !!

(١١)

ونأتى الآن إلى ما نحب أن نصرح به من الثناء على قدرة السيدة زينب الغزالي على التعبير المتوالى عن التجارب النفسية المتعددة التى مرت بها فى كثير من المواقف ، حين تعبر مثلاً عن شعورها وهى تترقب التعذيب ، وعن شعورها وهى تتلقى التعذيب ، فإذا نحن تناولنا ما كتبت وما سجلت تناولاً أدبياً نقدياً فسوف نجد قدرة فائقة على الحديث ذى المستويات المتعددة عن تجربة واحدة ، سنجد زينب الغزالي تحدثنا عن علاقتها بنفسها ، وعن علاقتها بربها ، وعن رؤيتها لجلادها ، وعن رؤيتها لماضيها ، ولكنها فى كل هذا

تبدو بمشاعر متناقضة حقاً ، وتبدو بنفسية تسودها تقلبات كثيرة بين صور نفسية متعددة ، فنحس مرارة التعذيب لا من حيث وصفه لنا ولكن من حيث الأثر الذي تركه التعذيب في نفسها ونحن لا نستشعر هذا مما ترويه وإنما من مجرد الحديث نفسه ، فهي تستشعر كل هذا وتستبطنه فإذا تحدثت فإنها لا تتحدث إلا بالأحاديث التي لا تصدر إلا عن إنسان معذب!!
وها هي ذى تقول تحت عنوان «الرؤيا» :

« ولا أدري كيف أخذني النوم وأنا أذكر الله ، وكان في هذا النوم خير وفضل وعطاء ، كان فيه رؤيا مباركة هي إحدى رؤى الأربع لحضرة النبي عليه الصلاة والسلام في محنتي ، رأيت بحمد الله صحراء مترامية وإبلاً عليها هودج كأنها صنعت من النور وفي كل هودج أربعة من الرجال كأنهم أيضاً وجوه نورانية ، رأيتني خلف هذا السيل من الإبل في هذه الصحراء المترامية التي لا يحدها البصر ، أف خلف رجل عظيم مهيب وهو يأخذ بخطام امتد في أعناق هذا السيل الجارف من الإبل التي لا يحصى عددها . أخذت أردد في سرى : أياكون حضرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا به يجيبني «أنت يازينب على قدم محمد عبد الله ورسوله» .

سألت : «أنا ياسيدي يا رسول الله على قدم محمد عبد الله ورسوله؟» .

قال عليه الصلاة والسلام : «أنت يازينب ياغزالي على قدم محمد عبد الله ورسوله» .

سألت ثانية : «أنا يا حبيبي يا رسول الله على قدم محمد عبد الله ورسوله؟» .

قال عليه الصلاة والسلام : «أنتم يازينب على الحق ، وأنتم يازينب على الحق ، أنتم يازينب على قدم محمد عبد الله ورسوله» .

وقمت من النوم وكأنني ملكت الوجود بهذه الرؤيا ، وأدهشني بعدما نسيت ما أنا فيه وأين أنا إنني لا أجد ألم الشياطين ، ولا الصلبان القريبة من النافذة ، فقد نقلت إلى مكان بعيد وأصبحت الأصوات تأتيني عن بعد .

«وثاني ما أدهشني أن اسمي في شهادة الميلاد زينب غزالي واسم الشهرة المعروف لدى الناس «زينب الغزالي» والرسول عليه الصلاة والسلام يناديني باسمي في شهادة الميلاد ، وفعلاً نقلتني الرؤيا عن الزمان والمكان فتممت وأخذت أصلى ركعات شكر الله على هذا العطاء!!

لا أظن أن القارئ بحاجة إلى أن يدرك طبيعة هذه الرواية التي ترويه السيدة زينب الغزالي تحت عنوان «الرؤيا» ، وقد بلغت المعلومات المتاحة عن مثل هذه الرؤيا حداً

لا يستقيم معه أن نفيض في شرح ما تعنيه هذه «الرؤيا» وما تدل عليه ، ومع هذا فإننا ننبه إلى أن مثل هذه الروايات الطريفة أو الخيالية كانت تجد صدى ذا قيمة في نفوس مَنْ يروونها ومَنْ يرددونها ، ولا نقول مَنْ يسمعونها أو يقرؤونها.

(١٢)

بل إن السيدة زينب الغزالي فيما ترويه لنا في هذه الذكريات ، لا ترى النبي (ﷺ) وحده في منامها ، ولكنها ترى أيضاً الأستاذ سيد قطب يوم حكم عليه بالإعدام :
«... يوم تنفيذ الأحكام رأيت سيد قطب في سنة خفيفة بعد صلاة الفجر ، فقال لي :
«اعلمى أنى لم أكن معهم . أنا كنت في المدينة مع حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام» .
وتنبتت فحكيت حميدة» .

«وفي صبيحة اليوم الثانى لتنفيذ أحكام الإعدام ، أخذتنى سنة من النوم كذلك بعد صلاة الفجر وأنا أتلو أذكار ختم الصلاة ، فسمعت صوتاً يقول لى : سيد فى الفردوس الأعلى ورفقتة فى عليين» .

«تنبتت وحكيت لحميدة فآنحدرت دموعها وقالت : أنا على ثقة من فضل الله علينا وبأنه إن شاء الله فى الفردوس الأعلى . قلت لها : وهذه الرؤى تثببت من الله سبحانه وتعالى ومواساة» .

(١٣)

كذلك تروى صاحبة المذكرات [مع عناية شديدة بالتفاصيل] قصة اعتقالها فى ٢٠ أغسطس ، وبعض ملامح ما صادفته حين تم استقبالها [!!] فى السجن الحربى :

«... وأخذت العربية تنهب بنا الطريق حتى وصلت إلى السجن الحربى . عرفت ذلك من اللوحة الموجودة على بوابته . واقتحمت السيارة البوابة المرعبة . وعندما ابتلعت البوابة السيارة ومن فيها ، أنزلت منها واتجه بى وغد غليظ إلى حجرة استجوبنى فيها وغد آخر وأدخلت منها إلى حجرة أخرى . ووقفت أمام رجل ضخم الجثة مظلم الوجه قبيح اللفظ .

فسأل الذى يمك بذراعى عنى فأجابه بسباب غلّف فيه اسمى . ومع ذلك التفت هو إلىّ فى غلظة وسألنى : من أنت !» .

قلت : « زينب الغزالى الجبيلى » .

« فانطلق يسب ويلعن بما لا يعقل ولا يتصور . وصرخ الذى يمك بذراعى قائلاً : « دا رئيس النيابة يابنت الـ... ردى على سعادته » . وكان الآخر قد صمت » .

« قلت : لقد اعتقلونى أنا وكتبى وكل ما فى الخزانة ، فأرجو حصر هذه الأشياء وتسجيلها ، فمن حقى أن تعاد إلىّ . أجاب رئيس النيابة المزعوم الذى وضع فيما بعد أنه شمس بدران ، أجاب فى فجور وجاهلية متغطرسة : « يابنت الـ... نحن سنقتلك بعد ساعة .. كتب إيه ؟ وخزنة إيه ؟ ومصاغ إيه ؟ أنت ستعدمين بعد قليل . كتب إيه وحاجات إيه اللى بتسألنى عليها يابنت الـ... نحن سندفنك كما دفنا عشرات منكم ياكلاب هنا فى السجن الحربى » . لم أستطع أن أجيب لأن الكلمات كانت بدئية الألفاظ سافلة ، والسباب والشائم منحطة إلى الحد الذى لا يستطيع فيه الإنسان أن يسمعها ، فضلاً عن أن يجيب عنها » .

« وقال لهذا المتغطرس الذى يمك بذراعى : خذها .. » .

« قال : إلى أين ؟ » .

أجاب : هم عارفون » .

« وجدبنى الفاجر فى وحشية وهو يقول : يابنت الـ... » .

« وعند الباب نادى صاحب الجثة الغليظة المظلمة على الشيطان المسك بذراعى ، فالتفت إليه . فكأنى أرى ظلمة من دخان غليظ أسود تغرقه . قلت فى سرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ثم تضرعت إلى الله قائلة : اللهم أنزل علىّ سكينتك وثبت قدمى فى دوائر أهل الحق واربط على قلبى بذكرك وارزقنى الرضا بما يرضيك » .

« وقال المسك بذراعى للشيطان : نعم يا معالى الباشا » .

« قال له : تروح رقم ٢٤ وبعد ذلك تأتونى » .

« وانصرف بى الشيطان الشقى المسك بذراعى وأدخلنى حجرة ، فرأيت رجلين يجلسان إلى مكتب فى يد أحدهما مفكرة كنت أعرفها وهى خاصة بالأخ الشهيد عبدالفتاح إسماعيل . كان يخرجها فى حلقات القرآن ونحن نتدارس ويدون بها بعض

ملاحظاته. فعرفت أنه اعتقل وبعض الإخوان ، إذ كان عنده اجتماع بهم فى ذلك الوقت. وأحدث ذلك رعدة فى نفسى خشيت أن يلاحظها بعض الشياطين وكان أذان العصر يخترق سمعى. وترك الشيطان رقبتي ولكن ظللت فى مكاني فصرفه الله عنى. وما أن انتهيت من الصلاة حتى انكب الشيطان علىّ فى وحشية

هكذا تدلنا السيدة زينب الغزالي ، فى عبارات عارضة ، أنه كان من الممكن لنزلاء السجن الحربى حتى فى ظل هذه الظروف أن يستمعوا إلى الأذان وأن يؤدوا الصلاة.

(١٤)

ومع ما حفلت به هذه المذكرات من هذا الهجوم المركز على الرئيس جمال عبدالناصر، فإن زينب الغزالي قد أنصفت النظام الناصرى من حيث لا تدرى ، حين روت لنا على طريقته بعض قصص المفاوضات التى قطعها هذا النظام معها فى سبيل ما يُسمى فى لغة مُنظرى نظام عبدالناصر ضمها إلى تحالف قوى الشعب ، أو فيما عرف فى الأسماء العامة والحياة العامة بـ«الاتحاد الاشتراكي» ، هذه القصة التى تروىها زينب الغزالي فى بداية مذكراتها وذلك من موقع التهكم على نظام الرئيس عبد الناصر ، توضح لنا إذا ما فهمناها مدى طول النفس الذى تمتع به النظام الناصرى إذا ما قورن بقصر النفس الشديد الذى أصبح سمة كل الناس فى جميع أنحاء العالم بلا استثناء فى عصرنا الذى نعيشه ، وسنجد أن زينب الغزالي تذكر بلا موارد كثيرة من الجهد الذى بذل معها فى سبيل استقطابها وتحبيدها.. إلخ.

أما حديثها عن أقطاب العمل السياسى وعلاقتها بهم فيحتاج إلى شىء كثير من التفصيل والإضافة.

ولنقرأ هذه الفقرات التى تصور فيها دعوة ملحة لها للانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي :
«... وفى البيت كانت السيدة السكرتيرة تزورنى يومياً وأخبرتني بأن قرار الحل أوقف. ودهشت لذلك وسألت كيف ذلك فقالت: ربما يكون فتح باب للاتصال بك». وأخذ السكرتير الإدارى يحضر لى ما يحتاج للاطلاع والتوقيع وأخذت أزالو نشاطى فى تسيير أعمال المركز العام للسيدات المسلمات من بيتى. ولكنى عدت إلى المستشفى مرة أخرى لإجراء عملية جراحية لرفع المسامير من الفخذ ، وكان قد أفرج عن الشهيد الإمام

سيد قطب وزارنى فى المستشفى وجمع من الإخوان. وذات يوم فوجئت بخطاب مسجل عن طريق البريد ببطاقة كتبت فيها هذه البيانات:

«الاتحاد الاشتراكى العربى»

حرية - اشتراكية - وحدة

«الاسم : زينب الغزالى الجبلى ، وشهرتها: زينب الغزالى».

«الوظيفة أو المهنة: رئيسة المركز العام لجماعة السيدات المسلمات».

«وحدة : البساتين - أمانة».

«قسم : مصر الجديدة».

«محافظة: القاهرة».

«جاءتنى هذه البطاقة بالبريد ومعها ما يثبت سداد اشتراكى عن عام ١٩٦٤م ، فضحكت ضحكة مريرة بما صار إليه حال «مصر» وتذكرت كيف كنا نعيش فى حرية لغوها بعد انقلابهم العسكرى. وبعد استكمال العلاج بالمستشفى عدت إلى المنزل وأخذت دعوات الاتحاد الاشتراكى تتوالى بالبريد لحضور اجتماعات الاتحاد الاشتراكى ، ولكننى قررت أن أتخذ موقفاً سلبياً ، وبعد أيام صرح الدكتور بالخروج ومزاولة نشاطى تدريبياً فى المركز العام للسيدات المسلمات ، وكنت لا أزال أستعين بالعكاز فى المشى».

«وفى صبيحة أحد الأيام وبينما أنا بالمركز العام للسيدات المسلمات ، دق جرس الهاتف ، وطلب منى السكرتير أن أرد على من يطلبنى من الاتحاد الاشتراكى ، أمسكت بالسماعة قائلة لمحدثى: «السلام عليكم» ورد السلام من الجهة الأخرى ، ثم قلت: «نعم ، ماذا تريد؟» فسألنى إن كنت أنا زينب الغزالى ، ولما أجبته بالإيجاب قال:

«نحن هنا الاتحاد الاشتراكى ، إن شاء الله أعضاء مجلس إدارة السيدات المسلمات وحضرتك على رأسهم تشرفى وتنورى ، تأخذون علم السيدات المسلمات وتذهبون لاستقبال عبدالناصر فى المطار».

«فأجبته: «إن شاء الله ، يفعل الله ما يشاء، ويختار».

«قال: «عشمتنا كده ، مجلس الإدارة وعدد كبير من أعضاء الجمعية العمومية ، وإذا أمرت أرسلنا لك عربية تكون تحت تصرفكم».

«قلت : شكراً».

«وانتهت المكالمة».

ولم يقف الأمر فيما ترويه زينب الغزالي عند هذا الحد ، ولكن النظام الناصري كان يتمتع بمتابعة جيدة وطول نفس ممتد.

(١٥)

وتمضى صاحبة المذكرات فتروى أنه بعد يومين أو ثلاثة جاءتها مكالمة أخرى من الاتحاد الاشتراكي ، كانت هذه المكالمة من سيدة تسأل عن سبب عدم حضورنا لاستقبال الرئيس في المطار. قلت: «إن أعضاء مجلس إدارة السيدات المسلمات والجمعية العمومية ملتزمات بالسلوك الإسلامي ولا يستطيعن يا ابنتي الحضور في مثل هذه الاستقبالات المزدهمة...».

«قالت: «إزاي الكلام ده يا ست زينب؟ يبدو أنك مش عاوزه تتعاوني معنا ، هل بلغت العضوات وهن رفضن؟».

قلت: «مادمت أنا غير مقتنعة بهذا العمل لأنه يخالف تعاليم الإسلام ، فكيف أبلغهن؟».

«قالت: «أنت غير متعاونة معنا».

«قلت: «نحن مرتبطون بتعاليم القرآن والسنة ، عهدنا مع الله ، وتعاوننا على البر والتقوى كما أمرنا الله ، والهاتف لا يصلح لمثل هذه المناقشة».

«قالت «تفضلني سنتظرك في مركز الاتحاد الاشتراكي بميدان عابدين لتفاهم».

«قلت: «أنا مريضة ، حركتي قليلة بسبب علاج رجلى ، فإذا شئت تفضلني وشرفينا في المركز العام للسيدات المسلمات».

«قالت: «وأنت نازلة من البيت مرى علينا ، أأنت عضوة في الاتحاد الاشتراكي».

«قلت: «أنا عضوة في المركز العام لجماعة السيدات المسلمات ، والسلام عليك يا ابنتي ورحمة الله».

«وأنتهيته المكالمة ولم أذهب إليها».

«وبعد أسبوع من هذه المكالمات التليفونية عرض على سكرتير الجماعة خطاباً مسجلاً يحمل تاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٦٤ بقرار وزارى رقم ١٣٢ بتاريخ ٦ سبتمبر ١٩٦٤ م ، والقرار ينتهى إلينا حل المركز العام للسيدات المسلمات مرة أخرى!!»

(١٦)

وفي موضع آخر من هذه المذكرات تروى السيدة زينب الغزالي أن رجال المباحث والمخابرات كانوا يعرضون عليها بدائل مغرية من أجل إعادة نشاط المركز الذى كانت تترأسه فى إطار مواكب للنظام وليس معارض له بالطبع ، ولكنها هى التى كانت تمنع أو تعاند:

«... أخذ رجال المباحث والمخابرات الناصرية يطلبون مقابلتى ويعرضون علىّ عروضاً لإعادة المركز العام للسيدات المسلمات. وكانت هذه العروض تكلفنى أن أشتري الدنيا بالآخرة. وعلى سبيل المثال عرضوا علىّ إصدار مجلة السيدات المسلمات باسمى كرئيسة للتحريير وصاحبة الامتياز مقابل ٣٠٠ جنيه شهرياً ، على أن لا يكون لى شأن بما يكتب فى المجلة. وكان جوايى مستحيل أن تصدر مجلة السيدات المسلمات من مكاتب المخابرات لتنتشر علمانية العهد. لم أعتد إلا أن أكون مسئولة مسئولية فعلية. كذلك عرضوا علىّ إعادة المركز العام وصرف إعانة قدرها عشرون ألف جنيه سنوياً ، على أن يكون إحدى مؤسسات الاتحاد الاشتراكي».

«وكانت إجابتي: إن شاء الله ، لن يكون عملنا إلا للإسلام ولن نموه ولن نضلل. إن الذين يتكسبون بالإسلام لا يستطيعون خدمته ، وكان هذا الرفض يغضبهم ، لكنهم يحاولون إغرائى مرة بعد المرة. وكنت أتعجب من هذه الطريقة ومن إصرارهم على هذه المحاولات الفاشلة ، ولكننى اكتشفت الحقيقة بعد ذلك وعرفت لماذا هم حريصون على مخادعتى».

(١٧)

وفي موضع ثالث من هذه المذكرات تروى السيدة زينب الغزالي قصة لقائها بأحمد راسخ أحد رجال المباحث العامة كنموذج لما تريد أن تصوره لنا من تعاملها القوي الواصل مع هؤلاء الأمنيين الذين لا يجارونها فى قوة منطقها(!!):

«... وغير الحديث قائلًا: «إننا مسلمون يا حاجة» ، قلت: «إن المسلمين غير ذلك :

﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾ قال: «لو تفاهمت معنا لأصبحت من الغد وزيرة للشئون الاجتماعية». فضحكت ساخرة وقلت: «المسلمون لا تغريهم المناصب ، ولا يشتركون فى حكومات علمانية إلحادية. ومركز المرأة المسلمة يوم تقوم حكومة الإسلام ستقره الحكومة الإسلامية. ماذا تريدون منى؟» قال: «نريد أن نتفاهم معاً» ، قلت: «هذا مستحيل» ، أناس يدعون للكفر ويرفعون شعارات الضلال وأناس يدعون لتوحيد الله والإيمان به ، فكيف يتفق هذا؟».

«ثم أردفت قائلة: «توبوا إلى الله واستغفروه وارجعوا إليه .. أرجو إنهاء المقابلة». وكان قد فرغ من القهوة التى قدمت له فقام منصرفاً وهو يقول: «والله نحن نريد أن نتفاهم معك. ويوم نتفاهم معك ، ستكونين أنت التى ستصدرين قراراً بإعادة جماعة السيدات المسلمات وكذلك المجلة» ، قلت له: شكراً.. الإسلام فى غنى عن الهيئات والجماعات التى ترضى بالعمالة لأعداء الإسلام ، ربنا يهديكم ويتوب عليكم».



وبعد صفحتين آخرين تروى لنا السيدة زينب الغزالى تفاصيل حوار آخر دار بيننا وبين أحد رجال المباحث فى منزلها ، وهى تصور الحوار معه على النحو التالى :

«وسألت : ماذا تريد؟».

«قال: «إن الحكومة ترغب رغبة شديدة فى التفاهم معك ، ونحن نعلم أن الإخوان المسلمين خدعوك وأقنعوك بمبادئهم ، والذى حدث لجماعة السيدات المسلمات وحل مركزها العام كان سببه الإخوان. هؤلاء ناس مشاغبون. ونحن نريد أن نتفاهم معنا. وما نريده بسيط جداً هو أن نعرف الأفراد القائمين بنشاط من الإخوان المسلمين ، والله يا حاجة الرئيس سيحفظ لك هذه الخدمة وفى أيام قليلة ستلمسين نتيجة تعاونك معنا. وأنت سيدة طيبة طول عمرك ولا شأن لك بشغب الإخوان المسلمين وكفى ما سببوه لك مع الحكومة».

«وأخذ يدعى (أى رجل المباحث) أن الأستاذ الإمام الهضبي والإمام الشهيد سيد قطب .. يعملان بكل جهدهما ليتفاهما مع الرئيس ولكن الرئيس يرفض التعاون معهما لأنه لا يأمن لهما».

«ولو كنت تعرفين ما يقوله الإخوان عنك لتفاهمت معنا وتركت هؤلاء الذين تسببوا لك فى كل ما حدث من اضطهاد الحكومة لك وللسيدات المسلمات».

«وضحكت..».

(١٨)

ومما يشير الاندهاش فى مذكرات السيدة زينب الغزالى إصرارها الشديد على أن تروى أن معتقليها ومعذبيها قد عرضوا عليها تعيينها فى منصب وزيرة الشؤون الاجتماعية بدلاً من الدكتورة حكمت أبوزيد وهى تصمم بطريقة غريبة على هذه الرواية ، فتروىها فى صفحة ١٩ ثم تعود لتروىها ثلاث مرات أخرى فى صفحة ٦١ وفى صفحة ٦٩ وفى صفحة ١٥٣ ، ما هو وجه الكوميديا فى هذه القصة إذن ؟ الحقيقة أن الدكتورة حكمت أبوزيد خرجت من الوزارة نهائياً قبل اعتقال زينب الغزالى بعام كامل :

« كل الأمور ياست زينب انكشف سرها ، والناقص هو أن تضعى النقط فوق الحروف . وطبعاً ستكتبين فى كل هذا وعن أشياء أخرى ، وسنرفع إلى عبدالناصر ونوضح له أنك تغيرت ثم نحولك إلى النيابة وينتهى التحقيق عند هذا الحد ، وسيفرج عنك بعد يومين ، ثم يتم تعيينك وزيرة للشئون الاجتماعية ، حكمت أبوزيد مغضوب عليها الآن ، ما رأيك ياست زينب؟! وضغط على زر جرس صغير فحضر جندى فوراً ووقف أمامه منتصب القامة ، فقال له: هات كوب عصير ليمون. وأخذ يشرح ويفتح أمامى موضوعات ، موعزا إلى بالكتابة فيها».

(١٩)

والشاهد أن هذه المذكرات تدلنا ، سواء عن وعى أو عن غير وعى ، على أن محاولات النظام الناصرى لضم (أو احتواء) زينب الغزالى لم تقف عند هذا الحد ، وإنما استمرت هذه المحاولات بعد القبض عليها ، وفى أثناء وجودها فى السجن لم ينقطع ، حسب ما تردد المذكرات ، عرض النظام لفرص المصالحة معها ، ومن هذا ما ترويه عن هذا اللقاء الذى تم فى السجن بينها وبين مندوب من رئاسة الجمهورية:

«... تركونى فى الزنزانة ثلاثة أيام ، أخذونى بعدها لنفس المكتب حيث كان يجلس رجل أبيض طويل القامة».

«قال: اجلسى ياست زينب ، نحن عرفنا أن الجماعة هنا أتعبوك ، أنا أعرفك بنفسى: أنا

من مكتب السيد رئيس الجمهورية ونريد أن نتفاهم معك يا ست زينب! البلد كلها تحبك ونحن أيضاً نحبك، لكن أنت متباعدة عنا ومخاصمانا ولا تريدين أن تتفاهمى معنا. لكن والله لو تتفاهمى معنا يا ست زينب سنخرجك اليوم من السجن الحربى. كلنا نقول: هذا الوضع ليس لك أنت».

«أنا لا أعدك أن تخرجى من السجن فقط، بل أعدك أيضاً أن تكونى وزيرة للشئون الاجتماعية بدل حكمت أبوزيد».

«قت له: هل جلدتم حكمت أبوزيد قبل أن تصبح وزيرة وأطلقتكم عليها الكلاب؟».

«قال: ما هذا الكلام؟ هو ذا حصل؟ نحن متألون لمجرد وجودك هنا».

«قلت: وماذا تريدون منى؟».

«قال: الإخوان المسلمون لبسوك كل التهمة، والهضيبى لبخ فى الموضوع، وعبدالفتاح إسماعيل قال كل حاجة، وسيد قطب قال كل حاجة، ولكن نحن أحسنا أنهم يحاولون تخليص أنفسهم وتحميلك أنت المسئولية كلها، لذا جئت النهاردا بنفسى بأمر من الرئيس عبدالناصر حتى نتفاهم وتخرجى معنا، وسأوصلك إلى بيتك بعربيتى، وأحب أعرفك أنه من أقوال الإخوان أصبح معروفاً ومعلوماً لدينا أنهم يريدون الاستيلاء على الحكم وأنت التى رسمت الخطة للاستيلاء على السلطة وقتل عبدالناصر وأربعة وزراء معه، ونحن نريد منك توضيح موقفك ودور سيد قطب والهضيبى فى الموضوع. ومن هم الوزراء الأربعة المطلوب قتلهم: تفضلى تكلمى! وشرحى لنا الموقف بالتفصيل».

«قلت: أولاً الإخوان المسلمون لم يدبروا خطة للاستيلاء على الحكم ولا لقتل عبدالناصر والوزراء الأربعة المزعومين ولا لقتل أحد.. الموضوع هو دراسة للإسلام ولمعرفة أسباب تأخر المسلمين والحالة التى وصلوا إليها».

«عند ذلك قاطعتنى قائلاً: «يا ست زينب أنا قلت لك: هم قالوا كل حاجة»، قلت: «جايز جداً، وقطعاً قالوا ما أراده الجلادون منهم، فترخصوا لأنفسهم وقالوا شيئاً لم يحدث».

«القضية كلها أننا كنا ندرس الإسلام ونعمل على أن نربى له جيلاً يعيه ويفهمه، فإن كانت هذه جريمة فأمرنا لله».

«فأقسم بالله العظيم أنه يريد خدمتى وأنه حضر خصيصاً لخدمتى».

«قلت له شكراً أنا لم أفكر يوماً أن أكون موظفة حتى ولا وزيرة. أنا قضيت عمري في خدمة الإسلام وموضوع وزارة الشؤون لا يعنيني في قليل أو كثير لأنني لا أصلح للوظيفة فعملى كله التطوع لخدمة الإسلام».

«وقام الرجل وتركنى في الحجرة بعد أن قال: أنت حرة ، نحن عرضنا خدماتنا وأنت ترفضين».

لست في حاجة إلى أن أكرر هنا ما أشرت إليه في موضع آخر إلى أنه في هذا الوقت الذى حدث فيه ما ترويه السيدة زينب الغزالي ، لم تكن الدكتورة حكمت أبوزيد وزيرة للشئون الاجتماعية حتى تأتى السيدة زينب الغزالي في مكانها وإنما كانت الدكتورة حكمت أبوزيد قد تركت الوزارة منذ مدة .

(٢٠)

ومن المهم لتاريخنا المعاصر أن نقرأ تفصيلات هذا الحوار الذى تديره صاحبة هذه المذكرات بينها وبين شمس بدران عن دور عبدالعزيز على فى حركة الإخوان المسلمين فى ١٩٦٥ ، وسنلاحظ أن زينب الغزالي تبدأ ردودها بالسؤال عنم يعنيه بعبدالعزیز على ثم تنطلق لتصفه بعد سطرین بأنه «علم فى رأسه نار» ، ومن المهم أن نشير إلى أن فؤاد علام فى مذكراته قد أشار إلى دور لعبدالعزیز على فيما سُمى بمؤامرة الإخوان فى ١٩٦٥ ، وإن كان قد ظنه «لواء» بينما هو أحد أقطاب العمل الوطنى منذ ما قبل ثورة ١٩١٩ ، وكان يسمى بأبى الفدائين ، وقد عمل فى بداية عهد الثورة وزيراً للشئون البلدية والقروية ، وسرعان ما ترك هذا المنصب الوزارى قبل إعلان الجمهورية ، وها هو بعد أكثر من عشر سنوات يبرز اسمه إلى السطح مرتبطاً هذه المرة بالإخوان المسلمين:

«والفتت إلى شمس بدران يسأل: الورق الذى مزقته لم تذكرى فيه شيئاً عن عبد العزيز على. فسألت: ومن عبد العزيز على؟ فقال شمس بدران: عبدالعزيز على باشا [نشير هنا أيضاً إلى أنه لم يكن قد نال هذه الرتبة] الذى عينه عبدالناصر وزيراً ولم يحفظ هذا المعروف وعض اليد التى أكرمه ، وتنكر لعبدالناصر. فقلت على الفور وقد طفا الاسم إلى ذاكرتى: عبدالعزيز على ، صاحب حركة اليد السوداء ضد الإنجليز؟ عبدالعزيز على من

كبار رجال الحزب الوطنى. لقد كان عبدالناصر وزملاؤه يجلسون على الأرض أمامه يستمعون منه دروساً فى الوطنية..».

«إننى أعرف أنه رجل عظيم ، وهو صديق زوجى ، وأخى فى الله ، وزوجته من أعضاء المركز العام لجماعة السيدات المسلمات وصديقتى وأختى فى الله. فسأل فى تهكم: ألم تضميه إلى تنظيم الإخوان؟! وأجبت: كان يشرفنا ذلك ، إنه كما قالت الخنساء ، علم فى رأسه نار...».

«فصرخ شمس بدران فى عجرفة تخجل منها عجرفة الجاهلية : وإيه كمان عندك من الكلام الفارغ؟! ونزلت السياط.. بعدها فترة راحة ، وتشاور هامس فيما بينهم ، ثم قال حسن خليل: نريد أن نعرف ، لماذا عرفت عبدالعزیز على عبدالفتاح عبده إسماعيل؟ وأين تم هذا التعارف؟ أجبت: عندما كُسرت رجلى بفعل رجال مخبراتكم ، كان يزورنى فى المستشفى هو وزوجته ، واستمرت زيارته فى البيت عندما تركت المستشفى ، و تصادف يوماً أن جاء عبدالفتاح عبده إسماعيل لزيارتى وكان عبدالعزیز على موجوداً فتعارفا.. هذا كل ما أتذكره بالنسبة لهذه الواقعة».

«فقال حسن خليل: ياست زينب ، سنسلم معك أن تعارف عبدالعزیز على وعبدالفتاح عبده إسماعيل كان مجرد لقاء عابر ، لكن كيف تعرف عبدالعزیز على فى بيتك وبواسطتك بفريد عبدالحالق؟ فقلت: عندما جاءت الممرضة لإجراء العلاج الطبيعى لساقى المكسورة ، خرج عبدالعزیز على وجلس فى الصالون ، وفى هذه الأثناء حضر فريد عبدالحالق فجلس فى الصالون ، وكان لا يعرف عبدالعزیز على بعد ، وعندما انتهت جلسة العلاج ، وانصرفت الحكيمة ، دخل فريد عبدالحالق ليرانى ، ودخل عبدالعزیز على ليستأذن فى الانصراف ، قدمت كلاً منهما للآخر» ، فصرخ شمس بدران وكان فى قمة الضيق: نادوا صفوت!! ولم أفق إلا فى المستشفى ، وقدمائى فى الضمادات وآلام حادة تدق عظامى ، وتفرى كل جسمى!!».

(٢١)

ولعل أسهل ما يمكن نقده فى مذكرات السيدة زينب الغزالى هو أنها انتهجت النهج السائد فى الكتابات العربية المعاصرة الذى يحرص على التقليل من شأن الرأى الآخر

وأصحابه ، بل واتهامهم بالعمالة ، وهى تنتهج هذا المنهج فيما يعارضها من آراء وفى وصف مَنْ يعتقونها من دون أن تذكر ولو أسماء هؤلاء المخالفين ، ونحن نفهم من كتابها - عرضاً - أنها اختلفت مع بعض مَنْ كانوا معها فى جمعيتها ، وأن هؤلاء انفصلوا أو انفصلن عنها.. ولكننا لا ندرك حدوث هذا الاختلاف إلا عندما يأتى حديثها عن حل جمعيتها وتسليم أموالها إلى جمعية أخرى قريبة منها فى النشاط كما يقضى بذلك قانون الجمعيات .

وهذه زينب الغزالي تتحدث فى بداية مذكراتها فتقول:

«... وعقدت مجلس إدارة السيدات المسلمات فى اجتماع عاجل فى ٩ جمادى ١٣٨٤ الموافق ١٥ سبتمبر ١٩٥٤ ، وهو نفس اليوم الذى وصل فيه قرار الحل ، وقرر المجلس رفض قرار الحل وتسليم الجماعة وأموالها وممتلكاتها لجماعة أخرى كانت قد انفصلت عنا بإيعاز من المباحث (وانضمت) لعبد الناصر ، كما قرر المجلس دعوة الجمعية العمومية لجلسة طارئة استثنائية فى مدة لا تتجاوز ٢٤ ساعة ، واجتمعت الجمعية العمومية، وقررت رفض قرار الحل وعرض الأمر على القضاء».

وعلى هذا الأسلوب يمضى هذا الكتاب إذا ما تعرض لذكر مَنْ خالف أو خالفت زينب الغزالي فى أفكارها السياسية أو ممارساتها فى الحياة العامة ، دون أن تُعنى السيدة صاحبة المذكرات باللقاء أى ضوء على فكر (هذا) الآخر أو دوافعه.

(٢٢)

وعلى نفس الخط فإن السيدة زينب الغزالي تروى قصة طلاقها من زوجها الحاج محمد سالم سالم فى غموض شديد بحيث يبدو لنا أنها لم تعلم أنها طلقت من زوجها إلا بعد وفاة هذا الزوج ، وقد يبدو هذا عجيباً ، ولكن هذا هو النص الذى تقدمه هذه المذكرات :

«... وعدت إلى الزنزانة ، ومرت أيام قاسية ، وفى يوم كنت أصلى الفجر وأتلو القرآن فأخذتني سنة من النوم ، فرأيت فيما يرى النائم صورة زوجى فى صفحة الوفيات وأنا أقرأ نعيه ، انتبهت وأنا أردد : اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه ! ووجدت حميدة تردد نفس الدعاء ، دهشت لكنى كتمت عنها ما رأيت. وتكررت الرؤيا».

«ووصلتنا الجرائد صباح يوم جمعة فأخذت أتصفحها ، وإذا بي أجد نعي زوجي ، قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، في الجنة إن شاء الله يا حاج محمد!». .

«ثم لم أتمالك نفسى فانفجرت بالبكاء ثم أغمى علىّ ، واستدعوا لى الطبيب ، ومرت أيام وجاءت الأسرة لزيارتى ومنها علمت أن جمال عبدالناصر وجنده خيروا الرجل الطيب الإنسان الفاضل زوجى المرحوم الحاج محمد سالم بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يطلق زينب الغزالي الجبيلي أو أن ينقل إلى السجن الحربى ، وطلب منهم مهلة أسبوعين يفكر ، فأصروا على الاختيار فوراً ، وكان معهم المدعو أبو الوفا دنقل يهدد الحاج محمد بتنفيذ أمر عبدالناصر ، بل إن الفجور بلغ رجال المباحث أنهم أحضروا المأذون معهم ليجرى الطلاق».

«وقع زوجى على ما كتبوا له وهو يقول: اللهم اشهد أننى لم أطلق زوجتى زينب الغزالي الجبيلي ، كما قال لهم: أنا سأموت ، اتركونى أموت بكرامتى ، أنا سأموت وهى على عصمتى. حصل ذلك وزوجى مريض ، أصيب بعد سماع الأحكام بشلل نصفى وكان من قبل مصاباً بذبحه نتيجة استيلاء عبدالناصر على شركاته وأمواله وأرضه وبيته.. فحسبنا الله ونعم الوكيل. ولم يطل به الأمر ، فقد توفى رحمه الله بعد توقيعه على الطلاق، وسمعت الأسرة وقالت شقيقتى: إنها لما سمعت بما حدث غضبت ورفعت صورة للحاج كانت فى حجرة الصالون .. وغضبت منها وطلبت أن تعاد الصورة ، فزوجى كان أخى فى الله قبل أن يكون زوجى وبيتى سيبقى بيته طالما أنا على قيد الحياة ، لقد جمعت بيننا العقيدة قبل أن يجمع الزواج ، والزواج عرض من أعراض الحياة ، ولكن الأخوة فى الله باقية خالدة لا تزول ولا تقاس بها الدنيا وما فيها ، وعرفت أيضاً من الأسرة أنها قد حضرت منذ اللحظة الأولى للوفاة واشتركت فى تشييع الجنازة والعزاء وقامت بما عليها من واجب وأحسست بشيء من الراحة لذلك..».

وتردف صاحبة المذكرات بقولها :

«وحين خلوت إلى نفسى تذكرت رؤيا من الله علىّ بها إذ رأيت حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأرخت لها بين سطور المصحف الذى كنت أقرأ فيه ، وعدت إلى التاريخ فوجدته مطابقاً لتاريخ حادث الطلاق. نعم رأيت حضرة النبى عليه الصلاة والسلام يمشى بملابس بيضاء ، وخلفه مباشرة حسن الهضيبى بملابس بيضاء وعلى رأسه طاقية .. وأنا

أقف ومعى السيدة عائشة ومعها عدد من النساء ، وقع فى نفسى أنهن وصيفاتها. وكانت السيدة عائشة توصينى بكلمات ، فلما أصبح الرسول عليه السلام فى محاذاتنا نادى عائشة وقال لها: صبراً يا عائشة ، صبراً يا عائشة ، وكانت حقاً عائشة رضى الله عنها تشد يدي كل مرة و توصينى بالصبر!». .

(٢٣)

وتحكى السيدة زينب الغزالي فى مذكراتها كيف أنها قد وفقت ، دون قصد ، إلى أن تقتل رجلاً سلطوه عليها فى السجن ليفعل بها الفاحشة.. فتقول:

«وانطلقت القذارة من فم حمزة البسيونى بأشبع ما يمكن أن يتخيله إنسان .. سب فاضح صارخ وقال: «يا بنت ال... انقذى نفسك ، وقولى كل شىء. اعترف الهضيبى ، واعترف سيد قطب ، واعترف عبدالفتاح إسماعيل ، ووضعنا أصابعنا على كل شىء من واقع اعترافاتهم .. عرفنا منهم أن الهضيبى أمرك أن تقولى لعبدالفتاح إسماعيل بأن دم عبدالناصر مباح لأنه كافر.. كل واحد منهم تكلم ، وأنقذ نفسه وأنت ضيعت نفسك .. ثم قال مهدداً والشرر يتطاير من عينيه: ستمرفين كيف أنتزع منك كل ما نريده .. ستتكلمين أم لا؟».

«ثم التفت إلى صفوت وقال: نفذ الأوامر يا صفوت.. ومن يعصى الأمر من أولاد الكلب - مشيراً إلى الجنديين - حوله إلى المكتب فوراً.. وتولى صفوت إفهام الجنديين مهمتهما البشعة بأسلوب داعر صارخ الفجور ، بعيد كل البعد عن الحياء.. مغمور فى الانحطاط إلى أبعد ما يكون.. فقال لأحدهما فى مجون: نفذ التعليمات - يا ابن الكلب - بعد إغلاق الزنزانة ، وبعد أن يتم التنفيذ ادع زميلك ليقوم بدوره كذلك.. مفهوم!!! ثم أغلق الزنزانة وانصرف».

«جلس الرجل يتوسل إلى أن أقول ما يريدون لأنه لا يريد أن يؤتيني ، ومن جهة أخرى فإن عدم التنفيذ يلحق به ضرراً بليغاً وإيذاء جسيماً.. قلت له بكل ما أوتيت من قوة: إياك أن تقترب منى خطوة واحدة .. إذ اقتربت سأقتلك .. سأقتلك .. سأقتلك ، فاهم !! كنت أرى الرجل يكتمش ويتقاعس غير أنه أخذ يقترب فى خطوات ، ولم أدر إلا ويداي حول رقبتة ، وأنا أصرخ بكل صوتي: «بسم الله ، الله أكبر».. وغرزت أسناني فى عنقه ، وإذا به

ينفلت من بين يدي ، ويسقط تحت قدمي خائراً ، يخرج من فمه زيد أبيض كرهاوى الصابون .. سقط الوحش تحت قدمي ، جثة هامدة لا تنبض إلا بهذا الزيد الأبيض .. أنا التي تتربع على قمة الألم ، والتي مزقتها الجراح التي حفرتها السياط في كل موضع من جسمها .. أنا التي غلفها الإعياء من كل الزوايا تصرع هذا الوحش الذي أمره بأن يفترسني !! لقد بث في الله جلت قدرته! قوة غريبة صرعت هذا الوحش !! وكانت معركة شرسة ضارية ، انتصرت فيها الفضيلة على شراسة الرذيلة .. كان هذا علامة صدق ، وبشرى للمخلصين ، فالحمد لله ولا إله إلا الله .. إن الطغاة يخافون ويهزمون وأصحاب الرسالات خلف القضبان مجردون من كل شيء إلا من الإيمان بالله تعالى».

(٢٤)

وبرينا هذا الكتاب نماذج متعددة لصلوات صاحبه بأقطاب الإخوان المسلمين - من وجهة نظرها هي طبعاً - وهي تروى كيف كانت هذه العلاقات تتطور وتمضى من أجل تحقيق الأهداف المشتركة والتعاون في سبيل تنفيذ ما يعتقدون أنه الصواب ، وترينا الاحتياطات والاحترازات التي توردها صاحبة المذكرات في أثناء الرواية مناطق مهمة من اللاوعى يسهل على القارئ أن يفهم ما تعكسه وما تعنيه ، وهذا على سبيل المثال هو نص ما ترويه عن علاقتها بعدالفتاح إسماعيل أبرز المتهمين في مؤامرة الإخوان في ١٩٦٥ :

«كان أول لقاء لى به في عام ١٩٥٧ وفي موسم الحج».

«كنت في ميناء السويس على رأس بعثة الحج لجماعة السيدات المسلمات ، وكان معي في المودعين شقيقى محمد الغزالى الجبلى فوجدته مقبلاً علىّ في صحبة إنسان يكسو وجهه نور ومهابة يغض بصره ، قدمه لى أخى قائلاً: الأخ عبدالفتاح إسماعيل ، كان من أحب شباب الإخوان إلى الإمام الشهيد حسن البنا ، كان فضيلة المرشد يحبه ويؤثره وله فيه ثقة مطلقة ، وقد طلب منى أن أقدمه لك بهذه الصورة حتى تعرفيه ، وحيّانى الأخ وهو يقول: سأكون إن شاء الله معكم فى الباخرة ، فرحبت به وانصرف ، وصعدنا إلى الباخرة وتحركت بعيداً عن الشاطئ وانشغلت بمطالب البعثة ، بعثة حج السيدات المسلمات . وعندما ذهبت إلى حجرتى لأستريح بعد تناول الغداء ، سمعت طرقات على الباب ، أذنت بالدخول فتكرر الطرق ثانية ولكن الطارق كان يذهب بعيداً عن فتحة الباب ، ولما سمع

صوتى يأذن بالدخول للمرة الثالثة ، دخل فوجدته الأخ الذى قدمه لى شقيقى على رصيف الميناء .. قال فى إخبارات وهو يطرق إلى الأرض بعد أن ألقى على السلام .. أنا أعلم بحمد الله أن بينك وبين الإمام الشهيد حسن البنا بيعة بعد طول خلاف ، ولما سألته عن مصدر معلوماته أجاب: الإمام الشهيد نفسه طيب الله ثراه .. فسألته عما يريد ، أجاب: أن نلتقى فى مكة لوجه الله نتحدث فيما كان البنا يريد منك إن شاء الله».

«كانت كلمات سهلة العبارة طيبة النوايا لينة ، لكنها مع بساطتها قوية صادقة ثقيلة التكاليف ، تحمل معنى الأمر ولا تترك مجالاً للتفكير».

«قلت: إن شاء الله فى دار بعثة السيدات المسلمات بمكة أو بجدة ، ولما سأل عن العناوين حدثته عن أخوين فى جدة قال إنه يعرفهما وهما الشيخ العشماوى ومصطفى العالم ، كلاهما يستطيع أن يرشده إلى مكان إقامتى بمكة وجدة».

«حيانى الأخ وانصرف».

(٢٥)

وتستأنف السيدة زينب الغزالي حديثها عن توثق علاقتها بعدالفتاح عبده إسماعيل وهو أحد أبرز المتهمين فى قضية الإخوان فى ١٩٦٥ فتقول:

«أخذت طريقى إلى باب السلام وكان فى نيتى أن أطوف حين أوقفنى صوت ينادينى باسمى محيياً بتحية الإسلام ، والتفت فإذا به عبدالفتاح إسماعيل وسألنى عن وجهتى ولما عرف أنها الطواف ثم دار البعثة صحبني إلى المسجد وطفنا بالبيت معاً ، وبعد صلاة سنة الطواف جلسنا تجاه الملتزم وأخذ يتحدث فيما يريد».

«سألنى عن رأى فى قرار حل الإخوان».

«أجبت إنه قرار باطل شرعاً».

«قال: هذا الأمر الذى أريد بحثه معك .. ولما سألته أن يزورنى فى دار البعثة استبعدها كمكان لمثل هذه الأمور خوفاً من أجهزة التجسس الناصرية ، واتفقنا على أن نجتمع فى مكتب عمارة الحرم المكى .. فى مكتب معالى الرجل الصالح الشيخ صالح القزاز ،

واجتمعنا هناك ، لكنه أسر إلى أن الأفضل أن نلتقى في الحرم وانصرف هو على أن نلتقى خلف مقام إبراهيم».

«وبعد ركعتي الطواف جلسنا خلف مبنى زمزم بالقرب من مقام إبراهيم ، وأخذ يتحدث عن بطلان قرار حل جماعة الإخوان المسلمين ووجوب تنظيم صفوف الجماعة وإعادة نشاطها ، واتفقنا على أن نتصل بعد العودة من الأرض المقدسة بالإمام حسن الهضبي المرشد العام لنستأذنه في العمل».

«وقال عندما هممنا بالانصراف: يجب أن نرتبط هنا ببيعة مع الله على أن نجاهد في سبيله ، لا نتعاس حتى نجمع صفوف الإخوان ونفاصل بيننا وبين الذين لا يرغبون في العمل أبداً كان وضعهم ومقامهم ، وبايعنا الله على الجهاد والموت في سبيل دعوته.. وعدت إلى مصر».

«ومع أوائل ١٩٥٨ كانت لقاءاتي قد تعددت بعبدالفتاح إسماعيل في منزلي وفي دار المركز العام للسيدات المسلمات».

(٢٦)

ثم تقدم لنا زينب الغزالي الأدلة على أن نشاطها كان بإذن وموافقة المرشد العام للإخوان المسلمين ، وهي تفعل هذا بوعي شديد للصورة التي تقدم بها هذا النشاط من خلالها مذكراتها وذكرياتها وذلك حيث تقول:

«والتقيت بالأستاذ الهضبي لأستأذنه في العمل باسمي وباسم عبدالفتاح إسماعيل ، وأذن لنا في العمل بعد لقاءات عديدة شرحت له فيها الغاية وتفاصيل الدراسات التي قمت بها وعبدالفتاح».

«وكان أول قرار لبدء العمل هو أن يقوم الأخ عبدالفتاح عبده إسماعيل بعملية استكشاف على امتداد مصر كلها ، على مستوى المحافظة والمركز والقرية ، والمقصود من هذا أن تبين من يرغب في العمل من المسلمين ، ومن يصلح للعمل معنا ، مبتدئين بالإخوان المسلمين لجعلهم هم النواة الأولى لهذا التجمع».

«وبدأ الأخ عبد الفتاح إسماعيل جولته بادئاً بالذين خرجوا من السجون من الإخوان

والذين لم يدخلوا لتختبر معادتهم وهل أثرت المحنة في عزيمتهم ، وهل دخول من دخل السجن جعلهم يتعدون عما يعرضهم للسجن مرة أخرى أم أنهم لا يزالون على ولائهم للدعوة مستعدين للتضحية بكل غال ورخيص في سبيل الله ونصرة دينه».

«كانت عملية استكشاف لا بد منها حتى نبدأ العمل على أرض صلبة ، وحتى نعرف من يصلح فعلاً ، وكنا ندرس معاً التقارير التي يقدمها عبدالفتاح إسماعيل عن كل منطقة ، وكنت أزور المرشد وأبلغه مجمل ما اتفقنا عليه وما وصلنا إليه .. وكنا إذا عرضنا عليه صوراً من الصعوبات التي نلاقها ، قال: استمروا في سيركم ولا تلتفتوا إلى الوراء ، لا تغتروا بعناوين الرجال وشهرتهم .. أنتم تبنون بناءً جديداً من أساسه».

(٢٧)

وفي هذا الإطار فلا بد لنا أن نستكمل تصوير ما حرصت عليه السيدة زينب الغزالي ، وهي حريصة على أن تذكر بالتفصيل طبيعة علاقتها مع الأستاذ سيد قطب وأسرته ، وهذا بعض ما تحكيه عن لقاءاتها بالأستاذ سيد قطب وشقيقته وعائلته:

«... وفي عام ١٩٦٢ التقيت بشقيقات الإمام الفقيه والمجاهد الكبير الشهيد سيد قطب بالاتفاق مع الأخ عبدالفتاح إسماعيل وبإذن من الأستاذ حسن الهضيبي ، المرشد العام للإخوان المسلمين ، للاتصال بالإمام سيد قطب في السجن لأخذ رأيه في بعض بحوثنا والاسترشاد بتوجيهاته».

«طلبت من حميدة قطب أن تبلغ الأخ سيد قطب تحياتنا ورغبة الجماعة المجتمعة لدراسة منهج إسلامي في الاسترشاد بأرائه .. وأعطيتها قائمة بالمراجع التي ندرسها وكان فيها تفسير ابن كثير ، والمحلى لابن حزم ، والأم للشافعي ، وكتب في التوحيد لابن عبد الوهاب ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ، وبعد فترة رجعت إلى حميدة وأوصت بدراسة مقدمة سورة الأنعام .. الطبعة الثانية وأعطيني ملزمة من كتاب قالت: إن سيد يعده للطبع واسمه «معالم في الطريق» .. وكان سيد قطب قد ألفه في السجن ، وقالت لي شقيقته: إذا فرغتم من قراءة هذه الصفحات سأتيكم بغيرها».

وعلمت أن المرشد اطلع على ملازم هذا الكتاب وصرح للشهيد سيد قطب بطبعه .. وحين سأله . قال لي: على بركة الله .. إن هذا الكتاب حصر أملى كله في سيد ،

ربنا يحفظه ، لقد قرأته وأعدت قراءته ، إن سيد قطب هو الأمل المرجحى للدعوة الآن ،
إن شاء الله . وأعطاني المرشد ملازم الكتاب فقرأتها فقد كانت عنده لأخذ الأذن بطبعها
وقد حبست نفسي في حجرة بيت المرشد حتى فرغت من قراءة «معالم في الطريق» .

(٢٨)

وتحرص السيدة زينب الغزالي على أن تذكر أن اللقاءات قد تعددت ، وأن الأنشطة قد
تواصلت ، مع أن فكرتنا عن تلك الأيام قد لا تسمح بتصور أن يتم كل هذا النشاط بعيداً
عن أعين دولة ممسكة بزمام الأمن ، حيث تقول:

«وأخذنا نعيد الدراسة والبحث من جديد في صورة نشرات قصيرة توزع على الشباب
ليدرسوها ثم تدرس بتوسع في حلقات ، وكانت الأفكار متفقة والغايات غير مختلفة ،
فانسجمت خطة الدراسة مع الوصايا والصفحات التي كانت تأتينا من الإمام الشهيد
سيد قطب رحمه الله وهو داخل السجن ، وكانت ليالى طيبة وأياماً خالدة ولحظات
قدس مع الله ، يجتمع عشرة أو خمسة من الشباب ويقرؤون عشر آيات تراجع أحكامها
وأوامر السلوك فيها وكل غاياتها ومقاصدها في حياة العبد المسلم . وبعد تفهمها
واستيعابها يتقرر الانتقال إلى عشر آيات أخرى اقتداء بأصحاب النبي ﷺ» .

«ومرت أيام حلوة طيبة ونعمة من الله تحتوينا ، ونحن ندرس وندرس ونربى أنفسنا
ونهيئ للدعوة رجالها بشباب اقتنع بضرورة الإعداد لقيام دعوة الحق العادل .. وقرر
وجوب حتمية إعداد أجيال في شخوص هذا الشباب الذي نرجوه أساتذة في التوجيه
والإعداد للأجيال المقبلة» .

«قررنا فيما قررنا - بتعليمات من الإمام سيد قطب وبأذن الهضيبي - أن تستمر مدة
التربية والتكوين والإعداد والغرس لعقيدة التوحيد في النفوس ، والقناعة بأنه لا إسلام إلا
بعودة الشريعة الإسلامية وبالحكم بكتاب الله وسنة رسوله لتصبح شريعة القرآن مهيمنة
على كل حياة المسلمين ، قررنا أن يستغرق برنامجنا التربوي ثلاثة عشر عاماً ، عمر الدعوة
في مكة» .

«وكنا على اتصال بالأستاذ محمد قطب ، ويأذن من المرشد العام الأستاذ الهضيبي ،

كان يزورنا في بيتي بمصر الجديدة ليوضح للشباب ما غمض عليهم فهمه ، وكان الشباب يستوضحونه ويسألونه أسئلة كثيرة يجيب عليها».

(٢٩)

أما حديث السيدة زينب الغزالي عن المرشد الثاني للإخوان المسلمين المستشار حسن الهضيبي فهو حديث يحفل بالتقدير دائماً ، وهي تروى كيف عرفت بوجوده في السجن على النحو التالي:

«... وفي يوم أحسست بشيء يجذبني إلى باب الزنانة ، كان صوت أقدام أحسست أن قلبي يتجذب إليها ، وأمسكت بباب الزنانة ووضعت عيني على الثقب الذي يرقبوني منه بين الحين والحين ، ورأيت صاحب هذه الخطأ ، لقد كان الإمام حسن الهضيبي المرشد العام ، وأدركت أنهم قبضوا عليه ، ووضعت فمي على الثقب وقرأت قوله تعالى: «إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله... ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين».

«وصرت أترقب هذه الخطى الغالية. وكان الله يرزقني رؤيته كل يوم. فكنت أقف وأردد الآية ويجيب بإيماء خفيفة لا يلحظها الشيطان الذي يرافقه».

«كان هذا اللقاء يؤنسني كثيراً ويشغلني عن جل الآمي. وهذا أمر لا يحس بجلاله غير المؤمنين المتأخين في الله ، فالإسلام يربط بين قيادته وجنده برباط يعلو بالنفوس حتى تؤثر مرضاة الله على نفسها. وعشت يغمرنى الاطمئنان بذلك».

(٣٠)

ومع كل هذا التقدير الذي تحرص على تسجيله لأقطاب الإخوان المسلمين ، فإنها لا تمل الحديث بمرارة عن علي عشناوي أحد نشطاء الإخوان في هذه الفترة ، وهي حريصة على اتهام علي عشناوي هذا بالعمالة للمباحث :

«... فقال شمس بدران: تريدون أن تنكروا أنك أسست تنظيم الإخوان؟ إليك كلام

شيخكم يقطع بأنك أنت التى أسست التنظيم .. اقرأ لها أقوال الهضيبى يا جلال .. وبعد عدة دقائق قال له: انتظر .. اترك هذا الملف واقرأ لها أقوال عبدالفتاح إسماعيل .. وأخذ جلال يقرأ .. وبعد قليل سألتى شمس بدران: ما رأيك!! لم أجب .. قال يا جلال اقرأ لها أقوال مخطط الإخوان سيد قطب».

«فأخذ جلال يقرأ ثم ينتقل من ملف إلى ملف ولما فرغ قال شمس بدران: ما رأيك فيما سمعت .. هل تكتبين ما نريد؟ فقلت: هذا باطل؟؟ فقال فى تهكم: وما هو الحق يا نابغة الزمان!!».

«قلت: كل ما سجل هنا لعلى عشاوى .. أعتقد هو الباطل .. أما بقية إخوانى فهم أهل الدعوة وأهل الحق والمسطر هذا مزور عليهم .. قال شمس: علقها يا صفوت وأنت يا حمزة هات على عشاوى وحضر الكلاب».

«وجاء على عشاوى .. كان على عشاوى يلبس «بيجامة» من الحرير المهفهف نظيفة .. أنيقة. شعره مشط لا يبدو عليه أى أثر للتعذيب. فلما رأيته واستعرضت فى ذهنى حالة الآخرين ، وحالى ، علمت بل تيقنت أن هذا المخلوق خان أمانة الله ، وشهد على إخوانه زوراً فهوى فى مهاوى الفساق ، الفجار ، الظالمين ، وأصبح من رجال شمس بدران وذنباً من أذئاب جمال عبدالناصر ، الذين لا يعرفون قيماً ولا أخلاقاً ولا ديناً».

«قال له شمس بدران: يا على .. ماذا أخذت من زينب الغزالي فى آخر يوم توجهت فيه إليها .. وماذا قالت لك؟».

«قال على عشاوى: أعطتني ألف جنيه ، وقالت لى: النقود ستكون عند غادة عمار لتسليمها إلى بيت الهضيبى أو بيت قطب ، إذا قبضوا على اتصل بغادة أو بحميدة ستعرف أين النقود إذا احتجتم إليها».

«فقال شمس بدران: كم كانت النقود يا زينب الغزالي؟ ولماذا كنت خائفة عليها؟».

«فقلت: كانت النقود أربعة آلاف جنيه ، وهى قيمة اشتراكات مجموعة من الإخوان فى السودان ، والسعودية لمساعدة أسر المسجونين ، ومصاريف الطلبة فى المدارس والجامعات ، وإيجار بيوت ، صرفنا منها فى العيد الماضى ألف جنيه على العائلات .. وهذا الواقف أمامكم هو الذى أخذ الألف جنيه ليعطيها لعبدالفتاح إسماعيل لحساب الأسر».

«وقال شمس بدران: أنت يا على .. ماذا أكلت عند زينب الغزالي آخر مرة؟ فقال على عشاوى: أعطتني طبق أرز بالكبدة وقالت لى: كل .. ربنا يعينك».

«ثم قال: كفاية!! أخرج يا على ، فخرج على عشاوى مصحوباً بسلامة ورعاية شمس بدران!!».

(٣١)

وفي مقابل هذا التعريض الشديد بعلى عشاوى وانصياحه التام لشمس بدران فإن السيدة زينب الغزالي تذكر بكل تقدير وفخر موقف عبدالفتاح إسماعيل فى مواجهة شمس بدران:

وهى تقول:

«... وقال شمس بدران: هات عبدالفتاح يا حمزة».

ربما جاز لنا أن نتوقف لنشير إلى أن حمزة البسيونى كان يكبر شمس بدران بأكثر من عشر سنوات ولكن الوضع المميز الذى وصل إليه شمس بدران كان يكفل له أن يأمر وينهى من هم أكبر من حمزة البسيونى ، وإن كان هذا لايعنى أننا نؤيد كل ما ترويه السيدة زينب الغزالي من تفصيلات .

«وبعد لحظات عاد حمزة البسيونى بعبدالفتاح إسماعيل.. كان يكسوه وقار الصادقين ، ونور الموحدين.. يلبس حلة سجن زرقاء ، ممزقة ، وآثار التعذيب تنطق بمدى ما لاقاه هذا المجاهد الصادق المؤمن الموحد.. وقال يوجه القول إلى «السلام عليكم».

«فقلت : «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

«وقال شمس بدران: ماذا كنت تعمل عند زينب الغزالي يا عبدالفتاح؟ لماذا كنت تذهب إليها؟».

«ورد عبد الفتاح بلسان صدق وحق غريب على الجاهلين: أختى فى الله.. كنا نتعاون على أن نبني الشباب المسلم على مبادئ القرآن والسنة.. وبطبيعة الحال كان ذلك سيفضى إلى تغيير الدولة ، من دولة جاهلية إلى دولة إسلامية».

«ويقول شمس بدران فى غلظة: أتخطب؟! أنت لست على المنبر يا ابن الس... أخرج.. أخرج.. ويخرج عبدالفتاح إسماعيل كما جاء .. بعد أن وجه القول إلى «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

«فقلت: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

وأخذت شمس بدران ثورة عارمة فجرت القذارة على لسانه فانساب بأبشع الألفاظ وأقذرها!!».

«واسترحت.. نعم استرحت لشموخ الرجولة في عبدالفتاح إسماعيل ، مأخوذة بذروة الإيمان فيه ، وقلت في سرى «الحمد لله» إن لله رجلاً.. اللهم احفظهم لدعوتك ياالله.. إن خان على العشماوى فهناك الموحدون الصابرون .. رواد الطريق وطلاب الحقيقة».

(٣٢)

أما أحب ما في هذا الكتاب كله إلى نفسى شخصياً فهو حرص زينب الغزالي على التصوير الدقيق لميلها العميق إلى النزعة الإنسانية التي كانت تملكها تماماً ، وهي تروى إحدى الوقائع التي تصور تمكن هذه النزعة منها فتقول :

«أسلمنا أمرنا لله تعالى وانشغلنا به سبحانه وبسلاوة آياته الكريمة ، وبينما أعيش مع ابنتي حميدة تلك اللحظات الربانية دخلت سيدة طويلة السقامة شقراء وألقت علينا التحية ، فرددنا التحية ثم قالت حضرتك زينب الغزالي قلت : نعم ، قالت : أنا مرسيل مسجونة سياسية وطبعاً بيننا وبينكم خلاف في العقيدة فأنا يهودية وأنتم مسلمون ، ولكن النفس لا تخلو من إنسانية ، خاصة وقت الشدائد والمحن ، فلا مانع أن تكون بيننا وبينكم معاملة طيبة في السجن ، أما خارجه فبيننا الحرب والقتال أو الخلاف في الأهداف ، أما الآن فنحن جميعاً في شدة وقسوة ، ولقد جئت إليكم في غفلة من المسئولين لأعرض عليكم تعاوني لخدمة بعضنا لبعض . فشكرناها على ذلك ، ثم قالت: نحن لدينا إمكانيات للأكل ، وإن كانت قليلة فسنتقسمها معكم وسأتحرى أن لا يكون في الأكل ما هو محرم عندكم ، ونحن اليهود لا نأكل لحم الخنزير مثلكم. ومرت أيام كانت مرسيل اليهودية تحضر لنا بعضاً من المأكولات ، وكان أهم من ذلك كله أن هذه اليهودية دبرت لنا أمر استعمال دورة المياه الخاصة بهم.. أحست ابنتي حميدة الحرج في تلك الأمور ، فقلت لها إن الله سبحانه وتعالى يسوق الخير لعباده ، على يد من يشاء ، والله تعالى لا يعنت عباده ولا يديم عليهم العسر ، وليس لنا حيلة إلا أن نتعايش مع الإنسانية أينما وجدت مادام ذلك في دائرة الإسلام».

وتمضى المذكرات لتثبت لنا حقيقة مهمة وهي أن اليهوديات لم يكن فقط اللاتي مددن يد المعونة إلى زينب الغزالي ، ولكن من المسيحيات أيضاً من رق قلبها لهذه السيدة :

« ورأينا في تلك الغابة الموحشة والصحراء الجرداء القاحلة إنسانية متمثلة في طيبة مسيحية تقدم لنا عونها بين الفينة والفينة ، فعجبنا لهذا الطابع الإنساني النادر وجوده في مثل هذه الظروف».

(٣٣)

ولا يقتصر التصوير الجيد للنزعة الانسانية في شخصية صاحبة هذه المذكرات على العلاقة بالآخر مهما كان عدواً ولكنها تمتد إلى تصور كثير من المشاعر الانسانية واللحظات الصادقة في حياة البشر، ومن ذلك ما تصور به صاحبة المذكرات لحظة الإفراج عنها ، ذلك أنها تجيد التعبير عن المشاعر الإنسانية التي تعترى الإنسان حين يتخلص من السجن ومن الضيق ومن المحنة ، وهو لا يكاد يصدق أنه سيتخلص ، وهي تعبر عن هذا المعنى بصدق شديد فتقول :

«... كان يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٧١ يوماً مشهوداً. إذ حمل صباحه إلينا اختباراً جديداً حين جاءت سجانة مهرولة تدعوني بسرعة لمقابلة المأمور في مكتبه».

«شدتنا المفاجأة وجعلتنا نذهب بفكرنا في الأمر ماذا يكون وماذا يدبر الطواغيت والظلمة ، أهنك بلاغ كيدى بأننا ننشر الإسلام في هذا المكان ، أم هنك خبير عن الأهل والديار أم هنك مخالفة ولا ندرى بها ؛ أم!! عشرات من علامات الاستفهام؟؟ لم يخطر ببالنا ما تأتي به الأقدار ، فذهبت إلى مكتب المأمور وجدت أمراً بالإفراج عنى وحدى ، وكان شيئاً مذهلاً فأنا صاحبة الحكم المؤبد بالأشغال الشاقة أخرج لتبقى ابنتى وحيدة في هذا المستنقع الأثم ، تقاسى ما تقاسى ، فانزعج قلبي من أعماقه وسيطر على نفسى حزن عميق وحيرة بالغة وبدون شعور صرخت قائلة: لا.. لا.. لن يكون هذا أبداً.. لن أخرج وأترك ابنتى ، إنكم أصحاب فتنة وتخطيط مظلم !! وثار ثورتى وشعرت بتعب وإجهاد واضطراب فى النفس والمشاعر».

«طلب المأمور منى أن أخفف من ثورتى وأن هذه أوامر لا نملك لها أدنى مخالفة ، تمكثين هنا بأمر علوى وتخرجين بأمر علوى ، ونحن أيضاً لسنا أقل منك فى ذلك».

«وبعد دقائق قليلة وجدت ابنتى حميدة أمامى فى حجرة المأمور ، استدعاها لتهدئتى ولتخفف عنى ما أنا فيه ، كانت محنة هائلة ، قاسية ، كيف ذلك؟ كيف أخرج وأترك ابنتى وحدها ووجهها المظمن المشرق لا يفارق قلبى وصوتها بكلماتها الندية يهز أوتار نفسى ، كيف أتركها وحدها فى هذا المكان المظلم الموحش ، تواجه بمفردها قسوة المعاملة ، ومشاعرى فى نفسى وفؤادى تصرخ بشدة كلا.. كلا لن أتركها ، ويطول فى قلبى الصراع ويمتد ، وهى تدعونى يا أماه يا أماه هذا فضل الله ورحمة منه ، والأمر كله لله ، والله لا ينسى عباده».

«وطال الموقف وامتد المشهد فقال المأمور لابنتى حميدة: اتفضللى سلمى عليها وارجمى إلى الزنزانة ، وفى لحظات مضت كالبرق ، فريدة فى نوعها ، وحيدة فى مشاعرها ، تعانقنا والدمع يخط مجراه على الوجوه والقلب ينبض بسرعة يتردد وكأنه يسابق الزمن ، وفى وسط لحظات خالدة من المشاعر وخلجات النفوس ، وجدت نفسى وحيدة فى حجرة المأمور الذى أتم إجراءات الخروج وانفطرت نفسى وتمزق قلبى والدمع ينهمر وأنا أخطو الخطوة الأولى إلى بيتى».

(٣٤)

ومن الطريف أن نقرأ فى الفقرة التالية ما يعبر عن تصوير زينب الغزالي الصادق للحظات شعورية مهمة ، ذلك أن السيارة تمضى بها إلى بيتها فإذا ما توقفت السيارة مرة بالمباحث فإنها تصبح فى نظر صاحبة المذكرات قد «غيرت اتجاهها فجأة».. ولنقرأ هذا الوصف الحافل بالمشاعر والانفعالات:

«اخترقت العربة الطريق إلى بيتى ولكن غيرت طريقها فجأة ووجدت نفسى أمام مبنى المباحث العامة ، ودخلت حجرة أغلقوا على بابها من الساعة الثانية عشرة ظهراً إلى التاسعة مساءً حتى أخذونى إلى مكتب به ضابطان ، أخذنا يسألان أسئلة تدور حول الإسلام وهل أنت ستقومين بزيارة الإخوان بعد ذلك».

«وأنا مشغولة بابنتى حميدة وأقول لهما ليس من العدل أن أخرج وأنا محكوم عليها بالمؤبد ، وتبقى ابنتى وحيدة ، إنكم تريدون فتنة ولكن الله لن يحقق لكم ما تدبرون ، قال: اهدئى يا حاجة ، قلت: إنكم تكيدون كيداً والله من ورائكم محيط والله غالب على أمره

ولكن أكثر الناس لا يعلمون.. قال: يا حاجة دى أوامر من فوق لا نقدر على أن نخرج حد وليس لنا كلام».

«ثم أخذوني إلى مكتب أحمد رشدى الذى كان يستخدم سياطه ونفسه المريضة ليكيد رجالاً ربط الله على قلوبهم برباط الإيمان ولكن هيهات.. هيهات».

«ولما دخلت عنده طلب منى الجلوس على مقعد أمامه وقدم لى التهنتة بالخروج ، ثم دار بينى وبينه حديث كان عبارة عن جملة أوامر وجهها لى كان ملخصها أن لا أمارس النشاط الإسلامى وأن لا تزاور بينى وبين إخوتى ومعارفى ولا تعاون بيننا ولا تواد وأن أتردد على مكتبه بين الحين والحين».

«فقلت له لما فرغ من حديثه: الكلام الذى وجهته إلى أرفضه جملة وتفصيلاً ، بل أرفض قرار الإفراج بالخروج وتبلغ المسئولين بذلك وأطلب عودتى فوراً إلى سجن القناطر».

«وأنهى أحمد رشدى الحديث وابتسم قائلاً: «على أى حال فيه كثير من الإخوان تفاهموا معى على ذلك» ، فقاطعتة قائلة: «والله لا أعلم عن الإخوان إلا خيراً وأما ما تقوله أنت بالنسبة لبعض الإخوان فلا أستطيع أن أبدى رأياً.. لا أصدق صدوره منهم ، إن الإخوان المسلمين ورثة حق يعملون له ليل نهار حتى يأتى الله بنصره أو يهلكوا دونه».

«ودق جرس التينون وأجاب أحمد رشدى قائلاً: دعه يكلمنى ، ثم قال: أهلاً وسهلاً يا أستاذ عبدالمنعم ، انفضل ، نحن محتاجون إليك .. ووضع سماعة التليفون ثم قال لى أحمد رشدى: الأستاذ عبدالمنعم الغزالي جاى هنا.. وبعد قليل حضر شقيقى عبدالمنعم وسلم علىّ وهو ييكي ، قال له أحمد رشدى: أنا أريد أن تحكم بينى وبين الحاجة لأننا مختلفان ، فأجاب شقيقى: الحاجة أكبر منى وأنا شقيقها الأصغر ، وليس من عادتى أن أناقشها فى شىء ، أضف إلى ذلك لو سمحت لى ، أنها تمتاز بقوة منطقها وصحة حجتها. فقال أحمد رشدى: طيب يا حاجة مبروك بس ملكيش دعوة بعمل تنظيمات مسلحة للإخوان.. قلت: التنظيمات السرية أنتم الذين تلفقون قصصها وتخرجون تمثيلياتها. إن قيام الدولة الإسلامية واجب على المسلمين وعدتهم فى ذلك الدعوة إلى الله تعالى كما دعا رسوله (صلى الله عليه وسلم) وصحبه الكرام ، وهذه رسالة كل مسلم سواء كان من الإخوان أو غيرهم».

«ثم انصرفت مع شقيقى إلى بيتى وكان ذلك فى الساعة الثالثة صباحاً فى اليوم العاشر من أغسطس سنة ١٩٧١».



بقى أن أعبر عن رأى فى أن الجزء الأهم من هذه المذكرات لم يكتب بعد ، فقد وقفت زينب الغزالي بمذكراتها عند الحدود التى انتهت إليها منذ عشرين عاماً ، وربما تحدثها نفسها - فيما بعد - أن تضيف إلى هذا الكتاب شيئاً عن عشرين عاماً تالية لمذكراتها شهدت ذروة نشاطها ووجودها - وربما تأثيرها - فى ساحة العمل الإسلامى الفكرى ، وقد نشطت إلى مجالات أخرى متعددة ورحيبة الأفق كتفسير القرآن الكريم الذى صدر الجزء الأول منه عام ١٩٩٥ ، ولهذا فإننا ربما نسأل أنفسنا ، ونحن حيارى ، هل أغلقت السيدة زينب الغزالي ملفها فى الحركة الإسلامية الدينامية بما كتبت حتى ذلك التاريخ ؟ ولماذا ؟

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحزبية

4

مذكرات إنجي أفلاطون

دار الخيال

(١)

أجدنى مضطراً لأن أبدأ هذ الباب بماليس من حقه إلا أن يكون فى نهايته ، ذلك أنه لم يبلغ بى الضيق أبداً وأنا أقرأ التجارب المطبعية الأولى لأى كتاب ذلك المبلغ الذى بلغته وأنا أقرأ هذا الكتاب المطبوع الأنيق ففى كل صفحة عشرة أخطاء على الأقل ، إن لم يكن فى الحروف والكلمات ففى الفقرات المبتورة ، والبدايات غير الحقيقية لفقرات هى فى الأصل بقية الجملة التى فى الفقرة السابقة ، وقد يكون حدوث الخطأ وارداً ، ولكن وجود هذه النسبة من الأخطاء فى كتاب مطبوع مقروء أمر يستدعى إيقاف طبعه فإن لم يكن فإيقاف نشره فإن لم يكن فإيقاف توزيعه حفاظاً على سمعة دار النشر ، ولكن لا أظننا فى الوطن العربى نحرص على مثل هذه السمعة .. ومع هذا فإنى أعتقد أن مطالعة كم الأخطاء فى هذا الكتاب ربما يثير فى نفوسنا ضرورة الإحساس باتخاذ مثل هذا القرار فى بعض الحالات مهما بدت الخسائر المادية مكلفة .. ومن العجيب أن الفنى المسئول عن صف الحروف إذا تقدم بمثل هذا العمل كنموذج لقدراته فإنه لن يعين أبداً فى أى مكان ، ولكن يبدو أننا أصبحنا لا نبحث حتى عن الحد الأدنى من القدرة عند تعيين الموظفين !!

تتبع أهمية هذه المذكرات من أن صاحبها المغفور لها الفنانة إنجي أفلاطون مثلت نموذجاً بارزاً ، وفريداً في بعض الأحيان لأكثر من معنى .

فهى أولاً الفنانة السياسية وهى نموذج الفنان المتميز الذى استمرت مشاركاته فى الفن والسياسة بطريقة متوازية ، وعندما نقرأ مذكرات إنجي أفلاطون نكتشف أنها بدأت نشاطها السياسى قبل نشاطها الفنى على عكس ما هو شائع فى مثل هذه الأحوال حين يكون الانتماء بمثابة قوة دافعة فى مجال الفن والأدب ، وقد لاحظ الجمهور فى وطننا هذا المعنى بوضوح شديد ، وهو - أى الجمهور - اليوم يقرأ مذكرات إنجي أفلاطون فيجد نموذجاً مختلفاً للمذهب .

ثم هى ثانياً نموذج بارز للاقتناع الفكرى الذى دفع العناصر الأرسقراطية (فيها) إلى التخلى عن كل ما يربطها بالأرسقراطية والارتباط بكفاح جماهير الشعب ولم تعرف فى مصر حتى اليوم من هى أرفع طبقة من السيدة إنجي أفلاطون بين كل اليساريات والشيوعيات فى الحركة الوطنية المصرية .

ثم هى ثالثاً وهذا هو الأهم نموذج للصلاية المحترمة بين السيدات المصريات ويكفى أنها ظلت معتقلة لمدة ٤ سنوات لم تر فيها أهلها غير مرة واحدة ، وأنه حكم عليها بالسجن مدة عامين ، وأنها ظلت هاربة من عيون المباحث حوالى شهرين ومع هذا كله فإنها بقيت كما هى وأشد صلاية حتى يوم وفاتها ممثلة صورة واحدة هى صورة الفنانة إنجي أفلاطون المنتمية إلى كل ما انتمت إليه .

ثم هى رابعاً ظلت - قدر ما استطاعت - مخلصمة لفننا إلى أبعد الحدود ، لم تستهوها على الإطلاق نزعات التحديث على أى مستوى ، ولم تلجأ إلى التغريب بأى طريقة على الرغم من أنها كانت قادرة على ما هو أبعد مما أنجزه من هم أقل منها من زملائها فى الحركة الفنية .

إنجي أفلاطون إذأ نموذج بارز للحرص الشديد على الانتماء وعلى تعميق الانتماء الوطنى لغةً وفكراً وعادات وتقاليد ونشاطاً ، قد يكون نموذجاً نادراً ولكنه هو الأصل ، ومهما غاب عنا الأصل فإن الأصل يظل هو الأصل ويظل موجوداً .

ولنقرأ معاً ما نقوله هذه السيدة العظيمة:

«حاولت والدتي إقناعي بالسفر إلى فرنسا لاستكمال دراساتي الفنية ، وكذلك حاول كل أفراد العائلة ، لكنني رفضت. بإصرار وعزم رفضت. كان قراري بالرفض منسجماً مع ما استعد له من حياة جديدة ، يقتسمها النشاط السياسي والاجتماعي ، إن لم يشغلها لأبعد مدى. لم يكن مقبولاً ولا معقولاً أن أترك مصر وأذهب لعدة سنوات إلى بلاد الخواجات ، وأنا أفكر بكل وجداني في عملية تمصير طويلة وقاسية للنفس ، لى شخصياً. أنا التي أتكلم الفرنسية. ضاعت من عمري ثمان عشرة سنة في هذا المجتمع المغلف بالسلفان ، حتى لغتي القومية لا أملكها. أى بؤس يحسه الإنسان المعقود اللسان! حتى السابعة عشر كانت لغتي هي الفرنسية. وحين بدأت أحتك بالناس ، لم أستطع أن أحل العقدة من لساني ، مقطوعة أنا من شجرة إذن؟!

(٣)

في مقدمة الكتاب يذكر الأستاذ سعيد خيال أن هذه المذكرات كانت تسجيلاً على أشرطة الكاسيت ، وأن الفنانة إنجي أفلاطون كانت تقوم بتفريغ الأشرطة في كراسات كان يتسلمها تباعاً ، وأنها كثيراً ما كانت تعيد الكتابة وصولاً للوضوح ، وأنها كانت على الدوام حريصة على أداء هذا الواجب الشاق ، ومن الواضح جداً أن هذه السيدة الفنانة العظيمة بذلت في تأليف أو وضع هذه المذكرات جهوداً مضاعفة لتصل إلى أكثر اللوحات صدقاً وفنية وتعبيرية ، فقد كانت حريصة كل الحرص على الصدق بمعناه الواسع الذى لا يقف عند حدود رواية الواقعة بصدق فحسب ، وإنما يمتد لوضعها في إطارها الصادق ، ويمتد ليعترف بجوانب القصور فيما يرويه وبدوافع أو أسباب هذا القصور ، ولهذا كله فإن إنجي أفلاطون تقدم نفسها كإنسانة مجتهدة مع أنه كان فى وسعها وبسهولة شديدة أن تقدم لنا نفسها فى صورة «القديسة» أو فى صورة «الشهيدة» على أقل تقدير ، ولكنها كانت بحكم فهم رائع وعميق لقيمها الرفيعة وقدراتها العظيمة مندفة إلى إيثار الصدق قبل الذات ، وإلى روعة التعبير والتصوير والقصص التي هي كفيلاً فى نظرها وخبرتها بخلود العمل الفنى ، وقد كان ، فهذه مذكرات صادقة ورائعة وجميلة تغلب فيها صاحبها على كل العقد والاعراض الدنيوية والنجاحات القصيرة المدى كما تغلبت على كل ذلك فى

حياتها بفضل انكشاف الحجاب أمام ناظرها حين عرفت منذ مرحلة مبكرة وإلى أن انتقلت إلى رحمة الله أن جمال اللوحة لا ينبع من كثرة الألوان ولا من جمالها فحسب ، وإنما ينبع من تصوير اللوحة لما تصوره سواء كان واقعاً أمام عيني الفنان ، أو خيالاً في خياله .

وقد عاشت إنجي أفلاطون بالفعل مخلصه للواقع الذي أرادت تغييره ، ومخلصه في ذات الواقع للتغيير الذي أرادته للواقع .. وهكذا كان صراعها مع الحياة صادقاً ، ثم كان تعبيرها عن هذا كله غاية في الصدق والاقتدار وهذا أول ما يحسب لمذكرات إنجي أفلاطون التي بين أيدينا ، ولا أريد أن أستشهد على هذا بفقرة أو فقرتين فالمذكرات كلها تنطق بهذا ، وسوف يجد القارئ في الفقرات التي نستشهد بها على معان أخرى دليلاً حياً على قدرة المغفور لها إنجي أفلاطون في هذه الناحية .

(٤)

أما التعبير في مذكرات الفنانة إنجي أفلاطون فيدلنا دلالة رائعة على مدى القدرة التي تمكنت بها هذه الفنانة من وسائلها الفنية ، فأنت تقرأ نصاً سلساً جداً ولكنه حافل بالإيحاءات ، وتنتقل من فقرة إلى أخرى فيتأكد عندك المعنى ولا يتبدل ، وأنت تجد نفسك في وسط الكتاب وقد استولى عليك شعور ما تجاه حياة هذه السيدة ، فإذا ما وصلت إلى نهاية الكتاب وجدت هذا الشعور نفسه قد تعمق وتأكد ، مهما يكن من أمر هذا الشعور الذي قد يكون إعجاباً شديداً ، أو إعجاباً فيه شيء من التحفظ ، أو إعجاباً لا نهاية له ، أو حسرة على ما ضيعت هذه السيدة من عمرها في سبيل مبادئ قد لا تستأهل في نظرك مثل هذه التضحيات .. فليكن ما يكون من شأن شعورك وانطباعتك يا سيدي القارئ فإن صاحبة هذه المذكرات لم تقصد ذلك أبداً ولم تضعه في حسابها ، إنها لا ترسم لك لوحة حسب مواصفاتك ، ولكنها ترسم بنفسها ولنفسها ولما آمنت به وبما آمنت به ، فإذا صادف هذا هوى في نفسك فليس هذا من شأنها أيضاً ، وإذا لم يصادف فهذا ليس من شأنها من باب أولى ، ولهذا فإنها لم تنشر مذكراتها في حياتها وإنما نشرت هذا المذكرات بعد وفاة صاحبها مع أن المذكرات توقفت عند أحداث أوائل الستينات، أي أن ما فيها كان صالحاً للنشر على هذه الصورة طوال ثلاثين عاماً ، ولكنها لا تعالج حياتها بأكثر مما تعالج به فكرة أو موقفاً أو حدثاً تندفع إلى تصويره في لوحة أو أكثر لأنها تعتقد أن هذا الذي تعالجه لا بد

من أن تعالجه فى عمل فنى ، ولهذا فإن حياتها فى هذا الكتاب ليست إلا موضوع العمل الفنى ، وبقدر ما أحببت هذه الفنانة حياتها بقدر ما أخلصت فى التعبير عنها تعبيراً صادقاً غير متكلف وغير مهمل فى ذات الوقت .

(٥)

ولعل هذا يقودنا بالتالى إلى العنصر الثالث فى نجاح كاتبة هذه المذكرات وهو «الفن» فإن السيدة إنجي أفلاطون حين أمسكت بالمايك ثم بالقلم لتسجل ما سجلته كانت تتناول هذه الأدوات بنفس اليد التى تتناول بها الريشة والألوان فى لوحاتها ، فهى حريصة جداً على أصول العمل الفنى وعلى الإلمام بكلاسيكاته وأبجدياته وهى حريصة أيضاً على أن يكون لها أسلوبها وهو غاية ما يحرص عليه الفنانون الأصلاء ، وهى حريصة ثالثاً على أن تضغط كل ما تريد تصويره فى لوحة واحدة تتمثل فيها كل الرؤى والإحساسات حتى وإن كانت متناقضة . وهى تصل فى هذه الجزئية إلى النجاح الأكبر فى الانتصار الواضح على الحقيقة البديهية التى تجعل للحقيقة وجوهاً متعددة ، وتضع التحدى أمام الفنان (وأمام الأديب) فى أن يكون تصويره من الزاوية التى تستطيع أن تكون أكثر تعبيراً عن الحقيقة من كافة زواياها ، الزاوية الكفيلة بأن تصغر من شأن ما يريد الفنان أن يصغره ويجعل قدره يتضاءل ، وأن تكبر من شأن ما يريد الفنان أن يكبره ويجعل قدره يتعاضد ، ولكنه فى كلتا الحالتين يثبت وجود ما يريد تصغيره أو تكبيره ويعطى لنا الإيحاء من خلال المنظور الذى اختاره (أو الزاوية أو المسقط أو القطاع) أنه بفنه واختياره هو الذى كبر هذا العنصر ، وصغر ذلك العنصر ، ثم هو لا يضع أمامنا إلا الصورة التى أرادها على نحو ما أرادها حتى وإن جعل فى ثناياها ما يظهر لنا قدرته على استخدام أدواته الفنية وانتقاء المنظور الذى نظر به إلى ما يصوره !!

وهذا المعنى الذى أتحدث عنه يسهل فهمه على الذين درسوا الفن ومارسوه أو قرأوا فى نقده ونقدوه ، ويسهل فهمه ولكن مع عناء أكثر على الذين يمارسون الكتابة الأدبية والصحفية ، ولكنه - وليس فى هذا غرابة ولا طرافة - يسهل جداً على الأطباء الذين يمارسون قراءة الصور التى تقدمها الأجهزة التكنولوجية للجسم الإنسانى وأعضائه المختلفة ، كأولئك الجراحين والأطباء الذين يتولون قراءة أفلام الأشعة المخية للمخ حين

يبحثون عما يريدون في صورة معينة من ٣٢ صورة ، وأطباء القلب حين يطالعون صور الموجات فوق الصوتية للقلب ، أو خرائط رسم القلب وما إلى ذلك من التصويرات التي أتاحتها ثورة العلم الحديث في العقدين الأخيرين حين أصبح من اليسير تصوير الحقيقة من جهات نظر مختلفة وعديدة مع بقاء ميزة لكل وجهة من هذه الجهات على تصوير ما لا تستطيع الجهات الأخرى في نفس الجهاز تصويره .



لمجحت السيدة إنجي أفلاطون إذأ في أن تقدم للمكتبة العربية مذكرات شخصية على درجة عالية من الفن والصدق والتعبيرية ومع هذا فقد استطاعت أن تلتزم تماماً بالترتيب الزمني ، حتى إذا ما جاء الحديث عن شيء لم يأت ترتيبه الزمني فإنها تستأذنا في تأجيل الحديث عنه حتى يأتي وقته في السياق الزمني ، وهذه براعة شديدة تضاف وتضيف إلى إنجازاتها التي تحدثنا عنها .

(٦)

تبدأ الفنانة إنجي أفلاطون كتابها بالحديث عن شجرة عائلتها بدءاً من الجد الأكبر وزير الجهادية والبحرية في عهد الخديو إسماعيل ، والذي سماه الطلبة بأفلاطون لكثرة أسئلته ومناقشاته فأقرهم على ذلك محمد على باشا الكبير حين كان يُراجع كشف أسماء طلبة المدرسة العسكرية .

وتحدثنا بعد ذلك عن والدها عالم الحشرات الكبير وعميد كلية العلوم في جامعة القاهرة ، وعن والدتها التي تزوجت في سن الرابعة عشرة ، وشقيقتها الكبرى بولى ، وعن البيوت التي تربت فيها في شبرا ، ثم في الزمالك عندما وقع الطلاق بين والديها ، وعاشت الأم مع جدها ثم مع عمه الأم ثم مع أخت الأم الصغرى .

وهي تحدثنا عن نجاح سيدة شابة هي والدتها (طلّقت وهي في سن التاسعة عشرة) من مجتمعات الطبقة الثرية في إثبات ذاتها عن طريق العمل ، وتنجح صاحبة المذكرات بحكم الوعي السياسى الذى تتمتع به فى أن تجعل ممارسة والدتها للنشاط التجارى جزءاً ذا شأن فى سياق الحركة الوطنية ونسيجها فتقول :

«... والمشكلة الحقيقية كانت هي: كيف تواجه أمى وهي المطلقة الشابة الجميلة مجتمع الإثارة والمغامرات ، وهي السمة الغالبة بين الطبقات العليا. لقد تحملت أمى بشجاعة فائقة، لم تكن نستطيع أن نقدرها إلا بعد مرور وقت طويل ، تحملت ألواناً شاقة من المعاناة ، نظمت حياتها بمقاييسها هي واقتناعها الخاص ، آخذة في الاعتبار في الوقت نفسه احترام التقاليد والظروف السائدة ، وسارت في الطريق الذى اختارته بإرادتها هي ، ورفضت الزواج بالرغم من صغر سنها حرصاً على حضانتها لنا ، وخوفاً من أن يتزعنا منها أبى الذى كان يهدد بذلك تحت تأثير زوجته الجديدة ، لكن أمى لم تستطع أن تستقر استقراراً كاملاً ليكون لنا مستقبل إلا حينما نزلت ميدان العمل واستقلت اقتصادياً ، كان ذلك فى عام ١٩٣٦ ، فى ذلك الوقت كانت الأحداث تموج فى مصر. فكان الحديث عن الوطنية والاستقلال بالغ الذروة وبخاصة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ المشهورة مع بريطانيا ، وكانت المناقشة حول ما يستطيعه المصريون والمقارنة مع الأوروبيين محل اهتمام الجميع».

«فى هذا الجو قررت أمى أن تدخل ميدان العمل فى مجال الأزياء ، وشجعها طلعت حرب ، وبمساعدة بنك مصر افتتحت محل الأزياء الرفيعة والتفصيل الراقى ، وكان يحمل اسم «محل صالحة» ، وكان فى شارع الشواربى ، فكانت أول مصرية تعمل فى هذا المجال الذى كان يحتكره الأجانب واليهود ، وبهذا النشاط أصبحت أمى تسافر كثيراً إلى الخارج وبخاصة فرنسا تتابع تطور الموضة وتختار موديلات محلات الأزياء الكبيرة المشهورة مثل كارفن وديور. وكانت أمى تأخذنا معها أنا وبولى. كانت هى تعمل وكنا نفوز بالمتعة وقد نجح المشروع نجاحاً كبيراً».

ولابد لنا أن نقرأ قبل هذا الظروف التى جعلت والدة صاحبة الذكريات تبدأ هذا السبيل:

«كان مولدى فى يوم ١٦ أبريل ١٩٢٤ ، وستة مولدى هى سنة اشتداد الخلاف بين أمى وأبى ، فكانت هى سنة الطلاق».

«حاولت أمى فى ذلك الوقت التخلص من حملها ، كانت تقوم برياضة صعبة وحركات عنيفة ، ورغم هذا لم يحدث سقوط الحمل».

«وكان هذا من حُسن حظى طبعاً».

«لم يكن الطلاق سهلاً ، كان أبى يرفضه لكن أمى أصرت عليه بعد استحالة الحياة

المشتركة ، ولم يستجب أبى لطلب الطلاق إلا بعد أن أيدها جدى لأبى محمد باشا أفلاطون ، وكان رجلاً محبوباً يتمتع بالحكمة».

«غادرت أُمى بيت الزوجية وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، وتحمل طفلتين أنا إحداهما ولم يتجاوز عمرى بضعة شهور. أُمى أصبحت مسئولة عن حياتها وأسررتها الصغيرة فى هذه السن المبكرة. كان عليها مواجهة الحياة فى ظروف مادية صعبة نسبياً ، فهى لم تكن قد ورثت بعد ، ولأن أبى الذى كان غاضباً من الطلاق كان يدفع نفقة محدودة لا تتناسب مع مكانته الاجتماعية وإمكاناته المادية ، لهذا فضلت أُمى أن تسكن فى بيت جدتها أم والدتى التى توفيت وأُمى طفلة صغيرة».

«عشنا فى بيت جولبرى ثابت جدة أُمى وحرَم صالح باشا الوجه الكبير ، كان البيت فخماً يقع فى حى الزمالك وله حديقة جميلة خاصة به ، فلما توفيت جولبرى هانم جدة أُمى عشنا مع عمّة أُمى ، ثم مع أخت أُمى الصغرى إنجى التى سمونى على اسمها».

(٧)

ونحن نرى صاحبة هذه المذكرات بعد هذا وهى حريصة على أن تنقل إلينا الشعور بالسعادة والفخر الذى كانت تحس بهما فى فترة مبكرة من حياتها:

«... وما أتذكره من طفولتى فى تلك الأيام هو الشعور بالسعادة الغامرة ، كنت أعشق أُمى ولازلت .. كنت أخشأها لأنها كانت حازمة فى معاملتها لنا وأسلوب تربيتنا. وفى نفس الوقت كانت حبيبة للغاية وتفيض حناناً. كنت أحترمها لشجاعتها وقوة شخصيتها وأحاول أن أقلدها».

«كنت فخورة بجمالها وراغبة أن يعلم الجميع أنها أُمى ، وكنت لا أخشى إلا شيئاً واحداً هو الابتعاد عنها. ربما تحت تأثير تهديد أبى الذى لم يغفر لأُمى أنها تحدته بالطلاق ونالت ما أرادت ، أو تحت تأثير هذا الشيء الذى يسمونه الموت مفرق الأحباب ، وكان هذا يرعبنى».

ثم تحدثنا الفنانة إنجي افلاطون عن حياة والدها فى بيته بالمعادى ورحلاتهم معه فى الصحراء الممتدة من المعادى ، وإلى دير سانت كاترين وإلى البحر الأحمر حيث ضمت الرحلة عدداً كبيراً من الأساتذة والمعيدىن والطلاب الذين صاروا فيما بعد شخصيات علمية مرموقة كحامد جوهر ومحمود حافظ. ثم تحكى دون أدنى قلق أو وجل أو استياء قصة الزوجين الثانى والثالث لوالدها:

«كان أبى يسكن فى فيلا جميلة بالمعادى ، كنا أنا وأختى نذهب لزيارته بانتظام. كنت أحبه كثيراً وإن كنا لم نعش معه ، تكونت لنا معه ذكريات حلوة تركت آثارها علىّ ، وأهمها رحلاتنا معه فى الصحراء الممتدة من المعادى ، وكذلك فى المناطق المتاخمة للبحر الأحمر. كان أبى يعشق الرحلات ويهتم بها اهتمام الباحث فى دنيا الحشرات والنبات. وكان لذلك كثير السفريات المليئة بالمخاطر ، وكان من أوائل المصرين الذين ترددوا على واحة سيوة ، واستطاع أن يصل إلى جبل علبة على حدود السودان. ولما أصبح السفر للخارج مستحيلاً بسبب الحرب العالمية الثانية كان أبى يقضى إجازة الصيف فى جبل سيناء فى منطقة دير سانت كاترين ، ولا أنسى صيف عام ١٩٣٥ حين رأس رحلة دراسية إلى مدينة الغردقة على البحر الأحمر لتأسيس أول حوض مائى للأسمك والنباتات المائية. ضمت الرحلة عدداً كبيراً من الأساتذة والمعيدىن والطلاب الذين صاروا فيما بعد شخصيات علمية مرموقة ، أذكر منهم: حامد جوهر ومحمود حافظ. كنا أنا وأختى بولى ضمن من ضمتهم هذه الرحلة الطويلة ، واشتركنا فى رحلات بحرية لصيد الأسماك النادرة والمتوحشة أيضاً فى جزر المرجان وتحت الماء ، وكنت أسجل وأرسم هذه الأسماك العجيبة الساحرة الملونة. وما انتهت الرحلة إلا وقد تركت بيننا ذكريات شائقة ، لكن ذلك لم يستمر كثيراً فى علاقتنا بأبى. كان بعد انفصاله عن أمى قد تزوج من رقية شاكرا بنت خالته وأنجب منها طفلتين توفيت إحدهما وعاشت الثانية (زهرة) ، ثم طلق بنت خالته (رقية شاكرا) التى تزوجت بعده حسين صبحى راعى الحركة الفنية بالإسكندرية ، وعاشت أختى زهرة معها وتزوج أبى بعد ذلك من فرنسية تدعى (ليلى) لم تكن تميل إلى حياة الضواحي فانتقل بها إلى قلب مدينة القاهرة ، وشيئاً فشيئاً تخلى هو أيضاً عن الرحلات الطويلة ، واقتصرت علاقتنا معه بمرور الوقت على زيارة أسبوعية للغداء أو العشاء فى منزله. وظل الحال كذلك حتى وفاته فى مايو ١٩٥٧ بعد مرض قصير. وقد أجمعت الأسرة على إهداء كلية العلوم مجموعة الحشرات النادرة التى جمعها أبى طوال حياته ، وخصصت لها الكلية معرضاً خاصاً يحمل اسمه تخليداً لذكراه».

وغضى مع الفنانة إنجي افلاطون إلى انطباعات مهمة جدا عن المدارس الأجنبية في مصر ينبغي لكل تربوى ولكل صاحب قرار (وصاحبة قرار) أن يطالعها ، ذلك أن الفنانة إنجي افلاطون تلخص لنا خبرتها الحية في هذه المدارس على نحو دقيق ومتبلور تمام التبلور وهي تصف البيئة التعليمية والتربوية في مدرسة القلب المقدس فتقول:

«كانت مدرسة القلب المقدس الكاتبة بحى مصر الجديدة إحدى مدارس «بنات الذوات» التي تديرها الإرساليات الأجنبية ، وكانت مشهورة بالتزمت الشديد ، فهي المدرسة التي تخرج أفضل الفتيات المثاليات فى الطاعة للأسرة والزوج وفى الرضا بكل ما يأتى به القدر للمرأة ، وكانت شهرة فتيات القلب المقدس فى المجتمعات الراقية أنهن الزوجات النموذجيات».

«باختصار كانت المدرسة مشهورة بقدرتها على التهذيب وتكوين الفتاة لتصبح فى الصورة التي يرغبها مجتمع الرجال التقليدى ، وتلك الصورة لم تكن تزيد على المرأة الطيبة والمعتمدة فى حياتها على الرجل ، وكانت خريجات تلك المدرسة يحظين بهذه الشهرة فعلا!».

«أصر أبى على إدخالنا أنا وأختى بولى هذه المدرسة ، لماذا ؟ لأنه - كما أعلن - يخاف أن ننشأ مثل أمنا ونسير على دربها فى الاستقلال والعناد ، وأن نتعود الترف و(الدلال) مثل باقى بنات الذوات».

«كانت الأغلبية بين تلميذات المدرسة من المسيحيات ، وأكثرهن من الأسر القبطية الكبيرة ، وأيضا من الطبقة المتوسطة ذات التطلعات الحادة».

«كن يتفاخرن بالحديث بالفرنسية ، ويتبارين فى ازدراء كل ما هو مصرى أو عربى أو يمت لذلك بأية صلة من قريب أو بعيد. وكانت الفتيات المسلمات أقلية تعد على الأصابع ومقبولات من الأغلبية المسيحية التي تتسامح فى وجودهن ، لكن الصراع كان عنيفاً ضد الأقلية الأخرى من الفتيات اليهوديات ، وكان ذلك من أول الأشياء التي أثارت دهشتى ثم استنكارى فى تلك السن المبكرة».

«كنت سعيدة جدا بوجودي كتلميذة مسلمة في القسم الداخلي ، لأن ذلك يعفيني من عدد ثقيل من الالتزامات التي تقع على المسيحيات والتي أولها الصلوات التي تستهلك وقتا طويلا من النهار والليل بينما يتوفر لنا نحن المسلمات الوقت لمراجعة دروسنا».

(٩)

وتصور الفنانة إنجي أفلاطون كثيرا من الملامح الصعبة لبيئة مدرسة القلب المقدس التي قدر لها أن تقيد للدراسة فيها:

«في الخامسة صباحا ، في البرد القارس ، كان على المسيحيات أن يذهبن يوميا إلى الكنيسة ، وقبل بداية الحصّة الأولى ، وأيضا في المطعم قبل الغداء والعشاء ، كان على المسيحيات أن يصلين لمدة عشر دقائق. أما نحن المسلمات فقليلاً ما فرض علينا أن نستمع خلال درس الخياطة إلى قراءة شيء من الإنجيل أو من تعليقات الراهبات على ما ينتظرنا من عذاب وآلام يوم القيامة مع وصف مفصل لهذا العذاب الذي سيلاقيه غير المسيحي الذاهب بالضرورة إلى جهنم».

«ترسبت في نفسى تلك القصص الرهيبة وسببت لى قلقا فظيعا وتساؤلات كثيرة عن صحة تلك التعليقات. إننا مسلمات ومسيحيات ويهوديات ، كلنا شريكات في كل شيء في الفصل وفي المطعم ، في المدرسة نلبس الزي الموحد ، نلعب معا ، نذاكر معا ، نأكل معا ، وتجمعنا زمالة وصدافة وبراءة الأطفال وأحلام الصبا ، فلماذا يفرقون بيننا هكذا ويخيفوننا بهذه القسوة من عذاب النار؟ إن الكل يحب الله سبحانه وتعالى ويتوجه له بالدعاء ، ويقدم الصدقات التي تطلبها «الأم» لتوزيعها على الفقراء والمساكين».

وتشير الفنانة إنجي أفلاطون إلى بعض المنوعات في هذه المدرسة:

١ - ممنوع النظر في المرأة».

٢ - ممنوع أن تنظر الفتاة إلى جسمها في أثناء الاستحمام ، أو تتبادل الفتيات النظر إلى أجسادهن ، ولا بد أن ترتدى الفتاة جلبابا تحت الماء».

٣ - ممنوع الصداقات بين الفتيات ، وتعاقب بشدة كل من تدخل في علاقة صداقة مع زميلتها ، ولا يجب أن تنفرد واحدة بأخرى».

« ٤ - ممنوع القراءة على انفراد أو اقتناء كتب خاصة ، ومن ثم فالتفتيش مستمر على أشياءنا» .

وترد صاحب المذكرات بقولها :

«هذه نماذج من قائمة الممنوعات فى مدرسة القلب المقدس ذات النظام الصارم ، وكانت مخالفة أى منها تحسب كنقطة سوداء فى سجل الدراسة تؤثر على مجموع التلميذة وترتيبها فى النجاح فى نهاية العام . كانت هناك شرائط تضعها الراهبة المير على صدر التلميذة الطيبة ، شريط بمبى أو أخضر ، والشقية شريط أسود ، والشريط الأسود كان يلاحقنى باستمرار . ورغم اهتمامى بالدراسة نفسها وحبى لها كان دفترى الدراسى يفيض بالنقط السوداء .. ولم أستطع الاستمرار ، أعلنت ثورتى على هذا النظام الصارم فرفضت أولاً لبس الجلباب عند الاستحمام ، وتشبثت بقراءة الروايات ، ووقعت فى يدى رواية «الذئب الأبيض» وأنفردت بقراءتها بشغف فى سربرى . ويوم أن ضبطتنى الراهبة صادرت الكتاب وحدثت ضجة كبرى فى المدرسة ، قدمت لمجلس تأديب قرر لفت نظرى تمهيداً لطردي إذا فعلت مخالفة أخرى» .



وتحرص الفنانة إنجي أفلاطون على أن تتعمق فى تأملها لتلك التجربة التى قدر لها أن تخوضها:

«لقد أردت بعد سنوات طويلة أن أكتشف سر خطورة هذه الرواية فقرأتها من جديد ، أدركت الأسباب العميقة لخطرها ، إنها قصة ذئب حاولت عائلة من المدينة استئناسه ، استخدمت معه شتى الطرق وفشلت ، ظل الذئب مشتاقاً إلى الحرية يحاول أن يعود إلى الغابة ليعيش مع الحيوانات الأخرى ، من هناك أتى ، وهناك يسترد حريته ، الحرية إذن كانت عدوة الراهبات الأولى» .

(١٠)

وتحرص إنجي أفلاطون ، كما رأينا ، على أن تشير إلى أن الفتيات المسلمات كن أقلية تعد على الأصابع وكن مقبولات من الأغلبية المسيحية ولكن الصراع كان عنيفاً ضد الأقلية

الأخرى من الفتيات اليهوديات.. وهذا نقطة مهمة لكل الذين يريدون دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لهذا الوطن وهذا الجيل وبخاصة موقف الشيوعيين من اليهود والحركة اليهودية !!

ثم تصل الفنانة إنجي افلاطون في انتقاد أسلوب التربية في مدرسة القلب المقدس إلى قولها :

«إن النموذج المثالي للتلميذة في مدرسة القلب المقدس كان هو البنت الطيبة سلسلة القيادة ، واستخدمت إدارة المدرسة قائمة الممنوعات لإذابة شخصية البنت تحقيقاً لذلك النموذج ، وفوق هذا سلطت الراهبات كل القسوة على التلميذات لدرجة اعتبار الصداقة بين التلميذات خطراً يفتح الباب للشذوذ والانحراف. إن هذا التأويل وحده لقيمة الصداقة يكشف في الحقيقة عن تركيب عقلي ونفسى من نوع خاص عند الراهبات ، وهو تركيب مليء بالعقد».

هكذا تقرر هذه الفنانة ، ويبدو أنه كان معها بعض الحق أو كثير من الحق.

(١١)

وتعترف الفنانة إنجي افلاطون أنها كرهت هذه المدرسة - القلب المقدس - بكل شعورها ووجدانها واكتشفت فيها نفس النظام غير العادي الذي يفرق بين الأغنياء والفقراء حتى في سلك الرهبنة ، [هكذا تغلب النزعة اليسارية على هذه السيدة حتى وهى تروى فترة تكوينها التى لم تكن قد وعت فيها مثل هذه الأيديولوجيات] وهى تقول فى هذا المعنى:

«من أشد ما أثار دهشتى واشمئزازى أيضاً فى تلك المدرسة التفرقة فى المعاملة بين الراهبات أنفسهن ، كانت هناك «الراهبة الأم» التى تنتمى - قبل دخولها الدير - إلى عالم الأثرياء ، وكانت هناك «الراهبة الأخت» القادمة من عالم الفقراء. تمتعت الراهبة الأم بامتيازات كبيرة ، واحتلت مكانة الحاكم فى قلب المدرسة ، تأمر وتنهى وترتدى ملابس أنيقة ولها أكل نظيف خاص ، والراهبة الأخت هى التى تقوم بالخدمة والأعمال الدون مثل غسيل الأرض ومسح دورات المياه والمطبخ».

«كان بالمدرسة إذن نفس النظام غير العادل الموجود في الخارج ، أعنى في المجتمع الذى سأثور عليه فيما بعد ، نفس الظلم ونفس التفرقة ، لكن هنا تزداد بشاعته إذا فكرنا أن الراهبات جميعاً دخلن الدير للزهد والعبادة لا للتمتع بامتيازات المجتمع المادى خارج الأسوار».

«لقد كرهت بكل شعورى ووجدانى تلك المدرسة. شعرت أنها أقرب إلى السجن. كرهت القيود على حريتى ، والعيون التى ترصد حركاتى وسكناتى ، وتدين كل ما أفعله ، وأدركت لأول مرة ، ولم أكن قد تجاوزت الثانية عشر ربيعاً ، أن التمرد حالة ضرورية للتصدى للظلم الواقع علىّ ، وقررت أن أبدأ ، ومن هنا أستطيع أن أقرر دون فخر ، وأيضاً دون تواضع ، أن التمرد كان السمة التى لازمت حياتى فيما بعد».

«... فى ذلك الوقت كانت أسلحتى ضعيفة ، وتركزت حياتى فى هدف واحد هو إقناع أمى بإخراجى من هذا الجحيم. استخدمت الوسائل العادية ، كما لجأت للتحايل لتحقيق هدفى. أخذت أحكى أمام أصدقاء أمى قصصاً رهيبة عما يجرى خلف أسوار المدرسة ورحت أسأل بسداجة مصطنعة عن معنى بعض الكلمات المستخدمة معنا ، وهى غالباً كلمات من غير اللائق أن تقال أمام أطفال ، وفى النهاية وأنا فى الفصل الرابع ، وكنت على وشك أن يصدر قرار بفصلى نهائياً من المدرسة ، تم إنقاذى نهائياً.. لقد أخرجتنى أمى من المدرسة بعد أن اختلت بها رئيسة الراهبات «الأم بارتلو» وأسرت فى أذنها مشيرة إلى بحذر وقالت:

«ابتك هذه يركبها الشيطان ، إنى أحذرك من أنها قد تصبح عنصراً خطراً فى المجتمع».

(١٢)

وفى المقابل تتحدث الفنانة إنجى أفلاطون ، بعد هذا ، بسعادة واعتزاز عن دراستها فى مدرسة اللىسيه حيث لاقى ما نشدته من حرية السلوك ، وحيث تشبعت بأفكار الفلاسفة الفرنسيين من رجال القرن الثامن عشر ، وحيث أصبحت زعيمة لفرقة «الثورين» فى الفصل:

«انتصرت فى أول معارك حياتى. انتقلت من كابوس الراهبات إلى مدرسة الليسيه الفرنسية ، وكان الفارق كبيراً فى مستوى التعليم بين المدرستين. وصار علىّ أن أبذل مجهوداً مضاعفاً لألحق بالمستوى المرتفع للسنة الثالثة التى بعدها أتقدم لامتحانات الثانوية العامة تمهيداً لدراسة الفلسفة».

«لم يشغل علىّ هذا المجهود غير العادى الذى كان علىّ أن أبذله خاصة فى هذا الجو الجديد من الحرية والمنافسة والانطلاق. لقد وجدت أن الطالبات تقررن أوضاعهن بأنفسهن دون تدخل من الأساتذة أو وصاية من الإدارة. ومن الطريف أن الطالبات القدامى كن يعقدن اختباراً قاسياً وصعباً للطالبة الجديدة وحسب نتيجة هذا الاختبار تحتل الجديدة وضعها المناسب بينهن تحوز الفائزة لقب (Lycenne) ، أى الجديرة بهذه المدرسة، وهو لقب مشرف جداً لأية طالبة ، ولقد فزت أنا باللقب ، باختصار شعرت كما لو كنت سمكة أعيدت طليقة إلى بحرها. كانت هذه أول مرة فى حياتى أجد الفرصة كاملة فى الحركة والسلوك بكامل حريتى بين زميلاتى وعلى قدم المساواة معهن. وتعلمت كيف أجعلهن يحترمننى ويحببننى. كيف أقنعهن بأرائى وأكتسب ثقتهن. وكنت أساءل أليس هذا المجتمع صورة صغيرة مما ينتظرنى فى المستقبل حين أتخرج وأصبح مواطنة صالحة عليها واجبات ولها حقوق ويجب أن تتعلم كيف تدافع عن نفسها؟ وأعجبنى جداً هذا المنطق الذى اتخذته لنفسى».



«أنا أفكر إذأ أنا موجودة»

«فى الفصل الثانى بمدرسة الليسيه تشبعت بأفكار الفلاسفة الفرنسيين من رجال القرن الثامن عشر كتاب ما قبل الثورة الفرنسية ، فولتير وروسو وديدرو وسان سيمون. لقد هزتنى قراءتى للعديد من كتاب الثورة الفرنسية هزة عنيفة وعميقة أثرت على تفكيرى بقوة ، وكان الفصل خلال الدراسة ينقسم إلى فرقتين: فرقة «الثورين» التى أتزعّمهما بحماس ، وفرقة «الملكيين»، وتندلع بيننا المناقشات والحجج ويمتد الحوار المفتوح الخصب مع الأساتذة أنفسهم. كانت هذه مرحلة غنية بحق ، مرحلة التفكير والتساؤلات والشك ، «أنا أفكر إذأ أنا موجود» مقولة فلسفية شهيرة لديكارت صارت بمعناها المباشر شعاراً لى. لقد دخلت فى مرحلة التهام الكتب والآراء والنظريات ، وكان ذلك إيذاناً ببدء انطلاق كامل».

وهكذا تنجح الفنانة إنجي أفلاطون في أن تضع أيدينا בזكاء شديد على العوامل الحاسمة في نشأتها وتربيتها ونشاطها الإنساني أو (السياسي) فيما بعد ، وترجع كل ذلك إلى أسلوب التربية والتعليم ، ولها كل الحق في ذلك حتى وإن كانت قد أرادت بهذا تأصيل نزعاتها اليسارية التي استمرت معها طوال حياتها ، أو وضع الإطار النظري العميق لانجهااتها الفكرية بعد ذلك ، وقد يستطيع ناقد متمكن أو قارئ مقتدر أن يصل إلى عوامل أخرى قادت تحولها الفكري إلى ما اتجهت إليه ، ولكننا لا نستطيع إلا احترام قدرتها على هذا التأصيل الذي قدمت به للقراء نشأتها على هذا النحو الذي يمكن معه لكل قارئ أن يتنبأ بطبيعة حياتها بعد ذلك من فهمه لنشأتها على نحو ما قدمتها.. وهذا في حد ذاته أمر يثير التقدير ، وإن كان يسهل إرجاعه إلى طبيعة «الفنان» في كتابة هذه المذكرات حين يكون على الفنان أن يرسم وبسرعة وفي مرحلة مبكرة إطار الصورة العام ثم يمضي إلى التفاصيل:

«في عام ١٩٣٨ انتقلنا - أنا وأمي وأختي - إلى شقة في شارع شامبليون في قلب القاهرة لا تبعد كثيرا عن مدرسة الليسيه ، لقد قضينا في هذه الشقة سنوات طويلة امتدت حتى عام ١٩٥٧ . في ذلك الوقت كانت صداقاتي قد توثقت جدا مع زميلاتي بمدرسة الليسيه ، وطبعاً وسط الليسيه غير أرستقراطي بل ومختلف كثيرا عن وسط القلب المقدس ، وكنت أبتعد وريداً عن صديقات الطفولة في بيتي الأصلية ، لم تعد همومي هي همومهن ، وازدادت تساؤلاتي عن الفروق بين دنيا الأثرياء ودنيا الفقراء ، بين البذخ المبتذل الذي يعيش فيه الفريق الأول والفقير الذي يغرق فيه الفريق الثاني ، وألح على سؤال كبير: كيف يقبل إنسان عاقل هذا الوضع الظالم؟».

«ازداد هذا السؤال إلحاحاً علىّ مع حضوري عدداً من الحفلات الأرستقراطية الضخمة التي كانت تنظمها الأميرة شويكار ، الزوجة الأولى للملك فؤاد ، التي تزوجت بعد طلاقها من مغامر تركي يدعى إلهامي حسين ، كانت هذه الحفلات تقام في قصر محمد عليّ الكبير بشبرا ، وتجتمع فيه العائلة المالكة ممثلة في بعض الأمراء والأميرات وضباط الحرس الملكي ، والاسائنات الكبيرة مع بناتها اللاتي يبحثن عن أزواج ويتمخطن حول الموائد الحافلة بالماكولات الشهية من كل لون وصنف وهن لابسات الفساتين والجواهر

الجميلة، كانت الأوركسترا تعزف موسيقى الرقص بينما تقف الفتيات فى انتظار من يتقدم من الشباب لاختيار من تراقصه وتلهو معه ، كنت أرى إسرائفاً شديداً فى البذخ فيقابلة غضب وقلق شديد فى نفسى».



ها هى ذى إنجى أفلاطون تتحدث عن حفلات الطبقة الراقية حيث يكون من الممكن لها أن تجتذب عريساً من بين شبان هذه الطبقة ، ولكنها تتحدث عن هؤلاء الشبان بنفور شديد فتقول:

«فأولئك الشباب لم يكونوا يتميزون بغير السطحية فى الفكر مع الاستهتار وعدم المبالاة، شباب يتميز بجهل عتيد ومعظم أفرادهم لم يكملوا تعليمهم اعتماداً على المال والسلطة ، ولكن المال والسلطة والأبهة لا تغنى أبداً عن التعليم والثقافة ، جمال الحياة وبهجتها لا تكتمل إلا بالمعرفة ، وكنت أنا لا أرى إلا التفاهة فى هذا الشباب المظهري البراق ، وكان ينتابنى شعور بالخوف من أن يكون مصيرى أن أعيش حياتى بين هؤلاء الضائعين ، وكنت أحلم بالإنسانية العادلة لسعادة البشر».

وها أنت ذا ياسيدى القارئ تنبهر معى بكل ما فى الفقرة ، ولكنك قد تشاركنى التحفظ على إرداف الحلم وراء هذه الفقرة التى قد لا تحتاج إلى هذا الإرداف!! كأتى أريد أن أقول إن الفقرة كادت تكون أجمل وأوقع وأكثر أثراً بدون هذه الجملة الأخيرة التى تفرض لغة الخطابة على حديث فنى رائع وصل بالفعل إلى ما أثبتناه من تأثير.

ولنقرأ الآن ما أشرنا إليه من انتباهها للحديث الاسترجاعى عن هوايتها المبكرة للفن:

«هويت الرسم منذ طفولتى. وكنت أرسم اسكتشات صغيرة لبعض ما أشاهده فى رحلاتى مع أبى ، وكانت عائلتى على دراية بموهبتى الفنية وتحاول أن توفر لى دروسا فى هذا الميدان ، إلا أن هذه الدروس لم تخرج عن تكبير بعض البطاقات البريدية أو النقل السطحي من الطبيعة ، مما نفرنى منها - من هذه الدروس - وجعلنى أتمرد عليها».

«كانت سعادتى الحقيقية تتحقق حين أرسم القصص الخيالية التى تؤلفها أختى بولى الموهوبة فى الكتابة الأدبية ، وكان الشاعر أحمد راسم زوج خالتى يساعدنا بأن يأخذ قصص أختى ورسوماتى لها وينشرها فى مجلة مصرية تصدر بالفرنسية فيضيف إلى سعادتى افتخارى ، لكن ذلك كله لم يزد على هواية كان يمكن أن تطوى لولا أن القدر كان

يرتب لى لقاء مفاجئا من نوع غريب مع فنان اختلف تماما عن نوعية المدرسين الخصوصيين الذين كانت العائلة تستقدمهم لتعليمى الرسم».

(١٤)

وتحدثنا الفنانة إنجي أفلاطون بعد ذلك عن تعرفها بأستاذها الأول كامل التلمسانى الفنان التشكيلى الطليعى ، واهتمامه بها وتشجيعه لها إلى الحد الذى جعله يشركها فى المعارض الطليعية لجماعة الفن والحرية رغم صغر سنها وكونها لا تزال طالبة فى الليسيه!! وتحدثنا عن أسماء رواد هذه الحركة: رمسيس يونان وفؤاد كامل ومحمود سعيد وألبير قصيرى وجورج حنين:

«كان كامل التلمسانى فنانا تشكيليا طليعيا ، يعد بلا جدال من أبرز فنانى جيل الأربعينيات وأكثرهم جرأة».

«فى ذلك الزمن كان من الصعب أن يعيش الفنان من عائد لوحاته ، فكان التلمسانى كغيره من الفنانين يجد صعوبة مادية فى حياته».

«وكانت إحدى صديقات أمى تعرف الفنان كامل التلمسانى ، عرفت هذه السيدة أنى أحتاج لدروس فى الرسم ، اقترحت على أمى اسم الفنان كامل التلمسانى ، فلما وافقت أمى اتفقت صديقتنا هذه معه على ذلك نظير جنيهين فى الشهر. ولا أنسى ما قاله لى كامل فيما بعد من أنه قبل هذا العمل يائسا من أية نتيجة ، بل واعتبره مضيعة للوقت وتنازلا عن مبادئه ، لأنه لا فائدة يمكن أن ترجى من إحدى بنات البورجوازية الكبيرة التى لاشك ترغب فى تعلم الرسم كما تتعلم الطبخ والحيآكة والبيانو ، أى كنوع من الديكور الضرورى لها. لقد خاب ظن كامل التلمسانى ، وبقدر ما خاب ظنه كان تقدمى وانطلاقى.. لم يكن قد مضى وقت طويل حتى أدركت أن دروس التلمسانى ليست دروسا فى الرسم فقط ، بل نافذة ساحرة على الحياة وعلى مصر الحقيقية. نافذة على المعنى الحقيقى للفن .. الرسم ليس إلا التعبير الصادق عن المجتمع والذات.. هكذا تعلمت من التلمسانى».

«لقد طلب منى نسيان كل القواعد المدرسية الجامدة ، وكانت دروسه محاضرات مفتوحة عن تاريخ الفن والإنسان عبر العصور ، مع إبراز نضال الإنسان من أجل التقدم».

وها هي ذى إنجي أفلاطون تتحول بفضل الرسم أو ترتقى لتجد نفسها كائناً مميزاً بين المثقفين المصريين على حد تعبيرها.. وهي تنتقل بنعومة شديدة إلى صفوف اليسار ، وتحديثنا في مذكراتها عن هذا الانتقال بنعومة أشد:

«انتقلت بالرسم إلى الدخول في دائرة المثقفين المصريين. في ذلك الوقت كان للتحالف بين الاتحاد السوفيتي - الدولة الاشتراكية الوحيدة - وبين الدول الاستعمارية في مواجهة دول المحور أثره في تغيير مجرى الحرب العالمية الثانية ، وأثره في كثير من المثقفين المصريين ، وبالطبع علىّ أنا أيضاً».

وهنا تشير المذكرات في نعومة بالغة إلى بعض الظروف التي هيأت للمصريين الاتصال بالحركة الشيوعية:

«لقد ساعد هذا التحالف على وصول بعض المطبوعات والكتب الماركسية باللغة الإنجليزية إلى القاهرة والإسكندرية لأول مرة ، وهكذا وجد العديد من الشباب المصرى المثقف الفرصة في الاطلاع على المفاهيم العلمية للاشتراكية ، ولقد وقع في يدى بعض من هذه الكتب. كنت أدهش من التحليل العلمى المتكامل الذى تقدمه هذه الكتب ، والنظرة الإنسانية الشاملة لجميع قضايا المجتمع ، الفقر ، والاستغلال الطبقي ، والاستغلال المزدوج للمرأة في المجتمعات الرأسمالية ، وقضايا الاستعمار والتحرر الوطنى .. إلخ. لقد وجدت في هذه الكتب حلولاً حاسمة للقضاء على هذه المشاكل من جذورها وحلولا مبهرة جذابة لفتاة مثلى كانت من الأصل متمردة على طبقتها وزاهدة في رخاوة تلك الطبقة.. فضلا عن أن ذلك كله لم يكن بعيدا عما تعلمته في الفن من كامل التلمساني. وجدت نفسى أقنع وعمق وبصدق بالاشتراكية العلمية وبالعمل الوطنى من أجل تحرير بلادى من وطأة المستعمر وتحكم الإقطاع والطبقة البورجوازية المتعاونة مع المستعمر».

(١٥)

والشاهد أن الفنانة إنجي أفلاطون تجد في حديثها عن بداياتها الفنية مدخلا متميزا وطبيعيا للحديث عن انتماءاتها السياسية وانخراطها في الحركة الشيوعية وتضحيتها في المقابل بما كان متاحا لها من السفر لدراسة الفن في فرنسا:

«لقد زاد في حماسى واقتناعى بالاشتراكية العلمية تركيزها على ارتباط التحرر الوطنى

بالتحرر الاجتماعى ، ونظرتها لقضية تحرير المرأة فى ارتباطها بتحرير المجتمع نفسه. لقد كانت هاتان النقطتان تجذبانى بشكل خاص ، ولا غرابة فى ذلك! فقد كنت أدرس الفلسفة بمدرسة الليسيه ، وأستطيع أن أقول إنه باتخاذى ذلك الموقف الأيديولوجى اكتسبت حياتى بعداً جديداً هو الكفاح السياسى».

«الآن تم انتقالى باختيارى الواعى من معسكر «الأغنياء» إلى معسكر «الفقراء». ماذا عساي أفعل الآن؟ لقد حصلت على شهادة البكالوريا قسم الفلسفة. انتهت مرحلة الدراسة الثانوية ، كان ذلك عام ١٩٤٤ ، وهتفت وداعاً مدرسة الليسيه الفرنسية». «والآن ما العمل؟».



ها هى الفنانة تعبر عن هذا المعنى ، الذى كان لابد لها بالمنطق أن تنتصر له ، وذلك بالانتماء إلى بلدها والدراسة فيه بعيداً عن مغريات الدراسة فى الخارج ، وسوف يدهشنا ، من روايتها ، كيف أنها كانت فى مرحلة مبكرة جداً واعية لهذا المعنى:

«حاولت والدتى إقناعى بالسفر إلى فرنسا لاستكمال دراساتى الفنية ، والالتحاق بإحدى الكليات أو المراسم الفنية المشهورة فى باريس ، وكذلك حاول كل أفراد العائلة. كانوا يضغطون علىّ فى هذا الاتجاه ويستخدمون كل وسائل الإغراء التى أقلها الشهرة التى سوف أكتسبها حين أذهب إلى باريس وأنى موهبتى الفنية».

«لكنى رفضت.. بإصرار وعزم رفضت».

«كان قرارى بالرفض منسجماً مع ما أستعد له من حياة جديدة ، حياة يقسمها النشاط السياسى الاجتماعى إن لم يشغلها لأبعد مدى. لم يكن مقبولاً ولا معقولاً أن أترك مصر وأذهب لعدة سنوات إلى بلاد «الحواجات» وأنا أفكر بكل وجدانى فى عملية تمصير طويلة وقاسية للنفس.. لى شخصياً».

(١٦)

ثم تحدثنا صاحبة هذه المذكرات عن تجربتها المبكرة جداً فى الاستقلال بشخصيتها وقرارها وذلك عن طريق اجتياز تجربة العمل فتقول:

« ... اتساقاً مع تفكيرى واقتناعى ، كان لا بد أن أعمل ، العمل يضمن لى حرية الحركة والاستقلال الاقتصادى ، فاستقرّ فكرى على العمل ورفض السفر ، لكن ذلك لاشك أمر مزعج للعائلة ، رغم أن أمى سبقتنى إليه ، ولجأت إلى أسلوب الحيلة وصولاً لهدفى فادعيت دعوى لا أعرف كيف توصلت إليها وقلت إننى موهوبة جداً فى علم «الكيمياء» ، لذلك عرض علىّ أستاذى فى هذا العلم الدكتور ريمون جابيس العمل معه فى معمل له يملكه فى القاهرة كى يساعدنى على إتمام موهبتى الفذة فى ذلك العلم! صدقتنى أمى وصدقنى جدى لأبى محمد باشا أفلاطون ، الذى كنت أخشى رفضه لكنه كان لطيفاً وواسع الأفق» .

«وبالفعل عملت مع الدكتور جابيس مقابل ستة جنيهاً شهرياً ، كنت أعمل مدة سبع ساعات يومياً فى كتابة نتائج التحاليل على الآلة الكاتبة ، كان عملاً عملاً مرهقاً للغاية ، لكنه مكنتنى من الوصول إلى هدفى . إن مجرد خروجى فى الصباح وعودتى فى المساء وكسبى هذا المبلغ الذى كان تافهاً بالطبع بالنسبة إلى حالتى ، يشعرنى بالحرية والاستقلال ، أستطيع الآن أن أخرج من البيت دون إذن من والدتى ، حصلت إذن على «حقى فى العمل» ، يمكن أيضاً أن أترك معمل جابيس وأبحث عن عمل يناسبنى وحدث فيما بعد أن وجدت استعداداً طيباً لدى مدير مدرسة الليسيه «مسيو جوسار» ، كان الرجل يقدرنى من قبل كتلميذة فعرض علىّ أن أقوم بتدريس الرسم فى فصول الصغار إلى جانب تدريس اللغة الفرنسية ، كان هذا عملاً مناسباً جداً لى» .

«فها أنذا أعود إلى المدرسة التى كانت فيها البداية للحرية والانطلاق . لقد أحببت هذا العمل فلم أتركه إلا بعد أن تزوجت عام ١٩٤٨» .



وتؤكد إنجى أفلاطون على معنى مهم لذاتها وللقرءاء ، وهو أنها من خلال العمل استطاعت تأكيد وطنيتها وانتمائها للوطن ، وهى تؤكد هذا المعنى حيث تقول:

«خلال تلك الفترة كنت أحاول بقوة الاقتراب من هذا الوطن ، الوطن الذى أتمنى إليه ولا أعرفه تماماً بعد ، والذى تقف اللغة حائلاً بينى وبينه . كان إحساسى بهذه المسألة كالطفل الذى بدأ يحبو لا بد أن يأخذ أحد بيده ليساعده . كنت أنا فى حاجة إلى هذا الأحد ، إلى من يقول له بصوت الأم الحنون الدافئ تخطى العتبة» .

ها هي ذى صاحبة هذه المذكرات تبدأ فى الحديث عن ممارسة السياسة على نحو عملى، بل قل إنها تبدأ بالفعل فى ممارسة السياسة .. وهكذا تنجح ، من خلال سرد شيق وتتابع منطقى للأحداث ، فى إقناعنا بأنه كان من الطبيعى والمنطقى أن تنضم إلى منظمة «اسكرا» فى عام ١٩٤٤ وتقول:

«برغم وجود دستور يكفل عدداً من الحريات ، ووجود برلمان وأحزاب وصحافة ، فإن حرية تكوين حزب شيوعى تعتبر جريمة يعاقب عليها القانون بأحكام صارمة تتراوح بين ست وعشر سنوات من السجن والأشغال الشاقة».

«كانت الصورة العامة لمصر وقتئذ أنها مجتمع شبه مستعمر وشبه إقطاعى يتحكم فيه كبار الملاك وكبار الرأسماليين المتعاونين مع قوات الاحتلال ، كان هناك حلف مقدس بين قوات الاحتلال والسرايا والإقطاع لقمع الحركة الوطنية الديمقراطية التى اشتدت بعد الاستقطاب العنيف الذى حدث فى مصر فى الأربعينيات خلال الحرب العالمية فازداد الأغنياء غنى ، وتدهور الفقراء ، وتراجعت الدول الاستعمارية عن وعودها للمستعمرات بالاستقلال».

«كانت الحكومة تعطل الدستور وتعلن الأحكام العرفية تحت أية حجة ، وتفتح المعتقلات وتمنع الاجتماعات ، وتغلق النقابات والهيئات بهدف تحطيم الحركة الشعبية».

«وفى هذا الوقت أيضاً تأسس أكثر من تنظيم شيوعى سرى ، وكنت أنا أبحث تائهة عن أى انتماء ، ذلك ما يتفق مع اقتناعى بالاشتراكية العلمية ، وهو سبيل جهادى فى تحقيق مبادئى».

«وأخذت قرارى بالعمل السرى ، والعمل السرى ليس هو الطريق المختار للأحزاب الشيوعية ، إنما هو الطريق الذى تفرضه عليها البورجوازية ، إذ تمنع أى مظهر من مظاهر النشاط الشيوعى الديمقراطى».

«التنظيمات الشيوعية إذن ممنوعة من مزاوله نشاطها بحكم الصراع بينها وبين البورجوازية الحاكمة التى لا تسمح لها بالحركة فى العلن ، وفى مصر قانون بذلك ؛ كان قرارى بالعمل الثورى قد تم بوعى وبمسئولية ، وكنت أعرف تماماً كل الاحتمالات التى يمكن أن تترتب عليه».

«وهكذا انضمت لمنظمة اسكرا عام ١٩٤٤ .. كنت مندفة متحمسة ، وكان الأمر رغم كل الصعوبات جميلاً ، لقد أخذت موقفي الأيديولوجي وموقفي العملي وبدأت في حياتي فترة من النشاط السياسي الذي هو مزيج من العمل السري الضيق والعمل العلني الجماهيري الواسع .. وشرعت في تعلم اللغة العربية بأقصى سرعة ، فليس أمامي وقت طويل ، العمل السياسي يستغرقني وأنا في أشد الحاجة إلى اللغة. وبهذه المناسبة أتذكر حكاية مع الشاعر فؤاد حداد ، كان قد تطوع ليعلمني العربية ، وفي أحد الدروس عرضت كلمة الهوى وكنت أحسب أنها تعني الهواء وفسرتها بذلك فاندعش الشاعر وقال لي: «الله .. هو أنت ما حبتيش أبدا بالعربي».

(١٨)

وعند هذا الحد من تنامي التجربة الإنسانية نواجه مع الفنانة إنجي أفلاطون ما واجهته من خياراتها المهمة فيما يتعلق بأمرين جوهرين هما: اللغة والجنس.

فها هي هذه الفنانة العظيمة تبدأ في تعلم اللغة العربية ، وهذه صفحات من الكفاح العظيم ، والوطنية الرفيعة لا بد لكل وطني من كل اتجاه أن يقرأها بكل الإمعان وبكل التقدير ، أقول هذا في زمن أصبح كثير من الشبان حتى في الحركات الإسلامية يهتمون باللغة العربية تماماً ويتجاوزون عن دورها.. ولكن إنجي أفلاطون ذات الثقافة الفرنسية لم تقع أبداً في هذا الخطأ لحسن الحظ!!

ولنقرأ هذا الذي ترويه:

«وكان عليّ أن أعتد على قاموس صغير».

«قاموس ملأته أنا بالكلمات التي أسمعها والتي قد أحتاج إليها في المناقشات ، كان بحق قاموساً صغيراً لكنه عندي لا يقدر بثمن ولا يفارقني».

ثم تتحدث عن مشكلة الجنس في المنظمات الشيوعية وكأنها تبرئ هذه المنظمات مما أشيع عنها من حفلات الكوكتيل:

«لم يكن المجتمع الذي نزلت إليه يقبل بالاختلاط بين الجنسين إلا في حدود ضيقة للغاية ، وكان عملنا السياسي سرياً ، فكيف إذن يضم تنظيم سري فتيات وسيدات جنباً

إلى جنب مع الرجال؟ هناك عُقد زملاء أنفسهم ، وهناك عيون المجتمع المتربصة بنا وأبواق الرجعية التي تروج لشائعات كاذبة ومشينة عن الفتيات الماركسيات بهدف تشويه سمعتهن وكفاحهن أمام الرأي العام».

«في تلك الظروف صار من الضروري اتخاذ خطوة جريئة للتغلب على هذه المشكلة التي كانت تهدد التنظيم بالتميع ونحويل أنظاره عن المشاكل السياسية الرئيسية إلى مشاكل جزئية وعاطفية فلجأنا إلى خلق «قسم نسائي» داخل التنظيم يفصل بين الجنسين من القاعدة حتى مستوى القسم ، ثم يعود الأمر طبيعياً في المستويات الأعلى».

«كان ذلك قراراً حكيماً وسليماً لأنه أسهم كثيراً في التغلب على مشاكل التخلف الموروثة والعقد الناتجة عنه ، كما أنه شجع كثيراً من المتزوجات على الانضمام إلى التنظيم حيث لم يعد هناك مبرر لاعتراض الأزواج».

«رأيت أن هذه الخطوة الغريبة في شكلها ضرورة في تلك المرحلة ، وأنه مع تطور ظروف المجتمع المصري وتطور عقلية الرفاق والرفيقات ستزول أسباب هذا الفصل ، وسيتحتم العودة للاختلاط الطبيعي الصحى داخل التنظيم حيث لا تفرقة بين رجال ونساء».

والشاهد أن الفنانة إنجي أفلاطون تولى أهمية لأثر هذه المشكلة على النمو الطبيعي للتنظيمات الشيوعية في ذلك الوقت.

(١٩)

وعلى الرغم من نجاح الفنانة إنجي أفلاطون في مواجهة هاتين المشكلتين فإنها تحدتنا عن مشكلة أخرى واجهتها وهي تمارس نشاطها اليسارى وهي مشكلة الفوارق الطبقيية وهي تلمس هذا الموضوع بذكاء فتقول:

«لكن المشكلة التي أقلقتني بحق كانت الفارق الطبقي الواضح بيني وبين غالبية الرفاق من الجنسين ، هذا الفارق لم يكن واضحاً فقط في المستوى الاقتصادي بل في العادات والتقاليد ، وكان على أن أبذل جهداً جباراً لكي أتكيف مع هذا «العالم الجديد» وأجعله يتق بى ويتقبلنى».

« كان هذا أصعب جزء في عملية التمهيد والتأقلم التي شغلتنى سنوات طويلة ».

« كم كان خجلى من الملابس الغالية التي تملأ دولا ب والدتى صاحبة أكبر وأشيك محل أزياء فى القاهرة «محل صاحلة» الذى هو أشهر من نار على علم ، وكنت أترك جميع الفساتين وأرتدى أبسط وأقدم ما أجده عندى حتى لا تشعر زميلاتى بالفارق ، أو على الأقل حتى ينسين مؤقتاً أننى قادمة من طبقة الأعداء ، والحقيقة أننى أنا نفسى لم أستطع أن أتخلص من هذه العقدة ، عقدة أشبه بعقدة الذنب لفتاة غنية واشتراكية معاً ، لم أتخلص من هذه العقدة إلا بعد زواجى ».

« لقد استطاع زوجى أن يكشف لى خطورة هذا التفكير ويقنعنى بأن انضمامى أو غيرى من أفراد طبقة الأغنياء إلى جبهة الشعب هو فى الحقيقة كسب كبير يجب أن أفخر به ولا أخجل منه ، وأدركت أن الأسباب الحقيقية لتفكيرى الخاطى لا ترجع إلى وحدى ، بل إلى موقف الزملاء والزميلات منى ».

« كانوا أحياناً يشعروننى بأصلى الطبقي ، ويشكون فى مدى إخلاصى وصلابتى وقدرتى على مواصلة الطريق الصعب. كان ذلك يؤلنى كثيراً حتى أنه زرع ثقتى فى نفسى لفترة ليست بالقصيرة ، لكننى فى النهاية جعلت من ذلك تحدياً وترجمته إلى مزيد من الاجتهاد فى سرعة تعلمى اللغة العربية ، أذكر أنه جاء على وقت صرت أتحدث فيه بالعربى فى كل ما يخص مجال العمل السياسى ، لكن تقدمى كان سريعاً لما أخذت أتقل فى مختلف الأحياء الشعبية لحضور الاجتماعات فى بيوت الزميلات واللقاءات فى النوادى السياسية والاجتماعية والرياضية ، استخدمت فى ذلك المواصلات العامة من ترام وأتوبيس ، وخلال هذه التنقلات والاجتماعات فى القاهرة الشعبية النابضة تعرفت حقيقة على زميلاتى وطريقة حياة البيت المصرى البسيط ، وجدت نفسى أقترب من شخصية الإنسان المصرى العادى ».

وتحدثنا الفنانة إنجى أفلاطون فى هذه المذكرات الممتعة عن بعض صور نشاطها فى الأحياء الشعبية واستخدامها للمواصلات العامة من ترام وأتوبيس ، وهى تتحدث عن هذه التجربة بكل سعادة ، بل تصل إلى حدود قصوى فى تأكيد التعبير عن الرضا العميق ، وذلك حيث تقول:

« كان اقتحامى لهذا العالم الجديد يملؤنى سعادة واعتزازاً ، وكنت أشعر بأننى سأصل أخيراً إلى جذورى وأن الدم الذى يجرى فى عروقى هو دم مصرى حقيقى ، صار على أن

أعوض بسرعة السنوات الضائعة من عمري وأتسبع بأقصى ما أستطيع «الشخصية المصرية» التي بها يكون اكتمالي.. هكذا كنت أفكر».

«وهكذا بدأت منذ الزمن البعيد - أعني في عام ١٩٤٤ - رحلتى الشاقة للبحث عن مصر الحقيقية ، وعن هويتي ، وذلك حين انضمت إلى تنظيم إسكرا الشيوعي ، لقد أصبح هذا البحث هو همى السياسى وهمى الفنى أيضا».

«إننى أنظر إلى تلك الأيام بامتنان. امتنان للناس الذين ساعدونى ، وامتنان لهذا الاختيار الذى أعطانى فرصة الاندماج التام مع الوطن والشعب فأصبحت من أكبر عشاقه».

(٢٠)

ونأتى إلى حديث الفنانة إنجي أفلاطون عن قضية المرأة والحركة النسائية فى مصر ، وهى تمزج فى هذا الحديث بين عرض تجربتها الشخصية وبين آرائها اللاحقة فى الهيئات التى مارست النشاط اليسارى ، وفى هذا الصدد تبنى رأيا بصراحة ووضوح فى نشاط ثلاث هيئات عملت فى هذا المجال وهى: الحزب النسائى ، والاتحاد النسائى الذى كانت تزعمه السيدة فاطمة نعمت راشد ، ودار الأبحاث العلمية ، وهى تختص هذه الهيئة الأخيرة ، دوناً عن الآخرين ، بقدر كبير من الاعتزاز وتقول:

«وكانت فى شارع نوبار ، كانت الدار نادياً ثقافياً عادياً فى البداية ، لكنى اكتشفت أنه يمكن تطويره حين تعرفت على شهدى عطية الشافعى وعبدالمعبود الجبيلى ، واللجنة النسائية فى هذه الدار والتى ضمت سعاد بدير وثرى أدهم ولطيفة الزيات».

كما تتحدث صاحبة هذه المذكرات عن «لجنة نشر الثقافة الحديثة» وروادها: أبو سيف يوسف ، وسعيد خيال ، ومصطفى كامل منيب ، وعبدالرحمن الشرقاوى ، ونعمان عاشور. ثم تتحدث بفخر عن تأسيسها مع مجموعة من الفتيات منهن لطيفة الزيات وفاطمة زكى وآسيا النمر وعنايات النيرلى لرابطة فتيات الجامعة والمعاهد المصرية فى منتصف عام ١٩٤٥.

ومن المفيد أن ننقل للقارئ تصور إنجي أفلاطون لهذه الحركات والكيانات النسائية ،

وسنلاحظ بوضوح أن اليسار المصرى كان حريصاً - أشد ما يكون الحرص - على النجاح فى توظيف النشاط النسائى المصرى من أجل تحقيق أهدافه:

«كان السؤال: هل نعمل من خلال هذه الأطر القائمة ، أم نشرع فى تكوين تنظيم جديد؟ كان الحل الأول أسهل بكثير وله ميزات ، كما أنه من الصعب الحصول على تصريح قانونى بتكوين هيئة نسائية جديدة ذات طابع ديمقراطى وأهداف تقدمية واضحة».

«وجدت بالذکر أن عدد النساء التقديمات كان قليلا جدا فى تلك الأيام».

«صحيح أن زميلات كثيرات كن مشتركات فى التنظيمات الشيوعية المختلفة».

«ولكن الحقيقة أن معظم الزميلات كن من الأجانب أو اليهود ، ولا يعرفن اللغة العربية وغرباء على البيئة المصرية».

«كانت مهمتى الأولى الاتصال بالفتاة المصرية والتعرف على الطالبات والمثقفات ومحاولة استقطابهن فى صفوف الحركة التقدمية».

«اتجهت للنوادر الرياضية والثقافية ، انضمت لنادى جمعية الشبان المسيحيين ، ثم ترددت على دار الأبحاث العلمية وكانت فى شارع نوبار ، كانت الدار ناديا ثقافيا عاديا فى البداية ، لكننى اكتشفت أنه يمكن تطويره حين تعرفت على شهدي عطية الشافعى وعبدالمعبود الجبيلى وهما مسئولان عن الدار. لقد لفت نظرى أن كلا منهما كان يحمل فى جيبه على الدوام كتابا من السلسلة التى كانت تصدرها باللغة الإنجليزية دار النشر المعروفة بمكتبة لينين الصغيرة فى لندن».

«وعرفت بعد أن تعاونت معهما أنهما فى الحركة الديمقراطية المصرية إحدى الحركات الشيوعية المصرية ، بينما كنت أنا فى منظمة اسكرا ، وشهدى عطية هو الشهيد الذى توفى تحت التعذيب سنة ١٩٦٠ فى ليماى أبى زعبل. أما الدكتور الجبيلى فهو عالم الذرة المشهور وقد رأس مؤسسة الطاقة الذرية وكان وزير البحث العلمى فى الستينيات ، كذلك تعرفت فى الدار على الدكتور رشدى سعيد عالم الجيولوجيا الذى رأس مؤسسة الجيولوجيا والمناجم».

وتعود إنجى أفلاطون إلى الحديث باعتزاز وحب عن دار الأبحاث العلمية فتقول:

«أصبحت دار الأبحاث العلمية ناديا ثقافيا وسياسيا من الدرجة الأولى».

«فى هذه الدار كانت تلقى فى مساء يوم الأحد من كل أسبوع محاضرة تعقبها مناقشة،

وكان يحضر هذه الاجتماعات جمهور كبير من الشباب الجامعي المتحمس ، وكنا مهتدين دائماً بمنع الاجتماع حيث كان يتواجد بشكل دائم عملاء المباحث العامة (تقصد : القلم السياسي)».

«ومن الطريف أن الدكتور وليم سليمان المدرس في كلية العلوم كان يتولى الإشراف على المحاضرات بالدار ، وكان دائماً يفتتح الندوة أو المحاضرة بقوله إن نشاط الدار ليس سياسياً بل علمياً ، لكن بعد خمس دقائق كنا نفرق في السياسة».

(٢١)

وتورد الفنانة إنجي أفلاطون نبذات سريعة عن مشاركتها في أنشطة بعض الجمعيات اليسارية الأخرى ، ثم تستطرد إلى محاولتها هي وزميلاتها العمل من خلال الجمعيات النسائية الموجودة على الساحة:

«وفي دار الأبحاث تكونت أول لجنة نسائية على مستوى جيد ، وانضم إليها عدد من خيرة الشباب المثقفات منهن سعاد بدير وثريا أدهم ولطيفة الزيات».

«كذلك كنت أتردد على لجنة نشر الثقافة الحديثة بشارع قصر العيني ، وبين الحين والآخر كنت أحضر محاضراتهم الشيقة ، وكانت تلقى في مساء يوم الخميس من كل أسبوع ، وكان من رواد هذه الدار التقدمية أبو سيف يوسف ، وسعيد خيال ، ومصطفى كامل منيب ، وعبدالرحمن الشرقاوى ، ونعمان عاشور».

«في ذلك الوقت بدأنا أنا وبعض الزميلات الماركسيات محاولات جادة للعمل من خلال الجمعيات النسائية الموجودة».

«قمنا بأول محاولة مع الحزب النسائي وفشلت جهودنا في زحزحته عن جموده ، وبدأ واضحاً أنه غير مستعد للدخول في معارك جدية ولا احتضان عناصر شابة جديدة. وحاولت أنا التعامل مع اتحاد بنت النيل لكن بلا فائدة أيضاً. كانت السمة السائدة في الاتحادات النسائية هي الخوف من العناصر الجديدة النشيطة واليسارية بصفة خاصة».

«في ذلك الوقت كانت القوى الاستعمارية والقوى المتحالفة معها تروج بكل قوة الخوف من «بعبع الشيوعية» وترفع شعار مكافحة المبادئ الهادمة وتقصد به الحركة الوطنية

على اختلاف تياراتها السياسية ، سواء كان شباب الوفد أو الحزب الوطنى أو مصر الفتاة أو التنظيمات الشيوعية».

«كانت الرجعية تعمل كل جهدها لإرهاب الناس لإبعادهم عن الكفاح السياسى ، وكان واضحاً أن السيدات الفاضلات المشرفات على الاتحادات النسائية وجدن راحتهن فى رفع نفس الشعارات حتى يبقين فى كراسى الزعامة وينلن رضاء الحكام».

«وهكذا وجدنا أنه لا مفر من تكوين جمعية نسائية مستقلة ذات طابع ديمقراطى جديد نستطيع من خلالها أن نحدد أهدافها وبرامجها وفعلنا ذلك. أخذنا زمام المبادرة ، كان معنا كثير من الفتيات منهن لطيفة الزيات ، وفاطمة زكى ، وآسيا النمر ، وعنايات النيرلى ، وأسميناها «رابطة فتيات الجامعة والمعاهد المصرية» وأعلنا عنها فى منتصف عام ١٩٤٥».

«كم كنا نرغب بحق أن يتضمن اسم الجمعية كلمة «المرأة العاملة» ، لكننا رأينا من الحكمة أن نتفادى هذه الإشارة التى كانت تستفز السلطات حينئذ وقد تكون سببا فى تعطيل الرابطة ومصادرة نشاطها ، وهذا مع عزمنا ألا تقتصر الرابطة على فتيات الجامعة والمعاهد فقط».

«وضعنا برنامجا وحددنا أهدافه وطبعناه فى شكل منشور أنيق ذى ثلاثة ألوان: الأخضر والبنى والأسود ، تضمن البرنامج مطالبنا ، وتضمن نداء للمثقفات وسائر نساء مصر للانضمام إلى الرابطة».

«جاء فى النداء أن رابطة فتيات الجامعة والمعاهد تتيح لك أن تترجمى أقوالك أفعالا ، وإيمانك أعمالا ، فهى تعمل والحرية هدفها ، والإخلاص شعارها ، فهلا انضمت إلى فتيات الجامعة والمعاهد؟ تعالى معنا نحقق للمرأة أهدافها وحقوقها ، تعالى نحقق مع العاملين لمصر حريتها واستقلالها».

«كما تضمن البرنامج «القسم العظيم» ، قسم أعضاء الجمعية للدفاع عن حقوق المرأة الاقتصادية والسياسية والقانونية والاجتماعية وهذا نص القسم:

«نحن نساء مصر نقسم قسما مقدسا على الكفاح المستمر بمختلف أشكاله حتى نقضى على الرجعية والاستعمار قضاء تاما ، وحتى تعم بلادنا ديمقراطية حقيقية».

«لقد استقبلت الصحافة المصرية إعلان تكوين الرابطة استقبالا حارا ومتحمسا إلى أقصى حد ، ولم يكن يمضى أسبوع دون أن تحوى الصحف خبرا أو مقالة أو تحقيقا صحفيا

عن الرابطة ونشاطها المكثف ، بل إن جريدة الشعلة جعلت عنوان عددها الصادر فى ٢٦ مارس ١٩٤٦ هو:

«إننا نطالب بالحرية لمصر وللمرأة المصرية .. برنامج رابطة فتيات الجامعة والمعاهد المصرية».

«لقد أعلننا الرابطة إذن دون انتظار ترخيص بذلك وأعطيناها صفة «المؤقتة» حتى يكون لها وضع قانونى وجعلنا لها عنوانا مؤقتا هو:
«الآنسة إنجي أفلاطون - ١٤ شارع شامبليون - القاهرة».

(٢٢)

وفى مواضع أخرى تخصص إنجي أفلاطون فقرات كثيرة للحديث بالتفصيل عن «اللجنة التحضيرية لأنصار السلام» وبيانها الذى وقع عليه كل من: يوسف حلمى المحامى ، وسعد كامل ، وسيزا نبراوى ، والدكتور محمد صبرى السوربونى ، وحفنى باشا محمود ، وكامل البندارى باشا ، ومحمد على عامر ، وعزيز فهمى ، وصدى هذا البيان فى المجتمع المصرى.

ثم تفرص الفنانة إنجي أفلاطون على أن تروى للقراء قصة إصدار مجلة «الكاتب» وقصة إصدارها كتابها الثالث «السلام والجلء» ، ثم المشاركة فى مؤتمر السلام العالمى فى فيينا ، ومظاهرة يوم الشهداء والكفاح المسلح فى القناة فى ١٩٥١ .

كما تورد صاحبة المذكرات قصة تأسيس لجنة شبابات الاتحاد النسائى التى ضمت ليليان أرقش وزينب عزت وجميلة كامل وحكمت الغزالى!! ثم تكوين اللجنة النسائية الشعبية التى ضمت إنجي رشدى وسعاد منسى وعائدة نصر ولولا فهمى وعائدة فهمى.. ثم سفرها مندوبة عن اللجنة إلى الإسماعيلية مع حواء إدريس وحكمت الغزالى ، وهى تفرص على التعبير عن امتنانها وتقديرها لقرار حكومة حزب الوفد بتعيين جميع العمال الذين امتنعوا عن العمل فى معسكرات الإنجليز!!

وتروى إنجي أفلاطون قصة انسحاب فاطمة نعمت راشد رئيسة الحزب النسائى المصرى من لجنة المقاومة وانضمامها إلى درية شفيق رئيسة اتحاد بنت النيل وتكوينهما معاً جبهة

سيدات مصر ، ونحن نلاحظ أن هاتين السيدتين دون غيرهما تحظيان بالانتقاد من إنجي أفلاطون فى مواضع كثيرة من هذه المذكرات .

وتذكرنا الفنانة إنجي أفلاطون باستنكار البيان الذى أصدرته درية شفيق فى ١٩٥٦ وقرارها الإضراب عن الطعام حتى الموت ، ثم إنهاها الإضراب بعد ٤٨ ساعة (ص ١٧١).



وتورد إنجي أفلاطون فى هذه المذكرات قصة المظاهرة التى اشتركت فى تنظيمها فى ١٤ نوفمبر ١٩٥١ فى ذكرى يوم الشهداء ، ودور جماعة «صوت الفن» فى تنظيم هذه المظاهرة ، وقد ضمت هذه الجماعة جمال السجيني ، وزوجته هدى ، وراجى عنایت ، وزينب عبدالحميد ، وعز الدين حمودة وآخرين .

(٢٣)

بالإضافة إلى كل هذا فإن إنجي أفلاطون لا تغفل الحديث عن ملامح ما يمكن تسميته: تجربتها الدولية فى مجال النشاط النسائى العالمى ، وهى حريصة على أن تصور طبيعة استقبال البوليس المصرى لها بعد عودتها من المشاركة فى المؤتمر الدولى ، وكان الاستقبال الطبيعى هو القبض عليها!! وهكذا أصبح اسمها منذ ديسمبر ١٩٤٥ على القائمة السوداء وأصبح لها ملف فى القلم السياسى .

وتروى الفنانة إنجي أفلاطون بإعجاب كيف تطوع الأستاذ محمد زهير جرانة المحامى [الوفدى] للدفاع عنها ورفع قضية مستعجلة ضد الحكومة «فليس من حقها مصادرة كتب لا يوجد قانون يمنع تداولها.. وحدث ما لم يتكرر فى السنين التالية ، أعاد لى زهير جرانة جميع الكتب والمطبوعات التى صودرت» ، ولنطالع قصة هذا الكفاح اللذيذ:

«كان أول نشاط هام تقوم به الرابطة هو قرارها بإرسال مندوبات عنها إلى أول مؤتمر نسائى عالمى يقام بعد الحرب ، وهو المؤتمر الذى افتتح فى باريس يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩٤٥» .

«لقد علمنا بأسماء النساء القائمات على التحضير للمؤتمر وعرفنا أنهن من أبرز والمع

الشخصيات النسائية من بطلات النضال ضد الفاشية والنازية ، كما عرفنا أهداف المؤتمر التي تركزت على كراهية الفاشية والاستعمار وجميع صور الاستبداد إلى جانب المطالبة بحقوق المرأة كاملة والدفاع عن السلام العالمى والحيلولة دون وقوع حرب عالمية جديدة».

«لهذا كله تحمسنا لفكرة الاشتراك وقررت الرابطة إرسال ثلاثة من عضواتها هن:

«سعاد كامل .. خريجة كلية العلوم».

«صفية فاضل .. ربة بيت».

«وأنا».

ثم انضمت إلينا الصحفية سعاد زهير زوجة الصحفى فتحى الرملى».

«جمعنا التبرعات لتغطية بعض تكاليف الرحلة ، وسافرت سعاد كامل وصفية فاضل عن طريق البحر بينما سافرت أنا على أول طائرة مدنية تقوم من القاهرة إلى باريس بعد الحرب».

(٢٤)

وتقدم الفنانة إنجي أفلاطون بعض التفاصيل الطريفة عن رحلتها إلى باريس بالطائرة، وهى الرحلة التى استغرقت ثلاثة أيام ، وقد زاملتها فيها السيدة سعاد زهير والدة الأستاذ لينين الرملى ، وكانت السيدة سعاد زهير تناجى ابنها فى أثناء الرحلة لأنها تركته وهو رضيع فيظنها الناس تترحم على الزعيم الشيوعى لينين وكان قد مات منذ سنوات عدة:

«فى الطائرة وجدت سعاد زهير ، وكان ذلك مفاجأة سارة لى ، لكن المفاجأة الكبرى لنا معا هى الطائرة نفسها».

«كانت بدائية إلى أقصى درجة حتى أنها قطعت الرحلة من مصر إلى مارسيليا فى ثلاثة أيام وليال. كانت لا تستطيع الطيران أكثر من ساعتين ثم تهبط إلى الأرض للراحة ثم تنهض من جديد».

«لقد قضينا أول ليلة فى معسكر بريطانى فى الصحراء الغربية ونمنا فى خيامه ، أما الليلة الثانية فقضيتها فى تونس ، وفى الليلة الثالثة كنا فى مارسيليا».

«أخيراً وصلنا فرنسا بعد رحلة المفاجآت ، ومن طرائف الرحلة أن سعاد زهير كانت دائمة التأوه بسبب هذا السفر مع أنها جاهدت لكي تسافر ، كانت سعاد قد وضعت طفلها حديثا وتركته بالقاهرة وكان لبن الأم عندها حاضرا لدرجة أنها كانت تضطر لتصفيته من وقت لآخر، ولهذا كانت تندب حظ رضيعها لأن لبنها ينسكب بعيدا عن فمه».

«كانت تردد فى أسى بالغ قولها يا عينى يالينين.. يا ضنايا يالينين».

«واحتار ركاب الطائرة من الأجانب وارتسمت على وجوههم علامات الدهشة والتساؤل ، [فسنوات عديدة كانت قد] مضت على وفاة لينين ولا زالت هذه السيدة تندبه .. السيدة ليست طبيعية ولاشك ، من أين لهم أن يعلموا أنها تتذكر رضيعها لينين الرملى الكاتب الروائى المشهور [بعد ذلك]».

«ومن الطرائف التى لا تنسى أيضا أن صديقة لوالدتى وهى لطيفة فاضل انتهزت فرصة المؤتمر للحصول على تأشيرة دخول لفرنسا لأن الحصول عليها كان صعبا فى ذلك الوقت ، لم يكن للسيدة لطيفة فاضل علاقة بالعمل السياسى ولم ترد على بالها أبدا فكرة حضور المؤتمر. كانت ذاهبة لفرنسا لتقابل يوغوسلافيا منشقا ربط الحب بينهما ، وبالفعل تزوجته فى هذه الرحلة ، فلما عادت لمصر اعتبرتها مباحث أمن الدولة [تقصد: القلم السياسى من الخطيرات باعتبارها كانت عضوا فى المؤتمر مع أنها لم تشاهده بعينها ، وقد عانت لطيفة فاضل من ذلك كثيرا وظلت تلعن اليوم الذى سافرت فيه معنا إلى باريس».

«وأخيرا كنا متلهفين على الوصول لباريس».

«فلم نقض الليلة فى مارسيليا بل قررت أنا وسعاد زهير ألا ننتظر قيام الطائرة وفضلنا ركوب قطار مارسيليا - باريس لنضمن الوصول فى الصباح الباكر. كانت رحلتنا بحق صعبة طويلة ، لكننا وصلنا ، وكانت المفاجأة الأخيرة أننا وجدنا فى باريس سعاد كامل وصفية فاضل اللتين سافرتا بالباخرة!! سبقت السفينة الطائرة فتأمل!!».

(٢٥)

وفى موضع آخر من المذكرات تتحدث الفنانة إنجي أفلاطون عن مشاركتها فى أول مؤتمر عالمى للطلبة فى براغ ، وعن حملة الحكومة فى ١٠ يوليو لإنشال الحركة الوطنية

حيث تم اعتقال ٣٠٠ من خيرة المناضلين الوطنيين ، وتحرص صاحبة المذكرات على إثبات المفارقة التي حدثت من مشاركة إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء فى وداعهم ثم أمره القاضى بتشميمه بيتهم:

«فى يونيو عام ١٩٤٦ سافرت مع والدتى بالباخرة إلى فرنسا ، كان هدف أُمى من الرحلة زيارة بيوت الأزياء المشهورة فى باريس ، وكذلك تفضية فترة من الراحة والاستجمام مع أختها (خالتي) إنجى ، أما أنا فكانت باريس بالنسبة لى محطة على الطريق ، كنت ذاهبة أصلا إلى براغ لحضور أول مؤتمر عالمى للطلبة بعد الحرب العالمية.»

«على الرصيف فى ميناء الإسكندرية ، ودعنا عدد من أصدقاء العائلة ومنهم إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء.»

«وقد علمت وأنا فى باريس - قبل سفرى لبراغ - بحملة الاعتقالات الواسعة لمعارضى مشروع معاهدة صدقى - بيفن. كان ضمن المعتقلين وفد الطلبة الذى كان من المقرر أن يلحق بى فى براغ لحضور المؤتمر معى.»

«جمال غالى ممثلا لنادى الطلاب المصريين ، وعبد الرؤف أبو علم عن شباب حزب الوفد ، وكمال شعبان.»

«كذلك وصلتنا من القاهرة برقية تقول لوالدتى إن بيتنا قد داهمته المباحث وأن بابہ ختم بالشمع الأحمر.»

«كانت هذه البرقية مفاجأة قاسية لأُمى ، مهما قلت فلا أستطيع وصف الغضب الذى استولى عليها. كان غضبها أولا ضدى لأنى أنا السبب.. وكان غضبها أيضا ضد صدقى باشا. فكانت تردد القول: يودعنا فى المينا وبعدين يشمع بيتنا!»

«وعلى العموم لم تكن هذه الحملة مفاجأة كبيرة لنا ، أقصد اليسار.»

«كان الزميل جمال غالى ضمن المعتقلين كما سبق القول ، فلما افرج عنه كان جواز سفره جاهزا عنده لحسن الحظ ، فتوجه للمطار وسافر قبل أن تتسبب المباحث وتمنعه من السفر ، وصل جمال إلى براغ فكانت مفاجأة جميلة.»

«لكن الحكومة لم تسكت عن وجودنا فى براغ ، وتصرفت بغباء عجيب.»

«أرسلت السفارة المصرية فى براغ إلى هيئة المؤتمر رسالة تحذير من وجود شاب وفتاة

من مصر وهما خارجان على القانون ومطلوب القبض عليهما في مصر ، لذلك فهما لا يمثلان أبدا الحركة الطلابية المصرية ، وقد سجلت رسالة السفارة أوصاف الفتى والفتاة ، الطول ولون الشعر والعينين والوجه .. إلخ. بالضبط كنشرة المجرم المطلوب القبض عليه ، وكان رد المؤتمر رائعا بالطبع ، تلت هيئة المكتب رسالة السفارة في المؤتمر ورفض المؤتمر هذه الرسالة واستنكرها بشدة ، واستقبلنا أنا وجمال استقبال الأبطال».

«وقبل أن ينتهى المؤتمر من أعماله قالت وكالات الأنباء: إن الحكومة المصرية أصدرت مرسوما بقانون يحظر على المصريين الاشتراك فى أى مؤتمر دولى بدون إذن الحكومة ، وقد قررنا تفاديا للمشاكل عند عودتنا لمصر ، ألا نوقع رسميا على قرارات المؤتمر ، طبعاً كان المؤتمر يعرف حقيقة موقفنا ويقدر ظروفنا ، وقد أحاطنا بالتشجيع والتأييد العظيم».

(٢٦)

وفى فقرات عديدة من هذه المذكرات تحدثنا إنجى أفلاطون عن مشاركتها فى العام التالى فى مهرجان الشباب الدولى (يوليو ١٩٤٧) ونشاطها فى هذا المهرجان حيث تقول:
«نشرت جريدة المصرى يوم ٢٦ يونيو ١٩٤٧ ما يلى:

«كانت الأنسة إنجى أفلاطون عضو الاتحاد النسائى الدولى الديمقراطى تعتزم السفر إلى براغ لحضور مهرجان الشباب الدولى الذى سيقام فيها ويحضره الآلاف من شباب دول العالم أجمع وهدفهم هو تقوية أواصر الصداقة والمحبة بينهم ، وتقوية روابط الثقافة ، والقيام ببعض المباريات الرياضية ، لكنها فوجئت اليوم بمنعها من السفر وهى تهم بركوب الطائرة التى تغادر مصر إلى باريس ، وبسحب رجال البوليس جواز سفرها دون أى مسوغ قانونى».

«وكانت والدتى مسافرة معى على نفس الطائرة إلى باريس ، فلما منعت أرادت أمى أن تبقى فى مصر وتلغى السفر ، لكنى أصررت على ضرورة سفرها ، وأقنعتها بأبنى سألحق بها بعد أيام لأن إجراء منعى هو إجراء تعسفى على خلاف القانون».

«سافرت أمى ومعها حقائبي حيث تركتها بالطائرة ، توجهت على الفور إلى جرائد الوفد والمعارضة الديمقراطية حيث قدمت الاحتجاج الشديد على هذا الاعتداء على الحريات الدستورية. وفى صباح اليوم التالى امتلأت عناوين هذه الصحف باتهامات خطيرة

للحكومة ، مثل: أسبوع حافل ، الحرية فى خطر.. البوليس يمنع أنسة مصرية من السفر إلى الخارج.. إلى متى يستمر الاعتداء على الدستور؟».

«ونتيجة لهذه الحملة الصحفية على حكومة النقراشى باشا ، اتصل بى كثيرون من المحامين متطوعين للمرافعة عنى انتصارا للحرية ، فى القضية التى قررت رفعها ضد الحكومة بصفة مستعجلة مطالبة بحقى فى السفر ، وكذلك فى القضية الموضوعية مطالبة بالتعويض عن الأضرار المادية والمعنوية التى تسببت عن هذا المنع من السفر».

«وفعلا ترفع عنى متطوعا بلا أتعاب المحامى الوفدى الكبير المرحوم الدكتور حامد زكى ، أما محامى الحكومة فكان الأستاذ عبدالحليم الجندى الذى أصبح فيما بعد رئيس إدارة قضايا الحكومة ، وقد جعل عنوان مرافعته ومذكرته «إنجى أفلاطون.. براغ ودائما براغ». ومن الطريف أنه حدث قبيل صدور الحكم فى القضية المستعجلة أن اتصلت بى وزارة الداخلية وأخبرتنى أن وزير الداخلية يرغب فى مقابلتى ، وحددت لى ميعاد المقابلة ، فتوجهت فى الميعاد لمكتب الوزير ومعى الدكتور حامد زكى الذى شجعنى على المقابلة ، وانتظرنى فى الخارج ودخلت أنا مكتب الوزير ، معالى محمد رفعت باشا ، كان على مكتبه ملف ضخيم ، أشار الوزير إليه ضاحكا وقال: هل تعلمين ما يحتويه هذا الملف؟ إنه ملفك ويضم كل شىء عن نشاطك السياسى منذ بداية نشاطك الشيوعى الهدام!!».

[نتوقف هنا لنشير إلى أن النقراشى باشا كان يجمع بين رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية، ولكن كان هناك وكيل الوزارة العتيد حسن رفعت باشا ، الذى ربما كان هو المقصود بحديث الفنانة إنجى أفلاطون ، وإن كانت قد أخطأت فى اسمه كما أخطأت فى اسم منصبه].

«وفى النهاية أعاد إلى جواز سفرى وسمح لى بالسفر ، كان يعلم طبعاً أن قضيتى المستعجلة مضمونة الكسب وقد انتهت ، أما قضية التعويض فاستمرت وصدر الحكم لصالحى فى النهاية».

(٢٧)

وتحدث إنجى أفلاطون فى هذه المذكرات بالتفصيل عن جهدها البارز فى أول مؤتمر جماهيرى تولت تنظيمه سنة ١٩٤٦ وكيف استطاعت الحصول على تصريح بإقامته ، ولم يكن سلاحها حسب روايتها إلا حسن الحظ:

«... ولكن في مساء الخميس ٢٨ فبراير ١٩٤٦ ، وقبل انعقاد المؤتمر بساعتين فقط صدرت الأوامر من وزارة الداخلية بمنع المؤتمر ، وطوقت قوات البوليس مبنى الليسيه لمنع الجمهور من الدخول».

«امتلاً شارع الحوياتي الذي به الباب الرئيسى لمدرسة الليسيه بالفتيات والنساء ، جمهور غفير أتى لحضور الاجتماع وأصبح الموقف حرجاً».

«استسلامنا يعنى فشلنا فى أول تجربة وفقدنا لهذا الجمهور المتحمس الذى يربو على المئات .. لكن كيف نتحدى قوات البوليس وأمر المنع؟».

«خطرت فى ذهنى فكرة جهنمية هى اللجوء إلى السيد إبراهيم رشيد زوج إحدى بنات صدقى باشا ومدير مكتبه فى نفس الوقت ، الذى تربطه بنا علاقة صداقة طيبة ، وبسرعة وبعد الاتفاق مع الزميلات نبهنا الجمهور النسائى المحتشد ألا يتحرك لأن تصريحنا بالاجتماع سياتى ، وأخذت سيارة توجهت إلى وزارة الداخلية حيث قابلت السيد إبراهيم رشيد الذى لحسن الحظ لم يكن يعرف عن نشاطى شيئاً».

«كان يعرف فقط أننى «إنجى» ابنة «صالحه» وحصلت منه على التصريح المطلوب».

«وظل بعد ذلك زمناً طويلاً غاضباً منى بسبب ما لحق به وما سمعه نتيجة إعطائه هذا التصريح».

«لقد عدت بالتصريح طائرة من الفرح ورأيت الشارع مسدوداً من كل ناحية بمئات من النساء والفتيات تحيطهن قوات البوليس».

«رفعت التصريح فى يدى معلنة حصولنا على إذن بالاجتماع ، وانسحبت القوة البوليسية واندفعت النساء والفتيات إلى داخل القاعة».

يجدر بنا هنا أن نشير إلى ما لم تشر إليه السيدة إنجى أفلاطون فى مذكراتها فى هذا الموضوع ، وهو أن إبراهيم رشيد هو والد اليسارية النشطة الدكتورة أمينة رشيد.

(٢٨)

ووسط كل هذه الأحاديث المشيرة أو الطريفة عن الأنشطة السياسية تأتى قصة زواجها من زميلها فى النشاط اليسارى حمدى أبو العلا ، وهى تحدثنا عن زوجها وعن زواجها

فى بساطة وحب وودون مقدمات ضخمة أو حديث عن صراع نفسى أو اجتماعى وهى تروى كيف تعرفت بزوجها وكيف أحست بالاقتراب منه:

«... فى البيت وجدت نفسى وحيدة ، أمى كانت قد سافرت للخارج ، وتذكرت أنى مدعوة هذه الليلة لحضور حفل زفاف محمود النبوى أحد زملائنا ورئيس تحرير مجلة الجماهير. قررت الذهاب ، قلت لعل هذا يرفع روحى المعنوية بعد إحباط الصباح ، ذهبت لحفل الزفاف ، كنت أعرف أننى سأقابل عددا كبيرا من الأصدقاء والزملاء ، وهذا ما حدث ، لكن القدر شاء أن تتميز تلك الليلة عن باقى ليالى العمر كله ، فقد فوجئت بالزميل على الشلقانى يقدم لى شاباً طويلاً وسيماً قمحى اللون وأخضر العينين. قدمه باعتباره صديقاً وزمياً له فى الدراسة».

«وفوجئت بهذا الشاب يحدثنى فى اهتمام بالغ وينظر إلىّ بإعجاب واضح ، والحق أنى شعرت أيضاً نحوه بالإعجاب من أول نظرة ، وبأن شيئاً ما يجذبنى نحوه ، ولكن سرعان ما تبدد الأمل وطارت الأحلام لأن هذا الشاب وكيل نيابة ، هل هذا معقول؟».

«أعجب بى وأنا على رأس القائمة السوداء ومن صميم عمله حبس أمثالى ، ولاحظ على الشلقانى شعورى نحو صديقه وكيل النيابة فأسرع يؤكد لى أنه من العناصر الوطنية الممتازة ، بل هو أكثر من ذلك ، إنه من الماركسيين الملتزمين ، والضرورة تقتضى إخفاء ذلك ، واستطاع الشلقانى إزالة مخاوفى ووجدت نفسى بسرعة أبحث فى ذهنى عن حجة أو فرصة أغتتمها لأقابه مرة أخرى ، وجاءت الحجة من ناحيته كأنه كان يفكر بنفس طريقي ، فاترح أن يعطينى بعض الدروس فى اللغة العربية».

«تمت أول مقابلة بيننا فى محل الشاي «لوك» بشارع سليمان ، تكلمنا فى كل شىء إلا دروس اللغة العربية ، فتح كل منا قلبه للآخر بسرعة شديدة ونما بيننا تفاهم كبير ، فكنا شأن أى محبين نمضى ساعات وساعات دون أن نشعر بزمان أو مكان ، أعتقد - وهذا حقيقى - أنى أحببت حمدى منذ أول لحظة تعرفت عليه فيها ، وبعد تعرفى عليه تعمقت العلاقة بيننا إنسانياً وفكرياً وسياسياً ، وتأكد إعجابى له وحبى له ، وأدركت أنه الإنسان الذى أحب أن يشاركنى وأشاركة الطريق الصعب الذى اخترته ، وأنه الرجل الذى يمكن أن تكون رحلته معى مصدر سعادتى ، ولكن لم يكن ممكناً أن نتزوج بسهولة».

«ولابد أن أذكر أننى لم أجد صعوبة فى إقناع أسرته باختيارى حمدى زوجاً ، لقد

اطمأنت أُمى لأنه مسلم ومصرى ووكيل نيابة أيضا ، وعندها أن هذا يعنى أنه بعيد عن السياسة ، ولم يضايقها أنه ليس غنياً ولا هو من ذوى الأملاك ، فقد فرحت أُمى بالخبر لأنها وجدت فى حمدى الاطمئنان على مسقبلى والأمل فى إنقاذى من الغرق فى بحر السياسة ، كما أنها من ناحية أخرى كانت لا تستطيع أن تعترض لأنها تعرف أنه لا شىء يجعلنى أغير قرارا اتخذته بمحض إرادتى . طلبت أُمى منى أن أخبر والدى وحين سألتنى : «هو ابن مين؟» .

«قلت له متحدية: «ماهو ابن حد» ، وكنت أقصد أنه ليس ابن بك ولا ابن باشا ، وقلت إنه كان الأول على دفعته بالكلية ، وأنه إنسان ممتاز يكسب رزقه بعمله ، والمستقبل مفتوح أمامه ، وتردد أبى قليلا متأملا هذا الخبر ، ثم استسلم وبارك قرارى» .

(٢٩)

ثم تروى الفنانة إنجى أفلاطون قصة لقاء لها بالمصادفة مع خطيبها فى مقر نيابة الصحافة حيث كان يعمل ، ومن الطريف أنه كان قد تركها فى الليل قبل أن يعرف أن رجال الأمن قد داهموا بيتها بعد أن تركها ، ومن ثم فلم تكن لديه فكرة عن حضورها فى ذلك الصباح ، ونحن نرى تصوير إنجى أفلاطون لموقفها وموقف خطيبها وموقف وكيل النيابة الآخر ، وهو تصوير يكاد يقطر فكاها وظرفا :

«قضينا أنا وحمدى شهرين جميلين نتقابل فيهما سرا ، ومنتزه سرا حتى لا ينتشر خبر خطوبتنا ، لكن كادت هذه الخطة كلها تفسد فجأة وأين؟ فى مبنى النيابة نفسه» .

«كنا ذهبنا إلى السينما ، وبعد انتهاء الحفلة أوصلنى حمدى إلى باب العمارة التى أسكن فيها ، صعدت إلى شقتنا فوجدت رجال المباحث العامة (تقصد: مسئولى الأمن السياسى) ومعهم أمر بالتفتيش ، وطلبوا منى أن أتوجه إلى نقطة بوليس «كوتسيكا» لأقابل وكيل النيابة ، ذهبت فلم أجد وكيل النيابة حيث كانت الساعة الثالثة صباحا ، عدت إلى البيت بعد أن اتصلت به تليفونياً من النقطة ، ووعده بالخضور فى الصباح إلى النيابة فى باب الخلق» .

«كان من حسن الحظ فى تلك الليلة أن والدتى لم تعرف شيئا عن التفتيش ، فلم تكن

فى البيت ، كانت تحضر زفاف بنت حسين سرى باشا ، لقد كنت أنا مدعوة لكنى فضلت عدم الذهاب ، وكانت المباحث العامة على وشك الذهاب إلى الحفلة للقبض على لولا أن الخادمة أقتعتهم بأننى لست هناك ، بل فى الخارج وسوف أعود قبل أمى ، فأنتظرونى.. إننى أتصور شكل الفضيحة التى كانت ستحدث لو ذهب رجال المباحث إلى حفل زفاف ابنة حسين سرى باشا وأتخيل شكل أمى ، أليس ما حدث إذاً كان من حسن الحظ!!»

«فى العاشرة من صباح اليوم التالى ذهبت إلى مبنى نيابة الصحافة ، كان الأستاذ مختار قطب هو المكلف بالتحقيق معى ومواجهتى بتهمة «الاشتراك بالعضوية فى منظمة دولية دون إذن الحكومة» ، كانت عقوبة هذه الجريمة الحبس ثلاثة أشهر وغرامة مائة جنيه ، اعترفت بالتهمة قائلة: «نعم أنا عضوة الاتحاد النسائى الدولى الديمقراطى وفخورة بهذه العضوية».

«فدخول السجن شرف لى إذا كان للدفاع عن حقوق المرأة».

«ضحك الأستاذ مختار قطب ووجد أنه لا مفر من الإفراج عنى وحفظ القضية ، فى ذلك الوقت دخل حمدى الحجرة لأمر ما يتعلق بعمله ، وفوجئ بى جالسة أمام مختار ، لقد تركنى أمس ليلاً ولم يعرف ما حدث بعد ذلك ، تغلب هو على ذهوله وحاولت بدورى مساعدته حتى لا يظهر سرنا أمام زملائه ، فأعطيته ظهري وأنا أكاد أنفجر من الضحك المكتوم ، توجه حمدى إلى الأستاذ زميله وسأله: «من هذه الفتاة؟ وما هى حكايتها؟» فأجابته بدهشة: «يا.. أنت ما تعرفش.. دى إنجى أفلاطون الشيوعية المعروفة» ، ثم قال: «لا شىء ضدها.. وستكون فى بيتها بعد قليل».

«يا أخى كل هذا كلام فارغ».

«اطمأن حمدى وترك النيابة متوجهاً إلى منزلنا لينتظرنى».

«كان وكلاء نيابة الصحافة فى ذلك الوقت هم: جمال العطفى ومختار قطب وأنور حبيب».

وتعلق إنجى أفلاطون بما يزيد من عمق المفارقات فى هذا الموقف فتقول:

«وكم كانت دهشة المحقق الأستاذ أنور حبيب فيما بعد حين بلغه بعد شهرين فقط من هذه القضية نبأ زواجى من حمدى ودعوته لحفل زفافنا».

ثم تستطرد إنجى أفلاطون لتشير إلى موقف والدتها:

«بالطبع عرفت أمى بما حدث ، فقد نشرت الجرائد خبير القبض علىّ ، وأن النيابة تحقق معى فى «قضية شيوعية» ، واثارت أمى وهددتنى بمنعى من الخروج من المنزل ، لكن كان ذلك بلا جدوى ، وكان غيظى شديدا من «أخبار اليوم».



بل إن الأمر قد تطور ليصل إلى ما هو أطرف من هذا فى معرفة الناس بعلاقتها بخطيبها «وكيل النيابة» ورأبهم فى هذه العلاقة ، ونحن نرى سخرية القدر حين يطلب مصطفى مرعى من حمدى أبو العلاء أن يتراجع ضد من ستكون خطيبته ، كما نرى رأى مصطفى مرعى المبكر فى إنجى أفلاطون :

«فى نهاية أبريل عام ١٩٤٨ صدر قرار بنقل حمدى إلى إدارة قضايا الحكومة ، وكان حمدى سعيدا برفع كابوس النيابة عنه ، لقد استرد حريته أخيرا ، وعلى الفور أعلن خبر خطوبتنا على الناس ، وكما اندهش أنور حبيب حين وصلتته دعوة زفانى ، اندهش مصطفى مرعى الذى كان يسمع عنى ، فقد سبق أن رفعت قضية ضد الحكومة لمنعى من السفر إلى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٧ مطالبة بحقى فى جواز السفر المصرى وعدم شرعية منعى من السفر ، وطالبت بالتعويض عن الأضرار التى ترتبت على منعى ، وحين حان وقت نظر القضية طلب مصطفى مرعى رئيس إدارة القضايا من حمدى أن يتراجع عن الحكومة ضدى ، لكن حمدى اعتذر وقال لمصطفى مرعى : «هذه الأنسة ستكون زوجتى قريبا!» ، ولم يخف مصطفى مرعى اندهاشه ، وعلق قائلا: لكن هذه أنسة متحررة جدا».

(٣٠)

وعلى الرغم من أن الفنانة إنجى أفلاطون لا تذكر اسم حمدى كاملاً إلا بعد صفحات طوال ، فإنه حاضر تماماً فى كل كلمة من كلماتها المليئة بالحب والتقدير له!! وقد رأينا مما نقلناه فى الفقرات السابقة مواقف طريفة عن اندهاش كل من مصطفى مرعى وأنور حبيب من هذا الزواج ، وقد تم زواجهما فى مايو ١٩٤٨ ، ونشرت أخبار اليوم الخبر بعنوان بارز: «إنجى أفلاطون ترفع الراية البيضاء»!

وها هى إنجى أفلاطون ترفع راية بيضاء أخرى فى تحية ارتباطها بزوجها فتقول:

«أكسبني الزواج من حمدي أشياء كثيرة ثمينة وأساسية في حياتي. لأول مرة بدأت أشعر بالاستقرار والطمأنينة وانزاح عني القلق والشعور بعدم الرضا عن نفسي، هذا الشعور الذي كان يلاحقني طوال فترة شبابي المتمرد وكنت أعيش مع أمي في وسط بورجوازي من النوع الكبير، وأزاول نشاطاً متناقضاً معه، هو النشاط الشيوعي».

«بعد الزواج عرفت العيشة السعيدة والحب الكبير، كان حمدي إنساناً تقدماً حقاً في مواقفه وأخلاقه وسلوكه مع شريكة حياته، لم تكن لديه أية رغبة في السيطرة، بل كانت رغبته حقاً مساعدتي ومشاركتي همومي، كذلك لم تكن عنده عقدة طبقية بل عني العكس ساعدني كثيراً لتخليصي أنا من العقد التي سببها لي التناقض الذي نشأت فيه بين البيئة وبين العقيدة».

«نجح حمدي في تنمية إحساسي بأن انضمامي إلى قضية الطبقات المقهورة مكسب كبير للثورة، ونجح في أن يخلصني من عقد وقعت فيها مثل حرصي على عدم الظهور بالفساتين الجميلة التي كانت تصممها أمي في محل صالحة، مفضلة ارتداء الملابس القديمة والبهدلة، أفنعتني أن هذه ليست القضية، وإن حرصي على مظهرى اللائق مسألة طبيعية وعادية، وأن التكلف في العمل والمظهر الثوري ليس من علامات النجاح».



وتفويض الفنانة إنجي أفلاطون في تعبيرها عن الامتنان للمساعدات القيمة التي وفرها لها زوجها من حمدي أبو العلا:

«ساعدني حمدي كثيراً في التمصير والتعريب، كان يصر على أن يكون الحديث في البيت بالعربية المصرية (العامية)، وكان يردد على الدوام قوله: يجب أن نعيش بالعربي».

«ومسألة أخرى هامة جدا ساعدني فيها زوجي، هي الإسراع في العودة والاشتغال بالفن، أفنعتني حمدي بالتخلي عن التدريس بمدرسة اللبسيه لأنها مضيعة للوقت والجهد في مقابل اثني عشر جنيتها شهريا فقط... ويجب العودة للرسم. كانت فترة الانقطاع بيني وبين الرسم قد طالت، كما كانت مرحلة السيربالية قد انقضت».

«وكنت أحس بالحنين إلى العودة للرسم، لكنني كنت مترددة وأتهبب الإقدام. وكانت العودة صعبة حقا بسبب تفرغي للعمل السياسي بالكامل وترك الرسم مدة سنتين تقريبا».

«وفي نفس الوقت كانت المرحلة الأولى، مرحلة التمرد والتعبير عن الذات، أي

المرحلة السيربالية قد انتهت باندماجى الكلى فى العمل السياسى ، واعتناقى الأيدىولوجية الثورية ، فكان لابد من طريق جديد فى الفن يتناسب مع هذا التحول الهام فى أفكارى ووجدانى وحياتى».

«كانت رغبتى الأساسية حينئذ هى أن أعبر عن الإنسان المصرى».

«أعبر عن واقع وأحلام الإنسان البسيط المطحون الذى يكدح اليوم بطوله فى ظروف عمل بشعة دون حقوق مقررة أو قانون يحميه».

«كنت أريد أن أكشف لكل الناس استغلال الإنسان للإنسان ، أكشف وأضع فى دائرة الضوء وضع المرأة المتخلف فى المجتمع المصرى خاصة المرأة العاملة والفلاحة التى يرهقها عملان ، لا واحد ؛ عمل خارج البيت: فى المصنع أو فى المتجر أو فى الحقل ، وعمل فى البيت: تربية الأولاد وخدمة الأسرة. وبالجمللة كنت أريد أن أعبر بصدق عن كل الهموم التى يثن منها شعبنا البأس».

(٣١)

وتمضى الفنانة إنجي أفلاطون لتحكى لنا تجربتها فى العودة إلى الرسم والتحاقها برسم الفنانة السويسرية مارجو فيون ، وبالقسم الحر لكلية الفنون الجميلة بالزمالك حيث كان الأستاذة الكبار راغب عياد وحسين بيكار ، ثم برسم الفنان حامد عبدالله وزوجته تحية حلیم ، ثم فى قريتها المنشية الصغرى بجوار كفر شكر وميت غمر:

«وقد التحقت بعدة مراسم للتعليم. فى الأول برسم الفنانة السويسرية القديرة المقيمة فى مصر - مارجو فيون - التى كان لها أسلوبها المتميز الجيد فى الفن وفى التدريس أيضا. كان رسمها فى المعادى ، الضاحية الخضراء والجميلة. وكانت المعادى فى ذلك الوقت محاطة بالقرى الصغيرة ، كنا نخرج مع الأستاذة إلى تلك القرى حيث نرسم ونتعلم الاستكشاث من الطبيعة ، وكان هذا يناسبنى جدا لأنى أعشق الخروج إلى الطبيعة والالتحام بالناس ، وأذكر أنى كنت أتمسك بحكمة قرأتها قالها الفنان العظيم ليوناردو دافنشى ، قال: «إن الفنان الذى لا يستطيع أن يلتقط بالرسم شخصا يسقط من الدور السادس ليس بفنان» . وقد ظلت هذه العبارة التى تحمل خلاصة تجربة رائدة ، ظلت تجسد

اهتمامى الكبير بالحركة فى حد ذاتها مع ضرورة امتلاك وسائل التعبير عنها ، فحرصت دائما على تحصيل القدرة الكاملة على الرسم وعلى تلخيص الخطوط والتقاط الحركة السريعة وتجسيدها فى لوحاتى».

«مضت فترة بعد مدرسة المعادى ، بعدها التحقت بكلية الفنون الجميلة بالزمالك.. القسم الحر ، وكان بهذا القسم أساتذة عظام منهم راغب عياد وحسين بيكار. كما كان القسم غنيا بالموديلات لتمكيننا من دراسة جسم الإنسان عاريا ، وهذا أساس فى فن الرسم على مستوى العالم كله».

«وحدث كذلك فى الخمسينيات أن التحقت برسم الفنان حامد عبدالله وزوجته تحية حلیم ، وقد انفصلت تحية عن زوجها وتفرغت للفن فأصبحت فنانة كبيرة ، وتسعدنى الصداقة الحميمة التى قامت بيننا حتى الآن».

«بعد ذلك أستطيع أن أقرر وأنا واثقة أن المدرسة الكبرى التى تعلمت منها حقا وأحببتها لأنها مصدر إلهامى ، كانت هى بلدتى فى الريف (المنشية الصغيرة) ، وهى من قرى مركز كفر شكر قليوبية الآن ، وكانت قبل ذلك من قرى مركز ميت غمر».

«هناك بنى جدى بيتا ريفيا جميلا على النيل (فرع دمياط)».

«البيت على شاطئ النهر وفى وسط أطياننا وفيها أشجار الكافور العملاقة ، ومزرعة حدائق منها الموالح ومنها الموز. هناك كنت أتطلع بانبهار للحياة الريفية الهادئة والإشعاع الرحب لجمال وصفاء الطبيعة ، لكنى أؤمن بالإنسان ، فالمهم الناس ، لذلك كنت حريصة على التردد على القرية وهى تبعد عن منزلنا مسافة بسيطة».

«وهناك أحتك بالواقع المؤلم لحياة الفلاحين القاسية».

«حياة تهزنى هزا فتثير شعورى وعواطفى ، وأنفعل بعنف أمام هذا الكم من البؤس ، وكنت أرسم وأسجل من الطبيعة الواقع دون انقطاع».

وتواصل الفنانة إنجي أفلاطون تصوير ملامح حياتها فى الريف ، وما ترى أنه كان بمثابة أثر لهذه الحياة على وجدانها:

«كنت أعيش الفلاحة ، أدخل بيوتهن فيثرنن معى فى أثناء قيامهن بالعمل المنزلى ، وأنا أيضا كنت أعمل ، كنت أرسم ، والفلاحة كثيرة الأشغال ، فلا وقت عندها للكسل. وهكذا عرفت المرأة الفلاحة وتفهمت طبيعتها وأحوالها وصورتها فى أعمالى. كنت أذهب

فى الصباص الباكى إلى الءقو؁ أرافق العاملة الزراعية ؁ وهى تقوم بجمع المءاصيل ؁ نستمى فى جنبى القطن ؁ نجمعه والشمس مءرقة ؁ ونءلع كيزان الذرة ؁ ونجمع العيدان فى ءزم الءطب ؁ ونشقى فى ضرب اللوف الذى نستمى به ؁ وكذلك نءسلى أشجار البرءقال لقف المار».

«كنت أبقى طول النهار معهن أءبول فى الءقو؁ وعند غرب الشمس يعوء الجميع وأنا معهن كل إلى بيءها ؁ وكنت أءمل التعب والءر الشديد بسعادة كبيرة. شكرًا للءلاءة العاملة فى الءقو؁ بهمة والمءلية ءوما بالصبر الجميل ؁ والمءصفة فى كل الظروف بروء المء الذى لا مءيل له ؁ كل هذا كان يلهب ءماسى ويشجعنى على العمل والإنتاج وسرعة التعليم».

«أليس هذا أءسن طريء للءء عن مصر الءيقية والءعرف على كنوزها الءالءة».

(٣٢)

ونءءء الفنائة إنءى أفلاطون أيضاً فى هذه المءكرات عن بواكبر نشاطها الفكرى فى التأليف من أجل الءعوة إلى معءنقاتها وهى نءكى قصة إصدارها كتابها الأول «٨٠ مليون امرأة معنا» الذى كءبه فى ١٩٤٧ وصدى فى عام ١٩٤٨ ؁ وكيف كءب طه ءسبن مقءمة هذا الكءاب ؁ والءملة الشعواء التى قاءتها ضءه السيدة منيرة ناءب ؁ والءفاع الءماسى الجميل الذى ءولاه عنها عالم أزهرى مءترم لم تكن ءعرفه ولا يعرفها وهو الأستاذ ءالء محمد ءالء.

ثم نءكى الفنائة إنءى أفلاطون قصة كتابها الءانى «نحن النساء المصريات» الذى كءب الأستاذ عبءالءرءمن الراءعى مقءمته وصدى فى بءاية ١٩٥٠ ؁ وكءب الءكءورة بنء الشاطىء مقءالاً فى ءريدة الأهرام انءقءت فيه الكءاب على أساس فكرى وسياسى ؁ واءسعء المناقشة والءءل مما ساءء على رواج الكءاب وائشاره.

ثم ءروى انءطباعاتها عن عملها فى ءريدة المصرى ومءاوله محمود أبو الفءء باشا إبعاءها عن الشيوعية بءهيسة هذه الفرصة لها ؁ وءءصيص الءريدة عموءا ءائما لها نءء عنوان ناءب «المرأة نصف المءءمع» وهى نءكر بالءقءير الأستاذ أءمء أبو الفءء وكفائه

المشرف فى خدمة القضية الوطنية ، والدفاع عن الديمقراطية ، ومساعدة المقاومة الشعبية المسلحة فى القناة ، ثم تروى كيف تم إنهاء عملها فى الجريدة بناء على غضب فؤاد سراج الدين باشا:

ولتقرأ بعض ما ترويه فى هذا الصدد :

«كان الأستاذ أحمد أبو الفتح رئيس التحرير ، وكنت أسلم مقالتي له ، كان فى البداية جافا معى ، لكن بمرور الوقت وبالمناقشة المستمرة معه ، ومع اتصال العمل المشترك أيام الكفاح المسلح ضد الإنجليز فى قاعدة القنال ، كل هذا خلق بيننا ثقة وتقديرا فأصبحنا أصدقاء ، والحق أن أفكار أحمد أبو الفتح ومواقفه كانت فى ذلك الوقت كفاحا مشرفا يلتقى مع القوى اليسارية التقدمية فى خدمة القضية الوطنية والدفاع عن الديمقراطية».

«ولا يفوتنى أن أذكر أن أحمد أبو الفتح كان يبذل مجهودا كبيرا لمساعدة المقاومة الشعبية المسلحة فى القنال».

«ومن الطريف أنه بعد شهرين أو ثلاثة من العمل فى المصرى طلبت من أحمد مكافأتى ، فأخبرنى أن أخاه محمود أعطى الأوامر للخزينة بأن يكون مرتبى الشهرى اثنى عشر جنيها فقط ، وهو المرتب المقرر للصحفية تحت التمرين ، وقد اعترف لى أحمد بعد ذلك بما سبق أن خمنته أنا وزوجى ، فقد قال إن أخاه الكبير أراد استقطابى بدعوتى للكتابة فى الجريدة ، وحينما فشل فى إبعادى عن اليسار تغيرت المعاملة من ناحية الأجر طبعاً».

«لم أعلق على هذا التحول أهمية ، واستمر عملى فى الجريدة بحماس لأنى صاحبة رسالة ، وقد تصدبت لقضايا نسائية هامة ، مثل إضراب عاملات مصلحة التليفونات ، وإضراب المرضات والحكيماط: إضراب ملائكة الرحمة».

وتشير إنجى أفلاطون إلى ما تعتقد أنه كان السبب الذى جعل رئيس تحرير جريدة المصرى يستغنى عن خدماتها:

«ومن أهم ما نشرته حديث الدكتور أحمد حسين وزير الشؤون الاجتماعية حينئذ فى الحكومة الوفدية ، وقد أكد الوزير فى حديثه أن القانون لا يفرق بين الرجل والمرأة فى العمل ولا فى المعاملة ، كان الواقع غير ذلك حيث كانت المرأة تلقى معاملة سيئة لا تراعى ظروفها ، كما كانت تتلقى أجرا أقل من أجر الرجل على نفس العمل».

«أثار هذا الحديث أصحاب المصانع والمحلات وانهالت البرقيات والخطابات على

الجريدة تحتج على حديث الوزير وتكذب قوله بأن الكثيرين من أصحاب الأعمال لا يلتزمون بتطبيق القانون ويهدرون حقوق النساء العاملات ، فما كان منى إلا أنى نشرت هذه الاحتجاجات فى الصفحة التى أحررها ، وثار جدل عنيف وهام حول قضية الأجر المتساوى للعمل المتساوى».

«وإثر ذلك فاجأنى أحمد أبو الفتح بإنهاء عملى فى الجريدة ، لماذا يا أستاذ أحمد؟ لأن صفحتى أثار غضب وزير الداخلية فؤاد باشا سراج الدين قطب الوفد الكبير» .
«وقد طلب الباشا شخصيا من أحمد أبو الفتح منعى من الكتابة وإلا فسيجد نفسه مضطرا لاتخاذ إجراء ضدى».

(٣٣)

وتحكى الفنانة إنجى أفلاطون بقدر من الوعى السياسى والأيدىولوجى انطباعاتها عن حريق القاهرة وتشير بأصابع الاتهام إلى الملك والبوليس السياسى فتقول:
«... جاءنا حمدى - تقصد زوجها وكيل النيابة - فى حالة توتر شديد ، وقال إنه رأى بعينه إبراهيم إمام رئيس البوليس السياسى يتفرج راضياً على سينما ريفولى وهى تترق ، أدركنا أنه تم تنفيذ المؤامرة ، حرق مدينة جميلة وعريقة من أجل تحطيم المد الثورى وقمع الحركة الوطنية » .

(٣٤)

وتقدم إنجى أفلاطون بعض ذكرياتها عن الفترة التى شهدت قيام الثورة فى ١٩٥٢ وانطباعات زملائها الشيوعيين عن الثورة :

«... نعود إلى نبأ قيام ثورة يوليو ، وكما قلت سمعنا به ونحن فى سويسرا وعلمنا أن الثورة بادرت. بالإفراج عن كل الزملاء المعتقلين منذ حريق القاهرة ، ومنهم أعضاء لجنة السلام المصرية ، فخرج سعد كامل ويوسف حلمى ومحمد على عامر وباقى الأعضاء ،

كان خبر الثورة محيراً لنا ، هذه هي المرة الأولى في التاريخ - فيما أعلم - التي يطلق فيها على انقلاب عسكري أنه ثورة. فقبل عام ١٩٥٢ كانت الخبرة التاريخية تقول إن أى انقلاب عسكري هو لخدمة اليمين حيث يجمع الطبقات الشعبية ، يبدأ بإلغاء الدستور والبرلمان والأحزاب ، ويلغى الصحف ويصادر الحريات لصالح الطبقات المستغلة».

[لابد أن نتوقف هنا لنشير إلى أن ما حدث في ٢٣ يوليو لم يأخذ في البداية اسم الانقلاب ولا اسم الثورة ، لكنه أخذ اسم الحركة المباركة حتى هيا بعض المثقفين المصريين لرجال الحركة إطلاق اسم الثورة عليها ، وبالتالي فإن إنجي أفلاطون تستبقي الأحداث في هذه الفقرة حين تبدأ في توصيف ما حدث وتسميته ، ولكن مناقشتها على كل حال صائبة وموضوعية].

ونستأنف قراءة ما ترويه الفنانة إنجي أفلاطون عن انطباع زوجها وانطباعاتها عن تلك الفترة :

«وبالرغم من حماسنا في البداية أنا وحمدي للثورة ، ولخلع الملك للقضاء على الفساد والاستبداد ، إلا أن شكوكنا كانت كبيرة ، وقد لعب السفير الأمريكى دورا في تأمين خروج الملك فاروق وسفره إلى أوروبا على اليخت المحروسة معززا مكرما».

«وانتظرنا في الخارج نترقب الموقف الذى ستتخذه الحركة الشيوعية في مصر وبخاصة منظمة حدتو (الحركة الوطنية الديمقراطية) التى كنا أعضاء فيها ، ثم ظهر أن موقف الحركة الشيوعية عموما هو التأييد وأكثرهم تأييدا كانت حدتو».



ثم تشير إنجي أفلاطون إلى الأسباب التى بدأت تدفعها هى وأمثالها إلى التحفظ على سلوك حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، والتحفظ أيضا على سلوك حدتو تجاه التعاون مع هذه الحركة :

«بعد عودتنا لمصر فوجدنا بالأحداث تتوالى وخاصة إعدام العاملين خميس والبقرى اللذين تزعمنا إضراب عمال مصانع كفر الدوار من أجل مطالب نقابية. زادت التحفظات والشكوك عندنا بالنسبة لطبيعة النظام الجديد ، وكذلك ازدادت شكوكنا في بعض الأعضاء القياديين في منظمنا (حدتو) بسبب تأييدهم الأعمى لحركة الضباط».

«وقد انتهى بنا الحال إلى ترك حدتو ، وفي نفس الوقت كنا نقرأ جريدة الراية ، وهى النشرة السرية التى كانت تصدرها منظمة أخرى هى الحزب الشيوعى المصرى».

وتفصل إنجي أفلاطون القول في طبيعة موقف الحزب الشيوعي المصري وجريدة «الراية» من الثورة ، وتذكر أن هذا الموقف الواضح دفعها هي وزوجها إلى الانضمام إلى هذا الحزب بعد استقالتهما من تنظيم «حدثو»:

«كانت الراية تنتقد بعنف الإجراءات الدموية التي ترتكبها الثورة ضد العمال ، وكانت تصف النظام بأنه الانقلاب العسكري المضلل لكسر الثورة الوطنية الديمقراطية التي كانت قريبة وعلى الأبواب ؛ اقتنعنا بما كانت تنشره الراية فانضمامنا أنا وحمدي إلى الحزب الشيوعي المصري (ح. ش. م)».

«وكان الحزب يتمتع بنظام سرى حازم لضمان الأمان لأعضائه في مزاوله العمل السرى ، حتى أن أجهزة الأمن ظلت لعدة سنوات عاجزة عن معرفة من هو السكرتير العام لمنظمة (ح. ش. م) ، من هو الرفيق خالد ، ثم اعتقدت خطأ أنه هو إسماعيل صبرى عبدالله بينما الحقيقة أنه كان فؤاد مرسى».

«ولابد من القول إن النظام الحديدي كان يحد إلى حد كبير بل ويعطل أحيانا العمل الجماهيري بسبب القيود المفروضة على تواجد كوادر الحزب بين الناس».

(٣٥)

ونصل مع مذكرات إنجي أفلاطون إلى ما ترويه عن بدايات متاعبها هي وزوجها حمدي أبو العلا في عهد الثورة ، وتروي إنجي أفلاطون أنها كانت قد قضت عاماً كاملاً من السعادة والهدوء والتأمل في الإسكندرية مع زوجها حيث انتدبه الأستاذ مصطفى مرعي للعمل بفرع الإسكندرية ، وتحكى انطباعاتها كفنانة عن حى الأنفوشى ، وعن زواج أختيها وهي في الإسكندرية ، ثم تحكى عن ليلة القبض على زوجها في نوفمبر ١٩٥٤ وتنتهز الفرصة لتحكى بعض الطرائف: فهي قلقة لا تدرى هل جاءوا لاعتقالها أم لاعتقال زوجها ، وتسألهم من يريدون بالضبط:

«انتهت مدة السنة التي ندب فيها حمدي للعمل بالإسكندرية ، وككل وقت جميل مضى بسرعة ، وعدنا للقاهرة ، كنا قد تركنا شقتنا بجاردن سیتی لما ذهبنا للإسكندرية حيث أقمنا تلك السنة. في تلك الأيام كان سهلاً أن تغير المسكن لكثرة الشقق المعروضة للإيجار ، وفكرنا أن نستأجر فيللا ، لكن حمدي لم يوافق».

«قال ربما يتم اعتقاله لأن الظروف مضطربة ، فتصبح الوحدة هما ثقيلًا على أنا وأمي وحدنا في الفيلا الواسعة ، ويكون هو في حالة قلق علينا من جهة الأمن . وهكذا أقمنا مع أمي في شقتنا القديمة بشارع شامبليون ، وبدأت الأحداث كأن حمدي كان يقرأ الغيب» .
«ففي شهر نوفمبر ١٩٥٤ في نفس السنة التي عدنا فيها من إسكندرية طرق زوار الفجر الباب ، وقبضوا على حمدي» .

«كنت أحمل هم أمي التي نعيش معها من وقع المفاجأة عليها ، فهذه أول تجربة لها حيث يدخل البوليس بيتها ويقبض على واحد منا» .
«أجرت القوة تفتيش البيت واستمر هذا التفتيش فترة كانت ثقيلة وطويلة طبعًا ، وكنت أنا في حالة قلق لأنني لا أعرف من المقصود منا ، أنا أم حمدي ، وكان حمدي يعاني نفس الشعور» .

«في النهاية لم أطق صبرا ، سألتهم من يريدون بالضبط؟» .
«قالوا باستغراب: الأستاذ محمد محمود أبو العلا طبعاً [يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن هذا هو الاسم الرسمي لزوجها ، وأن حمدي هو اسم الشهرة] ، قلت أعرف ذلك لكني فقط أسأل فرجاً لا تكونون تعرفوا الاسم بالضبط .. استراح حمدي لأنه كان يخشى أن يكون الأمر بالعكس» .

تريد إنجي أفلاطون أن تدلنا على مدى خوف كل من الزوجين على الآخر ، وإيثار حمدي أن يكون هو المقصود لا زوجته ، وهكذا تمضي في روايتها وقد عبرت ببساطة شديدة عن طبيعة وحقيقة الإيثار الشديد بين هذين الزوجين الأيديولوجيين ، ثم هي تمضي فتقول:

«وكان حمدي يحب الأدب ويحب مكسيم جوركي كثيراً ، لهذا كان يضع صورته فوق مكتبه ، وكثيراً ما كانت أمي تقول لي اخف هذه التهمة ، وأثناء التفتيش سألت الضابط: صورة من هذه؟ فأجاب حمدي هي صورة جدى ، وبقيت الصورة على المكتب» .

(٣٦)

ثم تشير إنجي أفلاطون إلى التجربة التي عاشتها لمدة سنتين كزوج لأحد المعتقلين ، يعيش بعيداً عنها وهما في بداية زواجهما ، وتضطر إلى زيارته في سجن القناطر كل

أسبوع ، وهى تعترف أنهما كانا يفستقدان بعضهما ، ولكن هذا كله يهون إلى جوار ما سيأتى مما يتوقعانه :

«كان القبض على حمدى سببه الانتماء لمنظمة الحزب الشيوعى المصرى ، وأودعوه سجن القناطر حيث أمضى فيه سنتين تحت التحقيق. وكان الموقف جديداً علىّ وكان صعباً، ولكننى كنت أحس بأن الأيام القادمة ستكون أصعب ، فالمواجهة الحقيقية مع العهد الجديد قد بدأت».

«وشعرت أننى دخلت فى امتحان مع نفسى ومع نوع الحياة التى اخترناها نحن الاثنان، والجميل أننى لم أشعر بالندم للحظة واحدة ، بل العكس ، فقد جعلتنى هذه التجربة أشد حماساً وصلابة لدرجة لم أكن أتصورها ، كما أنها دعمت حبى واحترامى لحمدى بلا حدود».

«نظام الزيارات فى سجن الرجال بالقناطر كان زيارة كل أسبوع من وراء الأسلاك ، وزيارة خاصة كل شهر تتم فى حجرة المأمور ، ورأيت سجن القناطر لأول مرة ، ولم يكن يخطر على بالى أنى سأمضى فى سجن النساء المجاور عدداً من السنين».

«كنت أفنقد حمدى كثيراً ، كما كان هو يفتقدنى ، فكنا نكتب خطابات جميلة لبعضنا، وكان قلقه وخوفه من القبض علىّ يشغله كثيراً ، وكان هذا يزول مع زيارتى له ، ثم يعاوده بعد انتهاء الزيارة ويلزمه حتى الزيارة القادمة».

«وفى تلك الأيام كان القانون يسمح للمحبوس احتياطياً بتلقى المأكولات والكتب والصحف ، وهذا ما لم نعرفه فيما بعد عند اعتقالنا عام ١٩٥٩ كانت الثورة قد ألغت هذه الحقوق».



على هذا النحو تحدثنا السيدة إنجي أفلاطون حديثاً نفسياً دقيقاً عن الفترة التى سُجن فيها زوجها فى سجن القناطر ، كما تروى لنا بعض التفاصيل المهمة فى قصة اعتقال زوج شقيقتها الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله فتقول:

« ... حدث فى يونية عام ١٩٥٥ أن صدر قراران جمهوريان : القرار الأول يقضى بانتداب الدكتور مراد غالب وكان أستاذاً مساعداً بكلية طب إسكندرية ، انتدابه مديراً

للإدارة السياسية فى مجلس الوزراء ، أما القرار الثانى فكان يقضى بانتداب الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله مديراً للإدارة الاقتصادية والمالية لرئيس الوزراء ، والقراران صادران من جمال عبدالناصر ، وكان هو أيضاً رئيس الوزراء ، كان هذا فى الصباح ، فلما حل المساء أصدرت النيابة قراراً بالقبض على إسماعيل بتهمة أنه الرفيق خالد ، سكرتير منظمة الحزب الشيوعى المصرى ، وعلى عكس ما جرى مع حمدى والزملاء الآخرين ، فقد اختفى إسماعيل ولا أحد يعلم أين هو ، وعلمنا فيما بعد أنه كان فى السجن الحربى يتعرض لتعذيب وحشى» .



«فى يوم القبض عليه أخبرتنى أمى ولم تكن تعرف بالخبر ، أن أختى بولى مريضة ، ولا تستطيع مغادرة بيتها وأنها طلبتنى تليفونيا عدة مرات ، فى هذا الوقت كانت أمى متزوجة من على بك راتب عضو مجلس النواب سابقا ، تزوجته بعد أن كبرنا ولم يعد من حقوق أبى حرمانها من حضانتنا ، وكان على راتب فى باريس للعلاج من مرض فى القلب» .

«فى ذلك اليوم أيضا كانت أمى قد تلقت من باريس مكالمة لكنها قطعت فلم تعرف أمى من هذه المكالمة شيئا ، اتجهت أمى بفكرها إلى زوجها الذى كان تحت العلاج وأصابها القلق على صحته ، فلما كلمت أختى فى التليفون كانت أمى تتابع كلامى (مع أختى عبر التليفون) مصغية جدا لردودى وهى متخيلة أن بولى إنما ألحت فى طلبى تليفونيا بخصوص أخبار على راتب ولا تريد أن تعرف أمنا. لم تدر أمى أن أختى تحدثنى عن زوجها إسماعيل وكيف قبضوا عليه ليلا بعد تعيينه مستشارا للرئيس عبدالناصر» .

«كانت أختى بالفعل تخفى شيئا لكنه خاص بإسماعيل ، كانت مشفقة على أمى من وقع الخبر ، خصوصا أن زوجى حمدى مسجون هو الآخر» .

«وكان على أثناء المكالمة أن أرد بشكل لا تفهم أمى منه ما حصل ، كان الموقف مريكا بالنسبة لنا جميعا» .

«ذهبت مساء إلى أختى لأسمع القصة بتفاصيلها ، وفى الصباح ورد خبر وفاة زوج أمى فى باريس ، وتعددت الأمور ، إذ كيف سنعلل غياب إسماعيل عن مراسم الجنازة والعزاء؟» .

وتصل إنجي أفلاطون إلى إحدى الذروات المسرحية فى كتابها حين تروى حواراً دار بينها وبين والدتها وما يمثله من مفارقة غريبة بين جيلين يعيشان فى نفس البيت.

تقول الفنانة إنجي أفلاطون:

«... وانطلقت الكوميديا من قلب المأساة».

«استجمعت شجاعتي وقررت أن أتكلم بصراحة».

«كانت أمى ممزقة من الحزن والقلق، لكنها تتصنع التماسك وكانت تردد أنها سنة فظيمة، لأن حمدى فى السجن وزوجها مات، فقلت لها: «البقية تأتى» ارتعدت وقالت: ياساتر استر، كل هذه المصائب ولها بقية، إيه الحكاية.. تكلمى. قلت: لقد قبضوا على إسماعيل، فقالت المسكينة [تقصد: أمها، والتعبير بهذه الصفة هو أدق ما يمكن لوصف حالة هذه السيدة التى رزقت بالمصائب مرة واحدة] إسماعيل من؟».

«لم يخطر على بالها أنه زوج بنتها، ذلك أن إسماعيل لم يعرف أحد عنه أن له اهتمامات سياسية، لم يكن يتحدث مطلقاً فى السياسة أمام أحد، على عكس حمدى الذى كان يجاهر برأيه فى كل مكان».

«وكانت أمى المسكينة طوال العام الذى مضى منذ القبض على حمدى حريصة على إخفاء هذا الخبر لكى لا يعرف أحد من المعارف والأصحاب به، لأنه عيب! لكن حمدى غائب، وتزايدت شكوك الناس حتى ظنوا أنى انفصلت عنه، ودفعنى هذا طبعاً أن أصارح».

«قلت لأمى: حمدى ليس مجرماً وإنما هو صاحب رأى ويضحى لخير المجموع».

«وما كاد الناس يستوعبون القبض على زوجى حتى مات زوج أمى وحضر الناس للعزاء وتساءلوا أين إسماعيل؟ وعرفوا بخبر القبض عليه هو الآخر. كان الموقف بالنسبة لأمى خاصة فى منتهى الصعوبة، كان مأساة من نوع المسرحيات المضحكة السوداء».

«فى المساء (أى فى أثناء العزاء) بدت أسرتنا (فى نظر) أصدقاء والدتى كما لو كانت «أسرة من الشياطين». ولن أنسى أبداً نظراتهم لى، كانت نظرات اتهام، تقول لى إننى سبب كل المصائب».

«فى أول زيارة لعمدى بعد هذه الأحداث وجدته يعرف خبر الوفاة لأنه قرأ النعى ، لكنه لم يعرف خبر القبض على إسماعيل ، طبعاً محظور النشر ، فأخبرته بالكارثة».

«كانت سنة فظيمة حقاً كما قالت أمى ، كانت أخبار إسماعيل مقلقة جداً لنا ، بعد أن عرفنا أنه فى السجن الحربى حيث يجرى تعذيبه ، وسمعة السجن الحربى كانت مشهورة فى فنون التعذيب المقتبسة من معتقلات هتلر. حاولنا كثيراً مساعدة إسماعيل ، وبعد مساعى كثيرة استطاعت بولى مقابلة زكريا محى الدين وكان وزير الداخلية ، وقد فرحنا لأنه استجاب لرجائها واستطاع أن ينقل إسماعيل من السجن الحربى إلى سجن القناطر».



ربما نتوقف هنا لنعقب بالإشارة إلى أن السجن الحربى كان على الدوام فى نظر الشيوعيين أهون من السجن التابعة لوزارة الداخلية ، ولكن ها هى إنجى أفلاطون تشير إلى أن سمعة هذا السجن كانت معروفة.

«... كانت قضية حمدي وإسماعيل هى قضية منظمة الحزب الشيوعى المصرى ، وتولى الدفاع فى هذه القضية محامون كبار منهم الأستاذة : مصطفى مرعى ، ووحيد رأفت ، ومحمد عبدالله. وفى المحكمة خلع إسماعيل صبرى ثيابه كاشفاً آثار التعذيب فى مختلف أجزاء جسمه».

«حكمت المحكمة ببراءة المتهم الأول إسماعيل والمتهم الرابع حمدي».

«اكتملت سعادة العائلة بالإفراج عنهما فاكتمل شملنا من جديد وغمرتنا فرحة كبرى افتقدناها من زمن طويل».

(٣٨)

كما تحكى إنجى أفلاطون فى صفحات مختصرة موقفها وموقف زوجها وموقف اليسار المصرى فى حرب ١٩٥٦ .

«فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ حدث العدوان الثلاثى على مصر ، ثلاث دول منها دولتان عظيمتان ، تتأمر وتعتدى على دولة صغيرة ذات سيادة وتاريخ عظيم ! على أى حال لم يكن هذا بمستغرب من إسرائيل ربيبة الاستعمار ودولة الصهيونية والعنصرية التوسعية .

لأن إسرائيل كانت تسعى ليلا ونهاراً للقضاء على ثورة يوليو . وحينما ألقى عبدالناصر فى الأزهر خطابه النارى المشهور التهب الشعب كله حماساً واشتدت وحدته فأصبح يدا واحدة تريد الدفاع عن الوطن . ولأول مرة فى التاريخ قامت الحكومة بتوزيع السلاح على الشعب وكونت كتائب الفدائيين ولجان المقاومة الشعبية . وقد شاركت فيها جميع قيادات الحركة الوطنية والتقدمية والشيوعية . وقد تولى كمال رفعت ولطفى واكد قيادة عدد من الكتائب على خط القناة .

أما زوجى حمدى الذى كان ضابط احتياطى فقد تطوع فوراً فى جيش التحرير الوطنى وأصبح قائداً لمعسكر المقاومة الشعبية فى حى الجمالية ، تحت قيادة سيد زكى القائد العام للمنطقة ، أما عن نفسى فقد أسرعت للتشاور مع سيزا نبراوى التى توثقت العلاقة بيننا نتيجة العمل الدائم المشترك والتفاهم الذى كان يجمعنا بشكل كامل وعجيب .. فسيذا كانت تتمتع بحس سياسى وطنى ، بالاضافة إلى ذكائها الحاد وشجاعته الكبيرة واستعدادها الدائم للعطاء والتضحية .

وعلى الفور بادرنا باعادة تكوين اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية ، على أساس أنها هى التنظيم القادر على تعبئة النساء وتوحيدهن وتوعيتهن للوقوف ضد الأخطار التى تهدد الثورة وتهدد الوطن ، وقد ساعدتنا الظروف هذه المرة على إعادة تكوين اللجنة ولكن بشكل موسع حيث ضمت ١٨ لجنة فرعية فى مختلف الأحياء الشعبية بالقاهرة والجيزة ، وكانت تعمل بالتعاون مع اللجان العامة للمقاومة الشعبية ومع معسكرات التدريب التى انشأتها الحكومة بالقاهرة وفى أنحاء مصر كلها وخصوصا فى خط الدفاع الأول ، فى الزقازيق ومنطقة القناة .

الجدير بالذكر أن مجموعة الرفيقات والقيادات النسائية اللاتى سبق أن عملن معنا فى المناسبات السياسية والوطنية ، وهن أنفسهن اللاتى قدن من جديد وبحماس وجدية ، العمل فى اللجان النسائية للمقاومة الشعبية ، ويمكن القول أن هذه اللجان كانت شكلا من أرقى أشكال التنظيم الجماهيرى التى عرفتها مصر فى تلك السنوات .

«تم تكوين هذه اللجنة العليا بالانتخاب ، وضمت أساساً مندوبات اللجان الفرعية فى الأحياء الشعبية بالإضافة إلى بعض الصحفيات والشخصيات النسائية العامة المتحمسات للعمل معنا فى المقاومة ، وأذكر من هذه الشخصيات چاكلين خورى وسعاد زهير وسعاد منسى وعابدة فهمى النقاوية .

وتمت الموافقة بالأجماع على أن ترأس اللجنة العامة سيزا نبراوى ، وكانت اللجنة العليا تقود العمل النسائي الشعبى كما كانت جهاز التنسيق بين مختلف اللجان الشعبية فى الأحياء .

أما عن نفسى فلم يقتصر دورى على العمل فى اللجنة العامة بل قمت بتشكوين لجنة نسائية فى حى الجمالية . وكما ذكرت من قبل ، كان زوجى حمدى هو قائد معسكر اللجنة العامة للمقاومة الشعبية فى حى الجمالية . وطبعاً كان التعاون بينى وبين حمدى قائد المعسكر وكذلك بيننا وبين سيد زكى قائد عام منطقة الجمالية ، كان التعاون كاملاً ومثمراً للغاية .

الأمر الذى ساعد على أن تكون لجنتى من أنشط لجان القاهرة ، فقد كانت فرصتى للعمل مع بنات حى الجمالية كبيرة جداً ، وقد بدأنا بتنظيم دورات تدريبية لتعليم المبادئ الأولية للتمريض والإسعافات السريعة ، كما جرى تدريبهن على حمل السلاح واستعماله . كما أننا تمكنا من توعيتهن سياسياً واجتماعياً بالأخطار التى تهدد الوطن والثورة . وكشفنا أطماع إسرائيل وأهداف العدوان العاشم .

لم تكن لجنتى - لجنة الجمالية - هى اللجنة الوحيدة المتميزة فى نشاطها ففى هذا المقام أذكر لجنة المقاومة النسائية فى حى الدرب الأحمر ، وكانت تعمل بالتعاون مع علوى حافظ قائد المعسكر فى الحى .

وأذكر أيضاً لجنة الجيزة وكانت تجمع عدداً من الزميلات منهن الزميلة ثريا إبراهيم وكانت اللجنة تنشط بالتعاون مع قائد معسكر المنطقة أبو الفضل الجيزاوى .

أما فى الأقاليم فقد برزت لجنة شبين الكوم بقيادة الرفيقة وداد مترى التى كانت تعمل فى ذلك الوقت مدرسة فى شبين الكوم» .

«أثار العدوان الغادر على مصر ضمائر الشرفاء فى العالم فاشتدت حملة الاحتجاج القوى ضده ، ولم يقف الأمر عند حد الاحتجاج والإدانة ، بل اتخذت حركة الرأى العام أشكالاً جديدة للتعبير عن موقفها والتضامن مع الشعب المصرى ، فبدأت حركة إعداد المتطوعين للمساعدة ، وكذلك إرسال وفود التأييد والتضامن معنا ، يضاف لذلك تضامن العالم الاشتراكى ووقوفه بجانب مصر ، وكلنا يتذكر إنذار بولجانين الشهير الذى كان له

وقع الصاعقة على المعتدين كذلك قدمت البلاد الاشتراكية معونات استهلاكية متنوعة وكان من أهمها القمح ومعلبات الغذاء والصابون وخلافه.

كل هذا كان له الأثر الأكبر في ترجيح كفة مصر وتوقف القتال تنفيذا لقرارات مجلس الأمن ثم انسحبت قوات الغزو وصفى العدوان نهائيا.

أما الاتحاد النسائي الدولي الديمقراطي فكان في طليعة المنظمات الشعبية العالمية التي وقفت مع مصر وكان من أكثرها نشاطا وفاعلية ، فقد عبأ الاتحاد كافة أعضائه من المنظمات النسائية في مختلف بلاد العالم من أجل دحر العدوان كما قام بتكوين لجنة لتقصي الحقائق حول الفظائع التي ارتكبتها المعتدون . وكانت اللجنة الدولية مكونة من أربعة سيدات برئاسة السيدة الإيطالية المجلا منيلا السكرتيرة العامة للاتحاد النسائي الدولي ، وهي في ذلك الوقت نفسه نائبة في البرلمان الإيطالي ، أما عضوات اللجنة الأربعة فأحدهن من اللجنة الهندية والثانية من لجنة فنلندا والثالثة من لجنة رومانيا أما الرابعة فمن لبنان .

«قامت السيدة سيزا نبراوى بصفتها رئيسة اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية بتوجيه الدعوة لهذه اللجنة الدولية لزيارة مصر ، وتمت هذه الزيارة في المدة من ٢٠ إلى ٣٠ من يناير ١٩٥٧ وتكونت منا لجنة لاستقبال ومرافقة الضيوف . وكنت أنا عضوة في هذه اللجنة».

وسافرت اللجنة إلى بورسعيد لمعاينة آثار الحرب ، واتذكر جيدا كيف كان تأثير الزيارة عليهن لدرجة الصدمة حينما شاهدن المنطقة القريبة من ساحل البحر وتمثال دليسبس المحطم ملقى على الأرض بفعل الجماهير الغاضبة . ولا شيء إلا الحطام والدمار والموت . وقد التقى الوفد بعدد كبير من أعضاء الجمعيات النسائية والقيادات الوطنية من مختلف الاتجاهات ، وقرب نهاية زيارة الوفد نظمت اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية في الجمالية ، وهي اللجنة التي كنت أتولى مسئوليتها ، نظمت مؤتمرا شعبيا كبيرا لتكريم أعضاء الوفد ولأظهار التضامن والوحدة والإصرار على تطهير الأرض من العدوان . نجح هذا المؤتمر نجاحا ساحقا وكنا قد بدأناه بإطلاق سرب من الحمام رمزاً للسلام والصدقة . وقد أصدر الاتحاد النسائي الدولي الديمقراطي عدداً خاصاً من مجلته «نساء العالم» تحت عنوان مقابلة مع نساء مصر ، حيث نشر تقرير لجنة تقصي الحقائق كاشفا عن الفظائع والتدمير الذي أحدثته الحرب بالنسبة للمدنيين ، كما تضمن إعلان تضامنهن الكامل مع شعب مصر الباسل نساء ورجالا . ودعوتهن نساء العالم للوقوف مع مصر».

وتتضمن هذه المذكرات القيمة ما ترويه الفنانة إنجي أفلاطون من ذكرياتها عن بعض ملامح تجربة هامة في تاريخ مصر المعاصرة ، وهي الانتخابات البرلمانية ١٩٥٧ ، التي اشتركت فيها المرأة المصرية لأول مرة بعد صدور قانون ١٩٥٦ الذي أعطى للمرأة حقوقها السياسية الكاملة ، وتروى قصة ترشيح سيزا نبراوى فى دائرة مصر القديمة ، وهى تشير إلى جهود أبو بكر سيف النصر ونبيل الهلالى وفتحى رضوان وجاكلين خورى وحكمت أبوزيد فى تأييد سيزا نبراوى ، كما تشير إلى تعديل الدوائر وإلى استغلال الشيوعيين واليسار لفكرة أن الدائرة وفدية:

«وقررنا أن نخوض هذه الانتخابات بترشيح المناضلة سيزا نبراوى فى حى مصر القديمة ، لم نرشح سيزا فى دائرتها الأصلية (المعادى) حيث محل إقامتها ، والسبب فى ذلك أن الدكتور عبدالمنعم القيسونى رشح نفسه فى دائرة المعادى ، فأدركنا أن الدائرة ستكون مقفولة عليه ولا فائدة من منافسته فيها ، وشجعنا على اختيار دائرة مصر القديمة لسيزا أن الدائرة قريبة من مقر الاتحاد النسائى المصرى ، وكنا نعمل من خلال لجنة الشباب بالاتحاد فى هذا الحى عملا اجتماعيا ولنا ركائز فيه ، كذلك فدائرة مصر القديمة كانت معروفة بأنها دائرة وفدية ، وبالتالي فهى تتعاطف مع أى معارضة ولا تتعاطف مع الحكومة ، وكانت البداية فى الشقة الصغيرة التى تسكنها الدكتورة حكمت أبوزيد فى شارع محمد الصغير ، وذلك قبل أن نستأجر شقة كمقر انتخابى لسيزا ، وقد فوجئنا بالتقسيم الجديد للدائرة ، فأصبحت تضم لأول مرة مناطق لم تخطر لنا على بال ، كحى الإمامين والتونسى ، وهذه المناطق كانت تتطلب منا أن نتعامل مع الحانوتية والتربية فى حى الأموات ، وكذلك ضمت منطقة فم الخليج حيث عمال المدابع».



وتتحدث إنجي أفلاطون عن بعض المصاعب التى واجهتها فى أثناء الدعاية الانتخابية:

«وحيثما أتذكر هذه الأيام المليئة بالحياة والنشاط لا يفوتنى أن أذكر مخاوى أيضاً ، بقيادة السيارة فى مدينة الأموات وبين القبور الكثيرة كانت عملية صعبة ومخيفة بعض الشيء ، لكن كان لا مفر منها ، فكنا أنا والزميلات نستجمع شجاعتنا لنخاطر مادما قررنا دخول هذه المعركة المهمة».

ثم تصل صاحبة المذكرات إلى النهاية «المتوقعة» لمثل هذه المعركة فى ظل حكومة الثورة ، ومدى الخيبة والحسرة اللتين شعرت بهما:

«وفى النهاية فى يوم الانتخاب منعت الحكومة كل مندوبينا من دخول اللجان الانتخابية ، كما قبض على المحامين الذين كنا بلغناهم بعملية التزوير الواسعة فتحركوا سعيا لإثباتها وكشفها ، وهكذا نجح مرشح الحكومة».

«وبالرغم من خيبة الأمل التى أصابتنا بشكل عام وأصابت سيزا نبراوى بشكل خاص ، فقد كانت هذه التجربة مفيدة وناجحة إلى أقصى حد ، لأنها علمتنا كيف نتعامل مع الجماهير ، وفى النهاية كانت معركة سياسية من نوع جديد أضافت لتجاربنا وخبراتنا أشياء كثيرة ثمينة ونافعة».



وليس هذا هو كل ما فى مذكرات إنجى أفلاطون عن تدخل الحكومة السافر فى الانتخابات البرلمانية فى ١٩٥٧ ، فهى تروى تفاصيل الموقف الذى وقفته الحكومة بجوار مرشحها الأستاذ أحمد سعيد مذيع صوت العرب الشهير ، وخبية الأمل التى أصابت صاحبة المذكرات وزميلاتها من هذه المعركة ، كما تروى ما تعرض له الدكتور عبدالعظيم أنيس مرشح اليسار فى دائرة الوايلى من تعذيب على يد المباحث والبوليس:

«كان الدكتور عبد العظيم أنيس مرشح اليسار فى دائرة الوايلى ، وهو أحد الوجوه البارزة للحركة الديمقراطية فى مصر ، كما أنه صديق حميم ورفيق ممتاز ، وكان مكتسحا بشعبيته الواسعة فى دائرته ، وقبل يوم الانتخاب بأيام قليلة طلب منى أن أسهم معه فى حملته الانتخابية وذلك بإلقاء كلمة فى السرادق الكبير الذى أقامه فى ميدان الوايلى للدعاية ، وعلى الرغم من خوفى وخجلى المعهود من عملية إلقاء الخطب ، وافقت تحت إلحاح حمدى وتشجيعه ، وكان حمدى منذ خروجه من السجن شعلة من النشاط لا يهدأ».

«وحينما ذهبنا أنا وحمدى وجدنا سرادقا ضخما مكتظا بالرجال والنساء ، يسوده نظام عظيم أشرف عليه الرفاق بانضباط شديد هائل ، وكنا ندرک جيدا أن الحكومة لا تريد النجاح لعبدالعظيم أنيس ، ولكنى أعترف أننا لم نكن نتوقع أن تصل الحكومة إلى ما وصلت إليه لإفشال الاجتماع ، فبينما كان كل شىء يسير كما كان مخططا له وبحماس شديد من الجمهور ، وفى ختام الخطبة الملتهبة التى ألقاها الشاعر عبدالرحمن الخميسى ، وفى لحظة بداية إلقاءى لكلمتى تساقطت الكراسى فوق رؤوس جمهور الناس الجالسين ،

مقاعد ألقيت من سطح مبنى يطل على السرادق مكون من ستة أدوار ، فبدأت الناس تجرى وتصرخ مستنكرة وهالعة فانهاالت عليهم قوات البوليس ضربا بالعصى الغليظة».



وتصل إنجي أفلاطون إلى قمة الإثارة أو قمة المأساة فى هذه التجربة ، وهى المأساة التى تعتقد أنها أفقدتها حياة زوجها:

«... سألت الدماء وحدثت إصابات كثيرة وقبض على كثير من الأنصار ، لكننا - حمدى وأنا - استطعنا أن نهرب من السرادق واختفينا فترة بين سلالم العمارات المجاورة ، ثم توجهنا إلى سيارتنا ويا للمفاجأة ، وجدناهم قد أفرغوا عجلات السيارة السيتروين الأربع من الهواء ، حقا كم كان تفكيرنا ساذجا وكيف كانت يقظتنا الثورية مخدرة بفعل الديمقراطية المؤقتة السائدة ، فبدلا من أن نترك السيارة ونمضى فى طريقنا مسرعين ، وقفنا نستنجد فى الشارع ونحتج ضد من قاموا بهذا التخريب ، وتقدم أحد الضباط متسائلا: أنت محمد محمود أبو العلا صاحب السيارة ؟ فأجابه حمدى بنعم ، وإذا بعشرة على الأقل من المباحث ينقضون على حمدى ضربا بوحشية ورحت أنا أصرخ صرخات هستيرية طالبة النجدة لحمدى ، وحمدى يكاد يموت من ضربهم .. وفجأة ظهر ضابط كبير فاستنجدت به صارخة إنهم يقتلون زوجى ، فاهتم الضابط بكلامى وسألنى بأدب : اسم حضرتك إيه؟ وبنفس السذاجة قلت له اسمى فرد قائلاً: عال عال .. نحن نبحت عنك ، لدينا أمر بالقبض عليك ، وألقوا بى فى سيارة البوليس ، وكانت بها سيدة هى الأخت الكبيرة للدكتور عبدالعظيم أنيس حيث قبضوا عليها هى الأخرى».

«وانطلقت السيارة إلى قسم الوايلى ، وأنا لازلت فى هيجانى أصرخ وأشتم من شدة قلقى على حمدى ، وفى القسم وجدت عددا كبيرا من الرفاق من أنصار عبدالعظيم ، مقبوضا عليهم ، والحمد لله وجدت حمدى بينهم سليما، وبقينا طول الليل ننتظر التحقيق، ومن المضحك أن التهمة التى وجهت للدكتور عبدالعظيم أنيس كانت هى الاعتداء على الناس الحاضرين فى سرادقه ، أى أنه متهم بالاعتداء على أنصاره! كما أن وكيل النيابة الذى حقق معنا اكتشف أن زوجته حضرت هى أيضا الاجتماع وشاهدت كل شىء».

«فى فجر اليوم التالى تم الإفراج عنا وحفظ التحقيق ، وأتذكر أن الدكتور فوزى منصور والأستاذ كامل زهيرى كانا ضمن المحامين الذين حضروا معنا التحقيق فى قسم البوليس».

هكذا ظنت الفنانة إنجي أفلاطون أن زوجها قد نجا من كل هذا «الضرب» وهي لا تعرف ما خبأته الأقدار عنها ، ونأتى معها إلى الجزء الخاص بحدِيثها عن وفاة زوجها ، وهي تروى بكل الحسرة الأيام الأخيرة من حياة زوجها حين أصر إصراراً غريباً على السفر إلى الإسكندرية والنزول فى نفس الفندق الذى قضيا فيه شهر العسل ، وكأنه كان يحس بدنو أجله وتقول:

«أربع وثلاثون سنة عاشها حمدي ، حقاً حياته كانت قصيرة ، لكنها كانت مليئة بالحب والعتاء والتضحية لمبادئه ، حياته كانت ثرية إلى أقصى حد ، لكنه كان يعيشها كل يوم وكأنه اليوم الأخير له فى الدنيا ، كان دائماً على عجلة من أمره وليس أمامه الوقت الكافى ، كأن قلبه يشعر بما ينتظره من المجهول».

«ودعنا حمدي.. وبقي عندي معلقاً سؤال ملح ومقلق: كيف يموت حمدي وهو فى عتفوان شبابه؟ لم أغب عنه سوى يومين أو ثلاثة ، فكيف مات؟ وما سبب وفاته؟! هل السبب يتصل بضرب رجال المباحث الوحشى له فى ليلة السرادق الذى أقامه الدكتور عبدالعظيم أنيس للدعاية الانتخابية؟! فقد حدثت الوفاة بعد خمسة عشر يوماً فقط من تلك الليلة».

ثم تحدثنا الفنانة إنجي أفلاطون بصدق شديد عن محاولتها التغلب على مأساة الفراق فتقول:

«حاولت أن أتخطى صدمة موت حمدي العنيفة بمزيد من الانغماس فى العمل ، ففى رأى أن العمل هو القادر وحده على مساعدة الإنسان على النسيان ، وتعويضه إلى حد ما عن الشئ العالى والنادر الذى فقده فى غمضة عين.. فاستغرقت نفسى من جديد فى العمل الفنى ، إن الخلق الفنى هو نوع من الولادة اليومية ، فيه كل أنواع السعادة والنشوة ، كما أن فيه المعاناة والعذاب الذى يجده الإنسان فى الحب الكبير».

وتمضى الفنانة إنجي أفلاطون تحدثنا عن الفترة الممتدة ما بين ١٩٥٧ (حيث وفاة زوجها) و١٩٥٩ (حيث اعتقالات الشيوعيين) ، وهى الفترة التى شهدت تألق نشاطها الفنى (أولاً) والسياسى (ثانياً) ، كما شهدت نجاح جهودها فى الاحتفال بالعيد العالمى للمرأة لأول

مرة ، والمشاركة فى المؤتمر الرابع للاتحاد النسائى الدولى فى فيينا والحملة التى شاركت فيها من أجل المناضلة الجزائرية جميلة بوحريد ، وقصة الرسم الذى صممته لجميلة دون أن تراها ، وقصة إنشاء الجمعية النسائية القومية ، وحرصها على إقامة معرض للوحاتها فى نهاية فبراير ١٩٥٩ لإحساسها بأنها مقدمة على الاعتقال.

(٤١)

ونصل إلى الحديث الذى تقدمه مذكرات الفنانة إنجي أفلاطون عن مواجهتها لحملة اعتقالات ١٩٥٩ التى كانت تتوقع بالطبع أن تشملها وهى تحدثنا عن اختفائها وهروبها فتقول:

« ... قلت لنفسى ستشملنا الحملة ولن نفلت نحن النساء من الاعتقال ، وبعد تفكير طويل محاط بتمزق وخوف شديدين اتخذت قراراً خطيراً ، كان من أخطر القرارات التى اتخذتها فى حياتى وهو قرار الهروب والاختفاء والاستمرار فى مزاوله العمل السرى السياسى ، قررت عدم الاستسلام للاعتقال وبطش السلطة وكل ما يصاحبه من تعذيب وإرهاب السجون والمعتقلات ، كنت مدركة إدراكاً سياسياً عميقاً بأن الهدف من هذه الضربة هو تحطيم الحركة الشيوعية والتقدمية تحطيماً شاملاً ونهائياً ، وأنهم سيلجأون إلى أقسى الوسائل لتحقيق ذلك».

وعلى نحو موح تروى لنا الفنانة إنجي أفلاطون قصة حضور المباحث للقبض عليها فى منزلها بينما كانت هى هاربة خارج ذلك المنزل ، وهى تروى ما حدث فى البيت على نحو ما سمعته من أمها وأختها فتقول:

«ومضت الأيام على هذا الحال حتى كان يوم ٢٧ مارس ، ففى الليل ، فى الساعة الواحدة صباحاً رن جرس الباب ، حضرت المباحث العامة ، كانت أمى وأختى مستعدتين نفسياً لاستقبال رجال الضبط.. كما تستقبلان الزوار العاديين ، وأول شىء فعله زوار الساعة الواحدة صباحاً هو قطع سلك التليفون ، ثم أخذوا فى تفتيش البيت ، وعندما وصلوا إلى حجرة أمى اعترضت على تفتيش الحجرة بقولها هذه حجرتى أنا ، تبحثن عنها ، فتشوا عندها فوق حيث الرسم والجناح الخاص بها فى الدور الثانى من الشقة ، فصعدوا وأجروا تفتيشاً دقيقاً ، وأثناء ذلك دخلت أمى حجرتها حيث يوجد تليفون ثان ،

نزعت أمى فيشة ذلك التليفون ووضعت العدة داخل دولاب الملابس وبذلك أنقذت هذا التليفون من القطع ، فظل صالحاً للعمل ، وساعد هذا التليفون على الاتصال بى وإخبارى بما حدث ، كما تم إبلاغ الأصدقاء لأن البوليس راقب شقتنا لمدة يومين اثنين وكانوا يستجوبون الداخل والخارج من البيت ، كما ذهبوا أيضاً إلى بلدتنا المنشبية الصغرى مركز كفر شكر للبحث عنى ، فقد قالت أمى وأختى لهم عندما سألوهما عنى بأننى أحب الريف وأسافر دائماً للريف لأرسم».



وتستأنف الفنانة إنجى أفلاطون حديثها راوية كيف عرفت بمحاولة أجهزة المباحث القبض عليها:

«كان على أختى أن تبلغ الصديقة العزيزة أمينة رشيد لتقوم أمينة بإبلاغى تليفونياً بالخبر ، لكن ذلك لم يتم لأن تليفون أصدقائى الذين أقيم معهم كان قد تعطل ، وكنت فى هذا الوقت بالتحديد على موعد فى محل جروبى ، وقبل مغادرتى المنزل بدقيقة واحدة وصلت أمينة رشيد وأخذت تطرق الباب مثل المجنونة ، فتحت الباب فاندفعت تقول لى: بولى أصابها نزيف (كانت هذه العبارة ترمز حسب اتفاقنا إلى مدهامة الشرطة) ، فقلت لها أنا أمامك والحديث وجهاً لوجه ، وليس فى التليفون .. وضحكت .. فحكاية النزيف كانت كلمة السر المتفق عليه لإبلاغى بالتليفون .. كانت أمينة مضطربة ومستوترة ، ولولا حضورها لذهبت إلى الموعد فى جروبى ، ولكان قد قبض على غالباً فى جروبى أو فى الشارع».

(٤٢)

وتورد الفنانة إنجى أفلاطون بعض التفاصيل الشيقة عما صادفته أثناء هروبها واختفائها فى بيت صديقة لها فى القاهرة ثم فى السويس لمدة خمسة وأربعين يوماً ثم فى شبرا ، حيث كانت تتخفى فى زى بنت البلد وهى تقول:

«... شبرا هى المكان الثانى والأخير الذى عشت فيه متخفية إلى أن اعتقلت. لقد درس الحزب أثناء وجودى فى السويس كل الظروف التى تجعل إقامتى بالقاهرة آمنة. وقع

اختيارهم على مكان بحى شعبي ، فى شبرا جة روض الفرج ، وجهزوا لى الملابس التى تساعدنى فى التنكر والاختفاء ، وذلك لتسهيل حركتى ومزاولة مهماتى السياسية».

«أجرت غرفة فى شقة مكونة من ثلاث حجرات. هذه الشقة تستأجرها وتقيم فيها أسرة من شخصين ، سيدة متقدمة فى العمر وزوجها وهو رجل عجوز. أسرة فقيرة ، قلت إنى هاربة من بيت الطاعة ، وطلبت أن أقيم معهما فى غرفة ، وأغرتهما بالإفناق عليهما ، على أن أتكفل بجميع المصاريف».

«وفرح الزوجان بذلك كثيرا».

«وصلت إلى شبرا فى الليل بصحبة أمينة رشيد ، وتوجهت للشقة ، دخلت حجرة السيدة وزوجها فوجدتها ذات جمال خاص رغم بساطتها ، كان بالغرفة سرير عروسة «بمبة» وطبيلة للأكل عليها ، وكليم يغطى الأرض غاية فى البساطة ، وقد أغرانى جمال هذه الغرفة فرسمتها ، فكانت هذه إحدى لوحاتى المهمة التى أحبها ، ثم دخلت الغرفة التى سأقيم فيها ، فإذا بالسرير ملىء بالبق وقد جلست طول الليل أقتل هذا «الأكلان» دفاعا عن نفسى ، وفى الصباح اشترت المبيدات لمحوه من الغرفة ، كذلك اشترت مرتبة جديدة وأشياء أخرى بسيطة لكنها لم تغير أو تبدل من كآبة هذه الشقة».

«أما عن الزى الجديد فكما قلت أنا لست فقط معروفة لدى الحكومة ، ولكنى معروفة للكثيرين نتيجة الحملة الصحفية القديمة علىّ ، هذه الحملة جعلتني وجها معروفا فى الشارع ، لذلك كان من الضرورى تغيير مظهرى للتمويه».

«أعد لى الرفاق زى بنت البلد ، فلاحه جاءت إلى المدينة ، وكان هذا الزى غاية فى الاتقان والدقة ، لم يكن زى الفلاحة القروية ولا هو زى سيدة المدينة ، كان يجمع بين الاثنين ، عبارة عن جلابية «ماكس» ومنديل «بأوية» يقطع الجبهة ، وطرحة سوداء وشراب وحذاء سميكين ويمتازان بالمتانة ، وكنت أكحل عيني. وكانت المرة الأولى التى أضع فيها «الماكياج» على وجهى ، وبسبب هذه الملابس المنسجمة كنت أتلقى المعاكسة فى الشارع من شباب الحى ورجاله ، وكثيراً ما قالوا بنت البلد البيضاء الحلوة ، وكنت أضحك من كل قلبى على تعليقاتهم ، أما زملائي فلم يكونوا يحتملون الجلوس معى وأنا لابسة المنديل والطرحة ، وكانوا يطلبون منى العودة لطبيعتى المعروفة بكشف الرأس لأن شكلى متغير جداً ، هكذا كانوا يقولون».

وبالطبع فقد كان لابد من النهاية التي لا بد منها مثل هذه المحاولات ، فها هي ذى تقع فى قبضة الشرطة ، وهى تحدثنا عن قصة القبض عليها وكيف استطاعت التخلص من التقرير الذى كان بحوزتها ، وانطباعاتها عن الضباط ورئيس النيابة الأستاذ أحمد موسى الذى تحكى عن نبلة وإنسانيته وتشيد به دون أن نخبرنا هل هو نفسه المستشار أحمد موسى الذى صار بعد ذلك نائباً عاماً ووزيراً للعدل ومدعياً اشتراكياً ووكيلاً لمجلس الشعب !!

ثم تدخل بنا صاحبة هذه المذكرات إلى سجن النساء بالقناطر الخيرية ، وتحدثنا عن ذكرياتها عن هذا السجن ، وتبدو هذه الذكريات آناً ممزوجة بالمرارة ، وآناً أخرى ممزوجة بالسخرية ! ولكنها تُعنى عناية خاصة بأن تروى لنا كيف حصلت على حق الرسم داخل السجن ، سواء بالمساومات المادية أو السياسية ، وتحكى لنا كثيرا من أسرار السجون حيث المخدرات والقتل والقوادة والدعارة والشذوذ... إلخ ، كما تحكى قصة نقلها إلى قصر العينى للعلاج ، وقصة محاكمتها ودفاع الأستاذ محمد عبدالله وارتباك سمير ناجى ممثل الادعاء ، وعودتها إلى سجن القناطر .

ومن بين الفقرات المهمة فى حديثها ننقل للقارئ تلك التى تتحدث فيها بإجمال عن معاناة اليساريين فى تلك الفترة:

«كانت هذه الفترة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ تمثل حملة شرسة على الحركة اليسارية عموما والشيوعية تحديدا ، كانت محاولة لتحطيم الحركة الشيوعية والقضاء عليها ، فبالنسبة للمعتقلين الرجال فقد تعرضوا - كما هو معروف - لأبشع أنواع التعذيب الجسمانى والأشغال الشاقة ، أما بالنسبة للنساء فكانت هذه أول مرة يتم فيها اعتقال نساء ، وقد حرصت السلطة على إخفاء خبر اعتقالنا وكانت الأوامر حاسمة بمنع نشر أى شىء يتعلق بهذا الموضوع فى الجرائد ووسائل الإعلام ، وقد اعتمدوا على نوع آخر من التعذيب ، إنه التعذيب المعنوى الذى يهدف إلى تحطيم أعصابنا وإضعاف معنوياتنا ، وذلك بعزلنا عزلا تاما عن العالم الخارجى» .

«كانت هناك محاولة لقتلنا قتلًا بطيئا ، فالاعتقال كما هو معروف يجعلنا نخضع لسلطة وزارة الداخلية والمباحث العامة ولا نخضع للقوانين واللوائح السارية على المسجونين العاديين ، وكانت الأوامر التى صدرت لإدارة السجن كما يلى:

«عزلنا فى عنبر منفصل عن جميع السجينات الجنائيات ، ومنعنا من الاتصال بهن وذلك تجنباً «لبث أفكارنا المسمومة لديهن».

«إغلاق العنبر طوال ٢٤ ساعة باستثناء ساعة فى الصباح للذهاب لدورة المياه ، وقضاء الفسحة ، وساعة فى المساء قبل غلق العنبر للتموين بالماء وتنظيف الجرادل ساعة تمام السجن».

«الزيارة ممنوعة منعاً باتاً».

«ممنوع الجرائد والكتب والكتابة وحياسة الأقلام وهى أشياء حيوية بالنسبة لأى مثقف».

«ممنوع مزاوله أى عمل من الأعمال التى تزاولها بقية السجينات كمحو الأمية أو التطريز أو تدريس الموسيقى».

«وقد استطعنا ممارسة معظم هذه المنوعات بمرور الوقت باستثناء الزيارات طبعاً.. وذلك بجهودنا الخاصة».



وتبدو الفنانة إنجى أفلاطون فيما ترويه عن فترة اعتقالها حريضة على أن تفخر بواقعيتها وذلك فى مقابل تفاؤل زميلاتها بالإفراج القريب:

«كنت مقتنعة أن الاعتقال سيدوم مدة طويلة ، وذلك لأن الإرهاب الخارجى كان فى منتهى العنف ، ولأن الوضع السياسى بكل تفاصيله لا يبشر بخير».

«لقد وصلت السجن فى ١٩ يونيو ، وفى ٢٣ يوليو كانت هناك حالة خاصة ، حالة من الترقب وانتظار أى قرار بتخفيض المدد أو بالإفراج وذلك بالنسبة للمسجونات العاديات ، ودون أن نشعر انتقلت إلينا هذه العدوى ، رغم تفكيرنا وتحليلنا المنطقى للظروف السياسية السائدة التى تتنافى مع هذا الإحساس ، فكنت أقول للزميلات: هذا جنون ، فلن نخرج حالياً.. أمامنا فترة طويلة ، واتهمنى بأننى متشائمة ، والحق أنه لم يكن تشاؤماً ولكن الوضع السياسى وقتها كان لا يسمح أبداً بالإفراج .. ورغم كل هذا كان بصيص من الأمل يداعبنا بمناسبة يوم ٢٣ يوليو.. ثم لا يلبث أن يتلاشى ويحل محله إحساس عميق بخيبة الأمل.. وبعد ذلك خرجنا فعلاً فى ٢٦ يوليو ولكن عام ١٩٦٣».

«ثم جاء عبدالقادر فهمى سنة (١٩٦٠ - ١٩٦٢) تقريباً فكانت مرحلة توليه المعتقل من أسوأ المراحل التى عشناها».

وتشير إنجي أفلاطون إلى شجاعة وإنسانية الدكتور محمد عبد المنعم المفتى الذى هيا لها الإقامة فى مستشفى قصر العينى بدعوى المرض:

«وفى هذه الفترة أحسنا بالملل وطول الوقت ، ولم يكن من الممكن أن يساعدنا أحد سوى الأطباء ، فهم الذين يستطيعون أن ينقلونا إلى المستشفيات ، وقررنا أن نذهب إلى المستشفيات طالما أن الاتصال بالخارج والزيارات أصبحت مستحيلة ، وبذلنا مساعى كثيرة، وادعيت أننى مصابة بمرض جلدى خطير ، وبالفعل نجحت عائلتى بالاتصال بطبيب بقصر العينى والاتفاق معه على بقائى للقيام بتحليل لأن المرض خطير!! كان ذلك فى عام ١٩٦٠ ، وكان هذا الدكتور الذى وافق على بقائى فى القصر تحت مسؤوليته هو عبد المنعم المفتى ، وكان رجلا شجاعا وإنسانا بحق ، فهو لم يخف كبقية الأطباء الذين كانوا يتهربون من «بولى» أختى إذا طلبت منهم أى شىء».

وتعود إنجي أفلاطون فى صفحات تالية للحديث عن الحياة الجماعية فى السجن ، وعن إضراب النساء فى السجن ، وعن الإفراج عن بعض زميلاتها واتصالها بسجن الرجال فى الواحات وسجن القناطر المجاور وهى تقول:

«فى السجن لا يعرف أحد التاريخ باليوم والشهر ، فالأيام تضى متشابهة كما تضى الشهور كذلك ، أما تحديد ميعاد الوقائع فيتم بربطها بأحداث عامة مشهورة ، وعلى هذا الأساس يكون تعيين موعد الإضراب بأنه كان فى شهر ديسمبر ١٩٦٢ ، وكان هو أول إضراب سياسى فى تاريخ السجون النسائية المصرى».

«وقبيل بدء الإضراب تمكنتُ من الذهاب لمستشفى قصر العينى وهناك التقيت بأختى وأخبرتها بالإضراب لتعمل على توصيل الخبر للخارج حيث كانت لها اتصالات بالمنظمات الديمقراطية ، وأوصيتها أن تهتم بالاتصال بالاتحاد النسائى الديمقراطى العالمى لأن هذا الاتحاد كان فى ذلك الوقت يقود حملة دولية للمطالبة بالإفراج عنا».

«وفى اليوم السابق على الإضراب أرسل زملاؤنا فى سجن الرجال المجاور نصائحهم بأن نشرب «الشربة» كثيراً ونمتنع عن بذل أى مجهود كيما يطول الإضراب ، وفى الليلة

السابقة على بدء الإضراب أكلنا كثيراً ، وشربنا كثيراً وكنا جميعاً فى غاية الحماس وعلى أتم الاستعداد».



وتمضى الفنانة إنجي أفلاطون فى تفاصيل محاولات إدارة السجن التغلب على الإضراب إلى أن تقول :

«فى ذلك الوقت حصلت مسألة مثيرة ، أولاد الكلب عملوا عملية لكسر الإضراب ، ونادوا على ثريا شاكر زوجة فؤاد حبشى : لك ياثريا زيارة».

«انتعشنا للخبر وأسرعت ثريا للإدارة ، وجدت ابنها البالغ عمره ١٣ سنة ، رتبوا هذه الزيارة ليقنع الولد أمه بوقف الإضراب بعد أن أفهموه أن أمه فى خطر ، وكان الولد يبكى بحرقة خوفاً على حياة أمه ، وهى سيدة مناضلة عظيمة ، لكنها كانت فى حالة صعبة ، فزوجها هو الآخر معتقل ، والأولاد محرومون من الأب والأم ، وكانت أحياناً تشعر بالإغماء ، الأمر الذى بعث على الشك بأن القلب يعانى ، لكن ظهر بعد ذلك أنه سليم. أصرت ثريا على مواصلة الإضراب ورفضت أن تشرب عصير الليمون الذى قدموه لها ضاغطين عليها لتشربه».

«وقد أهاجنا هذا الحادث واندفعنا للإدارة وأخذنا الولد فى أحضاننا ، كان يقول أنتن فى صحة لكن أمى تعبت ومعرضة للموت .. قلنا له : لا تصدقهم ، هدأت نفسه وانتهت الزيارة على خير».

«كنا تقدمنا للمأمور فى بداية الإضراب بمذكرة أعلننا فيها أننا نرفض جميع الزيارات طالما نحن مضربات ، لكنهم رغم ذلك رتبوا هذه الزيارة المشبوهة والحمد لله لم يتجحوا».



ومع هذا كله تعترف الفنانة إنجي أفلاطون بصعوبة الإضراب والاستمرار فيه فى أكثر من فقرة ، منها قولها:

«كنا نقول إن الاهتمام بالطعام وعملية تحضيره عامل مهم فى مرور الوقت. لقد قال الزملاء المحربون إن إحساسنا بالجوع سيكون فى البدء ، ثم بعد ذلك لن نشعر بشيء ، وظهر لنا أن هذا الكلام غير صحيح ، فطول الوقت كنا جائعات ، كنا نحلم بالأكل ونتكلم فى الأكل .. مع قليل من السياسة».

«إن الإضراب عملية ليست سهلة وتحتاج لتجميع الإرادة مع الشعور بالتحدي. بعض الزميلات كانت تطراً عليهن حالات ضعف وإغماء ، وفي هذه الحالة كنا ننفذ وصية زملائنا أهل الخبرة بأن نبلل اللسان بالماء والملح ، وكنا نخشى نقل هذه الحالات للمستشفى لأن عدداً كان قليلاً بعد الإفراج عن الزميلات الخمس ، فضلاً عن العدد الذي كان يعالج بقصر العيني ، أما زميلتنا ميري اليونانية فلم تكن مشتركة في الإضراب لكنها كانت تقدم لنا جميعاً كل المساعدات وتقوم على خدمتنا خير قيام ، وقد حاولت أُمى المساعدة على طريقته كانت مدعوة لحضور حفلة كبيرة ، وأخبرتها أختي بولي أنها تستطيع أن تتحدث مع من ترى في الحفلة حول الإضراب وسوء المعاملة».

«وأخيراً حان الوقت لمناقشة إنهاء الإضراب ، كان شعارنا «الإضراب حتى الإفراج». وتمسكت بعض الزميلات بهذا الشعار ، لكنني استطعت بصعوبة إقناعهن بوقف الإضراب حرصاً على حياتنا ، وخوفاً من أن يحدث ضعف أو تأثير يؤدي للخروج من الإضراب ونخسر كل شيء ، وقد ساعدنا أن الزملاء في سجن الرجال كانوا يلحون علينا في فك الإضراب ، وكان إضرابنا النسائي الأول في تاريخ السجن استمر سبعة عشر يوماً بالتمام».

«بعدها أعلننا انتهاء الإضراب وطلبنا تحرير محضر».

(٤٥)

وعلى صعيد آخر تروي إنجي أفلاطون قصة الزيارة التي تمكنت والدتها من الحصول على إذن بها حيث التقت الأم مع ابنتها إنجي في حضور أحد الضباط ، ونحن نرى الأم وقد ألفتها المواقف إلى المشاركة في التديرات السياسية التلقائية وتقول:

«في هذه الزيارة كان لا بد أن يتشعب الحديث وأن يمتد إلى الحالة في البلد .. لكن الضابط جالس يرصد كلامنا.. هنا قامت أُمى بدور تغطية حديثي مع أختي ، شغلت الضابط بحديث متصل ، توزع بذلك اهتمامه بين حديث ماما وحديثي مع أختي ، وبذلك

تمكنت من معرفة أشياء وأخبار تهمنى ، وفتحت لفة الطعام ، تفاح وفرخة محمرة ، سال لعابى ، لكنى قلت سأخذه معى للسجن ، قال الضابط : لازم تأكله أمامى هنا ، كيف أتناول الغداء فى الساعة العاشرة صباحاً؟ وطبعاً أنا جائعة لكنى حملت هم زميلانى ، لكن حضرة الضابط أصر على رأيه ، وقالت أختى لازم المحافظة على الحياة والبعد عن الاستفزاز لأن الحالة سيئة والجو بشع والمقاومة مستحيلة ، وفى معتقل أبى زعبل يجرى التعذيب يومياً والضرب مستمر والحرمان شديد».



وفى صفحات عديدة ومواضع متفرقة من هذه المذكرات تحرص الفنانة إنجي أفلاطون على أن تثرى معلوماتنا ومعرفتنا بما أدركته من الخبرة والتجربة فى السجن ، وهى تحدثنا عن تفصيلات التفتيش والتأديب فى السجن!! وعن عنبر المدد الطويلة ، كما تحدثنا أكثر من مرة عن العلاقات الشاذة فى السجن ، وفترات الترويح والطرب فى السجون:

«وفى سجن النساء حجرة مخصصة لتعليم الموسيقى ، تتولى مهمة التعليم مسجونات متطوعات ، وكانت الحجرة أمام عنبرنا نحن المعتقلات السياسيات ، لكن لم تكن لنا بهذه الحجرة صلة لأنها مخصصة فقط للمسجونات».

«وكنا نسمعهم يرددن أغانى صلاح جاهين وعبد الحليم حافظ مثل «دقت ساعة العمل الثورى» و«قلنا هاتبنى السد» وغيرها من الأغانى الوطنية. لكن هذه الأغانى كانت بالنسبة لى كابوساً ثقيلاً لأنها تتعارض مع ظروفنا وأوضاعنا فى المعتقل».

«وكانت لنا زميلة مسجونة وليست معتقلة ، هى ماجدة ، سيدة يهودية من مواليد إسكندرية وتحمل الجنسية الإيطالية. كانت مناضلة فى الحركة الشيوعية المصرية ، كما كانت موسيقية موهوبة ، وقد تطوعت لتعليم المسجونات العزف على الكمان».

«ورغم إخلاصها وصلابتها فى النضال ، فإن الحظ السئ لازمها فى حياتها الخاصة ، كان معروفاً أنها زوجة الزميل كمال عبد الحليم ، وقد حكم عليها فى قضية شيوعية بالسجن مدة ثلاث سنوات ، وتم ترحيلها بعد انقضاء المدة إلى إيطاليا. لكنها عادت لمصر واستأنفت كفاحها السياسى.. حتى تم ضبطها فى قضية وحكم عليها بالسجن لمدة سبع سنوات ، وقد أهملها زوجها وانقطعت علاقته بها تماماً ، كان تأثير ذلك عليها شديداً».

«كانت ماجدة تعيش في السجن في غرفة (شيك أوى) مع اثنتين ، هما مارى بابندوبلو ومارسيل لين».

«مارى يونانية الجنسية ومناضلة في الحركة الشيوعية المصرية ، وكان محكوما عليها بالسجن وتم ترحيلها بعد قضاء العقوبة إلى بلدها اليونان حيث تعيش الآن».

«أما مارسيل لين فكانت صهيونية كبيرة ، حكم عليها بالسجن في قضية صهيونية شهيرة ومعروفة بمؤامرة لافون. وقد تم إعدام ثلاثة من المتهمين في هذه القضية».

«كن يعشن حياة جماعية مشتركة ، وهي حياة تقوم على المشاركة في كل شيء دون اعتبار للملكية الخاصة».

«وقد اعترضنا نحن على هذه الحياة المشتركة بشدة ، فلا يجوز أن تعيش ماجدة ومارى المناضلتين الشيوعيتين في حياة مشتركة مع الصهيونية الكبيرة مارسيل لين ، لم نقبل ما قيل لنا من أن مارسيل اعترفت بالخطأ ونقدت نفسها نقدا ذاتيا. كانت مارسيل تعمل لحساب الصهيونية ، لذلك لم نختلط بها واقتصرنا على الناحية الإنسانية بعيدا عن السياسة».

«وكنا نرسل لماجدة ومارى من طعامنا وأشياتنا النافعة».

«لكننا لم نشرك مارسيل أبدا في أي شيء».

«وقد تم الإفراج عن مارسيل بعد النكسة عام ١٩٦٧ وقبل أن تكمل مدة العقوبة ، وكان هذا الإفراج مقابل الإفراج عن مائة أسير مصرى».

«وقد تزوجت في بلدها إسرائيل من ضابط كبير وحضر فرحها موسى ديان».

لا نشير إنجي أفلاطون إلى المصدر الذي عرفت منه هذه المعلومة الأخيرة.



ولابد أيضا أن نشير إلى بعض ما ترويه الفنانة إنجي أفلاطون في هذه المذكرات عن علاقتها بكل من شقيقتها وزوجها:

«كانت أختى بولى قد عادت منذ فترة من باريس. وتم زواجها من إسماعيل صبرى عبدالله عام ١٩٥١ بعدما عاد من بعثته في فرنسا حاملا شهادة الدكتوراه بامتياز في العلوم الاقتصادية. وعين مدرسا في كلية الحقوق بجامعة إسكندرية. أقامت أختى بولى مع

زوجها فى إسكندرية ، فكنا طبعاً نتقابل كثيراً وتوثقت علاقتنا العائلية ، وكذلك علاقتنا الفكرية والرفاقية. فقبل إسكندرية كنت أعرف إسماعيل من لقاءات سريعة وعابرة فى باريس ، وبالاختلاط به بعد زواجه من أختى الحبيبة اكتشفت فيه الشخصية القوية الجذابة مع ثقافة واسعة وشاملة ، وذكاء سياسى فائق وإخلاص لمبادئه ومعتقداته إخلاصاً كاملاً».

«وفى إسكندرية التقيت أيضاً بأختى زهرة. هى أختى من أبى ، لم نكن قد التقينا بها من قبل لأننا كنا نعيش مع أمنا وهى تعيش مع أمها. وتقاليد عائلتها تختلف عن تقاليدنا. كانت زهرة أصغر منى باثنى عشر عاماً ، وحين كبرت أرادت أن تتعرف علينا وأسعدنا هذا جداً ، واختلطنا بالاختلاط العائلى ، ولما واجهتها مسألة الزواج قررت أن تتبع طريقتنا فتزوج بمن تحبه ولا ترضخ للطريقة التقليدية ، وقد تزوجت مهندساً شاباً نابهاً كان يعمل فى بلدية إسكندرية وألحبت منه حسين ، وإنجى. كانت لدى أختى زهرة ميول فنية واضحة وتعلمت على الفنان الكبير سيف وانلى واشتركت بلوحاتها فى عدة معارض جماعية فى الإسكندرية وفى القاهرة ، لكنها لم تستطع التفرغ للإبداع الفنى لكثرة مسؤولياتها العائلية. وكانت مصيبتنا كبيرة أن خسرتها ، كانت حياتها قصيرة ، ففى عام ١٩٧٧ توفيت فى حادث سيارة مروع قضى على الأسرة الصغيرة ، عليها وعلى زوجها ومعهما ابنتهما إنجى ، أما ولدهما حسين فقد كتب له القدر السلامة ليكون خلفاً لخير سلف».

(٤٦)

وفى نهاية الكتاب يكتب الأستاذ سعيد خيال فى الهامش: «تم القبض على إنجى فى يونيو ١٩٥٩ ، وتم الإفراج عنها يوم ٢٦ يوليو ١٩٦٣ مع زميلاتها المعتقلات ، وهكذا أنهت إنجى مذكراتها ، فقد كان تصميمها منذ البداية أن المذكرات حديث عن الذات والمجتمع ، بالكفاح ، والعمل ، وبانتهاء ما هو عام ، ينتهى هذا الحديث».

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحزبية

5

**حملة تفتيش أوراق ذاتية
للدكتورة لطيفة الزيات**

دار الخيال

(١)

يصعب على المرء أن يصل إلى مغزى عنوان هذه المذكرات إلا حينما يصل إلى صفحاتها الأخيرة حين يجد المؤلفة تروى القصة التي كانت تتكرر معها في السجن ساعة التفتيش على الأوراق الشخصية فإذا ما وصل القارئ إلى النقطة التي يفهم عندها سر التسمية فإنه يستنشق الهواء ليأخذ نفساً عميقاً لأنه فهم أخيراً المعنى الذي بحث عنه.

ولكن القارئ يعود إلى ما فكر فيه من قبل ، حين كان قد وصل إلى منتصف الكتاب وظن ، وبعض الظن يؤدي إلى بعض الصواب أن المؤلفة تفتش في أوراقها الشخصية عن بعض ما تقدمه للقارئ .. ويعود القارئ إلى هذا الظن ، فيظن أنه قد يجد مكاناً أيضاً في دنيا الحقيقة .

ثم يغفو القارئ ويستيقظ فإذا به يحدث نفسه أن أستاذة الأدب استخدمت قدراتها وخبراتها الأكاديمية فيما قرأت ونقدت ودرست وحللت من قبل ، فإذا هي قادرة على أن تفتش في أوراقها الشخصية على معان كبيرة جدية بأن تصوغ فكرة كاملة عن اتجاه معين ، ولهذا فإن المؤلفة ركزت هذا التفتيش بل قامت من أجله بحملة على أوراقها الشخصية لتكتشف لنا من خلال هذه الأوراق سيرة حياة تقدمها لنا على نحو جذاب وطريف .

بعد هذه المقدمة أحب أن أعترف أن هذا «القارئ» هو كاتب هذه السطور الذي ظل طوال شهر كامل متردداً في اتخاذ قراره بشأن الزاوية التي يجدر به أن يصور من خلالها

هذا الكتاب وهو يعيش الأمل أن تكون لفظته أو لقطاته معبرة بقدر ما هي فنية أيضاً ، ومع هذا فإنه لا يزال يضطرب بين الدلالات الثلاث التي عبرت عنها الفقرات الثلاث التي بدأ بها هذا الفصل ، وإن كان بالطبع ميالاً تماماً إلى الدلالة التي تنبئ عنها الفقرة الثالثة ، فهو مؤمن تماماً بأن الدكتورة لطيفة الزيات أرادت أن تحكى قصة حياتها على نحو ما يحكى الناس قصة حياتهم بعد ما حكتهما على نحو ما يرويها الروائيون فى عملين أدبيين من قبل ، ومع هذا فإن الدكتورة لطيفة الزيات كانت تضع عيناً على الحياة التي عاشتها ، وعيناً أخرى على الحياة التي ظنت أنها كانت تحياها ، وإذا هي تجاهد جهاداً شديداً لتبحث عن الذات ، ولولا أن أنور السادات سبق إلى تسمية سيرة حياته بالبحث عن الذات لاتخذت الدكتورة لطيفة من هذا الاسم عنواناً لهذا الكتاب ، فليس فى مكتبتنا العربية كلها كتاب يصدق عليه هذا العنوان بمثل ما يصدق على هذا الكتاب ، ومن العجيب أن مؤلفة هذا الكتاب لاتزال تبحث عن ذاتها حتى بما كتبه فى هذا الكتاب وظنت أنه نهاية البحث أو نهاية المطاف .. ولو كانت الدكتورة لطيفة الزيات قد وجدت ما تبحث عنه لما كان لنا حظ فى أن نجد هذا المؤلف الممتع الذى لا يتولد إلا من القلق ، قلق البحث وقلق التعبير عن الضالة المنشودة حين يلجأ البحث العقلى بعد يأسه إلى القلم وهو يحاول أن يجدها - الذات - فإذا بالقلم وسيلة من أكثر الوسائل فعالية ، وإذا به أيضاً يمثل غاية من غايات التعبير عن الأمان بالوصول إلى الحقيقة الجزئية فى رحلة البحث عن الحقيقة الكبرى .

(٢)

يطالع القارئ هذا الكتاب فإذا به فى صفحاته الأولى يحس أنه يفتقد « التركيز » ، فإذا ما وصل إلى صفحاته الأخيرة أحس أنه فى حاجة إلى « التخفيف » ، كذلك فإن القارئ يستمتع مع المؤلفة باللمسات الإنسانية فى الفصول الأولى ، ولكن استمتاعه هذا لا يقاس أبداً باستمتاعه وهو يلهث فى الفقرات الأولى والأخيرة من الفصل الأخير .

ها هى الدكتورة لطيفة الزيات تكاد تجزم بأنها وصلت إلى الحقيقة وهى تحدثنا قرب نهاية الكتاب حين توهمنا بذكاء وخبرة أستاذة الأدب أنها «تعترف» بينما هى «تعبّر عن رأى ذاتى» وواضح وصريح فتقول:

«ولم أعرف إذ ذاك ماهية وأهمية ماقلت ، ولكنى أعرف الآن. كانت رؤيتي للحقيقة قد عانت أثناء زيجتي [تقصد الزيجة الثانية] متغيرات تكاد تسمح عنى الفتاة والمرأة التي كنتها قبل هذه الزيجة. وكنت وأنا أكتب الباب المفتوح أبعث حية ، دون أن أعى أنى قتلت ، الفتاة الغارقة حتى الأذنين فى العمل الجماهيرى بين الطلبة ، والمرأة الغارقة حتى الأذنين فى العمل السرى بعد تخرجها سنة ١٩٤٦ ، هذا العمل الذى أودى بها وبزوجها الأول إلى السجن ، وكنت أعلن على الملأ ، دون أن أعى وعياً كاملاً ، تفضيلى للطريق الذى اختطته هى ، الطريق الذى اخترته أنا يوم أقبلت على زيجتى الثانية ١٩٥٢. والإنسان فى هذه الرواية لا يجد نفسه حقاً ، ولا يستعيدها متكاملة ، إلا إذا فقدوها بداية فى كل أكبر من فرديته الضيقة. والباب المفتوح الذى يتيح الرضا الحق عن الذات هو باب الانتماء إلى المجموع ، إلى الكل ، فعلاً وقولاً وحياة».

«ولم يكن بعث امرأة سجن الحاضرة فى وجدانى بعثاً فى الواقع ، ولا كان من المتصور أن يكون البعث بهذه السهولة بعد أن عانت الشخصية من المتغيرات ما عانت ، كان بعثاً بالتمنى على صفحات كتاب ، توهمت أنى لو أكملته لاستطعت أن أنهى زيجتى الثانية ، ولكنى من جديد. وكان هذا هو سرى الذى حثنى حتى اكتملت الرواية ، وفى لحظات ، وخاصة قرابة النهاية ، يثت من اكتمالها ، واكتملت دون أن تعاودنى القدرة على وضع القرار موضع التنفيذ. وقال صديق يسارى عقب صدور الرواية:

«كل من قرأ الباب المفتوح دهش لأنك لم تتغيرى».

«ووجمت. لم يكن خطر بيالى أنى تغيرت ، ولا أنى توقفت عن الإيمان بما آمنت به طوال حياتى ، ولا أنى غيرت انتماءاتى. وكنت أعرف أن الرجل الذى أحبيت وتزوجت مختلف عنى ، وكنت على مدى سنين معه قد ضعفت وسلمت بالكثير ، وإن لم أسلم قط بعقلى ، ولا بهذه النواة الصلبة التى تشكل جوهر وجودى ، والتى تمسكت بها ، على غير وعى ، تمسكى بوجودى. ولكنى أعرف الآن أنى مارست طوال هذه الفترة خداعاً للذات لكى تستمر الزيجة. صحيح أنى لم أسلم فى النواة الصلبة التى شكلت إمكانية الخلاص ، ولكن الصحيح أيضاً أن هوة فصلت فى السنين الأخيرة من زيجتى بين الرؤية والواقع المعاش ، بين الرغبة فى الفعل ، والقدرة على الفعل ، بين ما آمنت به عقلياً ، وبين ما عشته فعلياً ، وأن هذه الهوة أسلمتني إلى الشلل فى ظل شعور حاد ومتزايد بأنى أقف فى المدار الخطأ ، ولا أملك لوقتى تبديلاً».

هكذا نجد أنفسنا أمام قدرة أدبية مقتدرة على تصوير واقع نفسى صعب لا على نحو ما وقع بالفعل ، ولكن على نحو ما تريده المؤلفة فى ظل عقيدتها ، فإذا بقدرتها الأدبية العالية تمكنها من تصوير الأمر كما لو كان صراعاً قد تحقق تماماً على نحو ما صورته بدقة !!

وفيما بعد ثلاث صفحات من الفقرة التى استشهدنا بها فى فقرتنا السابقة نجد صاحبة هذه المذكرات تقود خطواتنا إلى طبقات أعمق فى حياة صاحبة السيرة أو صاحبة الحياة أو صاحبة الأوراق ، فإذا بنا معها وهى تقود حملة التفتيش على هذه الأوراق التى تعترف فيها (ص ١٤٣) وتقول:

«فى مراهقتها عرفت الفتاة فورة الجنس ، وبحكم تربيتها وجديتها صادرتها ، وفى ظل شعور حاد بالذنب دفعت فى أعماقها الأنثى حتى غابت عن وعيها ، أو كادت ، لا يتبدى منها إلا هذا الخجل الذى تستشعره من هذا الجسد الممتلئ ، الغنى بالاستدارات ، وفى صعوبة كانت الفتاة تقطع الطريق من الجانب المخصص للقراءة إلى الجانب المخصص لأرفف الكتب فى حجرة الاطلاع فى مكتبة جامعة فؤاد الأول ، يخيل إليها وهى تعود بمرجع من المراجع أن كل عيون من فى القاعة مركزة عليها ، وتفضل الهروب من القاعة إذا ما اتضح لها أنها لم تلتقط المرجع المطلوب ، وتطلب الأمر معاودة الرحلة فى ظل العيون المتربصة».



«ويصعب على الإنسان تصديق التطور الذى حدث لهذه الفتاة بعد سنتين من بداية دراستها الجامعية ، والحركة الوطنية تتصاعد فى مد نورى فى الجامعة ، وهى تتقدم تلقى الخطب الرنانة على سلالم إدارة الجامعة ، وعلى عتبة كلية الحقوق ، وعلى منبر قاعة الاحتفالات ، وعند نصب الشهيد عبد الحكيم الجراحى ، وهى تعقد الاجتماعات وتقود المظاهرات وتتصدى للرفض الذى يشكله طلبة الإخوان المسلمين. لم يعد جسدها يربكها، لم تعد تشعر أن لها جسداً. نسيت [هذا] ، والناس تعيد صياغتها ، تمدها بقوة لم تكن لها أبداً ، وبنقطة لا حدود لها ، ترفعها على الأكف كالراية ، تُنصبها مفكرة وزعيمة.

(٤)

وهكذا استطاعت الدكتورة لطيفة الزيات طيلة هذه المذكرات أن تقنعنا كيف تخطت رحاب الجنس إلى الرحاب الإنسانية الأكثر رحابة وشمولاً ، وهي تعترف في موضع آخر بهذا المعنى فتقول في وضوح شديد :

« ... ومن منطلق الإنسان لا الأنثى ، تعاملت الفتاة في النطاق العام ، وهذا شيء صحي ، وفي النطاق الخاص ، وهذا شيء أوجبه مقتضيات العمل السياسي ، والصورة التي رسمها لها الناس وتبنتها. (عندما تفكر في الأمر الآن يخيل إليها أن الناس حوّلوها من إنسان إلى صورة حرصت هي على الاندراج في إطارها ، إلى أسطورة حاولت هي أن تعيشها. وأن تحطيم هذه الأسطورة كان أمراً محتماً ، لكي تستطيع أن تعيش بعد أن انتقلت إلى النقيض بمحمل ملكاتها كإنسان وأنثى. وأرجو ألا يكون هذا تبريراً وخداعاً جديداً للذات)».

نحن نراها كما لاحظ القارئ تضع الأقواس وكلاماً بين الأقواس بينما المفترض أن الأوراق الشخصية تخلو من مثل هذه التعقيبات الأكاديمية ، ولكن ماذا في وسع المؤلف أن تفعل في حياة حفلت طيلة عمرها بهذا الصراع الفكري الممتد.

وهي تحدثنا في مواقع كثيرة من هذا الكتاب عن هذا الصراع بين صورتين حقيقيتين لصاحبة التجربة ، بل إن في وسعك أن تقول إن الكتاب كله يحدثنا عن هذا ، بل إن في وسعك أيضاً أن تقول إن الكتاب كله لا يحدثنا إلا عن هذا ، ولكنك لا تستطيع أن تتجاهل أن هذا الصراع يحتد في بعض الصفحات بينما يسكن في صفحات أخرى.

(٥)

وها هي ذى الدكتورة لطيفة الزيات في إحدى لحظات الصراع المستكن تتحدث عن انطباعاتها هي نفسها عن هذا الامتزاج الذي استمر فترة طويلة من الزمن تحاول هي أن تنفيها فلا تستطيع - كما سنرى - فإذا هي تستبقيها.. ها هي ذى تتحدث فنقول:

«كانت المرأة في بدايات زيجتها الثانية الأنثى وقد بعثت كالمارد من خمود ، تسمح على

ما انقضى وكأن لم يكن ، وتعب من الحاضر وتزدهر . كان زوجها يسألها ولا يكف يعيد السؤال :

- لماذا أحبك كل هذا الحب؟

ويستنكر إجابتها حين تقول :

- لأنى طيبة .

«ولم تكن تستفز زوجها ، ولم تكن تمزح ولا كانت متواضعة ، كانت شديدة الاعتداد بذاتها كإنسانة ، تعرف كل فضائلها وتدرجها جميعاً فى خانة الطيبة التى اعتبرتها حتى ذلك الحين منبعاً لكل فضائلها . وكانت صورتها عن الذات التى تعاشت معها حتى هذا الحين وارتضتها ، صورة البنت الطيبة شديدة الجدية ، الذكية واللماحة ، العذبة والصارمة معاً ، القادرة على كسب ود الناس واحترامهم» .

«وبتطور العلاقة الزوجية ، اكتشفت انفسها صورة غير الصورة ، صورة مناقضة أحياناً للصورة التى ألفتها ، صورة الأنثى المحسوبة والمرغوبة من منظور عاشق يجيد التعبير عن أحاسيسه ، وراغب فى الاستحواذ يسرف فى التعبير عن غيرته . وكان لدى زوجها الكثير ليقوله ، ومما يجيد قوله ، وهى تستمع إليه ، مبهورة ، عن استواء خدنها ، ونبرة صوتها وإيقاعه ، عن نظرة عينها... إلخ . وهى كمن يكتشف فى ذاته كنزاً ، كان موجوداً وغير موجود ، معلوماً وغير معلوم ، وينكفى فى انبهار يحتضن فى لهفة واعتداد ما اكتشف . وفى البداية استبعدت الصورة الجديدة ضاحكة وغير مصدقة ، غير أن الاستبعاد لم يلبث أن تحول إلى استبعاد وهى تقع أسيرة لصورتها الجديدة» .

(٦)

وعلى هذا النحو نجد الدكتورة لطيفة الزيات تضطر نفسها إلى الاعتذار لنفسها ولقارئها عن تجربة زواجها الثانى ، مع أنها ليست فى حاجة إلى هذا الاعتذار ، ولكنها كما قلنا من قبل تجيد تصوير نفسها وهى تعترف بما تعتقد ، ولعلها فاقت كل الأدباء والكتاب والأساتذة فى هذه القدرة الفذة على تقديم الاعتقاد على أنه محض اعتراف ، واقرأ معى هذه الفقرة التى تقول فيها :

«أعرف الآن أن الحب الكبير لم يكن وحده محركى إلى زيجتى الثانية ، الحب الكبير برّر كل شيء ، قنّع الرغبة فى التواؤم ، فى الرجوع إلى البيت القديم وإلى أحضان الأب خوفاً ورعباً ، فى الارتداد على ما كان ، فى محوه من ذاكرة الآخرين» .

«أتوقف الآن لاهثة الأنفاس ، وأنا أدرك أن الإقرار بهذه الحقيقة اقتضىنى عمراً غيبته خلاله عامدة ومتعمدة ، خائفة ومرعوبة ، محملة بالشعور بالذنب والإثم دون معرفة الجريرة التى يصدر عنها الشعور؛ وأن تغييب هذا الإقرار هو الذى جعلنى ردىاً من الزمن ، هشة كقطة من البورسلين ، قابلة للجرح من هبات النسيم ، خائفة من الجرح دائماً وأبداً ، واقعة دائماً وأبداً ، وأياً كانت الأوضاع والظروف ، فى منطقة الخطأ ، ومستعدة للاعتذار عن خطئى وما من خطأ ارتكبت . وأن تغييب هذا الإقرار هو الذى حملنى بالتالى الشعور بالهزيمة الدائمة ، بألا قدرة لى على الفعل ، بأن فعلى إن بدأ لن ينتهى إلى شيء ، وبلانى بالشلل حين أصبت بالشلل ، وبالخوف من معاودة الشلل وأنا أبرأ من الشلل . أعرف الآن» .

ربما كان من الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن هذا الزوج الثانى للدكتورة لطيفة الزيات كان هو أستاذ الأدب الإنجليزى الكبير الدكتور رشاد رشدى .

(٧)

وهكذا يجد القارئ نفسه وهو يطالع هذا الكتاب يستمتع بالسيرة الذاتية حين كتبها أستاذة الأدب فأجادت الاستفادة بخبراتها الأكاديمية إلى أبعد حد ممكن ، فهى تنازل عن الأسلوب والحبكة تنازلاً مقصوداً لأنها تنتهى إلى معطيات أخرى تحيد استخدامها ، وتعترف أيضاً وهى تستخدمها ، ومن العجيب أنها تعترف ، ولكن اعترافها هذا لا يمثل ما هو مدعاة للتعجب فحسب ، ولكنه يدعو إلى الإعجاب ، فقد استطاعت الدكتورة لطيفة الزيات فى ثلاثة مواضع من هذه السيرة الذاتية أن توظف خبراتها الأكاديمية فيما ترويه ثم أن تعترف لنا بهذا التوظيف ، لهدف آخر هو أن تؤكد هذا التوظيف وتثبته وتكرسه إلى ما لا نهاية .

فأما الموضوع الأول فيأتى فى صفحة (١٠) حيث تحدثنا عن الجهد النفسى المطلوب لإيقاف عامل التصديق حين تحكى عن طفولتها وما كانت ترويه لها جدتها ، من حكايات فتقول:

«فى طفولتى حكّت لى جدتى نوعين من الحكايات ، حكايات عن الجن والعفاريت والشاطر حسن ، وحكايات عن صبى أبى وشبابه فى البيت القديم. اقتضانى النوعان من الحكايات نفس الجهد النفسى المطلوب من متلقى القص الروائى والذى يسميه الناقد الانجليزى كولريدج بايقاف عامل عدم التصديق».

«وبمجرد أن تنحسر عنى نظرة جدتى وسحر الحكاية ، يغلب علىّ عامل عدم التصديق. ويصعب علىّ التوفيق بين الحياة التى تسبغها جدتى على البيت القديم والحياة التى أعرفها، ويستحيل علىّ التوفيق بين أبى الذى يُملئ علىّ كل من بالبيت الهدوء بهدوئه المطبق ، وبين الشيطان الوسيم المحب للحياة والمتطلع للمستقبل فى شوق يسابق به الأيام الذى يطلع علىّ من حكايات جدتى ، وأميل إلى الاعتقاد أن الأمور تختلط علىّ جدتى ، وأن الصبى المتوهج والشاب الملىء بالحياة الذى تحكى عنه قد يكون الشاطر حسن ذاته أو أى شاطر من الشطار غير أبى. والشاطر المفروض أنه أبى ، يعتلى الدولاب يضع فوق رأسه علبة الطربوش المسدسة الأضلاع مصراً على أنه نابليون ، وهو يهبط السلم لا كغيره من عباد الله على الدرجات بل متزحلقاً على الدرايزين الخشبي مطلقاً صيحة هيلاهوب منزراً فى بثر السلم انزراع المرساة فى الميناء».



وأما الموضوع الثانى فىأتى فى الصفحة الثامنة عشرة حين تحدثنا صاحبة المذكرات عما كان المسرحى «بريخت» يطلبه من الممثلين من الحيدة وهم على خشبة المسرح وذلك حين تروى فتقول:

«كانت جدتى تحكى حكاياتها عن البيت القديم وهو فى أوجه وهو فى انهياره ، عن زوجها وهو يعمل وهو يسامر فى المنذرة ، عن بنتها وهى تلبس طرحة الزفاف وهى تُطوى فى الكفن يوم أطلقت وليدتها الأولى صرختها الأولى ، عن مراكب جدى وهى تقلع خافقة الشراع وهى تتحطم على كتيبان الرمال فى الميناء وعن عودة جدى وأبى وعمى مكلومين بعد أن أنقذوا آخر ما يمكن إنقاذه من المركب الذى تفتت إلى قطع فى الميناء ، بنفس الحيدة التى يطلبها المسرحى الألماني بريخت من ممثليه على خشبة المسرح. كان بريخت يقول لزوجته ولممثلته الأولى ، التى أرخى عليها الستار يوماً لأنها انفعلت: لا تنفعلى ولا تتمثلنى نفسك البطلة ، تصوّرى أنك تجلسين وصديقة تتسامران ، وأنتك تعاودين التقاط السيجارة التى نحيثها جانباً بعد أن حكيت للصديقة حكاية حدثت لامرأة

أخرى ، لا لك أنت. ولم تكن جدتى فى حاجة إلى أية إرشادات مسرحية ، فلم تكن تمارس أى نوع من الانفعال. كانت تعاود التقاط القميص الذى ترتقه ، قميص جدى أو أبى أو أخى ، بعد أن تمحى حكاية تبدو وكأنها لم تحدث لها هى بل لامرأة أخرى».

«كانت جدتى تمحى فى حيدة مطلقة وفى عينيها تلك النظرة التى لم أدرك معناها إلا حين أطلت علىّ بعد فترة من الزمن من عيني تمثال لامرأة فى متحف التاريخ الطبيعى فى لندن ، نفس النظرة التى أطلت علىّ من عيني أبى يوم فاجأته على غرة فى غرفته خالماً القناع ، والتي أطلت علىّ بعد ذلك بسنين ، ونحن نلتف حول سرير أبى ، فتية خضراً وأطفالاً ، نُقرب المرأة من فمه لتبين إن كان يتنفس ، والمرأة لا تتعكر لأن الميت لا يتنفس».

أما الموضوع الثالث فيأتى فى صفحة ٣٩ حين تروى قصة بكائها ذات مرة فتحدثنا عن أنها كانت ومازالت تستنكر أن تبكى أمام أحد إلا فى المسرح والسينما حين يكون بكاؤها نوعاً من الاستجابة الفنية!!

(٨)

وهى تتحدث عن البيت القديم الذى نشأت فيه فى دمياط ، ويأتى حديثها هذا كما تذكر عندما تسجل سيرتها الذاتية عام ١٩٧٣ أثناء احتضار أخيها عبد الفتاح وهى حريصة على أن تؤرخ لنفسها من خلال المكان وإن بدا أنها تؤرخ للمكان من خلال علاقتها به وتقول:

«امتد التغيير إلى المنطقة التى ولدت فيها فى دمياط ، تلك المدينة التى ترقد فى حضن النيل والبحر الأبيض المتوسط ، وامتألت المنطقة بالمبانى الصغيرة المتلاصقة والقميئة بحيث يتعذر علىّ الآن تحديد الموقع الذى قام عليه بيتنا الكبير والقديم. ولقد كان جامع الشيخ على السقا علامة مميزة لهذا البيت القديم ولم يعد ، فقد هُدم المسجد وبني من جديد على مساحة ربما جارت على جانب من بيتنا القديم».

«ومازالت صورة بيتنا القديم محفورة فى ذاكرتى ، ورائحة قدمه العطنة تملأ كيانى رغم انقضاء فترة طويلة على إزالته. ولا غرابة فى ذلك ، فقد ولدت فيه فى ٨ أغسطس ١٩٢٣ ، وقضيت فيه السنوات الست الأولى من عمرى ، وعدت إليه كل صيف من مدينة أو أخرى حيث تنقل أبى بحكم وظيفته فى مجالس البلديات من دمياط إلى المنصورة إلى أسبوط إلى

أن مات وأنا فى الثانية عشرة من عمري. وقد قضيت فى البيت القديم كل عطلة دراسية صيفية ونحن نقيم فى القاهرة بعد موت أبى إلى أن تخرجت من كلية الآداب عام ١٩٤٦. وعدت إلى البيت القديم مرات ومرات بعد أن تخرجت ، ومن المؤكد أنه كان موجوداً لم تتم إزالته بعد سنة ٤٩ فى أواخر الأربعينيات ، فقد خرجت من سجن الحضرة فى الإسكندرية إلى البيت القديم بحكم مع إيقاف التنفيذ».

(٩)

ولا أستطيع أن أمنع نفسى من انتقاد صاحبة المذكرات فى الصورة التى تصورها للبيوت الصغيرة فتجعل الجامع بعظمته وجلاله وقدسيته يتحول فى تصويرها إلى شىء يبدو كنعمة نشاز ، وهى بلاشك صورة غير موفقة كما أنه تعبير غير موفق ، وليس بوسعى إلا أن أستغفر الله لى ولها:

«ومنذ أن تغير وجه المنطقة وتلاصقت فيها البيوت القميثة يتيه بينها الجامع الضخم كنعمة نشاز ، وأنا لا أكف عن التساؤل أيها بيتنا القديم؟ وهل يدرك المترددون على المسجد والحرفيون وصغار الموظفين الذين يواجهون كل شهر أحكاماً بإخلاء مساكنهم ، أن أحذيتهم المهترئة تدق بترأ من الأسمنت تشق بطن الأرض بعمق عشرة أمتار وتمتد مترين طولاً وعرضاً؟».

وهى تتحدث عن الثروة التى ورثها جدها عن أبيه كأنها توحى لنا بأصولها البرجوازية حيث تقول:

«ورث جدى عن أبيه البيت القديم ، وعدة سفن شرعية كبيرة تعبر البحر الأبيض المتوسط إلى موانئ الشام ، وكان من المفروض أن يوفر هذا الإرث لجدى حياة الأغنياء لو سارت الأمور على ما اعتادت أن تسير عليه ، ولو لم تتأزر على أسرته العوامل الطبيعية وتدهمها بلا رحمة عجلة التغيير».

«ولم يكن جدى الوريث الوحيد ، بل أحد وأصغر الورثة. وحين بلغ السن القانونية ، كان رغم ما بُد من ثروته رجلاً غنياً. لم يكن يُعيب الذهب فى الزكائب كما كان يفعل أبوه (على حد رواية جدتى والعهد على الراوى) ، ولكن سفنه الشرعية السبع كانت تفلح محملة بالبضائع من ميناء دمياط وتعاود الرسو فيه بصعوبة أكبر كل مرة ، والرمال تتكاثر فى الميناء الضحل تهدد بالإطاحة بالسفن سفينة بعد سفينة».

وتبدو الدكتوراة لطيفة الزيات وكأنها مهتمة بدرجة كبيرة بمعمار البيت الذى عاشت فيه طفولتها ، وتطور هذا المعمار ، لا من حيث هو معمار ولكن من حيث الوظيفة التى يؤديها ويعبر عنها ، وهى تفرد لهذا الموضوع صفحات متعددة تنقل منها للقارئ هذه الفقرات :

«كان معمار البيت الذى «وعيت عليه» غير معمار البيت الذى وعى عليه جدى ، إذ عجز جدى عن بناء بيت مستقل لكل من أبنائه كما فعل أبوه ، واضطر أن يضيف إلى المباني القديمة مباني جديدة بلا تخطيط كلما تاملت قرية من أقاربه أو كبر ابن من أبنائه وتزوج. ولم تكن هذه الإضافة بالإضافة السهلة فى بيت لم يعد لإضافة ، بيت تاجر خصص ثلث مساحته للسكن وبقية المساحة للضيوف وخدمة مطالب الضيف. ومن ثم جاء المعمار الذى وعيت عليه جامعاً للأضداد ، موحياً بالضخامة والضياع والانعزال فى نفس اللحظة التى يوحى فيها بالازدحام إلى حد الاختناق».

«وابتدأ جدى يضيف طولياً إلى المساحة المخصصة للسكن فى البيت القديم ، وانتهت هذه الإضافة بدور ثالث يتكون من ثلاث شقق ضيقة وقيمة وتنخفض بعدة سلالم بعضها عن البعض ، وتختفى الواحدة عن الأخرى تماماً بممرات ملتوية ومتعرجة».

«واقتضت هذه الإضافة سد الطريق إلى السطح ، فلم يعد السلم الحجري يؤدى كما كان يؤدى فى صبا أبى إلى السطح ، وأصبح المنفذ الوحيد إلى السطح نافذة من نوافذ الشقق الثلاث ذات قاعدة حجرية تستخدم للجلوس. ولم يكن جدى يعرف بالطبع أن الأمر سينتهى به إلى سكن هذه الشقة التى أوجدها لأرملة فقيرة من أقاربه».

«ولما استحال الامتداد طولياً ، اقتضى الأمر الامتداد عرضياً ، وأوجد جدى دوراً سكنياً فوق المندرية التى تقع فى أقصى يسار المساحة المخصصة للبيت. وكان الواقع يقتضى إيجاد سلم حجرى جديد فى الحوش أو فى الحديقة يربط بين الدور الجديد الذى خصص لزواج عمى والمندرية ، واستخدام الاثنى للسكن بعد أن انقضى أو كاد الغرض الذى وجدت من أجله المندرية ، ولكن الواقع شىء وتسليم أهلى بالواقع شىء آخر».

وتصل صاحبة المذكرات إلى محور الارتكاز فى حديثها عن البيت ، وهو ذلك الممر السماوى الذى أوجده جدها من أجل توصيل الأجزاء الجديدة من البيت بالأجزاء القديمة فتقول:

«وللإبقاء على ما كان ، حقق جدى معجزة معمارية ربما حال قبجها دون إدراجها كمعجزة الدنيا الثامنة ، إذ ربط الدور الجديد فى أقصى اليسار بالسلم الحجرى المخصص للأسرة فى أقصى اليمين بردهة طويلة معلقة فى الهواء بلا عواميد ، تمتد ما امتد الحوش والحديقة. ولكى لا يتحول هذا الكوبرى المعلق إلى نفق مظلم ، بنى جدى نصف حائطه المطل على الحديقة من زجاج ملون يعكس آلاف من ظلال تتغير صورها وأشكالها وفقاً لتغير حركة الريح وتفاوت درجات النور والظلمة ، وتتابع الحالة النفسية لمن يعبر الردهة».

«وفى الليل أطلت على من زجاج هذه الردهة الأشباح».

«لم يكتب لى الاستفادة من المنفذ الجديد إلى السطح الذى أوجده ، فقد وعيت لأجد الثعبان يلبد فى السلم الخشبي المجاور لمسكن عمى والمؤدى إلى السطح ، ولعله لا يزال يلبد فى بيت من هذه البيوت القميئة التى كانت بيتنا».



وتنتهز الدكتورة لطيفة الفرصة للحديث عن جوانب فولكلورية فى نشأتها لأنها تؤمن فيما يبدو أن كتابة السيرة الذاتية لا تكتمل بدون مثل هذا الحديث ، وهى عندما تروى قصة الثعبان تبدو متحاملة على أهلها بدون مناسبة فتقول:

«وحكت لى جدتى فيما حكّت من حواديت أن عدة محاولات بُذلت فى الماضى للتخلص من الثعبان ، وإن لم تنجح أى من هذه المحاولات. ففى كل مرة يأتى الرفاعى ، ويسمّل ويحوقل ويخرج الثعبان من الشق ، ويلقى به فى الجراب وتزغرد دادة حليمة ، آخر سلسلة الجوارى الحبشيات فى أسرتنا. وفى كل مرة يطل الثعبان فى اليوم الثانى من الشق».

«ولا أعتقد أن أهلى قد بذلوا أية محاولة جادة للتخلص من الثعبان ، وعلى كل ، فقد ولدت والثعبان ينفرد دون أدنى إزعاج بالسلم الخشبي المؤدى إلى السطح. وكان الدرس الأول الذى وعيته فى طفولتى أن الخطر يكمن فى السلم وفى السطح ، وأنى فى أمان طالما لم أحاول صعود السلم واعتلاء السطح ، فالثعبان لا يخرج من دائرة السلم ولا يزعج إلا من يزعجه ويطؤه».

«وكان الأمر فى طفولتى أمراً مثيراً ، فقد تحتم على خوفاً من الثعبان أن أتسلل إلى السطح كل مرة من نافذة جدى ، ولم تكن عملية التسلل هذه بعملية سهلة ، فجدتى

لا تكف تتحرك كالديدبان وجدى لا يكاد يفارق المقعد الحجري الذى يتعين على اعتلاؤه للقفز من حافة النافذة إلى السطح ، وتطلب هذا بالطبع أن أناور وأحاور لأنسلل أخيراً إلى السطح الذى أحببته فى طفولتى أكثر مما أحببت الحديقة».

(١١)

هنا تبدأ لطيفة الزيات فى رواية الدور الذى لعبه ذلك السطح فى طفولتها المبكرة ، وهى تجيد التعبير عن نفسها مادامت ترتبط بالطفولة حتى وإن حاولت التكبير عليها.. ولكنها فى النهاية تنتهى من ذكرياتها متحسرة على الفرص التى ضاعت منها بسبب العوامل القاهرة!! وهى تقول:

«فى السطح أنطلق أضحك وأغنى دون أن تحاصرني أصداء ضحكى وغنائى وحوائط البيت العتيق تردد صداها ، ودون أن يسمع ضحكى وغنائى أحد فى البيت فيزجرنى. فى السطح أقفز وأنط الحبل ، وقفزاتى تعلو الواحدة بعد الأخرى حتى تكاد رأسى أن تطاول السماء ، ولا أحد يرانى أو ينهائى. فى السطح لا يرتد إلى صوتى ، يحمله الريح ويطوف به المدينة وأنا ألمح جزءاً أكبر وأكبر ، وقفزاتى تتعالى وأنا أنط الحبل ، وحين تبلغ قفزاتى أعلى مستوياتها ، وألمح أخيراً النيل ، أجد نفسى أنغنى بغنوة طفولتى المفضلة:

يامصر ما تخافيش ده كله كلام تهويش
إحنا بنات الكشافة وأبونا سعد باشا

وأنا صففصف هانم

«وأتعرف على دمياط ، ومن خلال دمياط على مصر ، أراها وألمسها وأسمع نبضاتها ، وأشمها وأذوقها ، وهى تتجسدى فى كل ما أحببت وكل من أحببت ، وكل ما أتحرق شوقاً وأستعجل الزمن لأرى وأحب. ولا تعد مصر هذا الشيء المجرى الذى لا أدركه بحواسى ، كليلة القدر التى انتظرتها سنة بعد سنة فى السطح ولم تطلع على ، وكملاكى الخير والشر اللذين ضقت طفلة بوجودهما على كنفى ، يسجلان حسناتى وسيئاتى ، وتشككت فى هذا الوجود بمجرد أن أخبرتنى أمى أن أياً من الملاكين لا يدخل دورات المياه. وتساءلت كثيراً كيف يتأتى أن تكتمل سجلات الجزاء والعقاب ، والإنسان يستطيع أن يرتكب ما شاء من سيئات فى دورات المياه ، وكان هذا قبل أن أكبر ، وأتوهم أنى أسقطت الملاكين تماماً من الحساب».

وبعد أكثر من عشر صفحات تعود صاحبة هذه المذكرات لتتحدث عن التطور الوظيفي في بيت العائلة على نحو ما حدثنا من قبل عن التطور المعماري فيه ، وهي تبدو حريصة على كل هذا الحديث عن الماديات وكأنها تريد أن تقول إن هناك موضوعات أخرى لا تقل أهمية عن المشاعر والأحاسيس ، وأنه ينبغي على صاحب التجربة الذاتية أو صاحبها أن تنتبه إلى هذه المادة المتاحة من عقار ومسكن ، فهي كفيلة بأن تكون موضوعات للحديث ، وهي كفيلة أيضاً بأن تكون مرآة تصور عليها صاحبة التجربة ما تريد أن تصوره من آراء وأفكار تعلق من قدرها وتنحاز لها على حساب مشاعرها الحقيقية فتقول:

«ولما كان جدي الأكبر لم يُوجد البيت ليكون مأوى ، بل لم يوجده أصلاً حتى ليكون مسكناً ، بل أوجده أساساً ليكون مضيقة ومصدراً للتلقى والعطاء ، فقد وعيت لأجد البيت القديم قد استفند أغراض وجوده تماماً ، فما رأيت باب الحديقة الرئيسي يفتح ، ولا ضيوفاً في المنجرة ، ولا عجيباً في حجرة المعجين ، ولا ناراً في الموقد الحجري الكبير».

«خذ مثلاً هذه البئر الضخمة التي تشق بطن الأرض ، وجدت لتكون مورداً للمياه النقية لأهل البيت والجيرة ، وعندما دبت ماء الحكومة إلى مواسير البيت وعجز أصحاب البئر مادياً ومعنوياً عن العطاء ، جف الماء من البئر ، وانتفى الغرض من وجوده ، ومع ذلك بقى عالماً سفلياً قائماً بذاته تحت عالم بيتنا القديم ، عالم لا يدري بوجوده سوى أصحاب البيت القديم».

«وعندما كبرت ، كان الجيران من العمال والحرفيين والموظفين يشتررون الماء من الحنفية العمومية للبلدية أو من السقا ، وكل من استقى من بيتنا قد اختفى ، ومشروعات أبي وأخوها مشروع استخدام البئر لغرض تجاري جديد قد توقفت ، وإن لم يتوقف هو عن النزول إلى البئر بانتظام غريب».

«يحكى أخى عبد الفتاح ، الذي يكبرني بتسع سنوات ، أن زملاءه في المدرسة الابتدائية أكلوا في بيتنا بطيخاً في غير موسم البطيخ ، إذ نجح أبي في حفظ البطيخ سليماً على مدار العام في البئر ، ولكنني شخصياً لم أتمتع برفاهة استضافة زميلاتي في البيت ، ولم أذق أبداً البطيخ في غير موسم البطيخ ، ونزلت البئر مرات في صحبة أبي وأنا صغيرة ، ودونه وأنا كبيرة ، ولم أجد فيه شيئاً على الإطلاق ، أو بالأحرى وجدت فيه «كمال اللاشيء».

قد نكون قد أسرفنا في تفتيش هذه الأوراق الشخصية ولكنها في الحقيقة أوراق ثرية تغرى بمثل هذا البحث الأدبي الدقيق الذي قد يكون في وسعه أيضاً أن يجازف بالقول إن هذه السيرة تبدو وكأنها كتبت كاعتذار يقدم لجمهور معين عن الزيجة الثانية ، وفي وسعنا أن نحصر مواضع كثيرة في هذه السيرة تتأمل فيها مؤلفتها زيجتها الثانية مع قرار مسبق اتخذته تجاهها ، ولكننا لا نحب لمثل هذا العمل الأدبي أن ينحصر حين يُنقد في هذا الإطار الضيق ، حتى وإن جاء الحكم عليه بهذا مستندا إلى الدليل الداخلي فيه نفسه ، ولكننا مع هذا لا نستطيع أن نمضى من دون أن ندعو القارئ إلى أن يتأمل هذه الفقرة التي تأتي في سياق حديثها عن البيوت التي سكنتها فإذا بها تعبر من حيث لا تدري عن حيرتها الشديدة حيث تقول:

«ولم يكن انتقالى اختيارياً أيضاً وأنا أُنقل من مسكن إلى مسكن آخر مع زوجي الثاني ، ولعلني أضعت القدرة على الاختيار ، بل القدرة على الحركة والفعل في فترة طويلة من فترات زيجتي الثانية التي بدأت عام ١٩٥٢ ودامت ثلاث عشرة سنة. وقد انخفض إيقاع الانتقال من منزل إلى منزل الذي بدأ سريعاً ، ثم توقف في فترة قصيرة نسبياً. ولم يكن العامل الاقتصادي ولا مطاردة البوليس المحرك لهذا الانتقال. كان زوجي الثاني يقول مبرراً للانتقال من مسكن إلى آخر: أريد لك الأفضل والأحسن يا حبيبتي. وبكت حبيبته وهما يغادران المسكن الأول بعد فترة لا تزيد على السنوات الثلاث وهي تدرك ألا أفضل ينتظرها. وحين غادرت بيته أخيراً في يونية ١٩٦٥ ، عائدة إلى بيت أسرتها مثبتة أن الأرض كروية ، أو بالأحرى أن مجرى حياتها هي هو الكروي ، كانت قد تعلمت أنه استقر حين وجد المنزل الأكثر إبهاراً للآخرين ، والأكثر ملاءمة لنشاطاته المتعددة الخاصة منها والعامة».



«وفي كل مسكن من هذه المساكن ، حتى السجن من بينها ، وحتى تلك التي تعين عليّ أن أغيرها كل ليلة ، خرجت بالكثير ، وتركت الكثير من هذه الإنسنة الدائبة التغيير التي كانت والتي تكون. ولكن الغريب أنني حين أفكر في البيت بمعنى البيت ، تدرج كل هذه المساكن في ذهني كمجرد منازل ، وتبقى حقيقة ألا بيت لي ، وحقيقة أنه لم يكن لي في

حياتي سوى بيتين ، البيت القديم والبيت الذى شمهه رجال البوليس فى صحراء سيدى بشر فى مارس ١٩٤٩».

ذلك أن الدكتوراة لطيفة الزيات تدرك ، وهى تكتب هذه المذكرات ، أن بيت سيدى بشر كان أولى بكل هذا الحديث الذى بذلت جهدها فيه فيما نسميه نفى النفى بينما كان الإثبات سهلاً ، وهما هى نفسها تعترف فتقول:

«وقد حسبت فى الفترة من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٩ أنى حسمت الصراع الدائر داخلى لصالح واقع من صنعى واختيارى ، وكنت واهمة. وحسبت فى فترة زيجتى الثانية من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٥ ، أنى انتهيت والصراع ينحسم رغباً عنى لصالح البيت القديم ، وكنت أيضاً واهمة ، فمزال بيتى المطل على البحر فى سيدى بشر حياً فى حياتى».

(١٤)

ولهذه الأسباب فإنه يبدو لى وللقراء أنه كان فى وسع الدكتوراة لطيفة الزيات أن تكتب قصة حياتها الحقيقية إذا ما روت قصة حياتها فى بيت سيدى بشر ، ولكن يبدو أنها شغلت بأن تقدم الاعتذار عن الفترة فيما بين ٥٢ إلى ٦٥ ، ولكنها فى وسط هذا الانشغال استطاعت أن تظفر بعض أوراقها إلى السطح ، بينما هى تفتش فى الأوراق عما يدين صاحبة الحياة ، سواء كان هذا الذى يدينها موجوداً على هيئة اعترافات أو على هيئة قص مباشر!! من هذه الأوراق التى طفت هذه الفقرة التى تقول فيها:

« ... المرأة فى مقتبل العمر ترح فى صحراء سيدى بشر (التي لم تعد بصحراء) ، تقذف بمقدمة حذائها الطوب فى الهواء ، وتستنهض شعوب الشرق للكفاح (يوم ألقى القبض عليها) ، تتغنى بعودة الربيع فى المحكمة (يوم صدر الحكم بسجن زوجها الأول لسبع سنوات) موجات صوتها تتجاوز القاعة إلى خارج القاعة ، والبلاد تنداح للحظة ، والدعر ينطوى حلقات فى عيون مينة ترقبها ، يخرق فى انقباضات أفواه بلهاء مفتوحة ، وصوت المرأة فى مقتبل العمر يرتفع يتغنى لطلعة صبح حر نحب فيه ونحب من جديد (حسبت أن آخر رباط انفصم بينها وبين البيت القديم وسقطت فى منتصف الطريق) ولم تدرك يوم وقعت فى الحب وتزوجت زيجتها الثانية أنها عادت إلى أحضان الأب وإلى البيت القديم».

ومع هذا فيبدو لي أن هناك في أعماق هذه السيدة إعجاباً شديداً بالمنصورة وبيت المنصورة الذي كانت تملكه والدة الأستاذ محمد التابعى وجدة الشاعر الهمشري ، وفي وسع القارئ أن يقرأ حقيقة مشاعرها تجاه هذا الشاعر العظيم على مدى الصفحات ٤٧ - ٥٣ ثم ٥٦ وما بعدها.

(١٥)

ونعود لنكرر ما سبق أن ذكرناه من أن في هذا الكتاب بحثاً عميقاً ومستمرًا ودائبًا عن الذات ، ولكنه مصوغ بطريقة تبدو وكأنها بحث عن الذات في الآخرين ، وهو نوع أشق من البحث عن الذات في الذات نفسها ، ولكن يبدو لي أن المؤلف تجميعه بل هي تدفع عمرها ثمناً له ، ولم لا وهي التي تصور نفسها وقد تقلبت ما بين يسارية واضحة في شبابها ، ثم عدلت عنها طيلة زواجها الثاني ، ثم عادت مرة أخرى إلى يساريتها المبكرة ، لعل أصدق فقرة تعبر عن هذا المعنى هي هذه الفقرة التي تقول فيها:

«وكان الحب الكبير بالنسبة لي يتساوى والرغبة في التوحد مع مطلق من المطلقات ، كان يساوى الرغبة المحرقة في الضياع في الآخر ، في التواجد من خلال الآخر ، في فقد الأنا وهوية الأنا والتحرر من جسد الأنا والتوحد مع الآخر ، في السعى إلى ما هو مطلق أبدى في عالم يقوم على النسبية وينطوي على صور التغير الدائب ، وفي الغضب الطفولي الجنوني حين لا يتحقق المستحيل ، وفي السعى الجنوني إلى تحقيقه. وكان سعياً إلى إملاء الديمومة على علاقات إنسانية سمتها التغير ، سعياً مجنوناً إلى إملاء ما هو مطلق على عالم يتسم بالنسبية».

«أدرك الآن أنني سميت العمر لما هو مطلق ، وأن المطلق قرين الموت ، فلا ديمومة ولا ثبات في حياة شيمتها التغير الدائب. أدرك الآن أن حبي كان ضياعاً في الآخر ، وأن جريمتي لا تغتفر لأنني فعلت ، فما من جريمة أفدح من جريمة وأد الذات ، وبداى ملوثتان بدمي».

«وقد توصلت إلى التوحد مع المطلق في مرحلتين مختلفتين من عمري ، وفي مكانين يختلفان عن بعضهما اختلاف النهار والليل ، الجمال والقبح. توصلت إلى التوحد في

ميدان سان ماركس بفينيسيا لحظة غروب وأنا أتوحد مع الجمال ، وفي ظلمة بئر بيتنا القديم وأنا أتوحد مع الموت».

(١٦)

ولهذا فليس صعباً على القارئ أن يطالع في هذه المذكرات صفحات عديدة تبلغ العشرة تروى بها المؤلفة في شيء من الارتياح والمباشرة والتفلسف الواضح قصة طلاقها فتقول ضمن ما تقول:

«ها أنا أبرأ ، على وشك أن أبرأ ، وأنا أرتجف خوفاً من أن تترد كينونتي الوليدة إلى الرحم. وتساءلت أكان هو مشروع عمري الذى انقضى أم السعادة الفردية هى المشروع ، كانت السعادة الفردية هى مشروعى الذى حفيت لتحقيقه وجننت عندما لم يتحقق؛ أنا صانعة المطلقات وأسيرة صنعى ، وكيف يتأتى لى الفصل بين مطلق السعادة ومطلق التعاسة؟! سنوات وأنا أدور فى المدار الخطأ ، لا أملك القدرة على فعل أتجاوز به المدار الخطأ ، سنوات (كانت) تُسلمنى فيها إلى الشلل (تلك) الهوة الرهيبة بين ما أعتقد وما أعيش ، بين الرؤية والواقع المعاش ، بين الحلم والحقيقة ، سنوات وأنا أبرأ بالكاد ، أخاف أن تترد كينونتى الوليدة إلى الرحم».

وهى لا تورد هذا التأمل إلا بعد أن تكون قد بدأت حديثها عن هذه التجربة التى تبدو وكأنها تعترز بها بهذه الفقرة:

«فى يوم من أيام يونية ١٩٦٥ ، وأخى والمأذون يجلسان فى الغرفة المجاورة ، قال زوجى فى محاولة أخيرة لإثباتى عن إتمام إجراءات الطلاق ، وهو يستدير يواجهنى على مقعد متحرك:

«ولكنى صنعتك».

«وانطوى من عمري عمر قدره ثلاثة عشر عاماً بوهم التوحد مع المحبوب لفترة ، وبمسماعى المجنون لاستعادة التوحد الموهوم لفترة ، وبإصابتى بالشلل المعنوى والعجز عن الفعل فى الفترة الأخيرة. ولم أشأ أن أصعد النعمة حتى لا تفشل مهمتى ، وتساءلت وأنا أرقبه: أى مرحلة من مراحل عمري المنقضى صنع؟ أكل المراحل أم لم يصنع هو شيئاً؟

انقضى الزمن الذى كنت أعلق فيه على مشجبه سعاداتي وتعاساتي ، انقضى يوم برئت من الشلل. اقتضاني البرء ، فيما اقتضى ، أن أحل زوجي من دمي ، وأن أقر وأعترف أنني المسئولة أولاً وأخيراً عن حلمي المستحيل ، وجنوني المستحيل ، وموتى المستحيل ، وتحملت مسئوليتي كاملة وبرئت من الشلل».

(١٧)

ومع هذا فإنني أظن أنه لا ينبغي لنا أن نمضى دون أن نتأمل ما تكتبه صاحبة هذه المذكرات وهى تعقد المقارنات الذكية بين صورتها أمام الناس وبين حقيقتها فى داخلها يوم طلاتها وهى تستغل كل إمكاناتها الفكرية والأدبية فى تصوير واقع يصعب على الكثيرين أن يظنوها عاشته بالفعل ، ومع هذا فإن الصدق فيما ترويه عن مراحل هذه التجربة - تجربة الطلاق - يتوافق مع ما استقبلته من حياتها بعد وقوع الطلاق حتى وإن لم يتوافق مع حياتها قبل الطلاق فتقول:

« ... كنت يومها أبدو للعين الخارجية امرأة ناجحة بكل المقاييس المتعارف عليها ، وربما أكثر من مجرد ناجحة بفضل عملى وإنجازى ، وكنت فى ذات الوقت امرأة مخربة من الداخل إلى ما لا مدى ، وإن لم يدرك سوى بعداً واحداً من أبعاد هذا الخراب الداخلى. كان سرى الذى غيبته على الناس تماماً ، وغيبته عن إدراكي ذاته لفترة من الزمن ، وعشت أجتر مرارته لفترة دون أن أملك القدرة على تغييره ، وتساءلت: أى من المرأتين صنع ، وما صنع شيئاً ، أنا الذى صنعت نجاحاتي وتعاساتي ، وما صنع هو شيئاً. فى الفترة الأولى ، فترة التوحد الموهوم (كم طالت؟ ستين ، ثلاث؟) لم أنجز شيئاً ، ولا أردت أن أنجز شيئاً ، لم يكن وارداً أن أنجز شيئاً وفى تحققه هو كمال تحققي. فى ظل مثل هذه السعادة الموهومة لا نكتب ، لا نفرغ إلى عمل كبير يقتضى أن نخلص له بكليتنا ، نعيش اللحظة بدلاً من أن نكتبها. وحين اهتزت الأرض تحت قدمي بعض الشيء لا كله ، شعرت بالحاجة الماسة لأن أكتب ، وما كدت أنتهى من إعداد رسالة الدكتوراة ١٩٥٧ ، حتى فرغت بكليتي لرواية «الباب المفتوح» التى صدرت ١٩٦٠. وحين اهتزت الأرض تحت قدمي كل الاهتزاز لم أنجز فى مجال الكتابة شيئاً ، أقصى ما يمكن أن ينجزه الإنسان فى هذه الفترة هو أن يللمم بقاياها ، وهو يستدير بمقعده المتحرك يقول: ولكنى صنعتك».

«وراجعت نفسى قبل أن أرد ، لو سعدت النعمة ستفشل المهمة التى جئت من أجلها ، قرارى بالانفصال عمره خمس سنوات ، وعمر القدرة على إخراج القرار إلى حيز التنفيذ شهر. لى شهر أدبر للقاء الطلاق ، بالرجاء ، بالحسنى ، بتوسيط الأهل والأقارب والأصدقاء بالتحديد. ولم أصعد النعمة ، ولكنى لم أراجع أيضاً. كان من المستحيل أن أراجع الآن بعد أن استرددت بعضاً من قدرتى على الفعل ، تراجعت طويلاً وكثيراً حتى أصبح التراجع النمط الذى يتوقعه هو والكل منى».

(١٨)

والشاهد أننا نرى الدكتورة لطيفة الزيات حريصة أيضاً على أن تصور الصورة من محيطها الخارجى على نحو ما صورتها من ناحيتها ، وفى هذا الصدد فإنها تورد حواراً دار بينها وبين شقيق زوجها ، وإشارة إلى حوار آخر مع شقيقها وإن لم يكتمل هذان الحواران ، وذلك حيث تقول:

«وما الذى جدّ لتطلبى الطلاق؟».

«قال أخوه الأكبر فى اجتماع عائلى عقد لتحديد موعد الطلاق ولم أحر جواباً ، لم يكن جديد قد جد ، وجديد الشيء قديمه ، لا يجد شيء حين تسقط فى الخريف ورقة الشجرة من الشجرة ، تسقط بلا ألم ولا ندم ، ورقة الشجرة قد سقطت من زمن عمره يربو على السنوات الخمس. لم يجد شيء من جانب زوجى ، وجديد الشيء قديمه ، الجديد جد على أنا ، أنا الفاعل هذه المرة لا هو ، أملك الآن أن أقول: لا.. كفى ، ولا أغيب اللا ولا الكفى فى غيبوبة الموتى على وجه الأرض ، أملك أن أفعل ، أن أناضل لأتجاوز المدار الخطأ حتى تنتفى تماماً الحاجة إلى قول لا ، عقيمة لا تتشكل فى فعل ، وكفى مرة كالحنظل أجترها فى صمت وفى عجز وفى كراهية للذات. أملك الآن أن أسعى لتوحيد فكرى ووجدانى ، رؤيتى وواقعى المعاش ، إرادتى وفعلى. سقطت الهوة بين الإرادة والفعل».

«وكيف يتأتى لى أن أشرح للناس أن زوجى بما جد أو ما لا يجد ، بما يفعل وبما لا يفعل ، لم يعد من زمن طويل طرفاً فى معركة هى أولاً وأخيراً معركتى لأبعث بعد طول موات ، لأفعل ، لأكون ، لأكتسب من جديد القدرة على الاشتباك مع الحياة ، على المناطق ، لأتجاوز المدار الخطأ الذى أعرف حتى النخاع أنه المدار الخطأ ، لأقضى على الهوة

بين ما أقول وما أفعل ، بين ما أعتقد وما أعيش؟ ولم أشرح ، لم أحر جواباً ، وإن لم أتراجع عن تحديد موعد لإتمام إجراءات الطلاق في حضوري وحضور زوجي في مكتب أخيه المحامي . تعمدت أن أصحب أخي الأكبر عبد الفتاح لينتزع الأشواك ، ليرت على الأوجاع وليضمد الجراح . حضرنا في الموعد المحدد بالدقيقة ولم يحضر هو . وانتظرت ، كما تعودت أن أنتظر ، ولكن انتظاري لم يكن هذه المرة معذباً ، كان انتظاراً زهوقاً ، وقال أخى عبد الفتاح :

«الموقف صعب عليه ، ومن الطبيعي أن يؤجل ما استطاع مواجهته».

(١٩)

ونحن نرى الدكتورة لطيفة الزيات في هذه المذكرات وهي حريصة على أن تبدو وكأنها تروى بصدق شديد لحظات تفكيرها وتصميمها على الطلاق ، كما أنها حريصة على أن تبدو وكأنها لا تفعل شيئاً إلا أن تصف بدقة مشاعر دفينه تريد بكل ما تملك من قدرة نفسية وتعبيرية أن تصورها عن علاقتها بزوجها فتقول:

«... وانتظرت ، ووصل هو أنيقاً كما عادته ومهنماً ، وطلب الاختلاء بي ليثيني عن طلب الطلاق».

«وأنا أتبع زوجي إلى حجرة خالية ، التقيت في الردهة بحام كان زميلي في حركة الطلبة في الأربعينيات ، وكنت قد لاقيته في المكتب مرات بهذه الابتسامة المهذبة التي أصبحت ابتسامتي ، وبهذه النبيرة المدربة التي أصبحت نبرتي ، وبهذه النظرة التي تمر عبر الناس دون أن تراهم التي أصبحت نظرتي . ولكنني في هذه المرة استشعرت نحو زميلي السابق ألفة لم أستشعرها من قبل ، والتقت عيوننا كما لم تلتق من قبل ، ولعت بوهج التعرف . وتساءلت وأنا أجر خطاي خلف زوجي ، أين ذهب صخبي ودفتي وحماسي التلقائي عند ملاقة قدامى الزميلات والزملاء؟».

كأنما تريد الدكتورة لطيفة في الفقرة السابقة أن تشير إلى أنها بدأت ترى ما لم تكن تراه ، وأنها بدأت تعود إلى جذور كانت قد تجاهلتها وتعالَت عليها في الفترة التي هي بسبيلها إلى إنهاؤها في اللحظة القادمة فتقول:

«جلست على طرف مقعد ذى مسندين ، مهذبة مضمومة الساقين ويدي متلاقيتان في

حجرى. وجلس هو على مقعد مكتب متحرك بإزائي بحيث لا تلتقى عيوننا ونحن نتكلم. كنت على عادتنا طيلة ثلاثة عشر عاماً، فى منتهى الأدب وفى منتهى التحضر، كما اعتدنا أن نكون فى كل الحالات، حتى حين كان الواحد منا يغلى بالغيرة، بالكراهية أو بالرفض لماهية الآخر، صرخت فيه مرة: أكرهك. وصفقت الباب فى وجهه وأنا أخرج من الحجرة. ولكن هذا كان فى البداية، بداية البداية، قبل أن أضيع كيانى فى كيانه، قبل أن يتعلق وجودى بكلمة منه، بنظرة من عينيه. كحد السيف كانت كلماتى، لم تتمرس بعد على ارتياد المسالك الجبابة، ولم يثقلها بعد الخوف من الاشتباك بالآخرين وبالحياء، ولا أرهقها الشعور بالجرم والذنب. كان هذا فى بداية البداية قبل أن أتقنع وأتجمل وأتحضر، وأندرج فى إطار الصورة التى حبسنى فيها».

«مش إنت اللى تعملى كده، إنت فوق الصغائر دى».

وتعود الدكتوراة لطيفة الزيات لتكرر علينا ما كانت قد قررتة من قبل فيما بينها وبين نفسها، ونحن نعرف أنها كانت قد وصلت إلى هذا القرار مما أوردته من قبل، ولكن يبدو أنها هى نفسها كانت تريد أن تقنع نفسها بالتصميم على القرار فتقول:

«وأعلنت إصرارى على إتمام إجراءات الطلاق فى هدوء ونهائية وأنا أجلس على طرف مقعد دى مستدين مهذبة. ورفض هو أن يصدق أنى جادة فى السير إلى نهاية الطريق المر. الكل رفض التصديق، كنت أكسر نمطاً أرسيته لمدة ثلاثة عشر عاماً وبدا للكل أنى ارتضىته، والأهم من ذلك أنى كنت أكسر النمط الذى يسود فى كثير من العلاقات الزوجية وقالت لى أختى:

«كل الرجالة كده.

«وقرأت على زميلة وصديقة بالتليفون إحصائية للباحث الأمريكى كنجز لى تثبت توفر الخيانة الزوجية فى ٩٩٪ من حالات الزواج فى الولايات المتحدة. وعلق صحفى وروائى لامع على طلاقى فى جريدة «أخبار اليوم» دون ذكر الأسماء طبعاً، قال: إن من النساء من تحمل شهادة الدكتوراة وترسب كزوجة فى الشهادة الابتدائية، وكنت أنا التى عنها ذلك الدون جوان الكبير، والتزمت الصمت فى كل الحالات، كانت المسألة أعمق وأدق وأكثر تركيباً من أن تشرح. لم تكن الخيانة الزوجية همى، ربما كانت لفترة ولم تعد، فى هذا التوقيت كان وجودى من عدمه هو الذى فى الميزان، وتوقف هذا الوجود فى بداية جديدة تقطع كل ما بينى وبين زيجتى من وشائج، كل الوشائج، فلا يتبقى منها شىء وهو يقول:

«لقد صنعتك».

«يقولها فى مجال الاستعطاف لا المن لأتراجع فى اللحظة الأخيرة عن إتمام إجراءات الطلاق ، ولم يكن التراجع وارداً ، وسلم هو بنهاية الأشياء ، حين قلت وأنا أصطنع قدراً كبيراً من التحكم فى الذات حتى لا تفشل مهمتى :
«حتى لو كنت صنعتنى فعلاً كما تقول ، فهذا لا يعطيك الحق فى قتلى».

(٢٠)

ربما وجدنا أنفسنا نتساءل كيف يمكن لصاحبة هذه المذكرات أن تصور تعبير «لقد صنعتك» فى مثل هذه اللحظة على أنه يأتى فى مجال الاستعطاف لا المن ، ولكن يبدو لى أن تهذيب زوجها كان قد وصل إلى درجة من النجاح فى الإقناع إلى حد إيهام المخاطبة وهى صاحبة المذكرات بهذا المعنى ، ومن العجيب أننا نراها هى التى ستفصل عنه مقتنعة بهذا الذى توهمته ، وربما يقودنا هذا إلى ما ترويه هى عن حوار دار بينها وبين أحد أساتذتها واعترافها هى نفسها لهذا الأستاذ بأن زوجها السابق هذا كان أول رجل يوقظ الأنثى فيها حيث تقول :

«لماذا تزوجته أصلاً؟

«سألنى أستاذ لى عقب الطلاق وأجبت:

«كان أول رجل يوقظ الأنثى فى».

ومع هذا كله فإن الدكتورة لطيفة الزيات حريصة على أن نشير ، بكل وضوح ، إلى مدى حرصها فى ذلك الوقت على عدم فتح الموضوع للنقاش :

«وبدأ التقسيم لمجمل حياتى ، وكان زواجى قد أثار من الضجة ربما أكثر مما أثاره طلاقى ، فقد انتمينا لمعسكرين متضادين ، وإن لم أع أنا هذه الحقيقة فى حينه. ربما وعيتها وغيتها كما غيبت الكثير من الحقائق ، وربما لم أعها على الإطلاق ، جرفنى التيار إذ ذاك عارماً كاسحاً فلم أع شيئاً خارجاً عن دائرة مشروعى لسعادة طال تشوقى إليها. غير أنى وعيت انقسام الرأى حول طلاقى ، بقى الرأى منقسماً ، بين من يبادلون زوجى آراءه السياسية وبين من يعارضون هذه الآراء (تكوّن اتجاهاتنا السياسية أمرجتنا وآراءنا أكثر بكثير مما نتصور)».

«وامتنعت أنا فى حومة الطلاق عن مناقشة أسباب طلاقى ، وأنهيت كل مرة المناقشة قبل أن تبدأ بكليشيه مؤداه : هو أحسن الناس وأنا أحسن الناس ، غير أننا لم نتفق . وامتنعت عامدة متعمدة عن الإسهام فى حملات سبابه التى طوقتنى فى أعقاب الطلاق . واستعصى هذا الامتناع على فهم بعض المقربين منى ، وأثار حنقهم ، غير أنى أصررت على التزام الصمت» .

وتقدم الدكتورة لطيفة الزيات تبريراً طريفاً لهذا الصمت تحرص من خلاله على أن تتعالى على تجربتها هى نفسها فتقول :

«ربما لأن فى نفى زوجى السابق نفياً لسنين طويلة من عمري ، وبالتالي نفياً لى ، وربما ، وهذا ما وعيته ، أنى اكتشفت وأنا أجهز على ما تبقى من خيوط تربطنى به أن الكراهية هى الوجه الآخر للحب ، وحرصت على ألا أكرهه حتى أجهز على كل ما تبقى من وشائج بالإفلات من حبال كراهيته» .

(٢١)

والشاهد أن الدكتورة لطيفة الزيات تمضى على نفس هذا النمط من استبطان الذات ومحاولة استنطاقها بمواقف أيديولوجية على الرغم من صعوبة تقبلنا لكل هذا التوظيف القاسى للذات من أجل الأيديولوجيا ، ونحن نرى صاحبة هذه المذكرات حتى وهى تصور حياتها فى السجن حريصة على أن تروى تجربتها ومشاعرها فى لحظات التنفيس من مثل هذا المنظور فتقول :

«توقعنا بالأمس الحملة التفتيشية المألوفة: يقف المأمور بصحبة ضابطة وسجانة فى حوش العنبر منتظراً ، يُمهّل «الإسلاميات» فى العنبر فرصة ارتداء الحجاب ، تفتح الضابطة الحقائق ، تدس يدها فى الملابس فى تهذيب رجال الجمارك فى تفتيش لا يسفر عادة عن شىء . وقد استوعبنا ، خلال شهرين ونصف ، جدلية الصراع بين السجن والمسجون ، وتمتعنا بالتالى بالقدرة على التنبؤ بعملية التفتيش قبل أن تقع ، وتمرسنا فى إخفاء ما يتعين إخفاؤه من ممنوعات» .

«غير أننا أخطأنا بالأمس فهم تطور عملية الصراع بين السجن والمسجون ، صعّدنا الصدام بدل المرة مرتين تصعيداً غير مألوف ، وتوقعنا رد الفعل المألوف» .

«تعين علينا أن نفعّل شيئاً توكياً لخضوع أمينة (د. أمينة رشيد) لإجراءات التأديب بعد عودتها ظهراً من التحقيق عند المدعى الاشتراكي».

«سرب لنا الخبر مصدر من مصادر معلوماتنا في السجن ، والخبر مفروض ألا يتسرب ، فالخبر ، أى خبر ، معلومة ، والمعلومات ، أية معلومات ، شخصية كانت أو مسموعة أو مقروءة أو مرئية ، من داخل السجن كانت أو من خارجه ، محظورة على المتحفظ عليهم وعليهن ، بعد أن غادرت أمينة العنبر صباحاً خضعت عند بوابة السجن لتفتيش ذاتي ، أسفر التفتيش عن خطابين ، واحد لزوج أمينة والآخر لابنها. تم تحريز المضبوطات ، وأرسلت على وجه السرعة إلى إدارة المباحث العامة [تقصد: أمن الدولة] ، وحررت إدارة السجن محضراً بالواقعة تمهيداً لتنفيذ إجراءات السجن التأديبية على أمينة بعد عودتها من التحقيق».

«وكان من المفروض وقد عرفنا بالمعلومة أن نتسلح بالمعرفة ونتظاهر كما نتظاهر كل مرة بأننا لا نعرف ، حتى لا يستر ضابط المباحث المختص مصادرها ، ونضطر ، وحاجة السجن إلى المعرفة تتساوى وحاجته إلى التنفس ، إلى العودة إلى نقطة الصفر ، ومعاودة البحث عن مصادر جديدة ، ولكن يتعين علينا هذه المرة أن نفعّل شيئاً توكياً لخضوع أمينة للحجز في زنزانة التأديب عند عودتها ، ولو لم نفعّل لمتنا غيظاً وغضباً».

«سحبنا أسرة عنبرنا إلى الحوش الملحق بالعنبر والمسور بالحديد أيضاً ، وأعلنت عريضة الإضراب أن الحال سيظل على ما هو عليه لحين الاستجابة للمطالب المذكورة على العريضة. حملت العريضة توقيع فريقين من السجنيات ، راهنت السلطة على وقوع صراع فيما بينهما بحكم اختلاف الاتجاهات السياسية والثقافية ، وأسلوب الحياة والسن ، الفريق الذي اصطلح الناس على تسميته بالإسلاميات ، والمكون من خمس بنات ، والفريق الذي اصطلح على تسميته «بالسياسيات» الذي تنتمي إليه أمينة وعواطف (د. عواطف عبدالرحمن) ونوال (د. نوال السعداوى) وأنا».



ولا تتجوز الدكتورة لطيفة الزيات ، أو هكذا تريد ، من أن تبدو وقد تخلصت من التعالي على الطائفة الأخرى من السجنيات اللاتي زاملنها وهن الإسلاميات ، وهي ترى نفسها وصاحباتها أكثر خبرة وأكثر قدرة وأقل أملاً في التعديل عليهن من جانب مأمور السجن ، ومع هذا فهي تعترف بما حدث وتقول:

«لحظة انفراج الباب الحديدي لحوش العنبر عن المأمور ، أدركت أنه جاء معولاً على

«الإسلاميات» فى كسر الإضراب ، تجاوزت نظرة المأمور ثورة عواطف ونوال وثورتي ، وتعلقت بمدخل العنبر فى انتظار خروج المنقبات ، وأنا أتسبع نظرة المأمور بدا لى مدخل العنبر وهو خاؤ أو يكاد من الأسرة ، كضم حيوان أسطورى منزوع الأنياب».

«وحين خرجت البنات الخمس ، منقبات بالخمير والملابس السوداء ، كشر العنبر عن أنيابه ، وارتجفت فى عيني المأمور نظرة خوف ، والبنات مصطفات كالحائط المنيع جنباً إلى جنب ، : صباح طفلة عنبرنا المدللة ، وأمل مدبرة عنبرنا ، ونادية وزير تمويننا ، وهدى ، وسيدة زرقاء اليمامة التى تتنبأ بالخطر قبل أن يقع».

«تتهددت ارتياحاً والمأمور ينتقل من الوعد إلى الوعيد ، واستبعدنا الويل والشور وعظائم الأمور ، وطالبنا باستعادة الخطابات ، واكتسبت خطابات أمينة الشخصية على لسان المأمور خطورة أطبقت على أنفاسى ، ووجدت نفسى أنهى النقاش وأنا أقول للمأمور مشيرة للخطابات موضع النقاش:

«بلها واشرب ميتها».

«ويعاودنى الانبهار للمرة الألف ، وأنا أستخدم ألفاظاً اعتبرتها قبل السجن قدرة وسوقية».

(٢٢)

ولا تخلو مذكرات الدكتورة لطيفة الزيات وروايتها عن حياتها ومراحلها من طرائف كثيرة ، والحاصل أن الدكتورة لطيفة الزيات كانت حريصة على سبيل المثال على أن تحدثنا عن قدرتها وهى فى السجن على التهريب والتمويه ، مع أن الأمور فيما يبدو من روايتها لم تكن تستأهل كل هذا الذى تصوره حيث تقول :

«بمجرد أن غادر المأمور المكان مندحراً ، تأهب العنبر للتفتيش ، أخفى البعض ما يتحتم إخفاؤه ، وعوّل البعض على [استغلال] المهلة التى تمنح عادة للمنقبات لاستكمال الحجاب».

«جمعت مذكرات أمينة المكتوبية ومذكراتى ، دسستها مع الأفلام ملفوفة فى علبة من الصفيح ، تركت للتمويه دفترأ يحمل اسم أمينة وآخر يحمل اسمى ، أحكمت الغلاف

النائلون على جهاز الراديو الجماعى ، وقفت سيدة تراقب البوابة الخارجية ، وسترتنى صباح بعباءتها حتى انتهيت من وضع المحظورات فى مخابئها».

«خطر ببالى وأنا أملاً دلوا بالماء أن أوراقي ترقد مخلوطة فى مخابئها السرية ، وأنى حاولت دائماً تنظيمها ولم تنتظم. سكبت ماء الدلو على صحف الأمس محروقة ، فى فوهة مرحاض لا يصله الماء. دست صباح رسالة من أبيها فى صدرها وأعلنت أن الرسالة لن تفارقها إلا فى اللحظة الأخيرة وعند الضرورة. وفى جو احتفائى انتشرنا فى حوش العنبر ، نجلس هذه المرة على أطراف الأسرة بدلاً من أن نفتش الأرض ، وجلسنا نتسامر وتشمس ، وثياب الحجاب قد أسفرت عن أثواب طويلة تصطخب بألوان الورود الزاهية الساخنة».

(٢٣)

وتبدو صاحبة المذكرات متأرجحة بين هذا الذى تصوره وذلك الذى كانت تشعر به ، وهى تعترف أنها مع هذا كله ظلت تعاني مما صارت إليه:

«ولأننى لم أعد الطفلة التى نجد الملاذ فى حضن أمها من شرور الدنيا ، أتساءل وأنا أرقب السجانة المشوهة العينين المسوحة الصدر والأرداف: هل هذه شبيهة ربا صلاح أبو سيف فى الفيلم السينمائى أم سكينه ، وأزيح السجانة عن طريقي المؤدى للعنبر».

«وأتوهم أن ظل ربا وسكينه قد سقط عني ، وهو لم يسقط».

«بالأمس وأنا أقف على الحافة بين الكابوس والواقع ، تعاملت لفترة مع استعراض شرس للسلطة ، وكأنى إزاء عصابة من اللصات بقيادة زعيم. وسقط من وعيى الحد الفاصل بين القهر الواقع من السلطة والقهر الواقع من عصابة من القتلة واللصوص. وهذا الربط بين المستويين من القهر ، هو الذى شكل السلوك الذى وصفته بالغرابة ، وهو الذى أضحكى بالأمس ، وأضحكت منه الأخريات كخلط ، وما من خلط».

وهى تردف بالتعبير عن ثقتها فى أحكامها رغم هذا فتقول:

« ... أعرف الآن أنى عرفت هذه الحقيقة منذ كنت صبية ، وفى أغوار النسيان غيبتها ، وأستعيدها اليوم ، وما من خلط ، قهر السلطة وقهر اللصوص القتلة هو ذات القهر. أعرف

الآن أنى كنت بالأمس الصبية تصفى مع اللصوص والقتلة حساباً قديماً ، لم تصفه يوم أردى رصاص البوليس أربعة عشر قتيلاً أمام عينها ولم تفعل شيئاً ، لم تملك أن تفعل شيئاً».



ومع التعبير عن هذا الوعي السياسى الذى ينمو حتى يصل إلى ذروة المشاركة تستعيد الدكتورة لطيفة الزيات ذكرياتها عن فترة الثلاثينيات التى عاشتها فى مدينة المنصورة وكأنها تطلق من «لا وعيها» ما هو كفىل بمجابهة اللحظة حيث تقول:

«لم تكن المذبحة التى شاهدتها الصبية فى منتصف الثلاثينيات من شرفة البيت بشارع العباسى بالمنصورة كابوساً ، كانت واقعاً ، ولم يكن الربط الذى رسخ فى أعماق الصبية بين ربا وسكينة ورجال البوليس القتلة ، ربطاً نظرياً ولا وهمياً ، كان محصلة خبرة معاشة».

«وأعرف الآن ، وأنا الصبية والمرأة فى أواخر الخمسينيات ، أن ما تخيلته بالأمس كابوساً مضحكاً ، هو جوهر الواقع».

(٢٤)

وطوال صفحات هذه المذكرات فإن لطيفة الزيات حريصة على أن تشرك قراءها فى تأمل أثر الزمن فى حياتها ، وكيف أثر على شخصيتها سلباً وإيجاباً إلى أن تصل فى نهاية الكتاب إلى أن تقول :

«أعرف الآن أنى كنت الصبية فى منتصف الثلاثينيات تنزل من الشرفة إلى شارع العباسى بالمنصورة ، تشتبك والأزرار الصفرة والبنادق السوداء الكايبة. أعرف أنى كنت الفتاة فى منتصف الأربعينيات تجلس إلى جانب كوبرى عباس وقد تحجرت الدموع فى عينها ملحاً ، تنتظر رفاقها الفرقي رقيقاً بعد رفيق ، تستر بالعلم الأخضر جثة رفيق بعد رفيق ، من ضحايا مذبحة كوبرى عباس».

وتقفز الدكتورة لطيفة الزيات إلى المرحلة قبل الأخيرة من حياتها ، أى إلى الفقرة التى كتبت عنها هذه المذكرات مصورة بعض تجربتها وتقول :

«بدأت أنتشل من الركام عباءات البنات ، وأغطية الرأس والوجه واليدين ، والمعركة مستمرة فى شراسة واستماتة ، والبنات يعاودن اللجوء إلى الدورة ، المرة بعد المرة ، مستترات ، وأنا أقطع العنبر ذهاباً وإياباً إلى دورة المياه ، أسلم لكل (واحدة منهن) حاجة من حاجياتها: عباءة ، طرحة ، خماراً ، قفازاً ، وأعود أستكمل بعثى بين ركام هائل من الملابس والأدوية والمناشف ، وأدوات المطبخ المكسورة ، وفى المرة الثالثة لرحلتى ذهاباً وإياباً لدورة المياه ، لمحت التفتيش يتركز على حاجياتى وأنا أحمل عباءتين ، وأدق خصائصى تتطاير فى الهواء ، أستشعر غضباً لا يعاودنى وأنا أوصل مهمتى . فى المرة الرابعة شعرت وقطع الحجاب تتجمع قطعة بعد قطعة ، والبنات يستترن بعد عرى ، والأشياء تتكامل ، أن حملة التفتيش لم تعد تعينى فى شىء ، وأن أحداً لم يعد يملك القدرة على تعريتى أو النفاذ إلى».

ثم تعود لطيفة الزيات مرة أخرى إلى الماضى البعيد فى ١٩٤٦ وتقول :

«دمعت عيناي وأنا أكمل مهمتى وأسدل العباءة الأخيرة على صباح وأحتضنها فى صدرى ، وقد انسابت إلى عيني دموع تحجرت ملعاً ، فى عيني فتاة جلست على شط النيل عام ١٩٤٦ ، تنتظر غريقاً بعد غريق».

«وتوجهت من دورة المياه إلى باب العنبر ، وبدا الطريق ممراً ضيقاً وعراً ومعتماً ، وتجاوزت ركام الممر وحطامه وعمته ، وفتحت الباب على اتساعه ، وانفلت إلى فسحة الحوش وضحي الشمس».

«وخطر فى بالى وأنا أسترخى فى جلستى على طرف السرير أنى أستطيع الآن أن أنظم أوراقى التى رقدت مخلوطة فى مخابئها السرية».

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحريّة

6

**مذكرات رقيبة سينما
للسيدة اعتدال ممتاز**

دار الخيال

(١)

أبدأ بأن أقرر أن هذا الكتاب هو أفضل سيرة ذاتية كتبت عن أداء الوظيفة التي قام بها الإنسان في المجتمع المصري المعاصر ، فقد استطاعت به الأستاذة اعتدال ممتاز أن تبلور لنا على مدى صفحات ليست بالقليلة خبرة ثلاثين عاماً من العمل المتواصل والمثمر في وظيفة من أهم الوظائف في مجتمع شرقي يتصل بالمجتمعات الغربية أول ما يتصل عن طريق الفن الجميل فن السينما.

وفي هذا الكتاب الذي أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٥ صفحات متواصلة تعبر عن الكفاءة اللامتناهية التي عبرت بها كاتبة هذا الكتاب عن أدائها المتميز لهذه الوظيفة التي كان من حسن حظها وحظنا أن قامت بها ، ثم كان من حسن حظنا وحظها أن سجلتها لنا على هذا النحو الممتاز في هذا الكتاب القيم الذي لم يحظ حتى اليوم بالتقدير اللائق بمكانته بين المؤلفات القليلة التي ناقشت بصورة تطبيقية مفاهيم الحرية والالتزام والإبداع والأخلاق والانفتاح والمحافظة ، وقبل هذا كله قدرة السيدة التنفيذية المصرية على المواءمة بين المتناقضات التي لا بد أن تنشأ حين يكون هناك مجال لصراع التيارات المختلفة مع فتح الأبواب في جميع أو معظم الاتجاهات.

ومع كل هذا ينبئ هذا الكتاب عن أقدار متزايدة من القدرة الفائقة على التسجيل الحى ، والملاحظة العميقة ، والانطلاق من قاعدة فكرية متينة ، ومن شخصية لا تخاف إلا خالقها ،

ولا تخضع إلا لضميرها ، ولا تنظر إلا إلى الصواب ، ومع كل هذا فإن صاحبة التجربة لا تزعم أبداً أنها تحتكر الصواب ، بل ربما كان هذا الكتاب كله مثالاً واضحاً أو أمثلة واضحة متكررة على أنه ليس هناك في الفن ولا في الوظيفة العامة شيء اسمه الصواب المطلق .



ليس في وسعي أن أشغل وقت القارئ في أن أضرب له الأمثال على ما أريد أن أقول ، ولكن في وسع القارئ أن يتناول هذا الكتاب حين يكون في صراع بين الآراء المتناقضة وإذا به يجد نفسه في حاجة شديدة إلى أن يلجأ إلى نفسه الباطنة ليجد فيها الرغبة في التوفيق ، وليستمد من هذه الرغبة قدرة على تحقيق التوفيق بين ما يجد أمامه من صراع في هذه الحياة التي تصورها السينما على خير ما يكون التصوير .

تؤمن الأستاذة اعتدال ممتاز بأهمية الخبرة المباشرة كسبيل للنجاح ، وهي هنا تبدو مختلفة تماماً عن معظم السيدات الناجحات اللاتي تقابلهن في الحياة العامة وهن يرجعن أسباب النجاح إلى مواهبهن وقدراتهن وحدهن ، أما اعتدال ممتاز النموذج المشرف للمرأة العاملة المصرية فتسجل لنا في أول كتابها القول بأن عملها في الرقابة طيلة ثلاثين عاماً هو الذي مكنها من النجاح في هذا الجهاز الذي كانت هي نفسها بمثابة أول من تولوا رئاسته من بين العاملين فيه سواء الرجال والنساء . هكذا مكنها العمل نفسه من النجاح ، ولم تمكنها شخصيتها من النجاح .

ولا يقف إيمان صاحبة هذه المذكرات بالخبرة عند هذا الحد ، ولكنها تثبت هذا بأقصى ما يمكن للمرء أن يتحصل عليه من دلائل الإثبات ، فهي تعتمد إلى الكتاب كله وتجعله سجلاً متواصلاً لهذه الخبرة .

ونحن نجدها توظف تسلسل الأحداث في إثبات أن مجانبة الصواب جاءت من قلة الخبرة ، ولا تفتقد المؤلفة صاحبة التجربة الشجاعة في أن تسلط هذا الاتهام على رقاب أكثر الناس قدراً من وزراء أو مديري رقابة أو نقاد .

(٢)

ولا تقتصر مميزات كتاب الأستاذة اعتدال ممتاز على هذا الخلق البارز من الإيمان العميق والمتأصل بالخبرة ، والذي هو كفيلاً بالنجاح التام في الوظائف المهنية جميعاً ، لكنها تضيف

إلى هذا الإيمان خلقاً آخر لا يقل عنه أهمية في حالة الوظائف المهنية التي يكون من سلطة شاغليها الحكم في الأمور كوظيفة الرقابة التي تولتها ، أعنى بهذا القدرة على التجرد من الأحكام المسبقة ، ولهذا الخلق - كما عسانا نعرف - أهمية كبيرة جداً حين يريد الإنسان أن يروض نفسه على العدل المطلق مهما كان إيمانه و يقينه بالحق وبالصواب ، ولهذا فإن اعتدال ممتاز تعترف بكل تواضع وبكل ثقة في ذات الوقت بأنها كانت تقرراً وترى أعمالاً فنية مختلفة منها ما يستحق القراءة والرؤية ، ومنها ما يجب إلقاؤه في سلة المهملات في الحال ، ولكن ضمير الرقيب كان يحتم عليها قراءة أو رؤية العمل الفنى للنهاية بصبر وتدبر ، حتى يبدي الرأى الرقابى ويبرره ويدعمه.

وهكذا نجد أنفسنا في هذا الكتاب كله ونحن نتلقى دروساً قيمة في الفن والأدب والعلم والقضاء على يدى سيدة أحبت عملها وأتقنته ، ثم أجادت التعبير عن هذا الحب وعن هذا الإتقان ، فإذا نحن فخورون بهذه السيدة العربية التي تبوأَت منذ مرحلة مبكرة هذه المكانة عن جدارة ، وأقنعتنا بهذه الجدارة ثم أقنعتنا بقدرتها الرائعة على تسجيل هذه الخبرة الرفيعة في هذه الفصول السلسة الطريفة.

ومع كل هذا فإن هذه السيدة العظيمة تؤمن تمام الإيمان بأن عملها (ونجاحها بالتالى) لم يكن عملاً فردياً وإنما كان نتيجة طبيعية لتعاونها مع زملائها على مدى الأعوام الطويلة التي قضتها في هذا المجال.

(٣)

ويزداد تمسك هذه السيدة الفاضلة بالصدق الجميل حين تُرجع جزءاً كبيراً من الفضل في نجاحها إلى زوجها العظيم الأستاذ أحمد رشدى صالح ، وتعبّر بصورة رائعة وجميلة عن الشعور الجميل الذى يسيطر على معظم السيدات المصريات من الانتماء الحميم للزوج ، ولعلها - بلا مبالغة - أبرز سيداتنا في هذا التعبير صدقاً وواقعية في عصر النهضة الحديثة الذى اضطر بعض سيداتنا أن يعتبرن الزوج والزواج كل شىء ، واضطر بعضهن الآخر أن يتجاهلن التعبير الصادق والدقيق عن هذا الشىء ، ولكن الأستاذة اعتدال ممتاز تقتصد في تعبيرها عن مشاعرها بقدر ما تصدقنا القول ، فإذا هى تقول في نهاية تقديمها لكتابتها:

«ولا أخفى على القارئ أنى أعتبر هذا الكتاب إحدى الثمرات الطيبة لحياة مشمرة بين

زوجين متفاهمين حائنين بينهما مودة ورحمة ، فكان لتشجيع زوجي طيب الله ثراه ، حافظاً كبيراً لى ، جاءنى آخره عبر الأثير عندما كان يستشفى فى غربته بلندن ، بعد قراءته أولى حلقات هذه المذكرات التى نشرت بمجلة المصور ، وذلك قبل وفاته بأيام معدودات وهو فى طريقه إلى أرض الوطن الذى كان يذوب إليه شوقاً ووجداً ، وكان أحمد رشدى صالح - رحمه الله - يقدر ويحترم ويقدر الرباط الذى جمع بين اثنين فى إرادة متبادلة ، فلم يكن يوماً عبثاً علىّ أو على عملى أو معوقاً لى ، بل على العكس كان يحترم إرادتى وتصرفاتى ، وكنا نتبادل احتراماً باحترام وتقديراً بتقدير ، وثقة بثقة ، وتقديساً بتقديس ، تغمد الله روحه الطاهرة بنوره ورضوانه ورحمته ، أما نحن فنسأله أن يُفرغ علينا صبراً ورضواناً إلى يوم يبعثون ، نتحمل به الرزء العظيم ليتحول حزننا عليه عملاً نافعاً ينفعه وينفع الناس فنكون بذلك قد قهرنا الموت» .



ولهذا كله فإنى أود أن ألفت نظر القارئ إلى أن هذه المؤلفة الفاضلة قد أهدت هذا الكتاب إلى والدها وإلى زوجها وإلى مصر ، وإلى أن ألفت نظر القارئ مرة أخرى إلى أن المؤلفة أرجعت الفضل فى عملها فى هذا المجال إلى والدها ، ولكنها لم تحدثنا عن هذا الأب العظيم بأكثر من نصف سطر فى أول الكتاب وبثلاثة سطور فى آخره (صفحة ٣٤٨) .. لعلها ذابت حياءً وخجلاً ، ولعلها تأثرت بتكنيك الأفلام السينمائية التى سرعان ما تأخذ بيد القارئ إلى الأحداث .

(٤)

فى هذا الكتاب صفحات دقيقة عن تاريخ الرقابة على السينما فى مصر ، وكيف تم تمصير الوظائف فى هذا الجهاز بدءاً بالدكتورة نور شريف [أستاذة ورئيسة قسم الأدب الإنجليزى فى آداب الإسكندرية فيما بعد ذلك] والدكتورة صفية ربيع ثم اعتدال ممتاز . ثم تحدثنا الأستاذة اعتدال ممتاز عن علاقة الرقابة بالوزارات المختلفة وبإدارة المطبوعات وتحدثنا عن الصراع بين وزارتى الشؤون الاجتماعية والداخلية من أجل الإشراف على الرقابة ، والحاول (المصرية) لمثل هذا التنازع فى الاختصاص ، وتضرب مثلاً على هذا بما حدث فى فيلم شمشون ودليلة .

وعلى هذا النحو تلمس المؤلف في بقية الفصول أيضاً في عرض ملخصات وافية وكاملة للآراء المختلفة في الأفلام المختلفة ، فتمتعنا بثقافة أدبية وفنية وسينمائية وتاريخية وسياسية رائعة ، كما تدرّب أذواقنا على الفهم السليم والذوق الرفيع لأنها هي نفسها وصلت إلى هذا ولنقرأ عباراتها حيث تقول:

«وربما لو رجعت بي عقارب الزمن مرة أخرى ، لما ترددت في اختيار نفس عملي من جديد بكل ما فيه من مرارة وحلاوة ، وألم ومتعة ، فقد أحبيت عملي حباً عظيماً ، وتعلمت أن أحترمه وجاهدت في أن أعلم آخرين كيف يحترمونه ، بل وقدسته ، لذا كنت أحزن عندما أسمع من يقلل من قيمته وأهميته أو يمس ما له بين شغاف قلوبنا من حنان ورقة».

«كثيرون لم يفهموه ورمزوا له بالمقص البتار ، فهم لم يكونوا يشعرون بإحساسنا المرهف وآماننا الصادقة بأن يرى الناس كل الناس العمل الفني المتكامل الجميل ، إنهم لم يدركوا حيرتنا وصراعاتنا النفسية عندما نتخذ قراراً بحجب أو منع ما يستحق أن يرى. تجربة فريدة فذة مرت بي على مدى ثلاثين عاماً ، أردت تسجيل بعض منها في هذا الكتاب، أردت أن أجعل منها إضافة ، فكل جهد صادق إضافة ، وكل إضافة لبنة في البناء المصرى الشامخ على مدى الأجيال المتعاقبة ، لم أرد لتجربتي الفريدة أن تضيع كالتراب الذى تطؤه الأقدام ليكون هباء منثوراً ، فاخترت تسجيلها ولعلى أكون قد وفقت ولعلها تعطى بصيصاً من الضوء إلى تجارب أنفع ، فى طريق لم يكن معلوماً أو ممهداً أو خالياً من الأشواك ، بل كان السائر فيه - فى رأى - أشبه بمن يسير على الحبال بين الجبال ، فى طريق صعب مراسه ، محفوف بالمخاطر ، ضحاياهم كثيرون ممن لا يدققون فى اختيار موضع أقدامهم ، ويحرصون على انتصاب قاماتهم ، وصدق نواياهم ، وجرأتهم فى الحق ، ابتغاء وجه الله ، فلا يتأثرون بمن يقف أمامهم ، ولا يغيب عن أذهانهم أن الوطن هو الباقي ، وأن الله حى لا يموت».

(٥)

تحدث اعتدال ممتاز عن الرقابة فى مصر الحديثة فى الفصل الثانى من مذكراتها ، وتروى بعض الوقائع التى تدل على وجود رقابة حتى وإن لم يكن هناك جهاز رقابة ، وذلك منذ عهد الخديوى توفيق :

«وبالرغم من عدم وجود رقابة أيام الخديو توفيق ، إلا أن بعض الأغاني الوطنية مُنعت ومُنْع أداؤها ، وكانت إحداها من تأليف الشاعر الكبير إسماعيل صبرى والتي كان «عبده الحامولى» يغنيها والتي يقول فيها «حفظ المعاهدة شرف» ، وبعد ذلك بسنوات مُنعت كذلك أغنية أخرى تمجد الوردانى الذى قتل بطرس باشا غالى عندما أراد أن يمد امتياز «قناة السويس» ، ولقد مُنعت هذه الأغاني بحجة أنها تمحرض على ارتكاب الجرائم ، أو بحجة أنها كانت تحبذ مناهضة الاحتلال الأجنبى أو بحجة أنها كانت تشجع على معاداة نظام الحكم الخديوى».

كما تروى صاحبة هذه المذكرات قصة اتصال أحد المسئولين بالسراى الملكية (حوالى عام ١٩٥٠) للسؤال عن اسم الرقبة التى سمحت بعرض فيلم عن مارى انطوانيت وقوله غاضباً متوعداً : «يجب أن تشنق ، ونعنى كلمة تشنق». وحين بُحث الأمر وجدوا أن الرقبة الإيطالية طالبت بمنع عرضه إلا أن أحد ضباط القسم السياسى فى وزارة الداخلية هو الذى صرح بعرض الفيلم.

كما تروى قصة فيلم «الفرسان الثلاثة» وما حدث له فى عهد الملكية ثم فى عهد الجمهورية ، وهى من أطرف القصص فى تاريخ الرقابة وتاريخ مصر المعاصر على حد سواء :

«راقبت الفيلم لجنة من رقيبتين (علية فريد وسنية ماهر) ، قررت الأولى الترخيص بعرض الفيلم مع حذف الجملتين الآتيتين: «يجب القضاء على الملك» ، و«أن مركز الملك حرج» ، وكذلك رأت الرقبة حذف منظر الملكة وهى تقبل رئيس وزرائها ، كما طالبت بحذف عبارة : «إخلاصك للعرش يجعلك تبوء بالفشل» ، كما اقترحت كذلك حذف الجزء الذى يلى إعدام «اللادى دى ونتر» ذلك أنه يظهر ضعف الملك أمام رئيس الوزراء».

«ورأت الرقبة الثانية منع عرض الفيلم واحتاطت للأمر فاقترحت فى حالة الموافقة على عرض الفيلم أن تحذف نفس الملاحظات السابق ذكرها بالإضافة إلى جملة أخرى هى: «هكذا سيكون جلالته فى قبضة يدي» ، وكذلك عبارة : «ستصل جلالته أخبار بعثتنا فى مدى ساعة».

«ورأى مدير المطبوعات د. يحيى الخشاب وقتها ، أن يراقب الفيلم بنفسه (فى ٣ سبتمبر ١٩٤٩) ، وعندما شاهده قرر وقف عرض الفيلم ، وأعيدت النسخة إلى الجمارك فى ٥ سبتمبر ١٩٤٩ ، إلا أن الشركة تسلمتها وأجرت عليها بعض الحذف ثم أعادتها

للمراقبة مرة أخرى لإعادة مراقبتها ، وأمر مدير المطبوعات أن ترى الفيلم لجنة أخرى من رقيبتين مختلفتين (مدام كوينيل الروسية الأصل ، واعتدال ممتاز في ١٤ سبتمبر ١٩٤٩) .

«وعندما شاهدت هذا الفيلم ، أضفت إلى ملاحظات زميلتي ، أنه ينبغي حذف عبارات أخرى تشير أولاً إلى امتهان الملك ، والثانية تغمز العلاقة غير المشروعة التي كانت قائمة بين الملكة ورجل آخر غير زوجها ، وكان في الذهن آنذاك أمران: الأول هو ذبوع الشعارات والمقالات التي كانت تمتهن الملك ، والثاني ذبوع شائعة كانت تدور حول علاقة بين الملكة السابقة نازلي وأحمد حسنين (باشا). وكذلك طالبت بحذف العبارة التي قالتها الكونتيسة «لريشيليو» التي تشير إلى أن الأخير «كفء يحيك المكائد وأيضاً هو كفء بالإيقاع بالملك» ، كما طالبت كذلك بحذف العبارة التي قالتها الكونتيسة لريشيليو عن أملاك للملك طالبت بها كمكافأة لها على مؤامرة تقوم هي بها ، مع حذف عبارة أخرى تفيد أن ليس هناك عدل بالدولة».

«وقمت بحذف هذه الجمل جميعاً ووافق مدير الرقابة محمود السيسى على عرض الفيلم ، إلا أن مدير المطبوعات رأى أن يعرض الفيلم مرة ثالثة على لجنة رقابية ثالثة مكونة من الرقيبتين صفية ربيع وكملتتين رندا الإيطالية».

«وفي المرة الثالثة أضافت الرقابة حذف بعض العبارات التي قد توحي بأن «الملك ليس أهلاً لأن يواجه ريشيليو بينما لا يرتدى رجاله الثياب اللائقة» ، ومن هذه العبارات ما طلبه الملك «بالأ يقاطعه أحد مدام يتحدث حديثاً منطقياً» ، وقدرت الرقيبة أن هاتين العبارتين توحيان بأن الملك دون مستوى مسؤوليته وأنه أضعف من أن يمارس سلطته».

«ولقد كتبت الرقيبة صفية ربيع تعليقاً جاء فيه: «إن الاعتراض الوحيد الذي كان يمكن أن يوجه إلى عرض هذا الشريط في مصر هو السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها ريشيليو رئيس الوزراء ، ولكن بعد الحذف الذي تم بالإضافة إلى الملاحظة السابقة أرى أن ليس هناك مانع من عرض الشريط وأنه يربنا باستمرار أن الخطط التي كان يقوم بها ريشيليو تبرء بالفشل ، كما أن الشريط ينتهي بأن يمنح الملك رضاه التام للفرسان الذين كانوا يمثلون القوة التي كانت تناوى ريشيليو وبهذا يتراجع ريشيليو».

«وعلى هذا الأساس صرح مدير المطبوعات بعرض الفيلم في ٢٠ سبتمبر ١٩٤٩ ، ورخص بنسختين منه ، ثم نسخة ثالثة رخص بها في ١٥ يونيو ١٩٥١ ورابعة رخص بها في ١٩ نوفمبر ١٩٥١».

«ويصور الفيلم كما جاء بتقريرى بالملف الخاص بالفيلم قصة ثلاثة فرسان شجعان ،

يدافعون عن ملك فرنسا وينضم إليهم «دارتينيان» ، رجل ريفى شجاع ، ويقفون جميعاً ضد مؤامرات ريشيليو رئيس الوزراء الذى يريد الزج بفرنسا فى حرب مع إنجلترا. وينجحون فى إحباط المؤامرات ويكافئ الملك الرجال كل بما يريد».

«وكان الفيليم من إخراج جورج سدنى ، وتمثيل جين كيلى ، ولانا تيرنر ، وجون أليسون ، وفان هيفيلين».

(٦)

وبعد هذا لا تنسى صاحبة هذه المذكرات أن تقص علينا ما حدث لفيليم الفرسان الثلاثة ، بعد أن سقط النظام الملكى (!!) وتغيرت بالتالى الدواعى والظروف التى كانت تدعو إلى التحفظ فى اتخاذ قرار عرضه ، والاحتياط بحذف بعض العبارات وبعض المناظر على نحو ما رأينا:

«عندما تقدمت الشركة بعد الثورة بطلب التصريح لها بالنسخة الخامسة فى ٢٧ يوليو ١٩٥٢ من الفيلم تكونت فى ٤ أغسطس ١٩٥٢ لجنة مكونة من مدير المطبوعات ومراقب النشر أنور حبيب المدعى الاشتراكى السابق ، والرقيب الحربى الصاغ محمد ثابت ، ورئيس مراقبة الأفلام محمد حلمى سليمان ، وشاهدت اللجنة الفيلم وقررت أن ليس فى الفيلم ما يستحق الحذف ووافقت على عرضه فى مصر عرضاً كاملاً غير منقوص ، ثم توالت بعد ذلك نسخ أخرى من الفيلم عرضت جميعاً دون أدنى حذف (النسخة السادسة رخص بها فى ١٦ نوفمبر ١٩٥٤ والسابعة فى ٢٧ يونيو ١٩٥٩ ، ويلاحظ أن الأستاذة اعتدال ممتاز كانت مديرة لرقابة الأفلام والسيد نجيب محفوظ مديراً للمصنفات الفنية» .

«ثم تقدمت شركة النسر العربى بنسخة جديدة فى ٢٣ نوفمبر ١٩٧٦ من إنتاج جديد لنفس موضوع الفيلم من تمثيل أوليفييار ريد ، وراكيل وولش ، وتشارلتون هاستون ، وإخراج ريتشارد ليستر».

ثم تعقب الأستاذة اعتدال ممتاز بعد هذا كله بقولها :

«والخلاصة التى نستخلصها من قصة الرقابة مع هذا الفيلم ، هى أن الرقابة تطبق دستوراً غير مكتوب - يشبه الدستور الإنجليزى - أى أنها تطبق القواعد التى تلائم زمانها ووقتها وطبيعة الكيان السياسى والاجتماعى السائد فى كل مرحلة من مراحل التاريخ ،

وما يصنعه الرقيب هو - كما قلت - أن يقوم بعملية موازنة دقيقة تتوزعه دوافع - لعل بعضها أن يكون متعارضاً - ففي حالة الفرسان الثلاثة كان الرقيب يدرك قيمة هذا الفيلم من الناحية الفنية ، ويقدر أنه مأخوذ عن عمل أدبي عالمي ، وأن من حق الجمهور أن يشاهد روائع الشاشة البيضاء العالمية».

«لكن الرقيب كان أمام اعتبارات أقوى من تقديره للقيمة الفنية والأدبية الخالصة لهذا الفيلم. ومن الواضح أن أكثرية الرقيات لم تطلب منع عرض الفيلم ، بل طالبن بحذف عدد قليل من العبارات ، التي قد يفسرها من كانوا ملكيين أكثر من الملك تفسيرات ضارة أو تفسيرات مغرضة».

(٧)

ومن أهم الروايات التي يضمها هذا الكتاب قصة صاحبة المذكرات مع المغفور له الأستاذ يحيى حقى مدير مصلحة الفنون ، ثم مع المغفور له الأستاذ عبدالمعصم الصاوي وما تعكسه هذه القصة من أهمية إيمان المرأة المصرية بدورها في الحياة العامة وكيف أن هذا الإيمان (ولا شيء غيره) هو المحدد الأول لنجاحنا كمجتمع .. وأقول هذا رغم أن هذه السيدة المتواضعة لم تقله ، ولكنها أوحى به بكل قوة وهي تقول:

«وظل الحال كذلك إلى أن أصبحت مديرة لإدارة الرقابة على الأفلام العربية والأجنبية (عام ١٩٥٩) ، وكنت أول سيدة تشغل هذا المنصب وأول من شغله بين الرجال والنساء من داخل الجهاز».

«وبهذه المناسبة أذكر نادرة قد حدثت لي ، فعندما كانت مصلحة الفنون قائمة ذهبت إلى المدير العام لها يحيى حقى ، في بعض الشآن وتطرق الأمر إلى ذكر الدرجات ، فسألت لماذا تخطتنى المصلحة في الدرجة الثالثة؟ هل يوجد ما هو ضدى فى شيء؟ فانزعج الأديب الكبير وقال بصراحته المعهودة: «إطلاقاً ، ولكن هل أعطيك الدرجة الثالثة لتطالبنى بعد ذلك بمركز مديرة الرقابة!؟» ، فضحكت وقلت: «أعدك بأنى لن أطالب بها أبداً..» ، ومرت سنوات وعندما صدر قرار لى بتعيينى مديرة لإدارة الرقابة الأجنبية والعربية ، حادثنى تليفونياً مهنئاً «ومشفقاً» قائلاً: «ولكن ماذا ستصنعين مع الفنانين والرقباء بكل هذا الهدوء.. وهذه الرقة؟! أليس هذا المنصب متعباً لك؟!».

«وأذكر أنه بعد أن قضيت حوالى الشهر ونصف الشهر فى منصبى أن نادانى وكيل

وزارة الثقافة (عبد المنعم الصاوي) واستأذنتني في أن أتنازل عن هذا المركز لأحد زملاء (فؤاد العرابي)، وكنت خالية الذهن تماماً عما يريد عندما قابلته، فكظمت غيظي، وتملكني الأسى وقلت: لماذا؟ هل أنا التي طلبت أن أعين مديرة للرقابة؟ والآن وقد وضعتموني تحت الأضواء.. ماذا يقال؟ إنها لم تُفلح لأنها سيدة؟! هل أسأت؟ هل أخطأت؟ ماذا بالله فعلت؟ كأنني بك قد سلطت على الضوء ثم وجهت إلى ضربة، وكأنك تقول علناً: إني أتهمك.. فاعتذر وكيل الوزارة وتركت مكتبه بعد أن طيب خاطر، والغريب أنني وجدت خارج المكتب جمعاً من موظفي وزارة الثقافة أكاد لا أعرفهم هنا ونرى كما قالوا على انتصاري في معركة «الشرف!!».

(٨)

وتقدم لنا صاحبة هذه المذكرات نبذة هامة عن مشكلة العلاقة بين الرقابة وبين الجهات التعليمية التي تقدم عروضاً فنية في نطاقها المحدود وذلك من خلال حديثها عن عرض مسرحية «الفخ» في الجامعة الأمريكية ومسرحية «الانسجام» في كلية آداب الإسكندرية.

وتناقش المؤلفة بمنتهى الصدق والموضوعية، قانون الأحداث الصادر سنة ١٩٥٤ والذي أدى إلى قيام الرقابة بتقسيم الأفلام إلى نوعين: للكبار فقط وللعرض العام، وهنا تجار الرقبة بصوت عال بالشكوى من الأفلام المصرية التي أنتجتها مؤسسة القطاع العام وتقول في كل صراحة ووضوح في صفحتي ٤٧ و٤٨:

«... أرادت الرقابة أن تطبق قرار تصنيف الأفلام إلى ما يجوز عرضه على الكبار فقط، وما يصلح للعرض العام، تطبيقاً عاماً يشمل كافة الأفلام التي تعرضها دور السينما بدون أن تميز بين الفيلم المصري والفيلم الأجنبي، لأن المصلحة التي تعلق فوق كل اعتبار هي تأمين المجتمع، لكن أعمدة غير قليلة في صناعة السينما المصرية، اهتزت غضباً واعتراضاً، وفي رأيي أن هذا الغضب والاعتراض كانا بمثابة ستار من الدخان يتستر وراءه أولئك الذين كانوا يتحينون الفرصة لإغلاق السوق على الإنتاج المحلي وحده، بصرف النظر عن مستواه، أو ما قد يحمله من مؤثرات ضارة، ولست أريد أن أشير بإصبع الاتهام إلى شخص معين أو أشخاص معينين، وإنما أريد أن أكشف الستار عن الدوافع الحقيقية التي جعلت القطاع العام ممثلاً في مؤسسة السينما يتخذ لنفسه حصانة عرفية ضد القانون، بل المسؤولية الوطنية التي تقتضي أن ينهض القطاع العام في السينما بدوره البناء، وليس

بدور التاجر الذى يجرى وراء الريح السهل ولو جاءه هذا الريح فوق أشلاء النفوس البريئة ، وجثث ضحايا الأفلام التى تمنع بعض البلاد الأوروبية عرضها ، وكم أحرزنى وأحزن الكثيرين من المواطنين أن تضيع آلاف الجنيهات فى مثل هذا الإنتاج الملىء بالإيحاءات والإيماءات الحادشة والمناظر الخارجة أو المرعبة ، والكلمات الجارحة حيث أصبح من طابع أغلب الأفلام المصرية أن تظهر السيدات نصف عرايا أو عرايا تقريباً ، والمرأة المصرية متسمة دائماً بالسقوط سواء كانت ابنة أو زوجة أو أمأ ، وكأن الدنيا ضاقت ولا يوجد أبطال غير الراقصات والمنحرفات».



ثم تضى الأستاذة اعتدال ممتاز لتعبر عن أسفها الشديد لعجز الرقابة فى ظل القوانين والقواعد التى كانت سائدة وقائمة عن أن تقوم بواجبها المفروض فتقول:

«ولم تتمكن الرقابة من حماية النشء من الفيلم المصرى الفاضح أو الذى يستحق موضوعه المعالجة بعيداً عن الأطفال ، فى أن تفرض عليه قانون للكبار فقط ، فقد سبقت المؤسسة بشكواها وإلحاحها بأن الفيلم هو تسلية الأسرة المصرية جميعها بكل أفرادها ، وزعمت المؤسسة أن قصر عرضه على الكبار فقط يؤثر على تسويقه ، وإنها إذا استطاعت أن تلتزم به فى دور العرض الأولى فإنه يصعب تنفيذه بالنسبة لدور العرض الثانية والثالثة. ولقد ضاقت الرقابة ذرعاً بأعذارها والتى تمثل بها القطاع الخاص ، وضاق مع الرقابة مجلسها ، وضاق معها وزراء متعاقبون لوزارة الثقافة كذلك. ولا أكاد أذكر طوال حياتى العملية أن فيلماً مصرياً واحداً استقر عليه الرأى للكبار فقط ، وكأن الأفلام المصرية فوق الشبهات أو أن لها حصانة تضعها فوق القانون. ومثال الأفلام الواجب وضعها للكبار فقط كثيرة ، منها: قصر الشوق ، شقة مفروشة ، الناس اللى جوه ، قاع المدينة ، امرأة ورجل ، زوجتى والكلب ، حمام الملاطيلى ، السراب ، جنون الشباب.. إلخ إلخ».

ثم تأخذ المؤلفة مثلاً تدلل به على عجز الرقابة عن تطبيق القانون الخاص بحماية النشء وهى تضرب المثل على ذلك بفيلم «السراب» الذى حاولت الرقابة تطبيق قاعدة «للکبار فقط» عليه دون جدوى!! .

(٩)

وتصور هذه المذكرات إحدى المشكلات التى نشأت عن دخول الدولة فى مجال الإنتاج

السينمائي في الستينيات ، وما ترتب على هذا من تزايد معاناة اللجان التي كانت تتولى فحص الأفلام كما تفاقم عجز الرقابة ومجلسها ، بل والوزير نفسه ، عن مقاومة نفوذ مؤسسة السينما في تمرير وتصدير أفلامها التي لم تكن تراها الرقابة صالحة للتصدير ، ولكن ماذا بوسع «الحكومة» أن تفعل في «إنتاج الحكومة» (!!!):

«... ولم تقف الرقابة بما لها من قوة ولا المجلس بما له من تأثير ولا الوزير بما له من سلطة ، ضد تصدير الأفلام غير المرغوب في تصديرها رغم ما وجد فيها من أسباب لمنع تصديرها ، فكانت المؤسسة تجد دائماً أسباباً ومناسبات ومنافذ للتصدير. وكانت تتخذ أسباباً لأعذارها مثل حاجة البلاد إلى العملة الصعبة أو غلق السوق الخارجى أمام الفيلم المصرى ، إذا هى لم تصدر أفلاماً بعينها منعت تصديرها الرقابة أو أنها كانت تلوح بإفلاسها هي كمؤسسة».

«وكانت المؤسسة العامة للسينما لا تعدم من يؤيد رأيها ولو بعد سنوات ، ربما بعد أن تكون قد هدأت العاصفة على إنتاج الفيلم السيئ ، أو ربما يكون تخلصاً من إلحاحها أو حرصاً على عدم زيادة خسائرها المادية ، أو الاستجابة لأعذارها أو لتغيير في قيادتها أو قيادات الوزارة أو لغير ذلك من أسباب لم تزل معلقة كعلامات الاستفهام».

(١٠)

بعد هذا قد يظن القارئ أننا نريد أن نقول إن الأستاذة اعتدال ممتاز كانت من «الصقور» في الرقابة ، لكنها في الحق كانت نموذجاً للاعتدال الممتاز ، ولكل مسمى من اسمه نصيب.. وها هي اعتدال ممتاز تروى في الفصل الثالث من كتابها قصة أفلام ممتازة كانت ضحية للضغوط المختلفة التي أثرت على ظهورها أمام المشاهد المصرى. ومن هذه الأفلام فيلم «كليوباترا» وتروى صاحبة المذكرات على مدى الصفحات (٩٠ - ٩٩) آثار الأخذ بسياسة مقاطعة الأعمال الفنية على قرارات الرقابة:

«... وعندما عرض على الشاشة البيضاء ، وبقاعة الرقابة ، لم أستطع ولم يكن فى استطاعة أى رقيب أن يوافق على عرضه ، بالرغم من أنه لم يسيئ إلى شخصية كليوباترا ، بل لقد كان هذا الفيلم يمجّد ملكة مصر القديمة».

«وقد يسأل القارئ إذن: لماذا لم يعرض هذا الفيلم؟».

«الجواب ببساطة أن اليزايث تايلور كانت إحدى الفنانات والفنانيين الذين تبرعوا لإسرائيل ، وأدلت بتصريحات اعتبرتها الدوائر السياسية المصرية والعربية معادية للحقوق المشروعة للجانب العربي وقتها ، بالإضافة إلى دعمها للنشاط الصهيوني في المحافل الدولية والأمريكية ، وكان مكتب مقاطعة إسرائيل بالطبع قد أدرج اسم اليزايث تايلور ضمن قائمة الفنانين ممنوعين من عرض أعمالهم بدور السينما العربية ، وتطبيقاً لهذا كله صدر قرار بمنع عرض فيلم «كيلوباترا» بالرغم من أننا كنا على يقين من أن هذا الفيلم قد عرض على المستوى العالمى أمام جمهور كبير».

«والأمر العجيب أن الفيلم الذى اعتبره العرب معادياً لهم اعتبرته إسرائيل فيلماً معادياً لها كذلك ، لأنه يجد شخصية مصرية عظيمة ، هى كيلوباترا. لذلك منعت الرقابة فى إسرائيل عرض هذا الفيلم ، وهكذا لم ينجح الفيلم الممتاز فى أن ينال إعجاب الجانبيين المتحاربين على الأرض ، وهو عمل فنى يخلق إلى حيث يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان».

ثم تتساءل اعتدال ممتاز :

«هل انتهت حكاية فيلم كيلوباترا عند القرار الصادر بمنعه فى البلاد العربية وإسرائيل؟».

«وكيف تمت دورة مراقبة هذا الفيلم فى مصر؟».

«بدأت قصة الرقابة مع فيلم كيلوباترا عندما تقدم مدير إنتاج الفيلم فى مصر جمال مذكور بطلب إلى الرقابة يطلب فيه تصدير اللفات التى صورت بعض المناظر التجريبية بمنطقة الشيخ يادفو ، وذلك لتحميضها بالخارج ووافقت الرقابة على التصدير (مدير رقابة المصنفات الفنية وقتها كان محمد لمعى)».

«وكانت الشركة قد أرسلت إلى مصر بعض المعدات تمهيداً لتصوير الفيلم وأنفقت الشركة على بعض المناظر التى صورت بمصر ٣٣٨,٠٠٠ من الجنيهات ، إلا أن السلطات المصرية منعت دخول الممثلة الأولى للفيلم وبطلته ، وهى اليزايث تايلور - كما ذكرت - حتى أننا سمعنا أنها وصلت المطار فعلاً ومنعت من دخول البلاد».

«وكانت جريدة الجمهورية (بتاريخ ٢٦ سبتمبر ١٩٦٠) قد نشرت أن الممثلة اليزايث تايلور ستصل إلى مصر فى الأسبوع الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩٦٠. كما نشرت مجلة نيوزويك (فى ٢١ أغسطس ١٩٦٠) أن هذه الممثلة ستصل إلى مصر لتمثل دور البطولة فى

فيلم كليوباترا ، وأنها - أى الممثلة - صرحت «بأنها سوف لا تلاقى متاعب على الإطلاق وأن شركة فوكس للقرن العشرين رتبت مسألة ذهابها إلى مصر والحصول على عشرة آلاف رجل من الجيش المصرى لتمثيل دور كتائب كليوباترا».

«كما نشرت صحيفة الرقيب الليبية (فى ٤ يوليو ١٩٦١): «أن الممثلة اليزابيث تايلور فازت بجائزة الأوسكار وأنها تتبرع بما يقرب من نصف إيرادها سنوياً لإسرائيل» وقد وجه إليها أحد الصحفيين السؤال التالى:

«هل تعتقدين أن سلطات مصر ستسمح لك بالقيام بتمثيل دور كليوباترا فى الأراضى العربية؟ وماذا تفعلين لو منعت من دخول الجمهورية العربية المتحدة لميولك المعروفة وهى عطفك على إسرائيل وتأييدك المطلق المنقطع النظر لها؟»

«وقد أجابت اليزابيث تايلور:

«إنى سأدخل أراضى مصر وسأقوم بتمثيل دور كليوباترا هناك ولن تستطيع سلطات المصر. منعى.. إن هناك طرقات خاصة سأتبعها وأنا متأكدة من نجاحها».

«هذا بالإضافة إلى أن مجلة لوك الأمريكية (فى ١٥ أغسطس) نشرت تصريحاً لهذه الممثلة هذا نصه:

«إننا ذاهبون لمباشرة العمل فى مصر (فى فيلم كليوباترا) ومن ثم سنذهب إلى إيطاليا ومنها سنعود إلى هوليوود. ذات مرة منعتى ناصر من الدخول إلى مصر لأنى يهودية ، ولكن فجأة سمح لى بالدخول ولا أعلم الأسباب ، إنها مسألة عمل بالنسبة لى وإنه لمن المضحك أن أكون أول ملكة يهودية لمصر».

«وعندما تقدمت شركة فوكس للقرن العشرين (فى ٥ أكتوبر ١٩٦٣) بالفيلم لإجازة عرضه لم يوافق الرقباء على العرض ولم أوافق أنا أيضاً ، وأيد المنع (فى ٣٠ أكتوبر ١٩٦٣) مدير المصنفات الفنية عبدالرحيم سرور للأسباب السابقة المتعلقة ببطله الفيلم».



وتروى صاحبة هذه المذكرات تفصيلات ما حدث عقب حرب يونيو ١٩٦٧ من التصريح بعرض هذا الفيلم فى القاهرة ثم إيقاف هذا التصريح وموقف عدد من الدول العربية من عرض هذا الفيلم ، وهى تفصيلات فى غاية الأهمية لتاريخنا السياسى المعاصر:

«وبعد مضى ما يقرب من أربعة أعوام ونصف العام تقريباً شاهد مدير الرقابة مصطفى درويش وقتها الفيلم وذلك بناء على طلب جديد من الشركة (فى ١١ فبراير ١٩٦٨)

وأجاز عرضه عرضاً عاماً (فى ١٩ فبراير ١٩٦٨) دون أية ملاحظات مبدياً أسبابه للعرض
وهى:

«أولاً: الفيلم يمجّد مصر وموقفها السياسى من الاحتلال الرومانى».

«ثانياً: لأنه ينفى عن العرب المسلمين تهمة حرق مكتبة الإسكندرية».

«ثالثاً: لأنه ممنوع فى إسرائيل الأمر الذى يدل على أنه من المصلحة عرضه فى
الجمهورية العربية المتحدة».

«وبناء على ذلك أحضرت الشركة نسخة من الفيلم مقاس ٧٠مم ونسختين ٣٥مم
وقامت بالدعاية للفيلم التى تكلفت عشرة آلاف دولار ، ونشرت جريدة أخبار اليوم (فى
١٦ مارس ١٩٦٨) تحت عنوان «كليوباترا فى القاهرة» ما نصه:

«تقرر السماح بعرض فيلم كليوباترا فى القاهرة. اتخذت هذا القرار الرقابة على
المصنّفات الفنية ، قال مصطفى درويش مدير الرقابة: «وافقنا على عرض الفيلم.. إلخ» ،
وأوردت الأسباب السابق ذكرها».

«كما نشرت وكالات الأنباء العالمية نبأ موافقة مدير الرقابة على المصنّفات على عرض
الفيلم».

«وبعد ذلك أرسل المكتب الإقليمى لمقاطعة إسرائيل خطاباً مطولاً من أربع صفحات
يؤكد ضرورة منع الفيلم وجميع الأفلام التى تشترك فى تمثيلها الممثلة ذات الميول الصهيونية
اليزابيث تايلور».

«وعلى ذلك قررت الرقابة (فى ٢٩ أبريل ١٩٦٨) سحب ترخيص عرض الفيلم وتنبه
على الشركة بذلك ، إلا أنها تظلمت من قرار الرقابة إلى وزير الثقافة الدكتور ثروت
عكاشة ، الأمر الذى جعل وكيل الوزارة حسن عبدالمنعم يطلب عرض الفيلم على مجلس
الرقابة فى أول اجتماع (الاثنين ٢٧ مايو ١٩٦٨)».

وتعقب اعتدال ممتاز على هذا بقولها :

«ومما يذكر أن مجلس الرقابة كان قد أنشئ حديثاً بعد إلغاء نذب مدير عام الرقابة
الفنية على المصنّفات مصطفى درويش الذى سبقنى مباشرة ، وحتى لا يتفرد مدير الرقابة
بالرأى بمفرده بعد الخطوة الجريئة منه فى عرض أفلام أثناء وبعد النكسة التى اعتبرها
البعض خارجة فى موضوعاتها ومناظرها ، الأمر الذى أثار مجلس الشعب [تقصد:
مجلس الأمة] والرأى العام ، والغريب فى الأمر بالنسبة لفيلم كليوباترا أنه برغم أن

مقاطعة إسرائيل كانت متشددة بالنسبة لمنع عرض الفيلم بالبلاد العربية إلا أنه عرض في الأردن (في ١٠ نوفمبر ١٩٦٥) والجزائر (في ١٧ مارس ١٩٦٦) والمغرب (٢٦ نوفمبر ١٩٦٤) وتونس (١١ نوفمبر ١٩٦٥)».

«وعندما استوضحت الأمر من المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل اعتذر أن الفيلم عرض بالمغرب وتونس لأنهما لم يصدرا بعد قانون المقاطعة الموجود ولم تنشأ بهما مكاتب إقليمية للمقاطعة» ، أما بالنسبة للجزائر فإنه لم يوجد لدى المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل ما يؤيد عرضه بها» ، وقال المكتب بأن الأردن بدأ عرض الفيلم وبمجرد صدور قرار منع عرضه بالدول العربية تقرر إيقاف العرض به».

«أما بالجمهورية العربية المتحدة فهي باعتبارها عضواً في جامعة الدول العربية ملتزمة بتنفيذ قراراتها وذلك طبقاً لميثاق الجامعة وبروتوكول إسكندرية فقد جاء بند «أولاً» من بروتوكول إسكندرية ما نصه:

«قرارات جامعة الدول العربية ملزمة لمن يقبلها».

«كما جاء في المادة السابعة من ميثاق جامعة الدول العربية:

«ما يقرره المجلس بالإجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة.. وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله.. وفي كلتا الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة حسب نظمها الأساسية ، وحيث إن الجمهورية العربية المتحدة قد وقعت على الميثاق (في ٢٢ فبراير ١٩٤٥) فقد أصبح تشريعاً من تشريعاتها واجب الالتزام به» ، وكذلك قرر مجلس جامعة الدول العربية في اجتماعه الثاني والثلاثين ضرورة تنفيذ قرارات حظر التعامل مع الأشخاص الأجانب (طبيعيين واعتباريين) الذين يثبت لمؤتمر ضباط الاتصال مخالفتهم لقانون ومبادئ المقاطعة من قبل المجلس بالإجماع في الوقت الذي يحدد لذلك».

«وعليه أصبحت الجمهورية العربية المتحدة ملزمة بتنفيذ قرارات الحظر ضد الأشخاص الطبيعيين والاعتباريين التي يصدر بها قرارات مؤتمرات ضباط اتصال لمقاطعة إسرائيل».

(١١)

وتحفظنا الأستاذة اعتدال ممتاز في هذه المذكرات بمحمل آراء أعضاء مجلس الرقابة تجاه

هذا الموضوع ، وتزيدنا هذه الآراء اطلاقاً على عقليات هؤلاء الأعضاء وأنماط تفكيرهم منذ مرحلة مبكرة ، ومن حسن الحظ أن من بينهم الأستاذ نجيب محفوظ نفسه :

«وفي محاولة يائسة أثرت مسألة قرارات مكتب مقاطعة إسرائيل الملتزمة بها الجمهورية العربية المتحدة في أول اجتماع لمجلس الرقابة».

«وعندما طرح مقرر المجلس (حسن عبدالمنعم) الموضوع على الأعضاء طالب بدراسة هذه المسألة إذ من غير المعقول أن تمنع جميع الأفلام بهذه الطريقة ، وطالب بتغيير هذا المبدأ، إذ أن السلبية في معالجة القضايا لم تحقق شيئاً ، وضرب بذلك مثلاً لمثلة مثل اليزابيث تايلور فهي لم تخسر شيئاً بسبب مقاطعة أفلامها لأنها قد حصلت على أموالها وأجرها من الشركة المنتجة ، كما أن نسبة توزيع الفيلم في الشرق الأوسط تعادل ٢٪ من التوزيع العالمي ، وعليه فإن هذا القرار لن يضرها بل بالعكس فهي تستغل هذا القرار بالتشهير بقضايا ومصالح البلاد العربية».

«وكان من رأى أحد أعضاء المجلس أن المسألة تحتاج إلى إقناع الممثلين لكسبهم إلى صف البلاد العربية ، وليس عن طريق منع عرض أفلامهم ، فمنع المصنفات الفنية يخسرنا نحن ولا يعود على إسرائيل بخسائر كبيرة ، ولقد خسرت مصر العمالة ، والعملية الصعبة ، التي كان مفروضاً أن تصرف في البلاد عند تصوير الفيلم في مصر».

«ورأى عضو آخر (سامى داود) أن الوقت (عام ١٩٦٨) غير مناسب لعرض الفيلم وإذا كانت البلاد العربية الأخرى قد عرضته في عام ١٩٦٥ ، فقد كانت الظروف التي تمر بها البلاد تختلف اختلافاً كلياً ، وأن عرض الفيلم في تلك البلاد العربية ليس مقياساً لضروة عرضه عندنا باعتبار أن مصر هي المرأة للبلاد العربية ، وعلى ذلك اقترح تأجيل مناقشة الموضوع لأنه لا يجوز التنازل عن قرارات المقاطعة التي شملت شركات متعددة مثل شركات أدوية .. إلخ. واستثناء المشلات من القرار قد يفسر سياسياً بأنه تنازلات سياسية».

«وأيد الرأى عضو ثالث (نجيب محفوظ) واعتبر أنه إذا كانت الجامعة العربية قد اتخذت قراراً بمنع عرض أفلام بعض الممثلين فلا يجوز لمجلس الرقابة أن يصدر قراراً مناقضاً لقرار الجامعة ، وطالب عضو رابع (الدكتور حسن الساعاتى) بإرجاء المناقشة باعتبارها مشكلة سياسية تعبر عن موقف سياسى ، إلا أن وكيل الوزارة (حسن عبدالمنعم) تساءل ولماذا لا يأخذ المجلس المبادرة باعتبار أن الموضوع سيعرض على وزير الثقافة

(الدكتور ثروت عكاشة) الذي قد يعرضه هو بمعرفته على مجلس الوزراء بعد أن يستوفي البحث؟».

«إلا أن أغلب أعضاء المجلس طالبوا بتأجيل النقاش في الموضوع.. ولكنني ذكرت للمجلس كيف أنني أخذت رأي بعض الشركات الأجنبية المستوردة لأفلام منعت بسبب اتخاذ موقف من بعض الفنانين الذين يشتركون فيها ، وفيما إذا كانت هذه الشركات توافق على أن يسمح لها بعرض تلك الأفلام الممنوعة مقابل خصم ٥٠٪ من حصيلته الإيرادات لصالح اللاجئين من العرب ، فكان جواب هذه الشركات جميعاً بالإيجاب ، إلا أن أحد أعضاء المجلس (سامي داود) اعترض على ذلك باعتبار أننا في مصر لسنا وحدنا المنفذين لقرارات المقاطعة» ، وعليه اتخذ الرأي في الاستمرار بتأجيل عرض الفيلم ورفضت المقاطعة اقتراح الـ ٥٠٪».

(١٢)

ثم تروى اعتدال ممتاز أنها ظلت حريصة على موقفها المحبذ لعرض فيلم «كليوباترا» على الجمهور المصري وتقول:

«وعاودت الكتابة إليها - أي إلى الإدارة المسئولة عن المقاطعة - عدة مرات لصالح الفيلم، كما كتبت إلى كل من وزارة الثقافة والإعلام والهيئة العامة للسينما ، فيما إذا كان من الممكن فعل أي شيء بحيث يعرض هذا الفيلم ، وكان أن ردت المقاطعة بالشروط الواجب توافرها لإمكان السماح بعرض أفلام الممثلين والممثلات الأجانب الذين حظر عرض أفلامهم من دخول البلاد العربية بما يلي:

□ أولاً: من حيث المبدأ ووفقاً لأحكام المقاطعة فإنه لا يجوز النظر بالسماح بعرض فيلم لممثلة أو ممثل ممنوع ما لم يرفع اسم الممثل أو الممثلة من قائمة الممنوعين وتزول الأسباب التي أدت إلى إدراجه».

□ ثانياً: ولثبوت أن اليزابيث تايلور قد قامت بأعمال لصالح إسرائيل ، بصرف النظر عن أنها اعتنقت اليهودية في فترة من فترات حياتها ، وقد ثبت هذا بالقطع للأسباب الآتية:

«أولاً: أنها اشترت سندات إسرائيلية بمائة ألف دولار قبل أن يمنح عرض أفلامها بالبلاد العربية».

«ثانياً: قامت بمجهود ضخم لترويج السندات الإسرائيلية مستغلة شهرتها».

«ثالثاً: تبرعها بمبلغ سبعين ألف دولار لبناء مسرح في تل أبيب».

«هذا ولقد قامت بأعمال لاحقة بعد الحظر؛ منها: أنها قامت بتمثيل الأفلام الضخمة الدعائية الإسرائيلية منها فيلم (Sone of the star) عن مغامرات مزعومة قامت بها فصيلة من الجيش الإسرائيلي أمام الجيش المصرى بكامله ، هذه الأفلام التى ترمى إلى تمجيد إسرائيل والحط من قيمة العرب».

«وعليه لا يجوز رفع الحظر عن أفلامها ما لم تقم بالآتى:

« ١ - التبرع لهيئات عربية بمبالغ تعادل ما سبق أن تبرعت به لإسرائيل ومن حسابها الخاص وليس نتيجة عرض فيلم لها فى البلاد العربية».

« ٢ - قيامها بالمشاركة الفعالة فى جمع التبرعات لمصلحة الفلسطينيين الذين شردتهم إسرائيل».

« ٣ - أن تبدى استعدادها للقيام بتمثيل فيلم لصالح القضية الفلسطينية مقابل الأفلام التى أنتجتها لصالح القضية الصهيونية».

«وأقلقنى السؤال.. هل سيظل الحكم على فيلم كيلوباترا بالأبى يراه كل من المشاهدين العربى والإسرائيلى؟ ، وكان فى اعتقادى أنه كلما عادت الأحوال إلى مستواها العادى الذى لا يتصف بشدة الحساسية أو لا يتأثر بالصراع الشرس الذى استمر على مدى ثلاثين سنة بين العرب وإسرائيل؛ انفتحت آفاق لا أدرى كم تكون واسعة أمام عرض هذا الفيلم الممتاز فى الجانبين العربى والإسرائيلى».

«وتركت الرقابة.. وكانت المبادرة التاريخية الشجاعة فى إحلال السلام بين البلدين المتحاربين.. وتوقعت أن اليوم الذى سيشهد فيه جمهور الشرق الأوسط هذا الفيلم لن يكون بعيداً، وتحققت إحدى أمنياتى الرقابية فى عرض الفيلم بسينما كايرو فى عام ١٩٧٩».

(١٣)

وعلى مدى صفحات هذا الكتاب نرى صاحبه وهى واعية تمام الوعى للفروق

الجوهريّة بين الأعمال الفنيّة المختلفة ، وهي ترى أن بعضها متميز وأن بعضها الآخر غير متميز ، وهي لا تجد حرجاً في أن تسمي الأشياء بأسمائها ، وهي تخصص الفصل الرابع من كتابها للحديث عن موقف الرقابة من هذه الأفلام غير الممتازة ، وتأخذ لهذا نموذجاً فيلم «قصر الشوق» الذي أنتجته مؤسسة السينما وهو نموذج واضح ومعبر عن معاناة الرقابة مع مؤسسة السينما تماماً كفيلم آخر هو «امرأة ورجل» ، وترى الأستاذة اعتدال ممتاز بكل وضوح وصراحة وشجاعة أنه مأخوذ عن قصة لها قيمتها الأدبية وكتبتها هو أحد كبار أدبائنا المرموقين ، ولكن الفيلم أهدر القصة الأصلية وهي تقول ما نصه :

«فهذا الفيلم - رجل وامرأة - مأخوذ عن قصة لها قيمتها الأدبية وكتبتها هو أحد كبار أدبائنا المرموقين (يحيى حقى) لكن الفيلم أهدر القصة الأصلية ، وعند عرض الفيلم (في ٢ يناير ١٩٧١) على لجنة الرقابة ، تقرر بإجماع الآراء أن يقتصر عرض الفيلم على الكبار فقط مع حذف بعض المناظر التي حددتها التقارير».

«وعندما راقبت الفيلم أصابتنى الحيرة.. فالفيلم مستواه الفني هابط لدرجة كبيرة جداً ، وهابط في مخاطبته للجنس وفي مناظره الجنسية المكشوفة ، وأصبحت سمة من سمات الفيلم المصري في ذلك الوقت مخاطبة الفرائز الجنسية. واعتبرت هذا الفيلم من أكثر الأفلام المصرية المثيرة التي صادفتني من هذا النوع».

ورأيت أنه ربما كان أسلم الطرق وأقصرها أن أهدب الفيلم بحيث يصبح لاثقاً بالعرض الجماهيري ، كما اتخذت قرارى بأن يكون التصدير بنفس حالة العرض المحلى».

«ولم أصل إلى رأى مع صاحب الشركة الذى طالب بالاحتكام إلى مجلس الرقابة لأنه أراد الاحتفاظ بجزء من الفيلم رأيت فيه خروجاً على الآداب العامة ، كما أنى لاحظت أن هذا الجزء تقليد لمنظر أخذ من فيلم أجنبى ، باسم (Quarry) كان من الأفلام التى رخص بها مدير عام الرقابة السابق (مصطفى درويش) ، وتقرر بعد إلغاء ندبه إعادة مراقبة الأفلام التى رخص بها ، وكان هذا الفيلم ضمنها ، وحذف الجزء المشار إليه من الفيلم».

«وعرضت الفصل الذى به الجزء المختلف عليه من الفيلم على المجلس (الجلسة ٨٠ بتاريخ ٤ مارس ١٩٧١) بعد أن حذفت جزءاً كبيراً منه ، ولكنى كنت أرى أنه مازال مخلاً بالآداب العامة ورأى عضوان (نجيب محفوظ وسامى داود) من المجلس أن لا بأس من ترك هذا الجزء ، بينما اعترض عليه عضو ثالث (أحمد الحضرى) ، واستقر الرأى على عرض الفيلم كاملاً فى جلسة قادمة (جلسة ٨١ فى ١١ مارس ١٩٧١) ليكون الحكم عليه سليماً».

«ويتلخص موضوع الفيلم في أن جاسر أحب حميدة الغازية ، وقتل متولى غريمه ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات ، وعندما خرج عاش في ضيافة ابن خاله إسماعيل المتزوج من نرجس اللعوب ، واشتغل جاسر قاطع حجارة بمحجر ووقع في غرام نرجس التي أغرتة بمعاشرتها ، كما أغرت كثيرين غيره عن طريق خميس شيخ الخفر».

«قام جاسر بتدبير مقتل إسماعيل وتزوج من نرجس بعد فسخ خطوبته من صاحبة ابنة صاحب المحجر ، وحاولت حميدة الغازية إعادته إليها لكنه مضى يقاومها».

«فقد جاسر بصره أثناء عمله ، وأتيحت الفرصة لنرجس لتذهب إلى بيت خميس شيخ الخفر القواد ، وهناك لحق بها جاسر واستطاع أن يقتلها ويقتل خميس».



وتقدم صاحبة هذه المذكرات صورة حية لاختلافات الأذواق والعوامل الحاكمة للتقييم واتخاذ القرار من خلال روايتها لموقف مجلس الرقابة من كثير من الأفلام المعروضة عليه ، ومن هذه المواقف نقرأ ما تروييه عن فيلم «رجل وامرأة» وذلك حيث تقول:

«... وبعد العرض على مجلس الرقابة رأى أغلب الأعضاء أنه لا بأس من السماح بعرضه عرضاً عاماً بعد أن هذبت الرقابة مناظر الفيلم ، إلا عضواً واحداً (سامى داود) اعتبر أن عرض الفيلم إساءة إلى صورة الحياة في مصر الريفية ، وأنه يهدم كل قيمنا الاجتماعية من صداقة وقرابة وحياة زوجية ، ويهدرها جميعاً ، بالإضافة إلى أنه قائم على مسائل جنسية مفضوحة جداً تكشف عن الهدف الوحيد من الفيلم ، وأن من واجب المجلس عرض الموضوع على الوزير مع الإشارة إلى هبوط مستوى الفيلم المصرى».

«وكلف المجلس العضو المعارض بكتابة تقرير مفصل توطئة لعرضه على الوزير مع إبداء الرأي فيما يتبع مستقبلاً في أمثال هذا الفيلم».

«وعند عرض محضر مجلس الرقابة على الوزير أشر وكيل وزارة الثقافة (حسن عبدالمنعم كامل) ومقرر الجلسة بالآتى (مسألة هبوط مستوى الأفلام واتخاذها ذريعة للرفض باعتبار أن ارتفاع المستوى يدخل ضمن مصالح الدولة العليا ، إعمالاً للنص القانوني ، موضوع يثور فيه جدل ويقتحمه بعض السادة أرباب الأقلام الصحفية بين مؤيد ومعارض ، من قبيل هذا ما حدث من أيام حين اتصل بى أحدهم وهو السيد رءوف توفيق تليفونياً فى صيغة المحاسبة على توصية المجلس بالنسبة لفيلم «لعبة كل يوم» وقرار سيادتكم بمنع عرضه لهبوط مستواه.. وهكذا».

«وأشرف السيد الوزير (بدر الدين أبو غازي) (ينتظر تقرير الأستاذ سامي داود ولا سبيل إلى رفع مستوى الفيلم المصري ما لم نأخذ بأسباب الحزم والتشدد بالقياس إلى ما هو هابط من هذه الأفلام)».

«وفي الجلسة التالية (جلسة ٨٢ في ١٨ مارس ١٩٧١) نوقش تقرير العضو الذي جاء فيه:

«السبب في عرض هذا الفيلم على المجلس ، اختلاف الرقابة مع منتج الفيلم حول مشهد واحد من مشاهد ، يمارس فيه البطل والبطله الفعل الجنسي كاملاً ، وتلتقطه عدسة الكاميرا من خلال حاجز متموج شفاف ، إخفاء للتفاصيل مع إبقاء الحركة المثيرة بكل ما توحي به من خيالات».

«وقد رأى المجلس مشاهدة الفيلم كاملاً ليتبين ما إذا كان هناك ما يبرر إبقاء المشهد أو تخفيفه .. أو إقرار الرقابة على حذفه».

«وقد وضح لدى مشاهدة الفيلم ، أن الشركة المنتجة لم تستهدف منه سوى عرض مناظر الإثارة الجنسية ، ومشاهد العنف الشديد .. مع التجاوز الكامل عن طبيعة وأخلاقيات البيئة التي تجري فيها أحداث الفيلم ، وهي بيئة القرية في صعيد مصر».

«إن بطل القصة يثير خيالات نساء القرية وفتياتها ، لأنه قتل رجلاً ندد بعلاقة بينه وبين غازية القرية .. ودخل السجن .. فتطلق عليه نساء القرية اسم «جاسر بتاع حميدة» .. ويتهاقتن عليه لدى عودته من السجن .. ويطلقن الزغاريد .. وكأنما هو لم يقتل رجلاً من رجالهن ، إن هذا البطل لا يكاد ينعم بضيافة ابن خاله الفلاح وإيوائه له بعد خروجه من السجن ، حتى ينصب شباكه لزوجته ، وتجاربه الزوجة ، وتتفنن في إغرائه بشتى المغريات ، حتى وزوجها نائم في البيت».

«إن الزوجة لا تجد مانعاً يمنعها من أن ترقص في عرس عشيقها ، أمام زوجها وأمام الرجال الآخرين».

«إن من اليسير في هذه البيئة ، أن تمارس الزوجة تجارة الجسد ، في بيوت العزّاب من سكان القرية .. وأن يكون قوادها في هذا العمل هو شيخ خضر القرية بزيه المعروف».

«إن العنصر «الشريف» الوحيد الذي يشمئز من عمل الزوجة ، ويندب به هي غازية القرية .. أما باقي الرجال والنساء .. فيلاحظون ويسكتون وكأن شيئاً غير عادي ولا مألوف ولا مستنكر يجري في محيط قريتهم».

«أما مناظر العنف والقتل بالجملة ، فتبلغ الذروة».

«وقد كان السؤال الذى فرض نفسه عقب مشاهدة هذا الفيلم ، هو كيف أجازت الرقابة تصويره بعد عرض السيناريو عليها.. خصوصاً أن تقارير الرقباء لا تشير إلى وجود أى خروج من الفيلم على السيناريو المعد».

«أما الإجابة السائدة ، فكانت أن معظم المخرجين لا يلتزمون عند تصوير الأفلام بالسيناريو المكتوب .. وأن الرقابة درجت على التساهل فى هذه الناحية ، وأن الفيلم ليس أسوأ من كثير من الأفلام المصرية التى تعرض فعلاً».

«على أن قراءة السيناريو قد أوضحت ما يلى :

«أن جميع مشاهد الإثارة الجنسية المعروضة فى الفيلم ، لا وجود لها على الإطلاق ولو من قبيل الإشارة العابرة فى السيناريو المكتوب .. وذلك ما عدا مشهداً واحداً فى مقدمة الفيلم - قبل العناوين - أشار إليه السيناريو بكلمة «جاسر فى خلوة مع حميدة».. وطلبت الرقابة حذفه ، ومع ذلك أصر المخرج عليه».

«إن قصة جديدة كاملة قد أدخلت على الفيلم ، هى قصة البطولة النسائية الثانية فيه: «حميدة الغازية».. إن هذه الشخصية لا وجود لها على الإطلاق فى السيناريو بعد اللقطة الوحيدة المشار إليها فى مقدمة الفيلم .. وقد لا يكون هناك اعتراض رقابى على هذه القصة المستخدمة فى الفيلم.. لكن مجرد استخدامها كاملة بكل علاقاتها والمشاهد التى تظهر فيها ، يشير إلى خلل فى العمل الرقابى يجب تلافيه .. خصوصاً أن تقارير الرقابة لا تشير إلى شىء من هذه المخالفات».

«وخلاصة الرأى أن التشدد واجب عند النظر فى الترخيص بعرض هذا الفيلم ، إذا كانت وزارة الثقافة جادة فى الارتفاع بمستوى الفيلم المصرى ، وأخلاقياته».

«ولقد كانت الرقابة تتساهل مع أفلام القطاع العام ، حرصاً منها على اقتصاديات مؤسسة السينما المملوكة للشعب ، ودرج القطاع العام على القول بأنه مضطر إلى مجارة أفلام القطاع الخاص.. التى تنافسه أمام شبك التذاكر ، ويستطيع القطاع الخاص بناء على هذا ، أن يستمر فى إغراء القطاع العام: إذا ظل يجد من الرقابة تساهلاً فى الترخيص بعرض أفلامه التى لا يستهدف منها سوى الربح من أى طريق مهما كانت المخالفات التى يقوم عليها إنتاجه».

«والمسئولية بعد هذا ستظل مسئولية وزارة الثقافة ، وأجهزتها الفنية والرقابية التى يجب

عليها أن ترسم طريقاً جديداً للفيلم المصرى ، يتناسب مع أهداف شعبنا وأخلاقياته وقيمه ..
ومع خطورة العمل السينمائى وتأثيره البالغ».



وتصل الأستاذة اعتدال ممتاز إلى رواية تفصيلات جديدة كانت كفيلة بزيادة تعقيد هذه
المسألة:

«وقد اتضح من هذا التقرير أن الفيلم موضوع المناقشة مخالف تماماً للسيناريو المرخص
به من الرقابة ، بل هناك مشاهد أضيفت بالكامل دون أن يكون لها سند فى السيناريو» .
«وقد رأى وكيل وزارة الثقافة أنه كان فى وسع الرقابة أن تؤدى واجبها وتعفى المجلس
من عرض هذا الموضوع لو أن الرقباء قد أوضحوا فى تقاريرهم أن هناك خلافاً بين الفيلم
والسيناريو» .

«عندئذ ذكر عضو المجلس (أن الرقابة قد رخصت بسيناريو الفيلم بشرط حذف مشهد
جاسر فى خلوة مع حميدة ، وحتى عند الترخيص بعرض الفيلم لم يحذف هذا المشهد ،
عندئذ قررت مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية أن هذا المشهد الموجود فى الفيلم قد
قامت الرقابة بتخفيفه ، كما أنها خففت مناظر كثيرة من الفيلم كانت موضوع اعتراض ،
ولكن عضو المجلس (سامى داود) قرر أنه كان من الواجب حذف هذا المشهد بأكمله طالما
أن الرقابة سبق أن قررت حذفه نهائياً فى السيناريو» .

«وذكرت المدير العام (اعتدال ممتاز) للرقابة أن الرقابة لحد ما تعتبر أن المخرج فنان مثله
كمثل من يصور صورة بالزيت قد يعن له أن يلمس هذا الجزء أو ذاك بأن يضيف عليه أو
ينتقص منه ، فهى تتسامح طالما أن ليس هناك اعتراض رقابى ، أما إذا وجد أى اعتراض
رقابى فهنا تحاسب الرقابة الشركة المنتجة» .

«وعلق عضو آخر من المجلس (نجيب محفوظ) بأن منتجى الأفلام العربية يرون قدراً
كبيراً من التسامح فى الأفلام الأجنبية ، والرقابة قد يكون لها بعض العذر فى السماح
بعرض بعض المشاهد الجنسية فى الأفلام الأجنبية على اعتبار أنها تمثل بيئة غير بيتنا ، لكن
المنتج المصرى قد يستغل ظهور هذه المشاهد ويطالب بالقياس وبذلك يعطى المتفرج
المصرى جرعات جنسية غير مناسبة» .

«فاعترض العضو الأول (سامى داود) وذكر بأن الأذى الذى يصيب المتفرج من الأفلام
الأجنبية أو العربية واحد ، ولكن خطورة الأفلام العربية تكمن عند عرضها فى الخارج أنها

تسبىء إلى سمعة الشعب المصرى على اعتبارها تمثل البيئة المصرية ، فمثلاً شيخ الخفر المصور فى هذا الفيلم قد صور على أنه قواد وهذا ما لا يقبله العقل إطلاقاً».

«وقد رأى عضو ثالث (كمال الملاخ) أن شيخ الخفر قد ظهر بالفعل على أنه شخص سلبى جداً وكان المفروض فيه أن يزجر حميدة لا أن يقوم بعملية القوادة».

لذلك رأى العضو المذكور أن يعدل الفيلم على الوجه التالى :

« ١ - قص المغالاة فى إظهار شخصية شيخ الخفر والاكتفاء بظهوره مرة واحدة فقط».

« ٢ - حذف المشهد بين «جاسر وحميدة» الذى يسبق أسماء الممثلين رغم أن هذا الجزء قد سبق الحذف منه بمعرفة الرقابة».

« ٣ - حذف المشهد الجنسى كله بين «جاسر وعروسه» فى رقصة الخللخال».

«وقد رأى عضو المجلس أن يعرض الفيلم بعد الحذف المشار إليه محلياً وعدم الموافقة على التصدير إلى الخارج حيث إنه لا يمثل البيئة المصرية».

«وعاد العضو المعارض (سامى داود) يقول إنه إذا كانت الرقابة جادة فى عملها ، فإنه يجب أن يكون الفيلم مطابقاً تماماً للسيناريو المرخص به ، وإذا أريد أى تغيير فلا بأس من استئذان الرقابة ، مع ضرورة إخطار منتج هذا الفيلم لإعادة تعديله بحيث يطابق السيناريو المرخص به وحذف جميع المشاهد التى أضيفت والاستئذان فيما أضيف وكان جيداً».

«ووافق المجلس على رأى واعتمده الوزير. وبناء على هذا حررت الرقابة خطاباً للشركة (فى ٢٦ / ٤ / ١٩٧١) قالت فيه: «تأسف الرقابة إذ تخطر كم بأن الفيلم لم يأت مطابقاً للسيناريو المرخص به من الرقابة حيث أضيف إليه ما يلى:

١ - مشاهد الإثارة الجنسية.

٢ - شخصية حميدة الغازية.

٣ - كما أن الشركة لم تقم بحذف مشهد جاسر مع حميدة فى أول الفيلم والذى طلبت الرقابة حذفه من السيناريو المرخص به».

«ولما كان هذا مخالفاً لأحكام القانون ٣٠ لسنة ١٩٥٥».

«لذا قررت الرقابة إرجاء الترخيص بالفيلم لحين قيام الشركة بالالتزام بالسيناريو السابق الترخيص به من الرقابة».

وعلى نحو ما نمت خبرتنا بمثل هذه الأمور بفضل مدارستنا لمذكرات الأستاذة اعتدال ممتاز فإننا نستطيع أن نتصور كل قضية من هذه القضايا الرقابية وهي تحتل كثيرا من الإجراءات التي لا تنتهي:

«ولكن الأمر لم ينته عند ذلك الحد ، بل استمرت المناقشات بين الرقابة والشركة المنتجة التي أرسلت مذكرة إلى الرقابة (فى ٢٨ / ٤ / ١٩٧١) توضح فيها أن قصة الفيلم من الأعمال الأدبية القيمة للأديب المعروف يحيى حقي ، ونظراً لأنها قصة قصيرة لا تتعدى الصفحات القلائل فكان لا بد من معالجة السيناريو مع تحريك الشخصيات الجانبية حتى ولو ذكرت فى القصة الأصلية فى عبارة واحدة».

«لذلك بعد الكتابة الأولى للسيناريو وجدنا أن كل شخصيات الفيلم شريرة ، وأن عنصر الخير غير ممثل على الإطلاق فخلقنا شخصية حميدة الغازية من كلمة عابرة فى القصة الأصلية ، ورغم أنها غازية إلا أنها تتصرف مع جاسر بطيبة فطرية ، وخير وإنسانية ، فخروج الفيلم إذن عن السيناريو المصرح به من الرقابة جاء لتحقيق الجوانب الخيرة فى نموذج بشرى (الغازية) الذى تنتظر منه دائما السلوك المشين. وقد عمدنا إلى ذلك لتدعيم المصنف الفنى وليس امتهاناً له ، وإنما إذ نضع دائماً نصب أعيننا التعاون مع إدارتكم والتزام تعليماتكم من حيث الممنوع و المباح ، لذلك نرجو التفضل بالموافقة على التعديلات التى أضيفت إلى السيناريو».



وعند هذا الحد تحرص اعتدال ممتاز على أن تبرر قرارها النهائى فيما يتعلق بهذا الفيلم فتقول :

«وعلى هذا ، وافقت شخصياً على العرض مع الحذف والتخفيف للمشاهد السابقة موضع اعتراض الرقابة ، واستأذنت المجلس فى ذلك إنقاذاً للفيلم مع إخطار كافة الشركات بالالتزام بالسيناريو المرخص والاستئذان فى كل ما يعنى لها من تغيير أو إضافة ، واعتبر المجلس خطاب الشركة استئذاناً عن المضاف على السيناريو وتم حذف المشاهد المطلوب حذفها من الفيلم والترخيص به للعرض العام فى ٣ / ٥ / ١٩٧١».

(١٤)

على أننا نرى صاحبة هذه المذكرات وهى حريصة على أن تضمن مذكراتها ما ينبئ عن

أنها كانت تعنى عناية شديدة بالناحية الفنية لا بالناحية الأخلاقية فحسب ، وقد رأيت أن أختار أحد الأمثلة الدالة على هذا الخلق في ممارستها ، ولم أجد خيراً من ذكرياتها عن موقفها من فيلم «ثم تشرق الشمس» إخراج أحمد ضياء الدين ، حيث نجد روحها المتحمسة للفن والإتقان الفنى تطالعنا بوضوح شديد:

«... عند عرض الفيلم علينا بالرقابة تملكنى غيظ شديد ، لأن الفيلم من الناحية الفنية يعتبر من الأفلام جيدة المستوى ، إلا أن قيمته الفنية لم تكتمل ، وجاء الفيلم - فى رأى - مشوهاً لوجود تخلخل به نتج عن عدم التزام القصة بالفترة الزمنية التى ترخص بها السيناريو ، لأن أحداث الفيلم المفروض فيها أن تكون قد وقعت قبل الثورة ، بينما جاء الفيلم مصوراً بجميع الأحداث والمتغيرات التى حدثت وقت تصوير الفيلم ، بل حرص الفيلم على أن يحدد فترة الأحداث بعد موت جمال عبدالناصر ، لأنه ركز على صورته مجللة بالسواد ، كما أظهر صور أمناء الشرطة ، والسيدات يرتدين الملابس القصيرة جداً حسب موديلات الوقت».

«ولم يقتصر الأمر على الأوضاع الشكلية فقط ، بل إن عدم الالتزام بالزمن أوجد التخلخل بالقصة أيضاً لما تأكد من معانى وانطباعات أخلت بالمجتمع المصرى فيما بعد الثورة الاشتراكية ، الأمر الذى أوجب الاعتراض رقابياً على الفيلم ، فنجد أن البطل يستخط على الفقر رغم أنه على مستوى معيشى مرتفع ، ونجد أيضاً أن النماذج الأسرية فى الشرف والنبل مركزة كلها فى كبار الأغنياء والإقطاعيين ، الأمر الذى لم توافق عليه الرقابة إطلافاً فى ترخيصها بالسيناريو ، ولا فى تحفظاتها عليه».

«وفى نقاشى مع المؤلف والمنتج والمخرج أكدت هذا المعنى ، وبكل العطف والتفاهم بينت وجهة النظر الرقابية ، ورغم تأكيدى لهم بتخفيف مناظر الجنس ، والجنس للجنس حفاظاً على الآداب العامة ، لم يكن هناك التزام بذلك عند تنفيذ الفيلم ، والأكثر من هذا أضيفت إلى الفيلم بعض المشاهد والأحداث الجانبية ، الأمر الذى اعتبرته الرقابة خروجاً على الآداب العامة ، لأن جرعة الجنس جاءت كبيرة وضاغطة ، واحترت ماذا أصنع ، وبيت أمرا».

«رأيت أن أضع المؤسسة المصرية العامة للسينما أمام مسؤولياتها: ولم أبد فى الفيلم رأياً معيناً أو قاطعاً ودون إخلال فى واجبى أشرتُ فى تقريرى بأن الفيلم لم يلتزم بالسيناريو المرخص ، وأن جرعة الجنس به كبيرة ولم أنس أن أشير بالتقرير إلى أن الفيلم رغم ذلك على مستوى فنى جيد فيما يختص بالتصوير والألوان والإخراج ، وطالبت بعرض الفيلم

على مجلس الرقابة وكأني أسأله المشورة بينما أردت في قرارة نفسى أن أشعر وزارة الثقافة باستهانة المؤسسة بمقومات صناعة الأفلام وبديهياتها ، وأولاها المحافظة على ما توحى به الفترة الزمنية التي اختارها المؤلف إطاراً لأحداثها وشخصياتها ، وأردت أن أبين أخطاء المؤسسة بأعمالها ، حتى تكف المؤسسة المصرية العامة للسينما ، عن الضجيج بالشكوى من الرقابة واتهامها زوراً للرقابة بأنها تُفشل أعمالها ، حتى يتبين للجميع أن الرقابة ليست متعصبة معها ، بل تكمن فيها هي نفسها أسباب فشلها».



وقد آثرت أن أقتبس للقارئ هذه الفقرة المطولة من هذه المذكرات لأنها تعكس تماماً الروح السائدة في هذا الكتاب واللهاجة الغالبة على حديث هذه السيدة الرقيبية ، وقد يعجب قارئ كتابنا هذا من أن يدور مثل هذا الصراع على هذا النحو (ولكن هكذا كانت الأمور تسير ، وقد قُدم هذا الفيلم للرقابة فى يونيو ١٩٧١) ، وليس هذا مجالاً لعرض سلبيات مؤسسة السينما التي انتهت من الوجود وقد أودت مثل هذه التصرفات بوجودها فى النهاية ، ولكننا نواجه فى هذا الكتاب لأول مرة بنصوص مكتوبة حافلة بالموضوعية إن لم تكن صورة من صور الموضوعية فى أرفع صورها ، ولهذا فإننا نشكر للسيدة اعتدال ممتاز هذا الجهد فى مذكراتها ، الذى يوفر على متخذ القرار فى المستقبل القريب والبعيد سنوات عديدة من التجربة والنجاح والفشل ، أقصد الفشل والفشل الذريع .

وهكذا تلخص لنا صاحبة المذكرات قصة فيلم «ثم تشرق الشمس» مع الرقابة ، وتشيد بالموقف الذى وقفه الدكتور إسماعيل غانم وزير الثقافة ، ولكنه - على حد تعبيرها - لسوء الحظ لم يطل الأمر به بالوزارة ، ونقل مديراً لجامعة عين شمس ودون أن تتمكن الرقيبية (الأستاذة اعتدال ممتاز) من أن تعرف المشاهد التي اعترض عليها بالفيلم .

وتشير صاحبة المذكرات بعد هذا فى فقرات متوالية إلى تدخل بعض أقطابنا المثقفين من أجل تمرير عرض هذا الفيلم ، ثم تدخل الدكتور عبدالقادر حاتم نائب رئيس الوزراء لحذف بعض لقطاته .

الوزارية حيث تعود مناقشة الملف لتبدأ من نقطة البداية ، وكأن ما مضى لم يكن شيئاً مذكوراً ، وفي هذا الإطار فإنها تروى لنا قصة فيلم «شقة مفروشة» على مدى عدة صفحات ، كما تورد نصوصاً شبه كاملة لمناقشات مجلس الرقابة التي يدين فيها هذا الفيلم إدانة شديدة.. ولكن سرعان ما تغير الوزير (!!):

«... والفيلم من إخراج وإنتاج حسن الإمام قصة أبو السعود الإياري وسيناريو سعد الدين وهبة تمثيل أحمد مظهر وماجدة الخطيب ومحمد رضا ، من توزيع شركة القاهرة للتوزيع السينمائي - مؤسسة السينما».

«... ويتناول موضوع الفيلم قصة «زينب» مدرسة موسيقى بالمنصورة التي نقلت إلى القاهرة لتعمل مدرسة بمعهد الموسيقى العربية ، تبحث عن شقة مفروشة فتجدها عند العاملة نجف ، وتدور أحداث الفيلم ونعلم أن الشقة مؤجرة فعلاً للمذيع انتدب للعمل بالإسكندرية ويترك الشقة ليلاً. يعود المذيع ليكتشف أن المعلمة سمحت لزينب بالسكن في الشقة ، ذلك أنها تعمل بالنهار. وتبدأ المشاحنات والمواقف التي تنتهي بوقوع كل منهما في حب الآخر ثم النهاية السعيدة».

«والمفروض أن الفيلم كوميدى ، وفي رأى أنه عرض صورة جو العاملة القديمة صاحبة الشقة بصورة هابطة ، كما تعرض للشخصيات المختلفة بصورة أكثر هبوطاً كزوجها والخادم والخدماء.. إلخ ، أما من الناحية الفنية فكان فى الفيلم من السذاجة والاستهتار بالجماهير ، سواء فى الحوار أو التصوير أو الإخراج ما جعلنى أحتار فى أمره ، وأخيراً اتخذت قرارى الآتى والذي دوتته فى التقرير بالملف: «الفيلم من إنتاج خاص ممول من المؤسسة ، وهو فيلم دون المستوى ، بل فى رأى من الأفلام الهابطة ، وأرى الترخيص به بالعرض كما هو حتى يكون الحكم عليه من الجماهير.. ولا أوافق على تصديره».

«إلا أن الشركة وعلى غير المعتاد بالنسبة للأفلام المصرية ، طالبت بترخيص تصدير الفيلم قبل ترخيص العرض المحلى جماهيرياً ، وعندما أبلغت برفض الرقابة بتصدير الفيلم (فى ٥ مايو ١٩٧٠) ، طالب مدير الإدارة العامة للتوزيع الداخلى (محمد لمعى) برجاء إعادة النظر فى قرار الرقابة نظراً لارتباط الشركة بتعاقدات كثيرة على استغلال الفيلم المشار إليه فى الخارج ، الأمر الذى يترتب عليه منع تصديره ليس فقط خسارة كبيرة للمؤسسة وللدولة من العملات الصعبة ، بل أيضاً اهتزاز ثقة العملاء فى معاملاتهم مع الشركة والمؤسسة!».

«وكنت قد طلبت من مجلس الرقابة مشاهدة فصلين من الفيلم للوقوف على مدى

تفاهة الإنتاج وهبوط الإخراج ، وعلى الأخص أن الفيلم من تمويل المؤسسة وتوزيع شركة القاهرة للتوزيع السينمائي (أى أن تمويل الفيلم وتوزيعه تتحمله الخزنة العامة)».

«وعندما عُرض محضر مجلس الرقابة على وزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة (الجلسة ٥٠ من محاضر مجلس الرقابة فى ٢٧ أبريل ١٩٧٠) أشر بخطه: (لا يعرض فيلم شقة مفروشة إلا بعد مشاهدته بواسطة المجلس ومعاملته المعاملة الموضوعية بصرف النظر عن تمويله بواسطة المؤسسة ثم إخطارى بالنتيجة)».

«وعندما شاهد مجلس الرقابة الفيلم كاملاً (الجلسة ٥٤ فى ٢٨ مايو ١٩٧٠) قرر الأعضاء عدم الموافقة على الترخيص به إطلاقاً بالإجماع للأسباب الآتية:

- ١ - الفيلم يمثل عقوبة للمشاهد.
- ٢ - فيلم يمتحن كل أوليات العمل السينمائي.
- ٣ - فيلم ينحدر بالسينما إلى ما قبل الثلاثينيات.
- ٤ - فيلم فيه من السذاجة والإسفاف ما لا يغتفر لمبتدئ.
- ٥ - فيلم يشوه صورة المجتمع المصرى كأفراد وكمجموعات وكمستولين.
- ٦ - الفيلم يعتبر خسارة تستحق تحديد مسؤولية المؤسسة فى تمويله.
- ٧ - لم ينفذ مخرج الفيلم التعليمات الرقابية الواردة فى السيناريو والمطلوب حذفها رقابياً.
- ٨ - أضاف المخرج إلى الفيلم مشاهد دون ترخيص من الرقابة حيث لم يرد نصها ضمن السيناريو المرخص.
- ٩ - حذف المخرج من السيناريو مشاهد دون ترخيص من الرقابة.

«اعتمد الوزير المحضر وأشّر «يجرى تحقيق لتحديد المسؤولية عن ظهور هذا الفيلم وتوقيع عقوبة رادعة لمنع تكرار هذا الاستهتار والإسفاف» ، وأرسل صورة من المحضر إلى رئيس مجلس إدارة المؤسسة المصرية العامة للسينما (بتاريخ ٢٩/٦/١٩٧٠) ، وبلغت الشركة بالمنع إلا أنها تظلمت لدى لجنة التظلمات المشكلة بالقانون الرقابى (التظلم فى ٢١/٧/١٩٧٠)».

«وعند نظر الموضوع أمام اللجنة ، استعرضت أسباب المنع واستطلعت رأى حسن الإمام فقرر أنه أنتج هذا الفيلم اعتماداً على اسم كاتب السيناريو سعدالدين وهبة ، كما

قرر أنه اشترى القصة من المؤسسة ، وأن الموضوع كوميدى سيدر ربحاً وبيعاً على المؤسسة ، كما قرر أن الفيلم أحسن بكثير من الأفلام الكوميدية التى عرضت».

«وبعد أن شاهدت اللجنة الفيلم قررت بأنه جد هابط ويتضمن من السذاجة والإسفاف ما لا يُقبل فى عصر أصبحت فيه السينما تمثل الصور المرئية للنهضة والتقدم ، ولكن إذا كانت هناك أية كلمة إنصاف له فإن هذه الكلمة لا تخرج عن كونه يماثل الكثير من الأفلام المصرية».

«والأمر كذلك ينبغى على المسئولين عن السينما المصرية وقف هذا الانحدار والإسفاف ، وغنى عن البيان أن الارتفاع بمستوى الفيلم المصرى هو مسئولية المؤسسة المصرية العامة للسينما فيكون من المؤسف أن يشارك فى إنتاج هذه الأفلام الجهة التى يرعى منها الإصلاح».

«لذلك يتعين مساءلة المتسبب أو المسئول عن اشتراك المؤسسة فى تمويل هذا الفيلم أو ما يماثله من الأفلام الهابطة الرديئة».

«وقد رأى رئيس اللجنة منع عرض الفيلم للأسباب السابق ذكرها ، إلا أنه نظراً لأن القضاء بمنع عرض الفيلم يتضمن خسارة شديدة على المنتج فى وقت نرى أن هذا الفيلم يماثل الكثير من الأفلام المرخص بها ، لذلك راعت اللجنة ما تقدم ، وارتأت بناء على رأى نائب مجلس الدولة وممثل نقابة السينما ، تخفيف المشاهد المطولة التى قد تكون من شأن تعديلها أن يصبح الفيلم مقبولاً بعض القبول ويمكن عرضه».

«وعليه رأت اللجنة إبلاغ وزير الثقافة بالتوصية بإجراء تحقيق مع المسئولين بالمؤسسة المصرية العامة للسينما حسبما أشرنا إليه فيما تقدم» ، وتصادف أن مؤسسة السينما أحالت على الرقابة فى ذلك الوقت عدة أفلام هابطة المستوى غاية فى الهبوط ورديئة سواء كان من إنتاجها أو توزيعها مثل فيلم آدم والنساء ، سوق الحريم ، أبطال ونساء ، شقة مفروشة ، الناس اللى جوه ، أوهام الحب ، برىء فى المشنقة ، موسيقى ، حب وجاسوسية ، الحب والفلوس .. إلخ».

«وكنت اعترضت على تصدير بعض منها وعرضت الأمر على مجلس الرقابة (الجلسة ٦٦ فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٠) الذى خالف رأى وكان ما حدث من اعتراض الوزير على رأى المجلس».

«وحدث تغيير وزارى وعين وزير آخر لوزارة الثقافة وبعد قرار الرقابة بمنع الفيلم

بحوالى ستة شهور تساءلت المؤسسة عما تم فى أفلامها الثلاثة : شقة مفروشة - الناس اللي جوه - آدم والنساء».



وتبدو معركة صاحبة هذه المذكرات من أجل الذوق والأخلاق وصيانة المجتمع وكأنها قد تحولت إلى معركة مستمرة ومتواصلة بينها (أو بين الرقابة) من ناحية ، وبين مؤسسة السينما التى هى مؤسسة الدولة (القطاع العام) المسئولة والمعنية بإنتاج الأفلام ، ونحن نرى هذه المؤسسة وقد تحولت إلى أكبر كيان مخالف لأوليات القيم والذوق والفن ، ويتأكد هذا المعنى من خلال مطالعتنا للعرض المتواصل الذى تقدمه الأستاذة اعتدال ممتاز لسلبيات المؤسسة المصرية العامة للسينما واستخفافها بالجمهور وبالقيم (على حد تعبير اعتدال ممتاز) فى المعارك التى دارت حول هذه الأفلام التى اتخذتها صاحبة هذا الكتاب مجالاً لعرض خلافاتها مع المؤسسة فى مواضع كثيرة ، بل إنها تفرد الباب الخامس من كتابها للحديث عن «المؤسسة المصرية العامة للسينما: مالها وما عليها» ، وهذا الفصل بلاشك نموذج ممتاز للدراسات الموضوعية التى تهتم بالاقتصاديين والاجتماعيين والمشتغلين بالعمل الثقافى ، لأنه يبين بوضوح عن كثير من خفايا ودقائق التاريخ الطبيعى لمثل هذه المؤسسة التى أوجدتها الحكومة للقيام بدور معين ، فإذا هى - أى المؤسسة - لا تقوم بهذا الدور وإنما تضع الدولة فى موقف حرج حين تنتج باسم الدولة ما لا ترضى عنه الدولة.

وتناقش المؤلفة الأساليب المختلفة التى انتهجتها هيئة السينما فى الإنتاج والإنتاج المشترك والإنتاج الخارجى والتصدير وتأخذ مثلاً على ذلك فيلمى «الخرطوم» (صفحات ١٩٣ - ١٩٨) ، و«أبو الهول الزجاجى» (صفحات ١٩٨ - ٢٠١) ، وأفلام «الهيبيز» وما هو أسوأ منها ، كفيلم «جنون الشباب» (صفحات ٢٠٤ - ٢٠٨) ، وأفلام العنف وأفلام الجريمة (صفحات ٢٠٨ - ٢١٣) ، وليس أصدق فى التعبير عن مدى معاناة هذه السيدة مع هذه الأفلام من أن ننقل للقارئ هذه الفقرة مما كتبه الأستاذة اعتدال ممتاز:

«... وفى اليوم التالى سألتى وزير الثقافة تليفونياً عن أسباب منع تلك الأفلام ، وفى نفس اليوم زارنى وكيل وزارة الثقافة بمكتبى ، وسألنى عن نفس الأفلام الممنوعة وعرضت عليه ملفاتها ، كما عرضت عليه الأفلام ، وبعد أن شاهدها انزعج منها انزعاجاً شديداً وأيد وجهة نظرى ، وانفجرت أساريره ، وبدا طبيعياً بعد أن كان يتخذ سمت الجدية والتحدى وقال لى بثقة وود: «تعرفى كلمة فى شرك الدكتور ثروت قال لى إيه: روح

شوف الست دى بتهبب إيه فى الأفلام .. الآن .. أنت على حق ومن غير الممكن عرض هذه الأفلام».

وكتب فى مذكرته إلى الوزير: «بعد مشاهدتى فيلمى «يانكى والسيسكو» أوافق الرقابة على منع العرض لما «يؤكدانه» من الحقد والثأر وفوز الجريمة وبشاعة القتال ، ويحسن أن يتنبه على الشركات كلها مراعاة عدم استيراد أفلام بهذه البشاعة والتفاهة».

(١٦)

وتحرص صاحبة هذه المذكرات على أن تحدثنا عن موقفها كرقابية تجاه نوع آخر من الأفلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأفلام العنف وهو «أفلام الكاراتيه» ويشى حديثها عن هذه الأفلام بنفس الروح من الإخلاص للأداب العامة وللوظيفة العامة فى نفس الوقت ، وإذا بنا ونحن نتصور الرقابة وظيفة ممتعة نفاجاً ونكتشف أن أداء بعض الوظائف يمثل نوعاً من العذاب المستمر لصاحب الوظيفة ، ومعاناة لا تقل عن معاناة الجنود فى ساحات القتال:

«... وهناك نوع آخر من الأفلام له طابع يرتبط فى رأى ارتباطاً وثيقاً بأفلام العنف هو: «أفلام الكاراتيه وأذكر أن أول فيلمين وصلا منها إلى الرقابة هما فيلما «The Chinese Boxer» و«Big Fight» ، وهما من إنتاج هونج كونج ، وعند مراقبة الفيلمين ولأول وهلة ترددت فى إجازة عرضهما جماهيرياً ، وتأرجح الرأى عندى بين الإجازة والرفض ، الرفض لما يتسم به الفيلمان من مناظر القسوة والبشاعة والقتل وإراقة الدماء ، علاوة على أنهما على مستوى فنى هابط ، وأن ليس بهما قيمة ثقافية أو فنية ، والإجازة لأن هذا النوع من الأفلام لون جديد انتشر بالخارج وتكلمت عنه الصحف ، ومن حق المشاهد المصرى رؤيته ، كما أنها تتناول لعبة الكاراتيه ، وهى لعبة رياضية أصلاً وتستخدم فى الدفاع عن النفس ومباحة وتدرس بالنوادى الرياضية والجيش».

«وأخذت رأى وكيل وزارة الثقافة (حسن عبدالمنعم كامل) فى أمر أفلام الكاراتيه وأوضحت له مخاوفى بالنسبة للشباب والأطفال لسهولة محاكاة حركات هذه الأفلام وفى لقاء بمكتبى عرضت عليه الفيلمين وشاركنى هذه المخاوف ونصحنى بالتريث فى إجازة الأفلام».

«وفى خلال زيارة أخرى فى يوم آخر زارنى رئيس مجلس إدارة هيئة مجلس السينما

والمسرح والموسيقى (عبد الحميد جودة السحار) ، وطالبنى رئيس مجلس إدارة الهيئة بعدم ترخيص أفلام الكاراتيه مؤقتاً وتعطيل إجازتها لحين وصول أفلام الهيئة لأنه توقع لهذه الأفلام ربحاً وبيعاً ورواجاً عظيماً فى مصر وعلى الأخص أنها رائجة جداً ببيروت ، وأن وصول أفلام الشركات الأخرى قبل أفلام الهيئة سيضيع عليها سوق تلك الأفلام ، وعلى الأخص أن هناك سيلاً منها قد وصل الجمارك فعلاً وليس من بينها أفلام هيئة مؤسسة السينما والمسرح والموسيقى».

«وعندما واجهته بما نص عليه القانون باعتبار الأفلام مجازة إذا لم يبت فيها خلال ثلاثين يوماً ، أخبرنى بأن هناك خطاباً فى الطريق إلى بطالبنى بعدم إجازة أفلام الكاراتيه» .
«وجاء الخطاب غير ما تحدث به معى ، وكان مجرد إخطار بظهور أفلام بالأسواق التقليدية للفيلم المصرى ، أفلام من هونج كونج تعرض فى مظاهرها رياضة الكاراتيه ، وهى رياضة صينية ، لكنها فى الحقيقة أفلام تنسم بالعنف ، وأن هذه الأفلام أثرت على توزيع الأفلام المصرية فى تلك الأسواق ، وأن النجاح المادى لتلك الأفلام دفع بعض الموزعين المصريين بل بعض المشرفين على التوزيع فى هيئة السينما إلى استيراد بعض هذه الأفلام» ، وأن السماح بعرضها فى مصر سيؤثر ولا شك على الأفلام المصرية ، لذلك يقترح عدم إجازة مثل هذه الأفلام».

«وكان هذا الخطاب فى رأى تغطية من رئيس مجلس إدارة هيئة المسرح والموسيقى لمجرد تعطيل الترخيص بأفلام الكاراتيه ولحين ورود أفلام الهيئة منها».

□

وتستطرد المذكرات إلى وصف المسارات الحكومية التى كانت الرقابة تجتهد نفسها مدفوعة إليها حين يلجأ إليها الآخرون من أجل إحقاق الباطل أو تضييع الوقت:
«واقترح وكيل وزارة الثقافة أخذ رأى المجلس الأعلى للشباب فى أفلام الكاراتيه ومدى صلاحيتها للعرض على الشباب والجماهير ، وأعتقد أن هذا من جانب الوكيل كان ليس لمعرفة رأى المجلس الأعلى فحسب ، بل كان يهدف كذلك إلى إعطاء المؤسسة فرصة حتى تصل أفلامها».

(١٧)

ويبدو أن صاحبة المذكرات كانت حريصة على أن تشير إلى أن تعويق عمل الرقابة لم

يكن يأتي فحسب من المؤسسة المصرية العامة للسينما بسبب تورطها فى الإنتاج ، ولكنه كان يأتي أيضا من خلال بعض أجهزة وزارة الثقافة نفسها ، وهى تخصص الفصل السادس من هذه المذكرات المتميزة لتجيب عن سؤال وضعته عنوانا للفصل: «كيف قاومت المؤسسات الفنية بوزارة الثقافة القوانين الرقابية؟» ، وبعد كثير من الأفكار النظرية التى تعكس تجربة صاحبها المتميزة مع هذه الجهات ، تحدثنا الأستاذة اعتدال ممتاز عن قصة فيلم «العصر الحديث» لشارلى شابلن ، حيث قدم للرقابة فى نسخة رديئة (محلية) فاعترضت عليه (فى ١٩٦٧) فاستجابت الشركة للملاحظات وأحضرت نسخة أخرى واضحة مستوردة.. ولكنها بعد سنوات (١٩٧٣) وجدت سيلاً من النسخ المطبوعة محلياً لأفلام عالمية وبالطبع كانت كلها دون المستوى المتوقع أو المطلوب.. إلخ.

كما تتناول الأستاذة اعتدال ممتاز بعد هذا نماذج لمشكلاتها مع كل من الهيئة العامة للمسرح ، والموسيقى ، وإدارة العلاقات الثقافية الخارجية ، وقصور الثقافة الجماهيرية .
وفى شأن هذه الأخيرة نورد بعض فقراتها:

«ولاحظت أن قصور الثقافة الجماهيرية والتابعة لقصور الثقافة ، تقوم بنشاط فنى ، فتقدم عروضاً جماهيرية تشمل المسرحية والفيلم السينمائى والحفلات الترفيهية ، سواء فى مقار هذه القصور أو تحت إشرافها فى المسارح ودور السينما فى عواصم المحافظات أو القرى التى تقع فى دائرتها».

«وكانت تلك القصور تقدم عروضها الفنية بالمجان أو بأجور رمزية ، ولو حظ كذلك أن بعضاً من العروض المسرحية التى تقدمها قصور الثقافة الجماهيرية سبق أن قدمتها فرق معروفة فى القاهرة والإسكندرية ، والبعض الآخر مسرحيات على المستوى المحلى يشترك فى أدائها الهواة من المترددين على قصور الثقافة أو الدارسين فى الأقسام الفنية فى تلك القصور ، وقد حدث فى مرات كثيرة أن شاهد الجمهور تلك العروض بغير أن تجيزها الرقابة [خضوعاً لأحكام القانون الرقابى] ولم يكن مديرو تلك القصور يخطرون الرقابة على المصنفات الفنية ببرامج العرض أو مواعيده وأيامه أو اسم الفرقة المسرحية أو أسماء أعضائها».

«ولم تكن قصور الثقافة الجماهيرية تراعى فى موضوعاتها التى تقدمها على مسارحها الظروف المختلفة ، فلو حظ أن الكثير مما كانت تقدمه الثقافة الجماهيرية كان موضع اعتراض الرقابة لعدم التزامه بالسياسة التى تنتهجها البلاد وقت العرض».

وتصل صاحبة المذكرات فى النهاية إلى أن تبلور فى وضوح شديد مدى أسفها وحرزنها من أن تتولى بعض الجهات الثقافية القيام بأدوار تسيء إلى الوطن ، فضلاً عن إهدارها للمال العام:

«... هكذا تتوالى الأمثلة الداعية للأسى والتفكير خاصة إذا أردنا أن نضع الأمور فى نصابها ، وأن تؤدى مؤسسات أو إدارات وزارة الثقافة مسئوليتها فى حدود واضحة قانونية وتحت محاسبة ناجزة ، لأن هذه الهيئات جميعها تنفق المال العام ، وينبغى لها أن تقدم إذا كان لا مفر من أن تنهض بإنتاج بعض الأعمال التى يعجز عنها القطاع الخاص ، أقول ينبغى لها أن تقدم ما يلىق ببلدنا ، وطموح فنائنا وحاجات هذا الشعب الذى يحتاج فى سائر أنحاء حياته إلى أضواء هادية ، وفن نافع ، وعلم أنفع ، واستهداف حقيقى للمصلحة العامة ولا شىء غيرها».

(١٨)

وتولى صاحبة هذه المذكرات دراسة العلاقة بين «الرقابة ووسائل الإعلام» باهتمام شديد، وهى تتناول فى صراحة ووضوح ما لا تزال تذكره من امتعاضها من دور هذه الوسائل - أى وسائل الإعلام - فى محاربة الدور الذى تقوم به الرقابة من أجل الأخلاق العامة فتقول:

«... لكننى لاحظت على امتداد عملى فى الرقابة ، أن كثيراً مما كانت تنشره الصحف حول الرقابة والمصنفات الفنية من أفلام ومسرحيات وأغان ، كان جديراً بالتساؤل عن دوافعه وأسبابه ، مثلاً ظهرت مقالات تدافع عن فيلم أو أفلام بعينها وتتجنى على الرقابة فتوجه إليها اتهامات لا تقوم على معرفة بطبيعة عمل الرقابة ، ومع أنى مع حرية الرأى إلا أنى مع الحرية المسئولة ، حرية التعبير الصادر عن معرفة ، والنابع من دافع موضوعى لا شخصى ، ونسى أو تناسى بعض المحررين والكتّاب والنقاد أن كثيرين منهم مؤلفو قصص وكتّاب سيناريو وحوار للمسرح والمسرح. بل منهم من دخل ميدان الإخراج ، وكان يحلو للبعض أن يكتب الحوار والأدب المكشوف ، والقصص الفاضح ، بل منهم من صور المناظر المعترض عليها والتى يندى لها الجبين ، وكانت خلوا حتى من الجمال أو الفن ، وكلما رفضت هوجمت الرقابة لأنها لا تملك أفلاماً لتدافع عن نفسها».

وتردف الأستاذة اعتدال ممتاز حديثها هذا بقولها :

«ولا أحب أن أستطرد إلى نوع العلاقات التى استطاع بعض منتجى الأفلام ومستورديها ونجومها بل والمؤسسة المصرية للسينما ، أن تقيمها مع عدد من الصحفيين ، وكان واضحاً أنها علاقات مدفوعة بدوافع بعيدة تماماً عن الصالح العام ، وبعيدة بالمثل عن تقاليد الصحافة ، هذه الوسيلة العظمى التى تستحق أن يشرف بالكتابة فيها أصحاب الرأى الحقيقى وحملة الأفلام النظيفة التى ينبغى أن تخدم قراءها بأن تقول لهم رأياً موضوعياً تبصرهم بالأخطاء وتتناول بالتقدير الأعمال الفنية الجيدة ، وتنقد نقداً حرراً ومسئولاً الأعمال التى لا تصل إلى مستوى الإتقان المطلوب».

(١٩)

وعلى نفس النمط من الإنصاف والصراحة والموضوعية الذى تناولت به صاحبة المذكرات علاقة الرقابة بالصحافة تتناول علاقة الرقابة بالإذاعة ، وهى تعبر لنا عن الحيرة التى انتابتها فى كثير من الأحيان تجاه كثير من التصرفات التى كانت نجدها لا تمت بأية صلة للصالح العام ولا للذوق ولا للجمال ولا للفن ، فتقول:

«... وحدث كثيراً أن تقدمت بعض الشركات أو الأفراد إلى الرقابة على المصنفات الفنية بنصوص أغنيات بغرض تسجيلها أو أدائها بعد أن تكون قد أذيعت وشاعت بين الجماهير لسبب أن هيئة الإذاعة قد أذاعتها. وكان لدى من الأسباب ما يجيز لى الاعتراض على بعض كلماتها ، أو طريقة أدائها ، أو لهبوطها من الناحية الفنية ، أو مستوى اللغة المستخدمة ، ومع ذلك ظللت مكتوفة الأيدى فى مأزق بين أمرين: الأول أن الأغنية أذيعت وسمعها الجمهور وانتشرت بينه ، فأصبحت لا أملك الحق الكامل فى منعها أو الاعتراض عليها ، والأمر الثانى أنى لست فى حالة اقتناع بحيث أراضى عن إجازتها لسبب من الأسباب التى أبدت ، ومثال لذلك أغنيات «الطشت قال لى» و«سلامتها أم حسن» و«السح الدح امبو» وغيرها ، ورغم ذبوع هذه الأغنيات وانتشارها لم يكن قد تقدم بها أصحابها إلى الرقابة على المصنفات الفنية بنصوصها لتسجيلها أو ما إليه. وعندما قدمت تلك النصوص رجحت عندى كفة المنع ، وكان عذرى أن هذا الإجراء منى ربما حد من رقعة انتشارها بمنع تسجيلها ، ورأيت عرض رأى هذا على مجلس الرقابة ، لكنه قرر

عكس ما أردت وأباح تسجيلها باعتبارها انتشرت بالفعل وأصبحت معروفة لدى الجماهير ولا داعي للتضييق عليها».



وتستأنف صاحبة المذكرات حديثها مكررة ما سبق لها الإشارة إليه من موقف الصحافة العدائي من الرقابة في ذلك الوقت ، فتعبر عن أسفها لهذا الموقف :

«... وهاجمت الصحف وقتها الرقابة على المصنفات الفنية هجوماً شديداً بسبب هذه الأغنيات ، وقبل أن يتقدم أصحابها بنصوصها إلى الرقابة ، ولم يكبد الذين تصدوا بالنقد أنفسهم أن يتقصوا الحقائق قبل أن يشنوا هجوماً على الرقابة غير قائم على أساس ، وإنه لأمر محزن حقاً أن يحدث مثل هذا النقد المبني على الجهل ، ليس فقط بالنسبة للرقابة على المصنفات الفنية ولكن بالنسبة لجوانب حياتنا المختلفة ، وإذا جاز لي أن أبدى رأياً في النقد الذى يليق بالصحف أن تنشره ، فإنى أتصور أن الناقد الحقيقى يجمع فى قدراته بين أمرين: الأول المعرفة العلمية أو المعرفة الموضوعية المتكاملة. والثانى: أن يضع نفسه فى موضع القاضى العادل ، بمعنى أن رمز العدالة هو رمز معصوب العينين يحمل بيديه موازين دقيقة حتى لا يتأثر بما يرى أو يسمع وحتى يأتى حكمه أو رأيه رافداً قوياً ، يثرى علم النقد ويثرى الفن أيضاً ، ذلك أن النقد فى نهايته هو نوع من الاجتهاد العلمى والإبداع ما فى ذلك شك».

(٢٠)

وعلى صعيد ثالث تتناول صاحبة المذكرات علاقة الرقابة بالتليفزيون ، وتحكى لنا ملخص رأيها فى أحد مشاهد فيلم «الخرساء» ، وهى تجاهر بقولها :

«... إن التليفزيون وسيلة اتصال جماهيرى سريعة التأثير ، سريعة الانتشار ، ولما كان التليفزيون أداة توجيه وتثقيف ، وليس أداة تسلية فحسب ، كان لزاماً أن نفكر مرة ومرات فيما يقدم من برامج ، وإذا كانت الرقابة على المصنفات الفنية تتحرز فى عرض الأفلام بالنسبة لدور العرض السينمائى مرة ، فعليناً أن نُعيد التفكير عشرات المرات بالنسبة للتليفزيون ، لأن المشاهد حر فى اختيار دار العرض السينمائى التى يريد ، بينما التليفزيون

يقتحم البيوت على أصحابها اقتحاماً ، بكافة المستويات الثقافية وكافة الأعمار والقطاعات ، فارضاً برامجه وعروضه على الناس كافة».

«ورأيت أن تناقض الإذاعة والتلفزيون مع الرقابة على المصنفات الفنية من الأوضاع المعيبة التي تصيب أجهزة هامة مخصصة من أجهزة الدولة بالتصدع والتخبط ، وهى فى النهاية تعمل كلها من أجل هدف وطنى واحد هو بناء الإنسان المصرى بناءً سليماً صحيحاً ، ورأيت أن من واجبى أن أنبه إلى الخلل الذى لمست ، ولهذا كنت أثير تلك المسألة بصفة مستمرة مع وزراء الثقافة كلما أتحت لى الفرصة».

(٢١)

ولا تقف صاحبة هذه المذكرات عند حدود علاقة الرقابة بأجهزة الفن والإعلام وأجهزة الإنتاج الفنى ، لكنها تنطرق إلى ما تطرقت إليه علاقات عملها وخبرتها بالفعل من احتكاك حاد ببعض الأجهزة السياسية والبرلمانية ، وهى تقص علينا إحدى قصصها مع الاتحاد الاشتراكى وهى قصة جديرة بالقراءة لأنها تطلعنا بكل وضوح على مناخ قدر لمصر أن يسيطر عليها فى وقت من الأوقات:

«... وأذكر ذات مرة أن أوقفنى موقف المتهمه زميلة دراسة ووزيرة سابقة لوزارة الشؤون الاجتماعية ومسئولة وقتها عن لجنة الثقافة والفكر بالاتحاد الاشتراكى العربى ، فذات صباح دق جرس التليفون لتقول لى: «أنت متهمه بإفساد السينما والمسرح والأدب فى مصر!! ومطلوب حضورك إلى الاتحاد الاشتراكى لتدافعى عن نفسك ، ضحكت ما شاء الله لى أن أضحك ، وقلت مداعبة: أفهم أنى قد أكون مسئولة عن إفساد السينما.. جائز!! وأفهم أنى قد أكون مسئولة عن إفساد المسرح أيضاً هذا جائز!! ولكن بالله عليك كيف أكون مسئولة عن إفساد الأدب فى مصر؟؟!! هل أنا أمسك بيد الكتاب فيكتبون ما أشاء؟! هل أملى عليهم فيطيعون؟! هل لدى عصا سحرية مؤثرة على كل كتاب مصر.. ولا أدرى؟! وهل أنا فاسدة إلى الحد الذى يُفسد معه الأدب جميعاً؟! يا إلهى».

«وذَهبت إلى الاتحاد الاشتراكى فى الميعاد الذى تحدد وجلست أمام اللجنة الثقافية به ، وجلست أمامى خمسة أو ستة من الشبان لم أعرف حتى أسماءهم والسيدة التى ذكرت ، وشعرت لدقائق بمأساة حقيقية ، فكيف يكون هؤلاء الشبان هم المسئولون عن الثقافة

والفكر وتوجيههما في البلاد؟! وأى حق يعطيهم مساءلتى واتهامى؟! ولكن لا بأس ، فلعلها فرصة لأن أشرح لجهاز مفروض فيه أنه جهاز هام بالدولة: ماذا أفعل؟ وما هى مهمة الرقابة».

«افترضت فيهم الجهل التام ابتداء ، وعلى مدى ثلاث ساعات ونصف أخذت أشرح وأبين للجنة المذكورة ودون أن أقاطع ولو مرة واحدة (ماهية الرقابة).. مفهومها وعملها وأين تقف حدودها ، والقوانين المنظمة لها ، وقصورها بالنسبة للتطبيق ، والإجراءات المتبعة ، والقائمين على الرقابة ، والمفاهيم الرقابية المفروضة والمطبقة بالفعل ، وسبب تخلف بعض الرقباء ، وخطأ تعيينهم بالقوى العاملة ، ومتاعب الرقابة وقصور أجهزتها والأخطار التى تتعرض لها ، والضغط المختلفة التى تقع عليها وعدم فهم مهمتها ، والإجراءات.. إلخ إلخ».

«وعندما انتهيت من حديثى قالت: «نحن فعلاً كنا نجهل ماهية الرقابة وعملها ، والآن أنت براءة.. ومظلومة فعلاً».

«وانجهدت إلى مكتبى وكأنى كنت فى معركة حامية ، وحمدت الله أن عدت إليه سالمة ، لكن حزناً شديداً قد ملأ كيانى كله.. فأنا أعمل فى ميدان مجهول كلية لدى الخاصة من الناس ، والذين يسكون بزمام الأمور ، فكيف الحال مع الكافة منهم؟!».

(٢٢)

وفى موقف آخر تعاود صاحبة المذكرات الحديث عن الاتحاد الاشتراكى ، وتذكر ما دار بشأن فيلم «ميرامار» ، ومع أنى أعلم أن قصة هذا الفيلم أصبحت من «الكلاسيكيات الشائعة» فى تاريخنا الثقافى ، وبخاصة بعد فوز الأستاذ نجيب محفوظ بجائزة نوبل ، إلا أن رواية اعتدال ممتاز لهذه القصة تظل ذات طابع خاص متميز بما فيها من دقة شديدة ، ومن ناحية أخرى فإننى حريص على أن أعترف فيما أكتبه الآن أننى كنت كثيراً ما أستشهد لأصدقائى على حقيقة تمتع الرئيس السادات بثقافة حقيقية وإحساس سليم وراق بما تضمنته القصة التى روتها الأستاذة اعتدال ممتاز عن موقفه الذكى من صورة المرأة فى هذا الفيلم حين كلفه الرئيس عبدالناصر بمشاهدة هذا الفيلم وإبداء الرأى فيه.

وسنقرأ بعد قليل فى الفقرات التى نقلها عن الأستاذة اعتدال ممتاز كيف أن السادات

كان منتبهاً جداً إلى ما قد نسميه في الأدب والفن «صورة المرأة على الشاشة»، ويؤسفي وأنا أكتب هذا الفصل أن أقرر أننا لم نصل بعد إلى المستوى اللائق بنا من هذا الفهم، ويؤسفي مرة أخرى أن أكتب هذا في هذا الكتاب بالذات الذي يتناول مذكرات المرأة المصرية.

وسننقل للقارئ الآن فقرة الأستاذة اعتدال ممتاز التي تروى فيها نهاية صراعها مع الاتحاد الاشتراكي حول فيلم «ميرامار» حيث تقول:

«... وهو جمت هجوماً شخصياً من أعضاء الاتحاد الاشتراكي باعتباري مسئولة عن كل ما جاء بالفيلم، وكأنه من صنعى ووضعى، حتى إنهم كانوا فى حوارهم معى بوجهون إلى الحديث بقولهم أنت تقولين بالفيلم كذا وكذا، وأنت وضعت فى الفيلم مشهد كذا وكذا، وأحاول إنفهامهم مهمة الرقابة وانحصارها فى موافقتها أو عدم موافقتها على ما يقدم لها من مصنقات فنية تم إعدادها خارج الرقابة التى لا تصنع أفلاماً، دون جدوى، واحتدم النقاش، واشتد الغضب وانصرفوا ملوحين ساخطين دون الوصول إلى حل بالنسبة لعرض الفيلم، وشعرت أن الأمر كاد يفلت من الرقابة، وتوجهت إلى منزلى وقد بيت أمراً، إن مسئولية عرض الفيلم قد تشعبت، وترك الأمر هكذا سيوسع الدائرة أكثر وأكثر، وسيترك المجال للكثيرين للتدخل فى شئون الرقابة، وكنت قد علمت أن رئيس الجمهورية الأسبق (الرئيس عبد الناصر) قد بدأ يضيق بالاتحاد الاشتراكي ومستغليه من الأعضاء الانتهازيين، وفى الصباح أرسلت إليه برسالة شخصية عن الفيلم وما دار حوله، وإبنى شخصياً أعتقد أن مثل هذا الفيلم سيمتص غضب الجماهير تجاه الاتحاد الاشتراكي وليس لدى شخصياً ما يمنع من إجازة عرضه، واتصلت بى رئاسة الجمهورية وعلمت أن رئيس مجلس الشعب (تقصد مجلس الأمة) وقتها سيحضر إلى الرقابة لمشاهدة الفيلم وحسم الأمر، وبلغت وكيل الوزارة بذلك».

«وبعد أن عرض الفيلم على رئيس مجلس الشعب (الرئيس السادات) وأضيتت الأنوار، صمت قليلاً وفى ثقة وهدوء شديدتين أبدى احتجاجه على الفيلم، لأن به ملاحظة هامة لم ينتبه إليها أحد، وأخذت أجول بفكرى وأستعرض مواقف الفيلم المختلفة وتسلسل أحداثه وما يمكن أن يكون موضع الاعتراض، ولكنى لم أفلح، وأخفق الحاضرون كذلك، فقال لائماً ومداعباً فى جدية وحزم: كيف يسمح لفيلم كهذا أن يحقر من شأن المرأة ويسبها هكذا؟! أليست المرأة شريكة لنا فى الحياة وفى العمل وفى الكفاح؟! أو ليست النساء شريكات لنا فى المسئولية، وإبنى أراهن هنا أن معنا من يبدن رأى

والمشورة ، فكيف يسمح بسبهن؟ وكان بالفيلم أحد بائعي الجرائد الذى أحب الخادمة وأراد أن يتزوجها ولكنها انصرفت عنه فسيها بقوله: «الستات حيوانات».

«وضحكنا وقد تنفست الصعداء وشكرت له اهتمامه بالمرأة وتقديره لها ، وقلت له: نيابة عن المرأة المصرية أقدم لكم شكرى وتقديرى» ، واعتبرت أن هذا التوجيه منه هو ضوء أخضر لى جديد يؤيد رأى فى منع السباب والشتم بوجه عام من المصنفات الفنية ، علاوة على وجوب العناية بمكانة المرأة ورعايتها.

ووافق رئيس مجلس الشعب [أى الرئيس السادات] على عرض الفيلم عرضاً عاماً فيما عدا الجملة التى اعترض عليها ، كما اقترح وكيل الوزارة حذف كلمة أخرى هى كلمة «شيعية» فوافق على ذلك ، وهكذا ترخص بعرض الفيلم وتصديره إلى الخارج بكل ما جاء به عدا ما ذكرت».

(٢٣)

ومن المهم بعد هذا كله أن ننقل للقارئ أيضاً صورة أخرى حرصت الأستاذة اعتدال ممتاز فى كتابها «مذكرات رقية سينما» أن تنقلها لنا عن موقف الدكتور محمد حلمى مراد وهو وزير للتربية والتعليم من فيلم «شقة العازب» ، وهو الفيلم الذى تحول بسبب تشدده من فيلم يصور قيمة اجتماعية إلى شىء آخر ، ونحن نجد أنفسنا بعد قراءة ما ترويه اعتدال ممتاز نقارن بين حكمة قرار الرئيس السادات الذى صدر بعد روية وبعد مشاهدة فعلية ، وبين عصبية قرار الدكتور محمد حلمى مراد الذى صدر عن سماع ، وترتب عليه نوع من تضييع القيمة الفنية دون مقابل تربوى يذكر:

«... واتصل بى تليفونيا وزير الثقافة ، وسألنى عما فعلت بالفيلم ، وكان قد سبق له أن شاهده فى عرض خاص ، وذكرنى أنه رأى منظراً مخلاً ، فقصصت عليه ما فعلت بالفيلم ، وكان الفيلم ، قد مر على عرضه يوم واحد لا يزيد بدار العرض وانتهى الأمر مع الوزير واقتنع بقولى».

«وبعد قليل اتصل بى وكيل الوزارة تليفونيا أيضاً ثم جاء مكتبى وأفهمنى بأن وزير التربية غاضب ويشكو من أن بالفيلم مناظر مخلة ولا بد من حذفها ، ولم أقتنع بما سمعت

لأنى أنا التى قمت بنفسى بعملية الحذف والمونتاج ، وحاولت الدفاع عن كيان الفيلم دون جدوى...».

«وسحبت الفيلم من دار العرض مغلوبه على أمرى ، وحذفت الجزء الباقى القليل جداً ، والذى أردت أن أبقى عليه بالفيلم كإشارة عابرة لاعتداء الرجلين على العشيقة ، حتى احتفظ للفيلم بسياق القصة وبالتالي أحافظ على ما به من قيمة فنية وأدبية وأخلاقية ، ففى إرهاب الزوج ومذلتة بالاعتداء على معشوقته التى صحبها دون مراعاة لحقوق الزوجية وافتضاح أمره مهانة لرجولته ، وتهديد الشابين له بزيارة زوجته أقسى عقوبة له ، ولو فكر لحظة أن آخر يفعل بزوجه ما فعل بمعشوقته لما أقدم على فعلته النكراء ، ولذا تنازعه صراع نفسى رهيب وهو جالس مكتوف الأيدى مشدوداً إلى كرسيه ، وقد فجر الرجلين بفعلهما كل عوامل الصراع النفسى الرهيب الذى انعكس على وجهه ، وقد أصبح فى حالة عجز تام عن حماية المرأة التى صحبها وعن حماية زوجته ، وعن تخليص نفسه».

«وبعد حذف البقية الباقية من المشهد المعترض عليه تغير مضمون الفيلم تماماً وسياقه واختل المعنى الأخلاقى بالدرجة الأولى ، وأصبح الحوار غير مفهوم لأن جزءاً كبيراً منه بتر بترأ ، وبدا الرجل وهو يتفصد ألماً ، مقيداً على كرسيه بالشريط الحريرى .. وكأنه يتألم من قسوة ذلك القيد الحريرى... ياإلهى ، وضاع منى جهد ساعات طويلة ، حاولت فيها دون جدوى المحافظة على القيمة الفنية للفيلم وتسلسل الأحداث والصورة دون تشويه كبير ، دفاعاً عن حق الجمهور فى رؤية فن جميل عالمى دون إخلال بالأصل بقدر ما أستطيع ، وفى إطار الآداب العامة ، والتقاليد».



وتبلور الأستاذة اعتدال ممتاز شعورها بالأسف تجاه ما خرجت به من هذه التجربة فتقول:

«وشعرت وكأنى مخلب قط ، وأنا أقوم بما لا أرضى عنه ولن أغفره لنفسى أبداً ، وهكذا ظلم أحد الأفلام العالمية والذى يحمل قيمة فنية كبرى ، وقيمة أخلاقية أكبر ، وظلم الجمهور الذى لم يفهم الفيلم وأخيراً ظلمت الرقابة...وظلمت نفسى».

«والآن وبعد سنوات من هذا الحادث ، أرى أنه لو لم تؤخذ الأمور بعصبية ، وحدة ، لأمكن إرضاء جميع الأطراف دون تعنت أو خسائر أو تشويه ، وأن فيلماً واحداً من هذا

الطراز أفضل عندي - فنيا وأدبيا وأخلاقيا - من كثير جدا من أفلام محلية أنتجت وظهرت وسافرت مهرجانات ، في تلك الفترة ، وبأموال مصرية - سواء كانت أموال القطاع الخاص أم العام - وأساءت إلى النشء وأساءت إلى الدولة...!«.

(٢٤)

ولا نجد الأستاذة اعتدال ممتاز في كثير من صفحات هذا الكتاب أى نوع ولا أى قدر من الحرج فى أن تجأ بصوت عال من الانتقاد للدور الذى قام به سلفها (هو المستشار مصطفى درويش) فى منصب مدير الرقابة ، ونحن نعرف أن الأستاذ مصطفى درويش ناقد سينمائى ذو ثقافة فنية رفيعة ، وهو من رجال القضاء وقد انتدب ليتولى هذا المنصب قبل أن تصل الأستاذة اعتدال ممتاز إليه ، ولكنه يحظى بكثير من النقد الذى توجهه إليه صاحبة هذه المذكرات ، فهى تنتقد على سبيل المثال توسعه بل جرأته فى الترخيص بعدد كبير من الأفلام التى لم يكن غيره ليرخص بعرضها وهى تقول:

«... ومن أولى الأزمات التى تعرضت لها فى حياتى العملية ، ما كان بعد تعيينى مديرة عامة للرقابة على المصنفات الفنية بقليل ، إثر إلغاء نذب المدير السابق للمصنفات الفنية ، وكان قد رخص - كما سبق وذكرت - بأفلام ومصنفات فنية اعتبرت على قدر من الجراءة ، سواء فى الحوار أو المناظر أو الموضوع ، وثار مجلس الشعب (تقصد مجلس الأمة) ثورة عارمة ضد وزارة الثقافة التى طالبتى بإعادة تقييم ومراقبة جميع الأفلام التى أجازها المدير السابق ، سواء منها ما عرض جماهيرياً أو لم يعرض بعد».

«وكانت هذه الفترة قاسية شديدة القسوة ، فالمهمة شاقة ومملة ومحزنة ، والنكسة ما تزال رابضة بكل عنفها وقسوتها وآلامها ، والرأى العام ثائر على الأفلام والرقابة وهى حيرى لا تدري فىم السماح بالترخيص وفيم المطالبة بالمنع ، ومجلس الشعب (تقصد مجلس الأمة) غاضب كل الغضب ، والمستولون عن وزارة الثقافة فاقدو أعصابهم أو كادوا.. وكنت فى محك التجربة ما أزال - على حد تعبيرهم - وعلى أن أثبت جدارتى ورسوخ قدمى فى الرقابة ، وكفاءتى كأول سيدة تتقلد منصب مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية فى ظروف غاية فى الصعوبة والدقة ، ولكن أسئلة كثيرة دارت فى رأسى ، لماذا ترك المدير السابق ليرخص بكل هذه الحصيلة من الأفلام على مدى شهور والتى

أصبحت مثار سخط واعتراض المسئولين بعد إلغاء ندبه؟! ولماذا بكل هذا العنف.. ولماذا لم يُعترض عليه أثناء وجوده ومطالبته بوقف هذه الموجة من الأفلام التي سموها بالأفلام الجنسية؟».



ولا تترك اعتدال ممتاز الحديث عن علاقاتها وعلاقات الرقابة بالبرلمان دون أن تروى هذه الواقعة الطريفة التي تتعلق بقصة فيلم «الحب أقدم مهنة فى التاريخ» الذى كان قد رُخص بعرضه ، فإذا أعضاء مجلس الشعب (الأمة) يعترضون على عرضه ، فلما صدر قرار وزير الثقافة بوقف عرضه طالب أعضاء مجلس الشعب (الأمة) بتأجيل رفعه يوماً إلى أن يتمكنوا من رؤيته!!

(٢٥)

وفى خضم كل هذا الحديث عن الرقابة والفن والإدارة والصراعات السياسية لا تغفل الأستاذة اعتدال ممتاز التعبير عن شعورها الوطنى ، ونحن نرى كتابها وهو يحتوى نسيجاً متصلًا من المشاعر والانفعالات تجاه تاريخ وطنها فى الفترة التى كتبت عنها مذكراتها ، وسأكتفى بواحد من النماذج الكثيرة التى عبرت فيها صاحبة المذكرات عن مشاعرها الوطنية وهى تلك الفقرات التى تعبر عن المشاعر القاسية التى كانت تتابها وهى تؤدى وظيفتها فى حذف اسم مصر أيام الوحدة مع سوريا ، وإنى لأعترف أن الألم كان يعترضنى وأنا أقرأ للسيدة اعتدال ممتاز هذه الفقرة مرة بعد مرة فى التجارب المطبعية ، ولكنى أجدنى فى ذات الوقت حريصاً على أن أثبتها للقارئ حتى نتعلم هذا الدرس من دروس التاريخ:

«... ولعل هذه الفترة كانت من أقسى فترات حياتى العملية وأشدّها مرارة ، لأنه كان لزاماً علينا كرقباء شطب اسم «مصر» الحبيب من كل المصنفات الفنية المختلفة السابق إنجازتها واللاحقة ، كيف يمكن أن يكون هذا؟! وكيف يلقى من الوجود هذا اللفظ الحبيب وبأيدنا ، واختيارنا ، إنه نبض الحياة ذاتها. ووزعت على الرقباء التعليمات التى بلغت لى لتنفيذها ، وجاءنى نفر منهم غاضب معترض ، وحاول مناقشتى ، ولكنى أغلقت باب المناقشة تماماً.. فكيف يمكن كله مهتر حزين ولا أستطيع أن أقنع إخوانى وأبنائى بما لم أقنع أنا

به شخصياً ، فأنا أقدر تماماً قسوة وعنف ما طلب منا ، ولا بد من تنفيذه ، ورجوتهم في هدوء أن يسيروا فقط في تقاريرهم إلى الاسم الكريم وأن يحددوا مكانه .. كنت أشعر نحوهم شعور الأم الرحيم ، التي تريد أن ترفع المعاناة وقسوتها عن أبنائها ، ثم أترك مكتبي وأنزل إلى الطابق الذى يليه ، وأدخل حجرة الحذف ، وأغلق بابها على وقد أظلمت الحجرة تماماً ، وأمسك بالفيلم وعلى ضوء الجهاز الخافت أحدد المكان ، وأمسك بمقصب الرقيب وقد سالت دموعى ، وأبكي ما شاء الله لى أن أفعل ، وأستبعد الجزء الذى يحمل الاسم الحبيب «مصر» ، وأشعر وكأنى طعنت كل أبنائى وأهلى وعشيرتى ، وأرفع يدي إلى السماء أسأله الغفران والسؤدد والساداد لأولى الأمر منا».

(٢٦)

وعلى الرغم مما يحفل به هذا الكتاب من تعبير واع وغير واع عن تقديس الأديان والقيم السماوية ، إلا أن صاحبة المذكرات حريصة على أن تضمنه بعض النصوص الصريحة المبلنة عن احترامها العميق لكل القيم السماوية وتمسكها بكتاب الله وأحكامه ، وهى تخصص أحد فصول مذكراتها للحديث عن علاقتها بالقضايا الدينية من خلال الرقابة ، وهى تعبر فى سعادة عن أن التفاهم بينها وبين من احتكت بهم من رجال الدين الأفاضل كان على أحسن ما يكون ، وتقدم لنا صاحبة المذكرات عرضاً تاريخياً ممتازاً لالتقاء السينما بالمفاهيم والموضوعات الدينية بدءاً من ١٩٢٦ ، كما تقدم لنا تفاصيل الضجة التى ثارت حول مسرحية «ثار الله» للأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى ، ولنقرأ هذه النبذة التى تبدو وكأنها نبذة تاريخية لعلاقة الرقابة بعلماء الدين:

«لقد سرت بالرقابة بنظرة حضارية متفتحة بالنسبة للدين ، ورأيت أن أتمسك بكتاب الله وأحكامه فى غير تزمت أو عصبية ، وأعتقد أن التفاهم بينى وبين من احتكت بهم من رجال الدين الأفاضل ، سواء الدين المسيحى أو الإسلامى ، كان على أحسن ما يكون».

«إننا لا ننكر أن الدوائر الدينية الإسلامية لها تأثيرها القوى بالدعايات الكلامية أو الإعلامية ضد السينما العربية وتأثيرها على أخلاقيات ومثاليات الجماهير».

«حدث عام ١٩٢٦ - ١٩٢٧ أن عارض كبار رجال الأزهر الأفاضل مفهوم السينما فى مصر للشعور بعدم الاحترام والامتهان بظهور محمد (ﷺ) والصحابة والنبين على الشاشة البيضاء».

«وفي عام ١٩٣٠ أبدت جمعية الشبان المسلمين احتجاجها في الصحافة ولدى رئيس الوزراء عندما أبدت إحدى الشركات الأجنبية رغبتها في تصوير قصة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والخلفاء الراشدين».

«كما حدث عام ١٩٥٤ أن ارتفعت بعض الأصوات معترضة ومطالبة بتشديد القبضة على بعض مشاهد الفتيات بالملابس المكشوفة ومناظر تعاطى الخمر ، وجاءنا من لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الشريف فتوى تفيد عدم ظهور النبي (صلى الله عليه وسلم) وبعض رجال الصحابة بشخصهم على الشاشة البيضاء».

«والتزمنا بهذه الفتوى تماماً ونفذناها ، ولم نكتف بهذا فحسب ، بل إننا كنا نستشير دائماً رجال الأزهر الشريف في كثير من الموضوعات الإسلامية أو الحوار الديني أو القصصي ، سواء في القصة أو المسرحية أو الأغنية ، مما تعالج نواحي أو موضوعات دينية لا تتضح لنا أبعادها وحدودها تماماً ، أو أى مصنف أشكل علينا دينياً ، أو أردنا التأكد من صلاحيته للعرض الجماهيري لتعرضه لموضوعات أو أشخاص دينية».



و تصل اعتدال ممتاز إلى بلورة تجربتها مع رجال الأزهر ورجال الكنيسة في عبارات واضحة:

«ولم نجد من رجال الأزهر الشريف إلا كل عون ورحابة صدر وإقبال تام على مساعدتنا» ، ولم يكن الحال بالنسبة لرجال الكنيسة بأقل حماساً أو عوناً فيما يختص بالديانة المسيحية».

وتصل اعتدال ممتاز إلى أن تبلور معاناة أصحاب الأديان من الأخطاء المغلوطة التي تقدمها بعض الأفلام السينمائية:

«إن عشرات أو مئات الأفلام مرت على الرقابة بها تشكيك أو مغالطات دينية أو عقائدية ، سواء كانت متصلة اتصالاً مباشراً أو غير مباشر بالدين الإسلامي أو الدين المسيحي أو الديانة اليهودية ، وكلها رفعت الرقابة أمامها يدها محتجة ومنعتها حفاظاً على سلامة العقيدة وصحة الدين ، ومن الأفلام الصارخة ضد الدين الإسلامي أذكر فيلم (Angelique et le Sultan) وتقدمت به المؤسسة العامة للسينما (بتاريخ ١٢/١٢/١٩٧٠) وهو من إخراج Bernard Borderi» .

«والفيلم كله مغالطات دينية وافتراءات على الإسلام والمسلمين بشكل سافر».

«وفيلم (Ioè Dio) الذى يشكك فى الديانات المختلفة ، ويفقد الثقة فى النواحي والمعتقدات الروحية».

«وفيلم (The Last Valley) الذى صور الصراع المسيحى بين المذهبين الكاثوليكى والبروتستانتى مستغلاً هذا الصراع فى التشكيك فى وجود الله داعياً إلى الإلحاد على لسان أبطاله».

«وغير هذه الأفلام كثير كثير».

(٢٧)

وفى هذا الإطار الذى يحيط بالتناول الفنى للأديان فإن صاحبة هذه المذكرات تقدم لنا نموذجاً لفيلم دينى مهم هو فيلم «زوجة القسيس» وهى تلخص أحداثه وسيرته مع الرقابة منبهة وموحية إلى أن الاعتبارات الاجتماعية والأمنية كثيراً ما تكون ذات شأن بارز فى مواءمة عرض الأفلام التى تتعلق بالدين من قريب أو بعيد ، وفى هذا الصدد تقول الأستاذة اعتدال ممتاز :

«وفيلم «زوجة القسيس» من الكوميديا الاجتماعية ، ويتخلص موضوعه فى الآتى :

«فتاة تقبل على الانتحار بسبب حبها لأحد الشبان لمدة أربعة أعوام ، ثم يتضح لها أنه متزوج ، وفى أثناء تناولها حبوباً منومة بقصد الانتحار ، تقع عينها على نمر تليفون لمكتب المساعدات ، وينصحها صوت قس من خلال الهاتف بالعدول عن الانتحار ، وتنقل إلى إحدى المستشفيات وهناك تطلب مقابلة نفس القس».

«وتتوالى اللقاءات ويتحابان وتنشأ بينهما علاقة. ولأن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية تمنعه من الزواج ، يحاول الحصول على إذن خاص من الفاتيكان ، فيسعى إلى مقابلة البابا فى روما ، وهناك يعلم أنه فى الطريق إلى الترقية إلى منصب كاردينال».

«تذهب إليه الفتاة لىتم زواجها وتخبه بحملها منه ، إلا أنه يذكرها بأن الكنيسة ليست فى عجلة لإصدار موافقتها على هذا الزواج ، ويعرض عليها أن تسكن فى الشقة الخالية بجوار مسكنه وبذلك يستمران فى الاستمتاع معاً بالحياة ، فترضى الفتاة العرض وينشغل القس فى أعماله الدينية».

وتورد اعتدال ممتاز رأيها في هذا الفيلم معترفة بأنها عانت من أجل فهم الفيلم بسبب لغته الإيطالية وبسبب أنه عرض في بلاد الفاتيكان نفسها:

«وعندما عرض ملف الفيلم علينا ، توجست منه خيفة ، خشية أن يكون به ما يمس إخواننا المسيحيين ، وكان الفيلم ينطق باللغة الإيطالية التي لم أتعلمها ، وكنت متعبة ولدى أعمال كثيرة ضاغطة ، فأثرت مناقشة الرقيب المختص والخبير في اللغة الإيطالية ، وشرح مبررات عرض الفيلم من وجهة نظره :

«أولاً: إن الفيلم إيطالي ، مصنوع في بلد الفاتيكان ، وعرض بإيطاليا نفسها وفي جميع بلاد العالم».

«ثانياً: إن الفيلم يعالج مشكلة محلية خاصة بإيطاليا وبالكنيسة الإيطالية التي ظهرت فيها بوادر أزمة تعاني منها الكنيسة الكاثوليكية من وقت ليس ببعيد ، وهي المطالبة بإباحة الزواج لرجال الدين الكاثوليكى . ومن المعروف أن ثمة مشكلات أخرى أثرت من قبل وهي حبوب منع الحمل التي قامت أجهزة الإعلام الجماهيرية الإيطالية بحملاتها المتواصلة حتى وافقت الكنيسة في النهاية على تناولها».

«ثالثاً: إن مجرد مطالبة الكنيسة بالمرونة في مسألة حقوق رجال الدين الكاثوليك بالزواج ، هو تأييد وتقارب من الطريق الذى ينتهجه رجال الدين المسيحيون في مصر والذى يبيح لهم الزواج».

«رابعاً: إن المشكلة التي يتناولها الفيلم لها جذورها بين الأحزاب الإيطالية والحزب الديمقراطى المسيحى ممثل الغالبية (وقت عرض الفيلم) فى البرلمان ، وسبق أن أثير حدث إيفاد الكنيسة إرساليات لشراء فتيات من الهند ومن القارة الأفريقية ، ونشر هذا فى جميع الصحف العالمية وقتها ، ومؤداها عدم إقبال الفتيات على الرهينة لعدم كفالة الكنيسة لهن الحقوق الزوجية المشروعة».

«خامساً: إن الفيلم «زوجة القسيس» لم يتعرض بالصورة للعلاقة بين القس والفتاة ، بل إنه اكتفى بالتلميحات اللفظية فقط مثل عرض الراهب على فتاته للإقامة فى شقة مجاورة لحين حصوله على قرار الإعفاء ، ولم يشر بالصورة إلى علاقة فعلية قد حدثت بينهما ، وهذه التلميحات إنما تهدف إلى دعم الفكرة بأن العلاقة قد تتحول افتراضاً إلى علاقة خفية لكنها فى النهاية علاقة قائمة فعلاً ، وتدخل هذه التلميحات فى إطار الموضوع العام فى مطالبة الكنيسة بإباحة الزواج ولا يقصد منها النيل أو التعريض برجل الدين نفسه».

«سادساً: وأيضاً إن هناك أفلاماً ومؤلفات كثيرة تناولت من قريب أو بعيد مشاكل رجال الكنيسة الكاثوليك مثل فيلم «High Infidelity» والفيلم عبارة عن بعض القصص التي تناول إحداها محاولة إغراء صاحبة فندق لسكرتير الراهب وتصحبه بحيلة ماهرة إلى حجرة نشاهدها فيها بنصفها العارى جالسة فى الفراش ومعها سكرتير الراهب».

«وكذلك فيلم «La Religieuse» الذى أثار ضجة فى فرنسا وكانت السلطات قد وقفت ضده إلى أن أباحت عرضه أخيراً وصدر إلى الخارج ، ويتناول قصة فتاة شريفة واجهت ألوان الشذوذ المختلفة عندما ترددت على أحد الأديرة للراهبات ومنعاه هنا فى مصر».

«وكذلك قصة زوريا اليونانى وورد فيها فصلان عن العلاقة بين قسيسين انتهت بقتل أحدهما للآخر ، وقد جاء هذا المشهد تلميحاً فى الفيلم عندما وقع أحد الأحجار وظهر قسيسان من أسفل الجبل بجريان».

«واعترافات جان جاك روسو وما ورد فى طياتها ، وغيرها من الأعمال الفنية التى تناولت مشاكل رجال الدين المسيحى بالنقد البناء».



وتنتهى اعتدال ممتاز من هذا كله إلى ما انتهت إليه الرقابة من الموافقة على عرض الفيلم ، ولكنها ، كما كان ضميرها أو عقلها يحدثها ، تفاجأ باعتراض القساوسة المصريين عليه!! وهى تروى كل هذا بذاكرة دقيقة ومشاعر مرفهة فتقول:

«... ولذا رخصت الرقابة المصرية بفيلم «زوجة القسيس» (بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٧١) وعرض الفيلم بدار سينما راديو ، ولم يمض يوم وبعض يوم حتى جاءنا وفد من القساوسة الأفاضل يحتجون على عرض الفيلم ، وكان البعض لم ير الفيلم والبعض الآخر رآه ، وكنت أنا شخصياً ، كما سبق وذكرت ، لم أشاهد الفيلم اكتفاء بمناقشة الرقيب الذى شاهده هو ومديرة الأفلام الأجنبية المسيحية الديانة».

«وفى نفس اليوم (٣١ مارس ١٩٧١) عقدت لجنة برئاسة وكيل وزارة الثقافة ومدير عام الرقابة على المصنفات الفنية وبعض رجال الكنائس المسيحية الأفاضل للنظر والتشاور فى فيلم «زوجة القسيس». وبعد الانتهاء من العرض اعترض أحد القساوسة بأنه ليس من المستحسن عرض الفيلم فى دولة إسلامية نظراً لأن الأغلبية لا تعرف حقائق الدين المسيحى ، وقد يؤدى عرض الفيلم إلى الإساءة إلى رجال الدين المسيحى ، كما أن فى عرضه احتمال تقليل من القيم الروحية التى تعمل البلاد على تقويتها ، كما أن هناك أيضاً

احتمال إثارة النعرة الدينية بين المواطنين فى الوقت الذى يتطلب تكاتف جميع القوى المسيحية والإسلامية ضد القوى المعادية للبلاد».

«ثم أبرز أحد القساوسة نشرة أجنبية عن الفيلم مطبوعة بمطبعة أغلب الظن أنها بالخارج، بها بعض الصور الكاريكاتيرية وفيها سخرية من بعض القساوسة ، وقدمها القس على أنها عينة مما أرسل بالبريد إلى بعض الأسر ، الأمر الذى اعتبر إهانة للدين المسيحى».

«وأدركت لتوى أنها شرارة يراد بها إشعال فتنة طائفية ، وكانت هذه النشرات فى الواقع مفاجأة لى ، شعرت معها أنها مدبرة للتفرقة بين عنصري الأمة المصرية المسلمين والمسيحيين ، وهمست فى أذن وكيل الوزارة الذى كان يجلس بجانبى أن من الواجب رفع الفيلم فى الحال ، فوافقنى فوراً وأعلن إيقاف عرض الفيلم مباشرة ، وكان قد استشعر مدى غضب إخواننا المسيحيين».

«وتم إيقاف الفيلم فى حفلة الثالثة والنصف وكانت الساعة قد تعدت الثالثة بقليل ، وكنت قد اتصلت بدار السينما قبل عرض الفيلم وقبل بدء الاجتماع خشية أن يضطر إلى وقف عرض الفيلم - الأمر الذى حدث - وحتى لا تضطر السينما إلى تأخير العرض والوقوع فى مأزق».



ويبدو أن الأمر لم ينته ولم يكن له أن ينتهى بقرار وقف عرض الفيلم ، فقد تظلمت الشركة ووجدت من أحد أعضاء مجلس الرقابة وهو مسيحى سنداً لها فى استمرار العرض .. ومع هذا فإن مجلس الرقابة بإجماع الآراء وافق على استمرار المنع :

«وتظلمت الشركة الموزعة (بتاريخ ٣ أبريل ١٩٧١) من إيقاف عرض الفيلم ، وتقرر (بتاريخ ١٠ يونيو ١٩٧١) عرضه على مجلس الرقابة الذى أقر بالإجماع منع العرض ، وذكر أحد الأعضاء (سامى داود ، وهو مسيحى العقيدة) أن أحداث الفيلم تدور حول مشكلة زواج قسيس فى الفاتيكان المسيحية الغربية ، وأن هذه المشكلة مثارة داخل الكنيسة الكاثوليكية لكنها غير موجودة فى مصر ، حيث إن المسيحيين الشرقيين يبيع ديانتهم زواج القسيس ، بل يشترط زواج القسيس فعلاً قبل رسامته قسيساً ، وإن كانت الكنيسة الأرثوذكسية لا تبيع زواجه مرة أخرى فى حالة وفاة زوجته التى عقد عليها قبل رسامته قسيس».

«أما بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية فالخدمة الكنسية كلها قائمة على الرهبان والقساوسة ، وهو غير مسموح لهم بالزواج حتى الآن».

«كما أضاف العضو بأن انحراف رجل الدين هي قضية موجودة عاجلتها الآداب العالمية كثيراً كنوع من العلاج الاجتماعي ، وذكر على سبيل المثال رواية «تاييس» ومسرحية «تارتوف» لموليير ، التي مصرت في مصر بقلم المرحوم محمد عثمان جلال ومثلت على المسارح المصرية عدة مرات».

«قرر المجلس بإجماع الآراء الموافقة على استمرار المنع خصوصاً مع ما لوحظ من إصرار الشركة الموزعة على اتخاذ أسلوب الخطابات المتضمنة صوراً مطبوعة لا تمثل الفيلم في شيء ودون إذن من الرقابة ودون اعتبار ما يمكن أن تثيره هذه الصور من استفزاز لمن تصل إليهم».



ولا تنسى الأستاذة اعتدال ممتاز بعد هذا كله أن تشير إلى أنها عند زيارتها لإيطاليا وجدت إعلانات الفيلم قريبا من «الفاتيكان» ، وإلى أنها حاورت رجال الفاتيكان كي تطلع على تجربتهم وأسلوبهم في الرقابة:

«وعندما زرت إيطاليا لاحظت وجود بعض إعلانات زوجة القسيس على إحدى دور العرض القريبة من الفاتيكان ، وكنت قد عنيت أن أقابل بعض رجال الدين المسؤولين في دولة الفاتيكان بروما للوقوف على مدى تدخلهم في الأفلام والمصنفات الفنية ، فوجدت أنهم يتبعون أسلوب الترشيد والتوعية غير المباشرة ، فهم مثلاً لا يعنون أن يكون من بينهم رقباء مباشرون أو خلافه ، وإنما يصدرن توصيات معينة أو نصحاً وليس بالضرورة الأخذ به ، وعندما سألت سؤالاً مباشراً عن فيلم «زوجة القسيس» ، قيل لى إن الفاتيكان لا يتدخل تدخلاً مباشراً احتراماً للسلطات المدنية».

«وهكذا عرض فيلم «زوجة القسيس» عرضاً جماهيرياً بإيطاليا رغم ما أسداه الفاتيكان من نصح بألا يعرض».

(٢٨)

ومع كل هذا الزخم الذي تحفل به المذكرات فإن صاحبها حريصة على ألا يفوتها أن تطلعنا على بعض الخطوط التي تمثل الخبرة العالمية في مجال عملها على نحو ما نقلنا عنها في الفقرة السابقة من حرصها على الاطلاع على خبرة رجال الفاتيكان ، وهي حريصة على

تأكيد هذا المعنى وعلى الاعتراف به فى كثير من المواضع فى مذكراتها الحافلة ، بل إنها تخصص الفصل التاسع من كتابها القيم للحديث عن « الرقابة فى لندن وباريس » ، ومن اللافت للنظر فى خبرة هؤلاء الرقباء الإنجليز والفرنسيين أنهم كانوا منتبهين منذ مرحلة مبكرة إلى حقيقة الخطورة فى أفلام العنف وإلى أنها تفوق بكثير خطورة أفلام الجنس ، وتنقل لنا عن مدير مجلس الرقابة بلندن قوله :

«إنه برغم كل شىء فإن من رأيه أن الخطر الداهم ليس فى أفلام الجنس بل فى أفلام العنف وروايات العنف ، ولقد بلغت إحصائيات مشاهدى الأفلام سنويا ٢٥٠ مليون مشاهد فى السنة ، منها ٦٠ مليون تذكرة لمشاهدى أفلام للكبار فقط ، وهم الذين يزيدون على الستة عشر عاما» .

والحق أن الأستاذة اعتدال ممتاز قد قدمت من خلال هذا الفصل دراسة قيمة لطبيعة الرقابة ودورها فى المجتمع البريطانى .

وتتناول صاحبة المذكرات الرقابة فى فرنسا بنفس القدر من الدراسة الواعية والمتعمقة التى تفتيد أبناء وطنها من تجارب الأمم الناهضة ، وعلى سبيل المثال فإنها تقدم لنا فى صفحة ٣٣٥ قائمة بأسماء الأفلام التى منعتها الرقابة الفرنسية فى عام واحد ، ويبلغ عددها تسعة أفلام «تتناول الجنس بأسلوب مكشوف أو شذوذ جنسى أو عنف وقسوة أو تؤثر على النفس تأثيرا سيئا أو تكشف طريق المخدرات أمام الشباب . وتذهب صاحبة المذكرات خطوات أبعد من مجرد الحديث عن تجارب الآخرين ، فتعقد مقارنة بين موقف الرقابة الفرنسية والرقابة المصرية من فيلم «ملائكة جهنم» ، وكانت المؤلفة تعترض على عرضه كما اعترضت رقابة باريس ، ولكن المجلس الرقابى فى مصر وافق على عرضه ، ولم يكن أمام الوزير د. ثروت عكاشة إلا أن يكتب مقررأ السماح بعرض الفيلم نزولاً على رأى المجلس الرقابى الموقر» ، وتعلق اعتدال ممتاز قائلة :

«وهكذا شاهد الجمهور المصرى ما لم يشاهده الجمهور الفرنسى» .

وتعود المؤلفة لتفرد صفحات طوال للحديث عن رقابة المسرح الإنجليزى فى دراسة شاملة وعميقة ومتأنية لا بد أن نفيد منها الإفادة التى لا نفيدها للأسف من كثير من الدرر المتاحة أمامنا فى كثير من النصوص الجميلة التى تلخص لنا تجارب الأجيال السابقة علينا .

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحريّة

7

مذكرات طبيبة
للدكتورة نوال السعداوى

دار الخيال

(١)

تمتّع الدكتور نوال السعداوى بشخصية قوية ، قد تكون هذه القوة بمثابة رد فعل أو انفعال ، وقد تكون قوة غريزية ، وقد تكون قوة فطرية لم يصبها الإضعاف أو التوهين الذى يصيب قوة الأثنى فى المجتمع الشرقى ، ولكنها على كل حال سعيدة بهذه القوة ، ولكنها تجمع إلى هذه السعادة قلقاً من نظرات الآخرين تجاه هذه القوة ، فهى تريد أن يصدقوا أن هذه القوة أمر طبيعى وليس بمستحدث ، ولكنها لا تكاد تقنع نفسها أنهم صدقوها ، وتظن نفسها شأن كل المجيدين والمجيدات فى حاجة إلى مضاعفة الجهد للوصول إلى الهدف المنشود ، فإذا بها تواصل طريقها فى استعراض قوتها واستعراض مقدرتها على أن تثبت للناس جميعاً أن هذه القوة شىء طبيعى أو فطرى أو غريزى ، وأنه ليس بالخلق المستحدث ولا الناشئ ولا المكتسب .

وتجد الدكتور نوال السعداوى نفسها فى حلقات متواصلة من العمل على إثبات هذه الحقيقة التى اعتنقتها واقتنعت بها عن نفسها ، فإذا بها تعيد توزيع اللحن مرة بعد أخرى برهافة شديدة فى التعبير وتطوير التعبير ، وإذا بهذه الرهافة تجعلنا نتشكك فى القوة التى تزعم أنها تعبر عنها بلحنها .

ولكنها تنجح أياً نجاح فى إبراز القدرة على تجسيد الشخصية الرقيقة وغير القابلة

للكسر فى ذات الوقت الذى يتكرر فيه لحنها حول المعانى الأولى من دون أن ينطلق إلى معان أخرى متغايرة.

وهذه هى الدكتوراة نوال السعداوى تكتب كتاباً بعنوان «مذكرات طيبة» فتبدأ أول جملة فيه بقولها:

«بدأ الصراع بينى وبين أنوثتى مبكراً جداً .. قبل أن تنبت أنوثتى وقبل أن أعرف أى شىء عن نفسى وجنسى وأصلى .. بل قبل أن أعرف أى تجويف كان يحتوينى قبل أن ألفظ إلى هذا العالم الواسع . كل ما كنت أعرفه فى ذلك الوقت أننى بنت كما أسمع من أمى . بنت ! ولم يكن لكلمة بنت فى نظرى سوى معنى واحد .. هو أننى لست ولدأ .. أخى يقص شعره ويتركه حراً لا يمشطه وأنا شعرى يطول ويطول وتمشطه أمى فى اليوم مرتين وتقيده فى ضفائر وتحبس أطرافه بأشرطة .. أخى يصحو من نومه ويترك سريره كما هو ، وأنا على أن أرتب سريرى وسريره أيضاً ، أخى يخرج إلى الشارع ليلعب بلا إذن من أمى أو أبى ويعود فى أى وقت .. وأنا لا أخرج إلا بإذن».

«أخى يأخذ قطعة من اللحم أكبر من قطعتى ويأكل بسرعة ويشرب الحساء بصوت مسموع وأمى لا تقول له شيئاً .. أما أنا .. فلأنى أنا بنت ! على أن أراقب حركاتى وسكناتى .. على أن أخفى شهيتى للأكل فأكل ، ببطء وأشرب الحساء بلا صوت .. أخى يلعب .. يقفز .. يتشقلب .. وأنا إذا ما جلست وانحسر الرداء عن سنتيمتر من فخذى فإن أمى ترشقتى بنظرات مخيلية حادة فأخفى عورتى .. عورة ! كل شىء فى عورة وأنا طفلة فى التاسعة من عمري !».

«حزنت على نفسى ، أغلقت باب غرفتى على وجلست أبكى وحدى .. لم تكن دموعى الأولى فى حياتى لأنى فشلت فى مدرستى أو لأنى كسرت شيئاً غالياً .. ولكن لأنى بنت ! بكيت على أنوثتى قبل أن أعرفها ..».

«فتحت عينى على الحياة وبينى وبين طبيعتى عداً».

هذا هو جوهر الصراع الذى قد تتولاه أو تتمحور حوله رواية كاملة يتوزع فيها النزاع على أرجاء الرواية بصورة عادلة ، ولكن هذه السيدة القوية تختزله فى هذه العبارات التى تبدو كأنها كويليات مترادفة ومتعاقبة فى أغنية طويلة تتحدث بصورة شعرية عن حياة وحيوات ممتدة إلى اللانهاية ، وهى تستغل مثل هذا الحوار أو الصراع الداخلى المكثف أبرد استغلال بأن تبدأ به مذكرات طيبة الذى من المفروض كما ينبئ عنوانه أنه كتاب سيرة ذاتية.

هكذا تعكس الصفحات الأولى من هذه المذكرات ما عرف عن الدكتورة نوال السعداوى من حرصها على التعبير على أنها ظلت تعيش القلق تجاه وضع المرأة فى المجتمع المصرى المعاصر ، وهى تتأمل فى هذا الوضع فإذا بها تنتقل بهذا القلق فى الزمان لتذهب به إلى فترة طفولتها ، وكأنها كانت تعيش هذه القضية بدرجة حادة جداً إلى الحد الذى يجعلها تتساءل فى بداية كتابها فتقول:

«وإذاً ... وإذا كانت أمى تحبى حباً حقيقياً هدفه سعادتى وليس سعادتها ، فلماذا تكون كل أوامرها ورغباتها تتعارض مع راحتى وسعادتى؟».

وعلى هذا النحو تروى لنا نوال السعداوى مبررات ودوافع بعض قراراتها المبكرة المتمردة ، ومنها ذلك القرار الذى اتخذته بتقصير شعرها فتقول:

«خرجت لأول مرة فى حياتى من البيت دون أن آخذ إذن من أمى .. مشيت فى الشارع وقد منحنى التحدى نوعاً من القوة ولكن قلبى كان يخفق من الخوف .. ولمحت لافتة كتب عليها: حلاق للسيدات .. ترددت لحظة ثم دخلت...».

«نظرت إلى خصلات شعرى وهى تتلوى بين فكى المقص الحاد ثم تهوى إلى الأرض .. أهذه الخصلات هى التى تقول عنها أمى إنها تاج المرأة وعرشها؟ أيجر تاج المرأة هكذا صريعاً فى لحظة إصرار واحدة؟ شعرتُ باستخفاف شديد نحو النساء .. رأيت بعينى رأسى أنهن يؤمن بأشياء تافهة لا تساوى شيئاً...».

«ومنحنى هذا الاستخفاف بهن قوة جديدة جعلتني أعود إلى البيت وأنا أسير على قدمين ثابتتين ، واستطعت أن أرفع قامتى وأنا أقف أمام أمى بشعري القصير .. صرخت أمى صرخة عالية وناولتنى صفة حادة على وجهى .. ثم تلتها صفعات وصفعات .. وأنا أقف كما أنا...».

ونحن بعد هذا الحديث السريع عن بعض ملامح الطفولة التى تحرص صاحبها على إبرازها فنجأ بصاحبة التجربة وهى تمضى فى حياتها أو فيما ترويه عن حياتها من ذكريات حتى تصل بسرعة إلى دراستها بكلية الطب وإذا بها فى المشرحة وإذا بها تجد الرجل عارياً أمامها فتقول:

«كان هذا أول لقاء سافر بالرجل والرجولة .. فيه فقد الرجل هيئته وجلاله وعظمته الموهومة .. نزل الرجل من فوق عرشه وارتمى على منضدة التشريح بجوار المرأة ..»

«لماذا كانت أُمى تضع هذه الفروق الهائلة بيني وبين أخي وتصنع من الرجل إلهاً على أن أفضى عمري كله أطبخ له الطعام؟ ، لماذا يحاول المجتمع دائماً أن يقنعني بأن الرجولة امتياز وشرف وأن الأنوثة مهانة وضعف؟ ، هل يمكن لأُمى أن تصدق أنني أقف وأمامي رجل عار وفي يدي مشرط أفتح به بطنه ورأسه؟ ، هل يمكن للمجتمع أن يصدق أنني أتأمل جسد الرجل وأشرحه وأمزقه دون أن أشعر أنه رجل؟»



وغضى على هذا النحو مع صفحات الكتاب فنجد صاحبة التجربة وهي تبدأ الحديث عن قلبها بقدر أقل من الكبرياء الذي تحدثت به عن عقلها ، وها هي تعيش ، بعد ذلك الإدراك ، مع حقيقة الإنسان الحى فإذا هي تظل تتساءل طوال ليلها ولا تصل إلى قرار:

«الليل أصبح طويلاً .. والأوهام والخيالات تعشش كل ليلة حول سريري .. ذراع طويلة قوية تلتف حول خصرى .. ووجه رجل يقترب منى .. له عينان تشبهان عيني أبى .. وله شفتان تشبهان شفتى ابن عمى .. ولكنه ليس أبى وليس ابن عمى . ترى من يكون؟»

كما أنها ، حسب ما تصوره لنا بدقة وقدرة على التعبير والتصوير ، تبدأ فى التأثر (سواء بالسلب أو الإيجاب أو القلق) بالأحاديث التى تسمعها من حولها:

«أحاديث البنات فى المدرسة تطفو على سطح ذاكرتى .. التهنيدات .. الشبهات .. أحلام المراهقات .. كأنى لم أشرح جسد الرجل .. كأنى لم أعريه .. كأنى لم أر قبحه وبشاعته .. هل نسيت؟ لا أدرى .. ولكنى نسيت .. وعاد إلى الجسد الحى سحره وغموضه .. كيف نسيت؟! لعل أنوثتى خرجت من زنزانتها عنيفة جامحة طوحت فى طريقها بكل ذكريات العقل».



هكذا تجيد صاحبة المذكرات تصوير طبيعة الفرق الذى نعرفه جميعاً بين القلب والعقل ، فهذا العقل الذى يجعلها ترى الرجل ممدداً على المشرحة يتنازل للقلب حين يصبح الأمر متعلقاً بالعواطف حيث تخرج الأنوثة من الزنزانة بكل العنف والجموح ، وحيث يعود فى ذات الوقت للجسد الحى سحره وغموضه!

وهكذا تصدقنا نوال السعداوى القول وهي تتباهى ، وتصدقنا القول أيضاً وهي تتنهى بعد تفكير! ولكنها بعد أن دخلت قفص الزوجية تعود إلى التمرد على ما فرضته على نفسها ، وعلى ما ارتضته لنفسها وإذا هي تقول:

«عالمى الخاص .. حجرة نومي .. لم تعد حجرتى وحدى .. وسريرى .. الذى لم يشاركنى فيه أحد .. أصبح هو يشاركنى فيه .. كلما تقلبت أو تحركت ارتطمت يدي برأسه الخشن أو بذراعه أو ساقه اللزجة .. وصوت أنفاسه إلى جوارى يملأ الجو من حولي بالعويل .. لا شئ يربطني بهذا الرجل وهو مُغمض العينين .. لا شئ أراه فيه إلا جثة هامدة كتلك الجثث التى رأيتها فى المشرحة .. ولكن إذا ما فتح عيناه [تقصد: عينيه] ونظر إلى بنظرته الضعيفة المستجدية التى تثير أمومتى وتحمد أنوثتى أشعر أنه طفل ولدته من صلب كيانى فى مكان وفى زمان لا أدري عنهما شيئاً».

(٣)

على هذا النحو تحرص الدكتورة نوال السعداوى على أن تنشئ علاقة ارتباط قوية وحاسمة بين استجابتها للعاطفة وبين يقظتها ، وهو معنى يبدو مبتكراً ، فهى لا تدرك أمومتها لزوجها إلا حين يستيقظ من نومه ، ويفتح عينيه ، وينظر إليها نظراته الضعيفة المستجدية ، وإذا بصاحبة المذكرات تصل بعد صراع طويل إلى قرار خطير فإذا هى تقول لنفسها بعد خمس صفحات من حوار داخلى:

«لقد ضيعت أمى طفولتى ، والتهم العلم صبأى وفجر شبأبى ولم يبق لى من شبأبى إلا سنوات .. لن أضيعها ولن أدع أحداً يضيعها».

□

وإذا بالدكتورة نوال السعداوى بعد تجربة طويلة ممتدة مع المجتمع ومع نظراته وكلامه وتعليماته وآرائه تحدث نفسها مرة أخرى بصوت عالٍ وتقول:

«وضعت رأسى بين يدي وجلست أفكر .. هل أخوض المعركة مع المجتمع الكبير أم أخضع له وأنساق وراءه؟ وأحنى له رأسى وأغلق على نفسى جدران بيتى وأحتسى فى رجل ككل النساء؟ لا .. مستحيل! لن أخضع للمجتمع .. ولن أنساق وراءه .. ولن أحنى

رأسى ولن أحتسى فى رجل! سأخوض المعركة وسأحتسى فى نفسى .. وفى ذاتى. وفى قوتى .. وفى علمى. وفى نجاحى».

هكذا تأخذ الدكتور نوال السعداوى قرار الصراع ، أو هكذا هى تحدثنا عن أنها أخذت هذا القرار فى هذا الوقت المتأخر من شبابها ، وأنها أخذت القرار بعد تردد وتفكير ، أى أنه لم يكن رد فعل وقتى أو نزوة .. لكنها وضعت من أجلها رأسها بين يديها .. وأخذت تفكر ، وهى ذى تقرر أن تخوض المعركة على نحو ما نعرف من سيرة حياتها التى كتبتها، وعلى نحو ما نعرف من حديثها الذى لا تزال تكتبه.

ولكن الدكتور نوال السعداوى تعترف لنا أنها ، بعد أن بدأت تخوض المعركة وتحس النجاح المقبل عليها فيها ، عادت لتعانى مرارة الوحدة ، فكأنها خرجت من مرارة إلى مرارة أخرى ، وهى تروى على صفحات هذه المذكرات فى شجاعة وصراحة حقيقة مشاعرها فى تلك اللحظة فتقول:

«... ووضعت رأسى على سور النافذة .. ما أبرد الوحدة! ما أقسى السكون! ماذا أفعل؟ هل أقفز من فوق قمتى؟ ولكن عنقى سيدك فى الأرض دكاً .. هل أعود أدراجى؟ ولكن عمري سينقضى ولن أبلغ ما أريد .. انتهت المعارك وأن لى أن أجلس بلا حراك .. آه .. ما أفضع الفراغ! لماذا قفزت فوق سلم حياتى؟ لماذا لم أرشف كأس حياتى رشفة رشفة؟ لماذا لم أفضم عمري قزمة قزمة؟ لماذا جريت شوطى قفزاً ولهناً؟ لماذا تركت مكانى فى الصف وقفزت فوق الصفوف؟».

على هذا النحو من التساؤلات المنطقية تطرح علينا صاحبة هذه المذكرات رؤاها عن مرحلة مهمة من مراحل سلوك الإنسان ذى المعتقدات الخاصة ، حين يبدأ فى المعاناة من معتقداته ومن ممارساته لها ، فلا تنجو نفسه من لوم النفس على هذا النحو الذى تعبر عنه صاحبة هذه المذكرات تعبيراً بديعاً لا ينقصه أى قدر من التمكن فى التعبير الدقيق عن الخلجات الصعبة للنفس الإنسانية فى لحظات الحرج النفسى.

(٤)

ومن باب ما يطلق عليه «إدعاء الحكمة بأثر رجعى» ، يبدو حرص الدكتور نوال السعداوى على أن تصور نفورها من العلاقة التقليدية بالرجل فى إطار الزواج التقليدى ،

وتراها - أى هذه العلاقة - أو تصورهما نوعاً من أنواع المؤامرة. وها هى تحدثنا عن أول تجربة لها فى هذا الصدد :

«سكنت جدتى العجوز عن الشرثرة ونظرت إلى صدرى .. ورأيت عينيها المتآكلتين تتأملان البرعمين الجديدين البارزين وتزنهما .. ثم رأيتها تهمس لأمى بشيء ، وسمعت أمى تقول لى: ارتدى الفستان اللبنى لتدخلى ولتسلمى على الضيف الذى مع أبيك فى الصالون».

«وشممت رائحة مؤامرة فى الجو».

«وكنت أقابل معظم أصدقاء أبى وأقدم لهم القهوة .. وأحياناً أجلس معهم وأسمع أبى وهو يحدثهم عن فوقى فى المدرسة ، فأشعر بالفحمة وأحس أن أبى باعترافه بـ: «أبى ينتشلى من دنيا النساء الكئيبة التى تفوح منها رائحة البصل والزواج ، ولكن لماذا الفستان اللبنى؟ ذلك الفستان الجديد الذى أكرهه .. فى صدره كشكشة غريبة تستقر على نهدي وتزيد من بروزهما».

«ونظرت إلى أمى تفحصنى .. وقالت: أين الفستان اللبنى؟»

«وردت فى غضب: لن ألبسه! ولمحت بوادر التمرد فى عيني فنظرت إلى فى أسى وقالت: ساوى حاجيك إذن».

«ولم أنظر إليها .. وقبل أن أفتح باب الصالون لأدخل ، عبثت بأصابعى شعر حاجبي فنكشتها»، وسلمت على صديق أبى وجلست .. ورأيت وجهاً غريباً مخيفاً له نظرة مدققة فاحصة تشبه نظرة جدتى».

«وقال أبى: إنها أولى فرقتهما هذا العام فى الابتدائية».

«ولم أر فى عيني الرجل أى تعبير عن إعجاب بهذا الكلام .. ورأيت نظراته الفاحصة تحوم حول جسدى وتستقر فى النهاية على صدرى ، فوقفت مذعورة وخرجت من الحجرة أجرى كأنما عفريت يطاردنى ، وتلقتنى أمى وجدتى على الباب بلهفة وشوق وقالتا فى نفس واحد: هيه .. ماذا فعلت؟».

«وصرخت فى وجهيهما صرخة واحدة وجريت إلى غرفتى وأغلقت الباب على .. وذهبت إلى مرآتى أنظر إلى صدرى ، كرهتهما! هذان البروزان! تلكما القطعتان الصغيرتان من اللحم اللتان تحدان مستقبلى! وددت لو أجتتهما من فوق صدرى بسكين

حاداً ، ولكنى لم أستطع .. استطعت فقط أن أخفيهما .. أن أضغط عليهما بمشد سميك ليبطهما».



ونحن نرى صاحبة هذه المذكرات حريصة على هذا المعنى ذاته حين تروى تجربة إقدام ابن عمها على تقيلها فإذا هي تقذف بذراعها فى الهواء وتصفعه :

«لم أشعر به حين دخل إلى حجرتى ووقف إلى جوارى وأنا أجلس إلى كتابى إلا حين قال:

«ألا ترغيبين فى الترويح عن نفسك قليلاً».

«وكنت قد قرأت طويلاً وشعرت بالتعب ، فابتسمت قائلة:

«أريد أن أتمشى فى الخلاء».

«إلبسى معطفك وهيا بنا».

«أدخلت نفسى فى المعطف بسرعة وجريت إليه .. كنت على وشك أن أضع يدى فى يده ونطلق نجرى معاً كما كنا نفعل ونحن أطفال ، لكن عينيّ تعلقتا بعينيه فتذكرت فجأة السنين الطويلة التى لم أَلعب فيها ، ونسيت خلالها قدامى الجرى ، وتعودتا السير البطيء كالكبار .. فوضعت يدى فى معطفى وسرت إلى جواره فى بطاء».

«وسمعتة يقول:

«لقد كبرت».

«وأنت أيضاً».

«هل تذكرين أيام كنا نلعب معاً؟».

«كنت تسبقنى فى الجرى دائماً».

«وكنت تكسبين دائماً فى «البلى»».

«وضحكنا طويلاً .. ودخل هواء كثير إلى صدرى فأنعشنى وجعلنى أحس أننى

أسترجع بعض طفولتى المدبرة».

«وقال: أريد أن أسابقك فى الجرى».

«قلت فى ثقة: سأسبقك».

«قال: لنرى...!».

«ورسمنا خطأ على الأرض .. ووقفنا متجاورين .. وصاح قائلاً: واحد .. اثنين .. ثلاثة .. فانطلقنا نجري الشوط ، كنت على وشك أن أصل إلى النهاية قبله ، لكنه أمسكنى من ملابسى من الخلف فتعثرت قدمى ووقعت على الأرض ووقع إلى جوارى .. ورفعت عيني إليه وأنا ألهت فرأيته ينظر إلى بنظرة غريبة جعلت الدماء تصعد إلى وجهى .. ورأيت ذراعه تمتد ناحية خصرى .. وهمس فى أذنى بصوت غليظ: سأقبلك».

وها هى صاحبة العقل تحدثننا عن صراع العقل والقلب فيما تواجهه من تجربة التعبير عن الصراع بين الحب والإرادة :

«انتفض كيانى انتفاضة عنيفة غريبة ، وتمنيت ، فى لحظة ومضت فيها أحاسيسى كالبرق ، أن تمتد ذراعه أكثر وتضمنى بقوة .. بقوة .. ولكن رغبتى العجيبة الخفية تحولت حين خرجت من أعماقى إلى غضب شديد ، وزاده غضبى إصراراً فأمسكنى بيد من حديد.. ولم أدر من أين واتتنى هذه القوة التى جعلتنى أقذف بذراعه فى الهواء بعيداً عنى وأرفع يدى إلى فوق ثم أهوى بها على وجهه فى صفة عنيفة».

وتعود صاحبة المذكرات لتشركننا معها فى تأمل هذا الذى حدث فنراها حريصة على أن تبرز نفسها وكأنها تكاد تخلط خلطاً تاماً بين كل ما هو حقيقى وما هو خيال ، وهى تستعين على هذا الخلط بالمناخ الذى تدير فيه حديثها المسترجع للتجربة ، وذلك حيث تقول:

«تقلبت فى فراشى حائرة .. مشاعر غريبة تجتاح كيانى .. وخيالات كثيرة تمر أمامى .. ولكن خيالاً واحداً يستقر أمام عيني ، ابن عمى وهو راقد على الأرض إلى جوارى وذراعه تكاد تلتف حول خصرى ونظراته الغريبة تخترق رأسى ، وأغمضت عيني لأسبح مع خيالى الذى راح يحرك ذراعه حتى التفت حول خصرى بقوة .. وحرك شفتيه حتى لامستا شفتي وضغطتا عليهما بعنف».

«ودستت رأسى تحت الغطاء ، أيمكن أن أصدق؟! يدى التى ارتفعت وصفعته هى نفسها يدى التى ترتجف فى يده الموهومة?!».

على هذا النحو تصل الدكتورة نوال السعداوى إلى محاولة الفصل بين مشاعر متصارعة ، فإذا هى غير قادرة على هذا الفصل ، وإذا بها تستدعى التكذيب فى محاولة للحل ، وتحاول الدكتورة نوال السعداوى ، بعد هذا ، أن تدلنا على أسلوب تعاملها تجاه هذه التجربة التى تظنها جديدة عليها والتى تحاول الهروب منها بينما الأمر لا يستدعى

الهروب ، ومن أبداع ما يمكن أن تلجأ الدكتور نوال السعداوى إلى النهار وضوئه لتجعلهما بمثابة المنقذين اللذين أنقذاها من الأوهام التي سيطرت عليها فى الليل وظلامه :

«وأحكمت الغطاء حول رأسى لأحول بينه وبين هذا الوهم الغريب ، لكنه تسرب من تحت الغطاء إلى .. فوضعت الوسادة على رأسى وضغطت عليه بكل قوتى لأخفق فيه ذلك الشبح العنيد .. وظللت أضغط على رأسى حتى خنقنى النوم».

«فتحت عيني فى الصباح حين بدد نور الشمس الظلام بكل ما يجوس فيه من أشباح».

«وفتحت النافذة .. ودخل الهواء المنعش إلى صدرى فقضى على الآثار العالقة بخيالى من أوهام الليل ، وابتسمت فى سخرية من نفسى ، هذه النفس الجبانة التى ترتعد خوفاً منى وأنا يقظة ثم تتسلل إلى فراشى فى الظلام فتملاً السرير من حولى خيالات وأوهاماً!».

(5)

وقرب نهاية كتابها نرى الدكتورة نوال السعداوى تمضى فى الطريق نفسه بخطوات مسرعة واثقة وكأنها تحاول أن تصل من الشك إلى اليقين ، لكنها مع هذه المحاولة لا تزال تستمتع بالشك الذى يعذبها وهى تقول :

«إن صفوف الناس تزحف فى الطريق .. تزحف كالسلاحفة ، لكنها ستصل يوماً .. وإن الحياة تسير إلى الأمام .. تسير ببطء لكنها ستبلغ حتماً ما تريد .. لقد انقضت ملايين السنين حتى أصبحت «الهيولة» هواء .. وحتى أصبح الهواء ماء ، وحتى أصبح الماء جماداً .. وانقضت ملايين أخرى حتى أصبح الجماد أميبا تتحرك وحتى أصبح للأميبا زوائد حية .. وانقضت ملايين أخرى لتصبح الزوائد زعانف ، ثم لتصبح الزعانف أجنحة ، ثم لتصبح الأجنحة أذرا وذيلاً .. وانقضت ملايين أخرى ليصبح للأذرع أصابع ولينقرض الذيل ويقف القرد على قدمين اثنتين».

على هذا النحو تلجأ الدكتورة نوال السعداوى إلى التاريخ الطبيعى محاولة أن تستلهم منه أمثلة تصور بها ما حدث لها ، وما حدث لنفسيتها وكأنها تحاول بهذه الأمثلة أن تقنع نفسها قبل أن تقنع قرائها الذين هم فى الغالب أكثر دراية بالتطور النفسى من درايتهم بهذه الأمثلة التى تضربها صاحبة المذكرات التى تظن أن تفصيلات أو حقائق علوم البيولوجيا

قادرة على أن تقدم لها الأمثلة الكفيلة بتقريب الصورة إلى أذهان القراء ، بينما الأمر غير ذلك.



وتطرح الدكتورة نوال السعداوى على نفسها ، بعد هذا ، بعض الأسئلة التي تعبر عن حيرتها ، وإن كانت حريصة على أن تصيغ هذه الأسئلة بنوع من الفذلكة المعروفة حين يضمن بعض الأدباء كلامهم بعض المصطلحات العلمية الحديثة وكأنهم يأخذون بأيدي قراءهم إلى اختراق مناطق جديدة من الفكر والشعور:

«لماذا حزنت في طفولتي لأنى لا أطيّر في الجو كالحمامة؟ لماذا ضقت بتلك الأيام الدامية التي تلوث النساء كل ثلاثين يوماً؟ لماذا تمردت على التاريخ والقوانين والتقاليد؟»
«لماذا ثرت لأن العلم لم يكتشف سر البروتوبلازم الحى؟»

«سوف تنقضى السنون ويغير الزمن التاريخ والقوانين والتقاليد» ، سوف تنقضى السنون وتكتشف الحياة طريقة نظيفة جميلة تنضج بها البنات الصغار .. سوف تنقضى السنون ويخف جسم الإنسان فيطير .. سوف تنقضى السنون ويهتدى العلم إلى سر البروتوبلازم الحى .. إن ركب الزمن يسير .. وإن الحياة تعثر كل يوم على شىء جديد. لماذا استبطأت الزمن فنهشت تروسه أوصل عمرى؟ ، لماذا تعجلت الحياة فلفظتني عجلاتها وقذفت بى إلى فوق .. فوق .. إلى قمة عالية حقاً لكن الوحدة تغلفها ويكسوها الجليد...»
«آه .. ما أقسى الصمت؟ وما أرق أصوات البشر ولو كانت ضجيجاً.. ما أبرد الوحدة؟ وما أذفاً أنفاس الناس ولو كان مريضة .. ما أقيح السكون؟ وما أجمل الحركة ولو كانت معارك .. ما أفضع الفراغ؟ وما أحلى التفكير والانشغال حتى بالفشل...»

«حل الفراغ بأعماقى فوجد العملاق مكاناً ليتحرك .. تلاشى الزحام داخل نفسى ففرد العملاق ذراعيه وساقيه وبدأ يتشاءب ويتمطى».

«ماذا تريد؟ تمردت على كل شىء ورفضت حياة النساء .. سعيت وراء الحقيقة فقادتك الحقيقة إلى أن تغلق على نفسك جدران نفسك».

«والرجال .. قلبت فيهم وفتشت وبعثرت ثم مصممت شفتيك فى ازدراء».

«ماذا تريد؟ رجلاً يعيش فى خيالك ولا يمشى على الأرض؟ ، رجلاً يتكلم ويتنفس ويفكر وليس له جسد الرجال؟ أم يمكن لك أن تنسى؟ هذه الأجساد الملقاة على مناضد

التشريح؟ هذا الشخير الكئيب القريب من وسادتك؟ هذه النظرات اليائسة العاجزة المسكينة؟ هذا الموت الذى يحصد الأطفال؟».

«ألا تغلق عليك باب زنزانتك وتنام مرة أخرى؟».

«لكن الليل أصبح طويلاً .. وأوهام الليل عادت تعشعش حول السرير .. والسرير أصبح واسعاً بارداً مخيفاً .. والعملاق لا يريد أن ينام .. والنجاح ليس له طعم .. والشهرة ليس لها معنى .. والمال مجرد أوراق ميتة لا تدب فيها الحياة».

(٦)

وفيما بعد هذا كله تهتدى نوال السعداوى إلى مَنْ تظن أنه يستحق أن يكون شريك حياتها أو هكذا هي تريد أن توهمنا أو تقنعنا ، ولسنا فى موضع يمكن لنا من خلاله أن نحكم على اختيارها ، لكننا على الأقل لا نزال فى الموضع الذى يسمح لنا بتأمل مبرراتها فى اختيارها أو مسوغاتها فى إقناعنا بهذا الاختيار ، فمن حقنا بعد أن عشنا معها هذه التجربة أن نقتنع بالنهايات التى تختارها .. وهى ، فى واقع الأمر ، لا نتحدثنا كيف اهتدت إليه وهل كان هذا صدفة أم نتاج مجهود ، وإنما هى تكتفى بتصوير لحظة اتفاقهما من خلال الجدل ، وهى تكتفى بأن تقدمه على أنه الرجل الذى يقول لها بكل حنان:

«لم أر امرأة مثلك أبداً .. قلت: لماذا؟ قال: النساء دائماً يخفين مشاعرهن أو ملامحهن بستائر كثيفة مصنوعة .. أما أنت فلا تخفين شيئاً .. حتى وجهك لم تضعى عليه المساحيق ..»

قلت: أنا أحب حقيقتى ، أثق فيها ولا أستطيع إخفاءها.

قال: أنا أحب المرأة الصريحة الصادقة.

قلت: كثيرٌ من الرجال يعتقدون أن الصراحة تفسد أنوثة المرأة .. إنهم يحبون المرأة المتخفية المراغبة فيمارسون معها غريزة المطاردة والصيد.

قال: إنهم لا يفهمون من المرأة شيئاً سوى أنها متعة حسية.

قلت: قليل من الرجال مَنْ يفهم أنوثة المرأة الذكية ذات الشخصية القوية.

قال: أعتقد أن المرأة مهما بلغ جمال جسمها فإنها تفتقد الأنوثة إذا كانت غبية أو ضعيفة الشخصية أو متصنعة أو كاذبة.

قلت: وماذا عن الرجولة؟

قال: معظم النساء لا يعرفن عن الرجولة سوى أنها كفاءة الرجل الجنسية.

قلت: الرجل فى رأى يفتقد الرجولة مهما بلغت كفاءته الجنسية إذا كان غيباً أو ضعيف الشخصية أو متصنعاً أو كاذباً.

وعند هذا الحد يصل الطرفان إلى نقطة الالتقاء التى بحث كل منهما عنها طويلاً فإذا بهما يصلان إليها من خلال هذا الحوار الذى عبر لكليهما عن توافق أفكارهما ومعتقداتهما:

ونظر إلى طويلاً وقال: أين كنت كل هذه السنين؟

- كنت مشغولة بالبحث.

- عن أى شىء؟ ألم تنالى ما تريدین؟

- الذى أريده لم أنه أبدأ.

- نحن لا نحصل على كل شىء فى الحياة.

- عشت فى حرمان دائم.

- الحرمان يجعل أوتار أعصابنا مشدودة نستطيع العزف عليها .. أما الإشباع فيجعلها

ترنخى فلا تخرج لنا».



ونرى الدكتورة نوال السعداوى بعد هذا كله وهى تنتقل من الحوار إلى الاعتراف الذى تريد أن تقدمه لاجئة إلى السرد ، تاركة تيار وعيها يتحدث عما حدث يومها من انفعال نفسى ، وتيار الوعى يحدثنا حديثاً جميلاً ، ليس فيه انتقال حتى وإن كانت صاحبه حريصة على أن تضمنه معتقداتها وأفكارها ومعاييرها فى الحكم على الأمور من قبيل أن الرجل الذى أحبته لم ينظر أبداً إلى ساقها أو صدرها .. وهى تعرف أنها تحدثنا بهذا الحديث لتنبثنا عن معتقداتها ومعاييرها ، لا لتروى لنا ما حدث بالضبط ، فهذا لا يأتى إلا فى المحل الثانى بالطبع ، وربما لا يأتى.

وعلى الرغم من هذا الوضوح فى عرض الفكرة فإن صاحبة المذكرات تقدم لنا عبارات

محملة بكل ما تريد أن تقوله ، وهي تقدم لنا هذه العبارات ضمن السياق الذي يجعلنا نتصور أن السياق لم يكن ليمضى بدون هذه العبارات :

« كان يكلمنى .. وكان ينظر فى عينى دائماً .. لم أره مرة ينظر إلى ساقى .. لم أره مرة يختلس النظر إلى صدرى .. وكنا وحدنا .. والأربعة جدران مغلقة علينا .. ولكننى لم أشعر أنه يرى الجدران أو يحس بها .. كان يحلق فى سماء عالية .. وكنت أجلس إلى جواره بلحمى ودمى .. لكننى لم أحس أنه يخاطب جسدى .. كان يخاطب عقلى وقلبى .. وأغمضتُ عينى فى راحة واطمئنان ..» .

(٧)

وهكذا فإننا نكاد نرى حقيقة الدكتورة نوال السعداوى فى هذه العبارات ، فهى تثبت لنا ما أرادت إثباته من قبل ومن بعد فى حياتها ، إنها لا تتمرد على الطبيعة ، لكنها تتمرد على نظرنا للطبيعة ومفهومنا لها ، وإنها تؤمن بالأسرة كما تؤمن جميعاً أو بأفضل مما تؤمن جميعاً . وإذا بهذا الكتاب ينتهى بالأنثى كما بدأ بها ، ولكنها فى النهاية تقول نهاية ما تصل إليه حكمة البشرية كلها :

« آه .. وأخفيتُ رأسى فى صدره .. أحتمى فيه .. وألتصق به .. أحسست أننى تجردت من عمرى الذى فات وعدت طفلة تحبو وتتعلم المشى .. أصبحتُ فى حاجة إلى يد حانية تسندنى .. لأول مرة فى حياتى أشعر بالحاجة لأحد .. حتى أمى لم أكن أشعر بالحاجة إليها .. ودفنتُ رأسى فى صدره وبكيت .. بكيت فى راحة وهدوء ..» .

ومع كل هذا فإن أحاسيس ومشاعر الأنثى فى الدكتورة نوال السعداوى تتبدى لها فى كثير من هذه المواقف التى انتقتها لتحدثنا بها عن ذكرياتها ، ونحن نقرأ لها هذه العبارات الشديدة الإيحاء التى تعبر فيها عما كانت تشعر به وهى التى تتوق فى بعض الأحيان إلى الآخر وإلى وصاله وذلك حيث تقول :

« تقلبت فى فراشى مؤرقة .. أصبح السرير خشناً مليئاً بالحصى والمسامير ، تركت الفراش وأخذت أمشى فى الحجرة .. أحسست أن الحجرة ضيقة كالزنزانة والجوخانق كحبل المشنقة ، خرجت إلى الشرفة ووقفت لكننى لم أطق الوقوف : جلست .. لكن لم

أطق الجلوس .. فوقفت ومشيت إلى حجرة الطعام .. حاولت أن أكل شيئاً ، لكن مذاق الطعام كان متغيراً غريباً ، كأنه مصنوع من المطاط ، أصبحت لا أحتمل أى شيء .. لا الجلوس ولا الوقوف ولا المشى ولا النوم .. أصبحت لا أجد طعماً لأى شيء .. لا الطعام ولا الماء ولا الهواء ، والأشياء التي كانت تملأ وقتى أصبحت تافهة فارغة .. واهتماماتى التي كانت تبتلع نهارى ابتلعها شعورى الجديد».

«سؤال واحد يجوب آفاق عقلى وروحي ، هل أطلبه؟ هل أكلمه؟ هل أبدأ أنا الحديث؟».

«ونظرت إلى الآلة الصغيرة .. تلك الكتلة المربعة السوداء التي كنت أنقلها بيد واحدة من مكان إلى مكان .. وأخرسها بأصبع واحد حين أريد .. تلك الكتلة أصبحت الآن شيئاً رهيباً .. جهازاً سحرياً خطيراً ، أنظر إليها من بعيد فى حذر .. وأقترب منها فى وجل .. وألمسها بأصبعى فتمس عقلى وقلبي كهربة عنيفة كأنما مست يدي سلكا كهريباً عارياً».

«أنتغير الأشياء إلى هذا الحد حين تتغير نظرنا إليها؟».

«وجلست إلى جوار التليفون أفكر .. وتذكرت كلماته حين كتب لى رقمه ، قال: اطلبينى حين تريدين».

«إنه يحترم إرادتى .. لماذا لا أحترم إرادتى إذن؟».

«لقد كنت أحترم إرادتى دائماً .. أليست إرادتى هي التي تحكمنى وليست إرادة الغير؟ ألم يحاول رجل أن يمتلك حياتى فلم أملكه شيئاً لأننى لم أكن أريد؟ ألم يحاول رجل أن يعطينى حياته فلم آخذ شيئاً لأننى لم أكن أريد؟ أليست إرادتى هي التي تحدد عطائى وأخذى؟ وأنا أريد أن أراه الآن .. نعم أريد ، ودارت أصابعى الثابتة فى ثقوب القرص ست دورات .. وجاءنى رنين عال متواصل ، وفجأة انقطع الرنين فانقطع الدم من قلبي وسمعت صوته العميق يقول: ألو».



وتحرص الدكتورة نوال السعداوى على أن تبدو وكأنها تعترف أنها كانت صريحة فى تعبيرها عن الرغبة ، مع وعيها بأن هناك أساليب أخرى أكثر فعالية فى التعبير عن هذه الرغبة ، ومن حق القراء عليها أن تستوعب بعض ضجرهم من هذا التعبير المركب عن

مشاعر مركبة ، كما أن من حق الرجال الذين مروا فى حياتها أن يدركوا وهم يقرأون المذكرات حقيقة ما التبس عليهم فى بعض اللحظات :

« لم أفكر فى أساليب الدلال .. لم ألقأ إلى ما تلجأ إليه النساء من لف ودوران .. لم أظاهر بأننى أسأل عليه مجرد السؤال .. لم أضع البرقع على وجهى وأغمز له من وراء الباب .. لم أصطنع السذاجة والغباء» .

« قلت له فى صراحة وصدق: أريد أن أراك» .

« متى ؟» .

« الآن» .

« أين ؟» .

« أى مكان. لا أهمية للمكان» .

« أين أنت الآن ؟» .

« فى بيتى» .

« سأكون عندك بعد قليل» .

«تهاويت على المقعد كأنما انسحبت منى الحياة .. وتلفت حولى أنظر إلى أثاث بيتى وجدرانها كأنما أنظر إليها لأول مرة» .

على هذا النحو كانت صاحبة المذكرات قادرة على أن تعبر عن لحظات الشوق والتطلع والترقب ، وذلك من دون أن تفقد حرمتها أو تحررها .



ثم تحدث الدكتور نوال السعدواى بقدر أكبر من الإجابة عن أكثر من مظهر من مظاهر شعورها (المفاجئ) بالحب ، ونحن نرى هذا الشعور الذى تعبّر عنه صاحبة المذكرات كأنه هو نفسه نفس الشعور الذى تعودناه من المرأة فى الحياة وعلى شاشة السينما أو على خشبة المسرح :

«ودب النشاط والحماس فى كيانى فجأة ، هذه الصورة يجب أن أنقلها هنا .. هذا الكرسي يجب أن أضعه هناك .. هذه الزهرية يجب أن تمتلئ بالورد .. وأرسلت الخادم ليشتري باقة من الورد .. ولبست الفوطة ووقفت فى المطبخ .. وصنعت كعكة بالبيض

واللبن وضعتها فى الفرن .. وصنعت قالباً من الجبلى وضعته فى الثلاجة» ، أخذت أجرى كالطفلة الصغيرة من الفرن إلى الثلاجة .. ومن الثلاجة إلى زهرية الورد ، ومن زهرية الورد إلى صورة الحائط .. ومن صورة الحائط إلى الفرن ، تصبب العرق من وجهى وسال إلى فمى ، لكنى وجدت له طعاماً جديداً لذيداً .. ارتفع صدرى وانخفض فى أنفاس لاهثة متقطعة كجواد سباق لكنى نسيت أن لى رثتين .. وضعت يدى داخل الفرن ولم أشعر بلسع النار كأنما نسيت خلايا مخى ألم الحرق ، التوى ظهرى من الانحناء تحت الموائد والانشاء فوق الرفوف ، كأنما تلاشت عظام عمودى الفقرى .. ثم دق جرس الباب دقة واحدة رنت فى قلبى رنيناً غريباً رهيباً كأنى أسمع صوت الجرس لأول مرة فى حياتى» .

وهكذا تعود «المرأة» لتبدأ «الحياة» من جديد.

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحريّة

8

يوميات امرأة عاملة
إقبال بركة

دار الخيال

(١)

تمتّع الروائية الأستاذة إقبال بركة بقدرتين رائعتين : قدرتها على التعبير الواضح الصريح الملتزم بكل قواعد اللغة والبيان ، وقدرتها كذلك على التعبير القوي عن أفكار واضحة حاسمة وجريئة .. وهي مع هذا كله لا تفتأ تزداد قوة فيما تكتب وفيما تعتقد أيضاً ، وقد يعتربها ما يعترينا جميعاً من بعض الانصراف عن المشاركة في الكتابة العامة والقضايا العامة ، ولكنها تعود دائماً لتثبت أنها لم تكف إلا طلباً لبعض الراحة التي تؤهلها للجديد وللمزيد من العطاء .

وحيث طالعت نبأ صدور كتابها «يوميات امرأة عاملة» منيت نفسي في البداية بكتاب سيرة ذاتية حية أو معاشة لشخصية معاصرة معروفة وبدأت أحدس ماذا ستكتب فيه .. ثم إذا بي أتذكر أنها كانت تستخدم هذا العنوان لبعض كتاباتها الأسبوعية ، ثم إذا بي أجدها في مقدمة الكتاب تنوه أن هذا الكتاب هو مجموعة مقالاتها تلك ، ولكنى أمضى مع فصول الكتاب فأجدها تقريباً تضم فصولاً من كتابين مختلفين لم تشأ صاحبتهما أن تفصلهما وإنما سارعت بضمهما: كتاب يضم بعض مشكلات سيداتنا المصريات عرضتها على السيدة إقبال بركة يلتمسن رأياً ، فإذا هي تشرك الجمهور في الخبرة والتجربة والرأي ، وكتاب آخر يضم سيرتها الذاتية هي ، بيد أنه لا يزال في حاجة إلى استكمال . وإذن فكتاب السيدة إقبال بركة مزيج من تجارب شخصية بحثة ، ومن تجارب إنسانية لاقت صداها في فكرها ووجدانها على نحو ما عبرت لنا في هذا الكتاب .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يضم واحداً وستين مقالاً ما بين تجربة شخصية وإنسانية ، إلا أنه يتميز بكثير بل بكثير جداً من الخصائص التي تجعل منه كتاباً حقيقياً لا مجموعة فصول فحسب .. فهذه التجربة الشعورية التي تجتاح الكتاب وتسيطر عليه هي ذاتها التجربة الشعورية التي تجتاح مؤلفته وتسيطر عليها سيطرة تامة ،... إنها كما تقول : «تصبو أن تحقق ذاتها كإنسانة وليس فقط كأثى .. إنها لا تريد أن تكون شمعة تحترق .. ونحن اليوم فى عصر الكهرباء..»

تعرض لنا الأستاذة إقبال بركة فى وضوح فكرة ووضوح لفظ بعض المشكلات التي نعرفها جميعاً وندرکها جيداً فإذا هي تعمق من فهمنا للحياة على حين تمر بنا الحياة كل يوم ونحن لا ندرى.. ومن السهل على الناقد المتعجل أن يستنتج أن إقبال بركة قصرت حديثها على بعض المشكلات العامة جداً فى حياة السيدة المصرية العاملة ، ومن السهل على الناقد أيضاً أن يأخذ قضية كقضية «المواصلات» ويحصى المقالات التي كتبتها عنها إقبال بركة بدءاً من المقال الأول الذي تحكى فيه قصة صراعها بين «الغواية» وبين «حل أزمة ذهابها وعودتها من عملها كل يوم».. ثم المقال «المفتاح فى يدي أنا» الذي تحكى فيه كيف تشجعت (المرأة العاملة) على أن تقود سيارتها بعدما استطاع زوجها أن يؤجل ذلك مراراً حين كان يجاورها وهي تقود فى المرات الأولى .. على الرغم من الرمز والمغزى الواضح فى هذا المقال أو فى هذه القصة.. ومروراً بالمقال الثانى الذى تقارن فيه بين شعورها حين مرّ عليها زميلها فى الصباح لأول مرة ليلتقطها من أمام باب العمارة فإذا هي تفكر فيما سيقوله عنها البواب وزوجته ، والشعور الآخر حين عاد بها فإذا هي لا تتردد فى أن تتركه يوصلها إلى باب منزلها أيضاً «وافقت بلا تردد فمن خلال ممارستى لعملى ، خاصة ذلك العمل ، عادت إلى نقتى فى نفسى ووجدتني قادرة على المواجهة.. ليس فقط عيون الناس ، بل وأفكارهم أيضاً».



كأنى أريد أن أقول إنه من السهل على الناقد المهاجم أن يأخذ من مثل هذه الملاحظات السريعة مبرراً للقول بأنها تدور فى محاور محدودة ، وأنها لا تلتفت إلى ما وراء الحياة من حكمة ، ولا تتعمق بأكثر مما تعرضها عرضاً سريعاً يتواءم مع المساحة المحدودة المتاحة لها فى كل مقال .. ولكنى أعتقد أن مثل هذا الشعور هو أبعد الأحكام صواباً عن حقيقة كتابات إقبال بركة التي يموج فكرها بفلسفة لا تأس من أن تلاحظ وتسجل الاستقطاب حتى على سطح التجربة من خلال ما تدرکه من آيات الحركة فى الحياة من حولها فى كل آن.

ومشكلة المرأة عند إقبال بركة مرتبطة تمام الارتباط بحركتها فى الحياة .. وهذه الحركة بالطبع تقودها إلى وسائل المواصلات ، وقد كتبت إقبال بركة مقالاتها حين كانت مشكلة المواصلات فى القاهرة تمثل ما كان يمثلها مثلاً مرض السل فى عهد الأدباء الروس الشوامخ .. وقد نعجب إذا سمعنا طبيباً يقول إن مرض "المواصلات" قد يفوق فى تأثيره العميق على الشعور الإنسانى تأثير الوباء الذى يجتاح البشرية أو المرض المتوطن الذى يطول به الأمد فى بيئة ما..... وعلى هذا النحو لا بد لنا أن نفهم طبيعة المادة التى نسجت منها إقبال بركة وقائع النسيج الاجتماعى الذى أرادت التعبير عنه فى كتابها ومقالاتها من قبل .

(٢)

وقد كنت أود أن أعرض للقارئ بعض فصول هذا الكتاب ولكنى تراجعته عن هذا لأننى أعتقد أنه لن يترك هذا الكتاب من دون أن ينتهى منه فى يومه أو غده ، ولكنى أحب مع هذا أن أتناول المحاور الرئيسية التى تناولتها إقبال بركة فى كتابها وأن أنقل عنها بعض لقطات من حديثها المفعم بالمشاعر عن كثير من القضايا وأحب أن أوزع فصول كتابها جميعاً على ثمانية محاور:

المحور الأول: المرأة والغواية؛ يستغرق هذا المحور ثمانية مقالات (فصول) من الكتاب ، ويدور حول فكرة الغواية المحببة إلى النفس التى تجد مبرراً واضحاً لها من استلطاف الشريك أو الزميل أو الميل إليه .. أو العودة إلى أحلام فترات سابقة وعلاقات سابقة ، كما تضم أيضاً الحديث عن الفرص التى تأتى عن طريق أزواج الصديقات .. ونجد الكاتبة فى غالب الأمر تنتصر للفضيلة ، وتبرر انتصارها بأسباب أخرى غير الفضيلة نفسها ، وإن كانت الفضيلة تطل علينا بوضوح من أعماق كتابتها كقيمة مطلقة علينا لا تسمح لها الكاتبة بالضياع أو بالتفريط أو بالدنس أبداً .

المحور الثانى: الأمومة فى حياة المرأة العاملة؛ لا يبدو فى حديث إقبال بركة عن الأمومة اختلاف بين أمومة المرأة العاملة وغير العاملة إلا فى عنصر واحد هو عنصر الانشغال الوقتى أو الارهاق البدنى من العمل ، ولكنها مع ذلك لا تنمى الحديث فى هذه النقطة عن عمد ، وإنما تتناول فى حديثها أحاديث «الأم» بصفة مطلقة وهى حريصة على أن تظهر فيها عاطفة الأمومة الرشيدة بحيث تتبدى هذه العاطفة واضحة كل الوضوح .. هل تريد السيدة إقبال

بركة أن تربط بين رشد الأمومة وبين العمل ... ربما .. ولكن كتابتها على كل حال لا تعتمد إلى إبراز هذه الفكرة بالقدر الكافي وإن أرادت ذلك بالطبع ، لعلنى أقصد أن أقول إن بوسعها أن تتعمق مثل هذا المعنى فيما سيلي من كتاباتها .

المحور الثالث: فى فلسفة العلاقة بين الرجل والمرأة، وهى تعبر عن رؤيتها لهذه العلاقة فتقول:

«إن الرجل يبحث عن المرأة الكاملة .. فى هذا العالم الناقص .. هل يحلم الرجل بالمستحيل .. أم أشعر أنا باليأس الشديد».

وتبدو إقبال بركة حريصة على أن تعرض حيرتها بأكثر من حرصها على إبداء آراء قاطعة ، وقد أصابت التوفيق باتخاذها هذا المنهج خصوصاً فى مثل هذه القضية.

المحور الرابع: المشكلات الاجتماعية العامة؛ ونحن نلاحظ المؤلفة فى هذا الكتاب مقلدة فى حديثها عن مثل هذا النوع من المشكلات ، وذلك بحكم انصرافها المقصود إلى التجارب الذاتية ولكنها فى مقالها «أفراحنا والعوالم» تلفت نظرنا إلى خطورة انتشار وتنامى بعض الاتجاهات المظهرية والاستهلاكية حتى بين من يفترض أنهم من أصحاب الفكر المتحرر حين تعبر عن خيبة أملها حين حضرت حفل زفاف إحدى قريباتها المتميزات من معيد بالجامعة على قدر كبير من التحرر الفكرى وتقول الكاتبة:

«كنت أتصور أن زواج مثل هذين الشخصين لا بد أن يحتفل به بطريقة عصرية واعية تتفق مع عقلتيهما وأفكارهما المتحررة .. لكننى فوجئت بنفس المشاهد التى تتكرر فى كل أفراحنا .. الأضواء المبهرة التى تزغزل العيون ، والميكروفونات العالية ، الاستعراض بالأزياء والحلى والفراء الغالى والبوفية العامر...».

المحور الخامس: تجارب ذاتية من الحياة اليومية؛ وفى هذا الصدد يمكننا أن نحصى أكبر عدد من الفصول التى تندرج تحت عنوان محور من المحاور التى قسمنا إليها كتاب السيدة إقبال بركة .

المحور السادس: المرأة العاملة ووظيفتها؛ وهو محور مهم من محاور حديث إقبال بركة، بل إنها اختصته دون غيره من المحاور بعنوان الكتاب ، وفى مقالها «والشمس لا تشرق إلا فى السماء» تتحدث إقبال بركة بحماس عن قيمة اعتزازها بنفسها فتقول: «الحق أنى اكتشفت حقيقة عميت عنها كل السنوات الماضية .. إن الإنسان إذا ألغى نفسه فلسوف ينتهى الأمر بأن يلغيه الآخرون أيضا ، أما إذا وقف على قدميه وقاوم وأثبت وجوده المنتج الفعال ، فإنه لاشك سيجنى ثمرة كده تعزيراً وإعجاباً بلا حدود».

أما كيف ترى السيدة إقبال بركة الانتصار على مشكلات الحياة التي تواجه الأنثى فإنها تحدثنا عن مشكلة اختيار الزوج في «الأسلاك الشائكة» حديثاً يتسم بالحكمة وإن لم يفقد الحماس ، كما تتناول مشكلة تقدم السن بالمرأة في مقالها «عمرى .. مشكلة» وتجاهر في نهايته بقولها:

«أما امرأة الأربعينيات فهي بحر يزخر بالحنان والعطاء ..» .

وعن اضطهاد الرجل للأنثى تخصص إقبال بركة عدداً من المقالات التي تحكى تجارب المرأة في الوظيفة .

المحور السابع: العلاقة الزوجية: تخصص إقبال بركة لهذا المحور عدداً من المقالات. وتعلق في أحد المقالات قائلة :

«ضحكت بشدة على سذاجة بعض الرجال الذين يتفاحرون بتعاون زوجاتهم في نفقات المعيشة .. ثم يسخرون من الرجل الذى يتعاون مع زوجته في مسئوليات البيت .. عجبى» .

المحور الثامن: العلاقات النسائية: في الفصل الذى عنوانه «نحن وشاطئ الحياة» نجد السيدة إقبال بركة تصرح لنا بما نسمع الهمس به عن ندرة الصداقات الحميمية بين النساء في مقالها ثم تقول:

«... الآن أعرف لماذا تنتهى صداقات النساء بسرعة ولماذا تعيش كل منا فى جزيرة معزولة لا تلمح شاطئ الحياة ولا يعينها الوصول إليه» .

(٣)

وبعد ... فهذا كتاب يتحدث عن تجربة واحدة من سيداتنا المثقفات والعاملات من أجل المرأة خلطت أو مزجت أو زاوجت فيه بين تجربتها الشخصية والإنسانية على خير ما يكون التوفيق حين يكون ، أبرز ما فيه هو الرضا النفسى العميق حتى فى حالات الثورة من أجل القيم ، والقيم الجديدة التى تريد أن تنتصر لها ، ونحن نجدها على الدوام سعيدة بما اعتقدت ، وبما اختارت ، وبما فعلت ... وهذا موطن من مواطن التقدير . ويكفيننا للتدليل على مشاعرها وعقيدتها أن نقرأ ما كتبه فى المقدمة :

«لقد كرم الله الإنسان بالعقل .. وحباه من الصفات والمواهب والقدرات ما يجعله أرقى كثيراً جداً من بقية الكائنات الحية ، وبداخل كل منا - كما أثبت العلم - رجل وامرأة .. أى هرمونات ذكورة وهرمونات أنوثة .. الفرق فقط فى أن البعض تغلب عليهم هذه الهرمونات أو تلك ، والحفاظ على النوع واحدة من الغرائز الأساسية التى تحرك وجدان البشر وتهيمن على حياتهم ، ولكن الفرق بين الجنس البشرى والأجناس الحيوانية الأخرى يكمن فى تلك الجوهرية الغالية التى تحرك غرائزه وتسيطر على مسيرتها: العقل».

«الغريب أن أجيالاً لا حصر لها ظلت تتجاهل هذه الحقيقة وتنظر إلى المرأة من ذلك المنظور الضيق فقط .. أنوثتها ، والأغرب ، أن المرأة نفسها لم تقاوم تلك النظرة .. بل أكاد أقول شجعته وحرصت كل الحرص على أن تغذيها لدى الرجل».

«الخطأ إذن ليس من جانب واحد.. والتوجه لابد أن يكون للطرفين معاً.. للمرأة التى لا تقدر ذاتها ولا تعى إمكانياتها ، وبالتالي لا تعترف بالمسئوليات الملقاة على عاتقها ، وللرجل ، الذى ينظر إلى الحياة بعين واحدة ، هى عين الذكر ، فلا يرى فى المرأة سوى جانب الأنثى».



والواقع أن الأستاذة إقبال بركة كتبت هذا الكتاب بثقة شديدة وبقدرة أشد على إبراز هذه الثقة فى كل فقرة من فقرات الكتاب ، كما أننا لحسن الحظ لا نراها نادمة فى هذا الكتاب كله - إلا مرة واحدة - تصورها فى الندم على التخلي عن حب زميل واعد أهملت حبه فى أول حياتها:

« ها هو زميل الأمس يصبح رجلاً ناجحاً مرموقاً ، وقفت بجانبه امرأة أخرى أكثر منى شجاعة أو لعلها هى الأخرى تركت من أجله رجلاً آخر مازال فى بداية الطريق .. ترى هل كانت حياتى ستتغير لو كنت وقفت بجانب زميلى وناضلنا معاً ؟ .. لا أعرف .. ولكننى أعرف الآن كم نسيئاً إلى أنفسنا عندما نند عواطفنا تحت ركام المادة الزائلة ».

هكذا تروى صاحبة المذكرات وهى فى ندمها كما نرى تعبر عن أول ما ينبغى للمرأة أن تتحلى به : الشجاعة ، فإن لم يكن فالشجاعة الأدبية .

(٤)

ومع هذا كله فإن الأستاذة إقبال بركة تؤمن بربة البيت إلى الحد الذى تشخص فيه مشكلات المجتمع المصرى بأنه يحتاج إلى ربة بيت ، ولهذا فإنها تقترح تعيين سيدة فى منصب محافظ القاهرة:

«الشارع المصرى» يبدو لى كبيت غابت عنه ربة الدار! ، الفوضى والضجيج والأناية سادت فى كل مكان ، وخلا لها الجو فمضت تعبت بكل شىء .. وتبعثر راحة الناس وأمنهم .. وأصبحت الحالة معدية ، فالجميع يسيرون فى تيار اللامبالاة كأن قوى شريرة عاتية تجرفهم وتشل إرادتهم .. الأسوأ من هذا أننا منساقون إلى التعود على تلك الحال الفظيعة التى وصلت إليها شوارع القاهرة .. فلا أحد يتحرك أو يفعل شيئاً ، الجميع ينتظرون الحكومة كى تأتى وتكنس لهم أمام عماراتهم ومحلاتهم .. والحكومة هى التى يجب أن تراقب أصحاب الضمائر الميته .. فإذا غابت عنها الساهرة مضى أصحاب السيارات يدقون بإلحاح على أبواب سياراتهم ، ويركنونها فوق الأرصفة ، ويسدون بها الطرق الضيقة والشوارع الواسعة ، ويتخطون الإشارات الحمراء ، ويتسابقون فى الطرق المزدحمة مهددين حياة الآخرين».

«ذلك هو المشهد اليومى الذى أجدنى مضطرة لمعايشته كل يوم . فأنا امرأة عاملة . وتعاملى مع الشارع المصرى يومى ومتكرر . لقد أصبح له تأثيره القوى على أعصابى وصحتى . أصبحت له بصماته على شخصيتى ذاتها .. وعلى علاقتى بالآخرين . وعلى الرغم من أنى أفضى نصف يومى تقريباً فى الشوارع ، إلا أنى لم أعود بعد على حالتها السيئة .. إن أول مشهد تلتقطه عينى فى الصباح الباكر هو منظر أكوام الزباله التى سكنت جوانب الأرصفة . . وعندما آخذ نفساً عميقاً تصطدم أنفى برائحها العطنة .. وأحاول بصعوبة أن أشق طريقي وسط السيارات التى أصبحت تحتل الأرصفة وجانباً كبيراً من الطريق بعد أن ضاق بها الجراج الوحيد فى الشارع . وكثيراً ما انحسر كعب حدائى فى حفر الرصف ، وتلتوى قدمى ، أو أسقط على وجهى .. فلم يعد هناك رصيف واحد يصلح للسير فوقه».

«إن «الشارع المصرى» ينقصه «ربة بيت» شاطرة .. فلماذا لا نجرب ولو مرة واحدة أن يعطى منصب محافظ القاهرة لامرأة!!».

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحريّة

9

**بعض أوراقى
للسيدة سلوى العنانى**

دار الخيال

(١)

«بعض أوراقى» كتاب أدبى مع أنه قد لا يندرج تحت أية طائفة من الكتب التى تصنف تحت نطاق القصص أو المسرحيات أو الروايات .. إلخ) وهو مع هذا كتاب أدبى لأنه استكمل معظم مقومات العمل الأدبى ، ففيه من العاطفة صدقها ، ومن البيان جودته ومن المعانى توليدها ، ومن الأفكار استحدثاتها ، وقيل كل هذا فيه من روح الأدب ما هو كفى له بأن يكون من أحسن كتب الأدب موضوعاً وتقديماً .

ثم إن هذا الكتاب ينبض بحرارة أخرى ، قد تكون حرارة الأدب وقد تكون من باب أولى حرارة المرض ، ولكنها فى الغالب حرارة الصبر ، الصبر حين يكون صاحبه مقاسياً للآلام ولا يجد أمامه خيراً من الصبر ولا أولى باللجوء إلى كنفه منه ، وهو مع هذا يعانى من الصبر ، مع أنه قد لا ينتهى به إلى الغاية فهو لا يحقق هذه الغاية على نحو ما يحدث فى حالات السفر حين يبنى المرء نفسه مثلاً بأنه سيصل إلى غايته ، فهو لهذا يتحمل مشقة وسيلة المواصلات حتى تنتهى المشكلة بوصوله إلى غايته ، وفى بعض الأمراض تغيب الغاية عن المريض وعن الطبيب أيضاً ، فيصبح الصبر طريقاً قد ينتهى بالأمل وقد لا ينتهى به .. وهو وضع يخلق فى الحالة النفسية أمزجة وانفعالات قد يصعب فهمها ، وقد يصعب التعبير عنها ، ولكن هذا الكتاب يحاول أن يعبر عنها فيفلح فى التعبير ، ويجيد الصياغة ، وينجح فى الوصول بالقارئ إلى حالة من التفاعل مع ما قرأ .. ولهذا يمكن لهذا الكتاب أن يرتفع بقامته بين الكتب الأدبية ؛ بفضل ما استطاع أن يحققه .

أما مؤلفة هذا الكتاب الأستاذة سلوى العناني فهي طراز واضح للنموذج الأقل وجوداً بين الأجيال المصرية الجديدة التي تقبلت ما فرض عليها من أن تمضى فى قناة أنبوية ضيقة تتحكم فيها طريقة الصدفة المنظمة التى لم يكن أمام الحكومة مهما كانت قدرتها ومهما كانت رغبتها فى العدل أن تختار عنها بديلاً لصياغة مستقبل وحياء ومعيشة آلاف مؤلفة دفعت بهم ذات الحكومة إلى التعليم العام فالعالمى فالوظائف العامة (دون أن تخطو التنمية خطوات موازية قادرة على استيعاب كل هؤلاء فيما ينمى التنمية نفسها).

تنتمى الأستاذة سلوى العناني إلى هذا الجيل حقيقة ولكنها لم تخضع أبداً للفلسفة النمطية التى لاقت قبول الجيل الذى انتمت إليه بحكم مولدها ونشأتها ولكنها كانت من أولئك (المتمردين البناءين) إن جاز أن يكون بين البشر من يحمل هذا اللقب ، فإن جاز ذلك فسلوى العناني من أبرز هؤلاء على المستوى الشخصى ومن أبرز هؤلاء فى تاريخنا المعاصر ، وأمثال السيدة سلوى العناني ليسوا هم وقود الثورات ولا حاملو شعلتها وإنما هم الأمثلة الفردية على الصدق مع النفس ، الصدق معها فى حالة الطموح حين يكون عليهم أن يستجيبوا لطموحهم مهما يكن شأنه ، والصدق معها فى حالة الوصول إلى الرغبة فى التغيير لأنه لم يعد فى وسعهم أن يمارسوا ذات العمل الذى هم فيه ، والصدق معها بعد ذلك حين يخلو الواحد منهم (أو الواحدة) إلى القلم أو الورق فيكتب رسائله الإخوانية أو الذاتية .

كان لهذه السيدة سبق إلى العمل كمضيفة فى الطيران ، ثم فى وكالة أنباء الشرق الأوسط (فى الصحافة الهادئة) ثم فى الأهرام بدءاً بمكتب المغفور له الأستاذ توفيق الحكيم . وهى فى كل هذا تعانى من ظروف لا تشجع على التنقل حتى وإن دفعت إليه ثم يتليها الله بالمرض فإذا هى وقد أصبح عليها أن توجه طموحها بحيث يتوازى مع قدرات البدن الذى أرهقه المرض ، وإذا هى مع ذلك لا تنسى أن لها قلماً ، وأن فى وسع هذا القلم أن يعبر عن التجارب التى تواجه صاحبه أكثر الوقت .. ولهذا كله تتضح لنا أقدار متفاوتة من شجاعة سلوى العناني وقدراتها وأفكارها البناءة ، وتفكيرها غير التقليدى .



كل هذا قد يهون عند أهل الأدب الذين يُعنون بالنص نفسه بل وعند أولئك الذين لا يعنون بحياة الكاتب إلا بالقدر الذى يساعد على فهم هذا النص .. ولكنه قد لا يهون عند النقاد الذين يوجهون أقداراً [مهما تكن متفاوتة] إلى ضرورة أن يعبر الأدب عن كل الجزئيات الصغيرة التى قد تشغل حياة بعض البشر [مهما صغرت نسبة هذا الجزء] بحيث

يتواجد في الوعي القومي قدر واضح عن جوانب كثيرة من الأمور التي تصوغ حياة الناس ، قدر يصبح معه من السهولة على أولئك الذين يتمتعون بسعة الأفق [الذي يتقبل دائماً] الامتداد بهذه السعة .

وليس هذا بمقلل من شأن كتاب يحكى تجربة شخصية لا بد أن نحترمها وأن نحترم قدرة صاحبها على التعبير عنها ، وقبل هذا قرارها بالتعبير عنها ، فالإرادة هنا هي مفتاح مثل هذا العمل الأدبي ، ذلك أن هذه الإرادة تمثل الخط الفاصل بين بقاء التجربة في محيط الحكى المتصلة ، أو المتقطعة ، أو المتكررة ، وبين تحولها إلى المعانى السامية التي تتبلور في كتابة واضحة ، قد يعترها بعض الغموض ، وقد ينقصها بعض الوضوح ، ولكن شفافية روح هذه الكتابة لا تمثل فى جوهر الروح فحسب ، ولكنها تتضح أيضاً فى واجهتها كذلك على خير ما تكون الشفافية والصفاء ، وحين تصف سلوى العنانى موقفاً فهى لا تنجو من التألم وهى تصف ما صادفت أو ما عانت ، ولكنها - وهذا هو الأهم - تضيف عنصر الصدق إلى التجربة الانفعالية ، صدق التعبير وصدق التجربة.

(٢)

ثم إنه ينبغي لنا - بعد كل هذا التقديم - أن نسأل أنفسنا سؤالاً آخر : هل لو كان لسلوى العنانى أن تؤجل كتابة هذا الكتاب خمس سنوات مثلاً أو تقدمه خمس سنوات هل كانت لغة العاطفة تتغير فى هذا الكتاب ؟ هذا هو السؤال الذى قد نجد له إجابة وقد لا نجد ، وفى الحالين فإننا سنكون قادرين بما قد نجد وبما قد لا نجد من إجابة على دراسة أثر الزمن فى الألم على نحو ما يترأى من تجربة صاحب الألم حين يتحدد موقعها من زمن الألم نفسه .

ولست أشك فى أن النقاد ودارسى الأدب قد درسوا مثل هذه الإشكالية من قبل دراسات ذات جدوى ، وذات قيمة ، ولكنى أعترف بحكم مهنتى وعملى كطبيب أنى أجد الشعور تجاه هذا الموقف يتجدد مع كل مريض ، بل ومع كل قريب لكل مريض ، ونحن نجد درجات التعبير عن التألم لصاحب المرض وهى تتفاوت عند الناس تفاوتاً ملحوظاً ، كما نرى فى كل حين مشاعر الحب واللهفة والجزع وهى تنتاب الأهل بدرجات قد تكون أكثر تعبيراً وأكثر صياحاً من ألم صاحب المرض نفسه .. ولكننا مع هذا نظل نعانى من ندرة تعبير المريض عن مرضه حين يزمن المرض معه ويستمر ويتأبد .

ولا تقتصر مخاطبة السيدة سلوى العنانى فى كتابها على قرائنها وإنما هى تتحدث كثيراً إلى نفسها وتتحدث كثيراً أيضاً إلى أطيافها ، ويتراوح هذا الحديث بين طيف واسع من الأمانى والمعانى المهمة ، وتعطى الأستاذة سلوى العنانى درساً للأطباء جميعاً يلخص تجربتها مع عدد كبير منهم حين تقول :

«معظم الأطباء يفشل فى أن يقدم للمريض ما يحتاجه فعلاً ، معظمهم يفشل فى أن يصبح صديقاً لمرضاه ، يفشل فى أن يغزل خيوط الحب بينه وبين هؤلاء المرضى التمساء .. فى استقبال مرضاه بابتسامة وفى توديعه بأخرى .. تحت ضغط العمل ينسى الطبيب أنه يتعامل مع إنسان ضعيف سعى إليه طلباً للراحة والأمان .. وكل أمله بعد هذه الزيارة ألا يقول (آه)».

و هذه العبارات نقرأها لمریضة تحتفظ بعدد كبير من الصداقات مع الأطباء .. وهى قد جربت المرور على عدد أكبر من هؤلاء الأطباء ، لأن من استبقت علاقتها بهم كانوا بعض من مرت بهم لا كل هؤلاء .. وهؤلاء الكثرة الذين تحتفظ بصداقتهم ليسوا إلا الاستثناء من المعظم الذى كررت الإشارة إليه فى كل جملة من جملها حتى وإن اختصرنا نحن فى النقل عنها.

هذه الالتفاتة التى عبرت عنها صاحبة هذه المذكرات تمثل لمحة إنسانية ينبغى أن نشيد بقدرة صاحبها على الالتفات إليها وهى تدبر قلمها بالحديث عن تجربة إنسانية كهذه ، فبمثل هذا التدفق الشعورى الصادق الجميل يكون للأدب محله الذى لا ينبغى أن يفرض فيه فى الرقى بأخلاق المهن والثقافات .. ولكن هل حقاً يقرأ معظم (أو بعض) الأطباء فى بلادنا مثل هذه الكتب التى تسجل عليهم مثل هذا الانتقاد الصريح ، أو تهدى إليهم هذا التوجيه الواضح ؟ وهل لو قرأوا يستجيبون ، قد يظن القارئ أنى سأقول لا أظن ، ولكنى فى الحقيقة أظن بل أعتقد.

(٣)

وفى موضع آخر من الكتاب تخصص الأستاذة سلوى العنانى فقرات مهمة للحديث عن قطرات الدم التى تنتقل إلى الإنسان فى عمليات نقل الدم وتتأمل بشئ من الاسترجاعات : لمن كان هذا الدم يوماً «هل هو قلب رجل قوى احترف بيع دمه وتعود أن

يعطى فيأخذ ، وصار الدم عنده سلعة ؟» هكذا تمضى سلوى العنانى فى تصوير واقعنا الطبى المعاصر فى شىء من الحكمة التى تملئها الملاحظات ، وفى شىء من الشفافية التى تشيع فيها روح من التفاؤل والمرح ، وعلى هذا النمط نقرأ لسلوى العنانى تعجبها أيضاً من أن تكون بعض أقراص الدواء على شكل مسدس الأضلاع (ص ٢٨) فتقول:

«وإن كنت لا أدري لهذا الشكل هدفاً أو معنى» .

وحين تغلب الظروف القاسية على سلوى العنانى ، وتنتصر عليها بعض لحظات الضعف فإنها سرعان ما تعود إلى ربها لتجأ بالدعاء تسأله الغفران من اليأس وتقول:

« رب ... سامحنى إذا تسلل بعض اليأس إلى قلبى وأنا بشر وأنت الذى جبلتنا على الضعف وليس لنا من قوة إلا بك ... سامحنى يارب ولا تضعف إيمانى بقدرتك . إلهى .. اجعل لى من ظلمة الليل نوراً يغمرنى ، ومن قوة الألم فى جسدى حناناً منك يملأ قلبى واجعل لتراتيلى فى حبك صوتاً يعلو على صوت الآهات »... إلخ هذه الأدعية الجميلة التى تجمع فى موسيقاها الداخلية الإحساس بالإيمان وجدواه ، وفى موسيقاها الخارجية تلك المقابلات التى تتعهد كل الظواهر الطبيعية بالملاحظة .



وهكذا تمضى مع صفحات هذا الكتاب الممتع حتى نأتى إلى صفحة لا تخاطب فيها سلوى العنانى (المؤلفة) قراءها ، ولا ربها ، ولا نفسها وإنما توجه خطابها ، «إلى الطبيب العظيم ... أخصائى القلب الذى تظن أنك تعرفه جيداً» [الخطاب موجه للطبيب بما يملك من أجهزة وسماعات ... إلخ] وهى تلتفت لتسأل :

لكن هل تعرف إلى أين تتجه هذه النبضات .. ولمن ؟ هل تعرف متى تتراقص هذه النبضات ... وماذا يعربد داخل صدرى ؟ تقول دائماً يا سيدى إن قلوبنا تنقسم إلى قسمين رأسيين وآخرين أفقيين لكنى لا أشعر بهذا ولا أجده ، إنما أشعر أن فى القلب مطارح كثيرة وأن به قاعات واسعة ، وكهوفاً ضيقة ، وفى قلوبنا يا سيدى بساتين مشمرة ، وصحار مقفرة .. على جدران قلوبنا يا سيدى صور ولوحات ، بعضها من دفتر الذكريات وبعضها من بصمات الأيام ، وأغلبها من مخلفات الليالى .. فى هذا البهو الفسيح ركضت طفولتى وعبت أصابعها البريئة بكل ما قابلها تكتشف العالم ، وتتعرف على أسرار الحياة .. فوق هذا الدرج العالى حاول الغصن الصغير أن يحبو صاعداً تاركاً خلفه آثار دماء ، وزهور

ذابلة ، وأوراق ممزقة بللتها الدموع . فى ظل هذا الأيك آثار حبيبين ، ورسم منمنم ،
وكلمات قليلة ، هى كل ما ظل باقياً من قصيدة طويلة كان لحنها هو دقات قلبيهما معاً .
وهناك آثار طعنات هى من فعل سيوف وخناجر الأيام .»



وهكذا تؤكد لنا الأستاذة سلوى العنانى مرة أخرى وطالما أكدت فى هذا الكتاب المعنى
القوى الواضح الذى بذلت من نفسها كل ما بذلت لتعلنه بكل الوضوح والقوة ، وهو
معنى واضح جلى قد لا يقف عند حدود الإيمان القوى الذى يضمه القلب ولا عند حدود
الأمل الواسع فى رحمة الخالق التى يربوها هذا القلب وإنما يتسع ليشمل كل المعانى التى
نسميها «الروحانيات» .

أليست هذه هى المعانى التى يمكننا أن نفهمها من حديث السيدة سلوى العنانى عن
طبيها الراحل وهى تخاطبه فتقول :

«لم تكن فيلسوفاً بقدر ما كنت معلماً ولم تكن أستاذاً ، قدر ما كنت صديقاً ، كنت فى
حاجة إلى إنسان يحس آلامى لقد جعلتني أعيش فقط على الأمل» .

ولكن كلمات صاحبة التجربة نفسها تنتكس فجأة وهى تخاطب طبيها المغفور له
الدكتور نور الدين بهجت فتقول :

«زرعت الأمل فى قلوب المئات .. ومات الأمل فى قلبك لأنك كنت تعلم حقيقة ما
بك ، ولم يستطع أحد أن يغطى الصورة أمامك» .

وهى فكرة تبدو صعبة الفهم بعد كل هذا الأمل ، فهل لا يكون أمل إلا إذا انتفى العلم
بأبعاد المشكلة الحقيقية ؟ سؤال يحتاج كثيراً من التحليل من المؤلفة بل ومن الأطباء .

ولست أبالغ إذا قلت أنه يحتاج كتاباً ثانياً تنجو فيه المؤلفة من مثل هذا الشعور ..
وبخاصة أنها هى التى حدثتنا قرب نهاية الكتاب فقالت :

« الصبر ... كلمة حروفها قليلة يعرفها كل الناس ولا يعرفها منهم إلا القليلون فهى
السهل الممتنع أو هى الممكن المستحيل ..؟» .

ما هو إذاً الفرق ، إنها قضية أخرى تستأهل من مؤلفتنا ، وهى السيدة الرقيقة المعنية
بالمشاعر الرقيقة ، أن تواصل هذا الجهد الممتاز فى امتاعنا بمثل هذه الصفحات من الأدب
الراقى ومن التعبير عن التجارب الإنسانية الحقيقية .

(٤)

ومن المهم ، بعد هذا كله ، أن نقرأ لصاحبة هذه الذكريات ما ترويه عن إحدى محاولات المتعددة للحصول على الشفاء .. وهي تروى قصتها مع الطبيب الفلبيني الذى شاع أمر علاجه للناس بدون جراحات فتقول:

«فى عام ١٩٧٣ سمعت قصة أغرب من الخيال .. كان بطلها هو الطبيب الذى يعالجنى ، وهو أستاذ مشهود له بالعلم والخلق والأمانة ، وكان يعانى فى أواخر أيامه من مرض عضال .. وزار كل أطباء العالم المتخصصين فى حالته وكان هو يعلم كطبيب أن حالته من الصعب شفاؤها إلا بمعجزة من الله وحده».

«وأشار عليه بعضهم أن يسافر إلى الفلبين وسافر بالفعل وسمعت حول هذه الرحلة عجباً .. لم يكن هو مصدر هذه الرواية لكنه أحد أصدقائه ، وملخص هذه القصة أنه زار أحد الممارسين لمهنة العلاج فى إحدى كنائس الفلبين حيث أجريت له ولزوجه عمليات جراحية بدون مشروط ولا ألم .. واستخرج هذا المعالج من بين أحشاء الطبيب المريض أوراماً وتليفات وأكد له بعدها أنه سيصبح سليماً معافى ، وأن هذا الرجل لا يتعاطى أجراً عن جراحاته هذه ، ولكن هناك صندوق للنذور فى الكنيسة ويمكن للشخص إذا أراد أن يضع فيه ما تجود به نفسه».

«وعاشت القصة فى ذاكرتى إلى أن أتيت لى أن أزور بعض الدول المجاورة للفلبين .. وعادت إلى القصة بتفاصيلها وقررت أن تكون (مانيفلا) ضمن العواصم التى أزورها فى رحلتى. أرسلت قبل وصولى تقريراً بحالتى .. وجاءنى الرد بأن العلاج ممكن .. وكأى مريض لا يسأل الله أكثر من العافية .. راحت أحلام الشفاء تزورنى .. ورحت أتذكر طبيبى رحمه الله الذى لجأ يوماً ما إلى هؤلاء طلباً للشفاء وهو أستاذ الطب الكبير الذى تخصص فى دراسة خفايا التكوين البشرى. فلماذا لا أجرب مثله وأرجو أن يكون لى حظ أحسن من حظه».

□

وتعترف السيدة سلوى العنانى أنها عاشت هذه التجربة بشعور مزدوج كصحفية وكمریضة ، وأن هذه المعاشة المزدوجة للتجربة جعلتها بالطبع تصل إلى ما لم تكن تصل إليه لو أنها كانت قد عاشت التجربة من جانب واحد فقط:

«وبمجرد وصولي إلى مطار مانيتا غلبت على طبيعة مهنتي كصحفية وبدأت أجمع المعلومات حول هذا الموضوع المثير ، وعرفت أنه ليس طبيياً واحداً .. بل إنهم مجموعة يمكن أن يكونوا أصحاب مهنة واحدة هي (إجراء جراحات بدون مشروط ولا ألم .. وهم متخصصون .. فبعضهم متخصص في علاج الأسنان والبعض متخصص في إجراء جراحات العظام ونسبة كبيرة منهم متخصصة في الأمراض الباطنية والصدر وجراحات المخ والأوعية ، بعض هؤلاء يقيم في منازلهم وفي عيادات قريبة من الكنائس ، وبعضهم يقيم في فنادق الدرجة الأولى حيث خصصت لهم جناحاً أو أكثر ، وهي لفئة سياحية بارعة حيث يسهل على المريض السائح زيارة طبيه خاصة إذا كان عاجزاً عن الحركة».

«في الصباح ذهبت في صحبة صديق فلبيني لزيارة هذا المعالج الذي وصفوه لي وكان يقيم في أحد الفنادق الكبرى المطلة على خليج الصين العظيم».

«في أحد الصالونات الكبيرة جلست أنتظر بين عشرات الأوروبيين و الأمريكيين الذين كان يبدو عليهم المرض فعلاً .. وأغلبهم يعتمد على عكاز أو كرسي متحرك ومعظمهم يصطحب معه مرافقاً يعينه على الحركة .. تركني الصديق الفلبيني وانتحى جانباً بأحد مساعدي الرجل المعالج وأخبره أنني صحفية وأنى أرغب في مشاهدة بعض العمليات قبل أن يقوم الطبيب بعلاجي . وأذن لي فدخلت غرفة العمليات».

«حجرة بسيطة ليس بها إلا بعض المقاعد وسرير طبي مرتفع نسبياً ، استقبلني الرجل الأسمر بابتسامة مريحة ورحب بي بانحناءة خفيفة ثم عاد إلى مريضه الذي يرقد أمامه فدقق النظر إليه وراح يتمم بصلاة قصيرة وتحسس موضعاً في جسده بكف يده الصغير .. وبعد تدليك خفيف غرس سبائه اليمنى في جسم المريض وبكفه اليسرى ضغط قليلاً فخرج دم متجلط وضعه في وعاء به بعض الماء كان أحد مساعديه يمسك به وأعاد الضغط وأخرج مزيداً من الدم المتجلط ثم سحب أصبعه ومسح الجرح برفق ثم انتقل إلى موضع آخر وجاء مساعد آخر بفوطة بيضاء مبللة فأزال آثار الدم .. وتأملت مكان الجرح أحاول أن أجد علامة أو دليلاً على ما رأيت فلم أجد..».

«وكرر الرجل العملية في موضع آخر من الصدر فأخرج منه ما يشبه «الشفت» أو الألياف وكرر الضغط ثم مسح على الجرح فأخفاه..!!».

«جراحة أخرى في رأس طفلة تعاني من الشلل الخلقى [أى: الذى يولد الطفل به] .. أزاح الرجل شعر رأس الفتاة ثم مسح على رأسها بيده قليلاً ولما انفرست سبائه اليمنى في

رأسها خرج جزء من المخ ما يماثل حجم الليمونة المتوسطة .. انتزعه الرجل وألقى به فى الوعاء».

«هنا أحسست بالدوار وكدت أسقط وأنا لا أدري هل أصدق ما أرى وهو خارج عن نطاق التفكير والمنطق العقلى ، أم أكذبه وليس فى يدي دليل على كذبه؟».

«راقبت كفى الرجل قبل أن يضعهما فى جسم المريض .. راقبت مساعده الذى يضع (الفوطة) المبتلة ليمسح بها الدم .. حاولت أن أكون ماكرة وذكية ولم أتوصل إلى شىء».

«وبعد أن شاهدت بنفسى أربع أو خمس عمليات ، دعانى الرجل لكى أرقد على السرير أمامه .. ارتجفت وكدت أصرخ من الخوف ، لكنه ابتسم لى فى هدوء وسألنى إلى أى الأديان أنتمى .. فقلت له .. أنا مسلمة».

«قال: إذن فأنت تؤمنين بالله .. اتركى أمرك له وهو الشافى وساعدنى حتى رقدت».

«كانت صور المسيح عليه السلام معلقة على الجدار أمامى .. ووقف هو إلى جوارى يصلى وسرت فى قلبى سكينه واستسلمت له وأنا أدعو الله أن يجعل شفائى على يده .. قرأت المعوذتين وجزءاً من سورة ياسين حتى يبتعد الخوف عنى».

«أحسست سبابته تنغرس فى أسفل عنقنى بين عظمتى الترقوة .. إنه يسحب شيئاً من داخلى ، وهذا الشىء يخرج ليضعه فى الوعاء الذى يحمله مساعده ثم هو يمسح برفق مكان الفتحة ويتركها ليكرر العملية فى الجهة اليمنى من صدرى .. فى هذه المرة رأيت بعينى ما أخرج الرجل . لقد كان شيئاً يشبه الشفت وهو يسحبه فيستجيب له بدون ألم فى صدرى وإن كنت أشعر وكأن ديداناً تتحرك بين أصابع الرجل».

«كنت بين يديه فى سكينه وهدوء مستسلمة لا أتحرك .. حملق طويلاً فى وجهى ودقق النظر إلى عيني ، وكلما فعل هذا كانت السكينه تزداد فى نفسى».

«أجرى لى ثماني جراحات فى مواضع مختلفة من جسمى ليس من بينها موضع واحد أشكو منه الألم .. ثم دعانى للنهوض فنهضت وسألته أن يعالج لى مفصلى الرسغ وهما مركز الألم فى جسمى كله ، فأمسك يدي بين يديه وراح يصلى وهو يتمتم ثم قال بالإنجليزية ركيكة:

«بعد حوالى شهر ستكونين على ما يرام .. وإذا شكوت شيئاً آخر تعالى إلى مرة أخرى .. أهلاً بك».

«أمام المرأة قمت أصلح من شأنى وأحاول أن أرى موضع الجراحة التى أجراها فلم أجد

أثرا ، وضعت مبلغاً مناسباً فى يد الرجل ومضيت ورأسى يدور .. كيف أصدقته ولماذا أكذبه .. كنت أتمنى أن يكون صادقاً لتنتهى رحلة متاعبى» .

«ولما عدت إلى القاهرة سألتنى عشرات بل مئات عن تجربتى المثيرة فى مانىلا .. وقرأت عشرات المقالات والتحقيقات التى كتبها زملائى نقلاً عن رواية بعض شهود العيان .. وقرأت ما هو أغرب ، فقد نظمت إحدى الشركات السياحية رحلات علاجية إلى مانىلا للباحثين عن الشفاء» .

«كان علىّ أن أصمت طويلاً وأن أقاوم كثيراً رغبتى فى الكتابة حتى لا أظلم نفسى ولا أظلم الرجل ، صممت أن أصبر حتى تمر الفترة التى حددها لى .. ثم منحته فترة سماح مماثلة للفترة التى حددها .. حاولت أن أوقف تعاطى الأدوية كما نصحنى هو فلم أستطع .. فبدون الدواء كانت معاناتى تزيد عن قدرة البشر على تحمل الألم ، ثم وجدت لزاماً علىّ أن أدلى بشهادتى فى هذه القضية التى تشغل الناس كثيراً ، فهذا الرجل الذكى الهادئ يستطيع أن يعطى للمريض إحساساً بالأمان حتى يسلمه نفسه وهو مطمئن .. ثم هو يعطيه إحساساً بأنه قد انتزع منه أسباب مرضه ومتاعبه وأنه قد أصبح صحيحاً معافى ، هذا الإحساس يحقق أحياناً نتائج علاجية كبيرة فى حالات الأمراض ذات الأسباب النفسية والعصبية ، أما الأمراض ذات الأسباب العضوية فهو بغير شك فاشل فى تحقيق أى نجاح فيها» .

(5)

على هذا النحو من التأمل المستمر والتفاعل مع ابتلاء الله لصاحبة المذكرات ، نرى السيدة سلوى العنانى وقد نجحت فى تسجيل مشاعرها وتأملاتها وخبراتها على نحو كفىل بأن يثير فىنا كثيراً من المشاعر والانفعالات الخفية التى تتفاعل معها فتتوافق أو نوافق أو نعمق من إحساسنا وإدراكنا لمثل هذه التجارب من دون أن نشتم فى تأويل ما أرادت صاحبة المذكرات الحديث عنه ، ولا بد أن نشير إلى أن الفضل فى نجاحها هذا يرجع فى المقام الأول إلى حرصها على التبسط والمباشرة فى رواية ما مر بها من دون أن تضيف عليه أفكاراً سابقة التجهيز ، أو أحكاماً جديدة بالوقوف أمام دقتها وإحكامها ، وليس أدل على هذا من أننا نرى السيدة سلوى العنانى وهى تلخص فلسفتها فى الحياة فى مقدمة كتابها فتقول :

«ليست هذه شكوى .. فأنا لم أشك في حياتي قط .. لم أشك حتى إلى الله .. كم ناجيته شاكرة .. وكم رفعت إليه رأسى بدموعى حامدة .. كم توسلت إليه أن يغفر لى ضعفى ولأننا جميعاً نعانى فقد نجد نفسك قارئى بين هذه الأوراق .. قد نجد أقرب الناس إليك وقد رسمت حروفى صورته .. فهذه التجربة هى أنا وأنت .. هى نحن منذ وجدنا وإلى يوم الدين».

«وفى أوراقى رسالة خاصة أكتبها لكل من يدعو الله أن يتوج أيامه بتاج العافية بعد أن سلبته معاناته هذا التاج .. رسالتى إليه تحمل كلمتين .. (لك الله) أوسدها أوراق زهرة بيضاء توشك أن تفتح .. وتتحمل كلماتى أمانة وضعها فوق صدره».

وهى قبل أن تسجل هذه العبارات تحرص أن تورد أبياتا مترجمة لشاعر تذكر أنها تجهل اسمه يقول فيها :

«من فاته أن يتذوق خبزه مع الألم .. ومن لم يقض ساعات سوداء يترقب باكياً طلوع النهار المتناقل .. هذا الإنسان لا يستطيع أن يدرك عظمة قوة السماء».

كما تورد فى هذا المقام أيضاً قول جوتة :

«لا تعجب إذا رأيتنى أرقص

ولا تندهش إذا رأيتنى أغنى

فإنى إنما أرقص وأغنى

لأمنع نفسى من البكاء»

(٦)

ونحن نستطيع من هذا المنطلق أن ندرك أن صاحبة هذه المذكرات كانت على الدوام حريصة على أن تعبر عن الإيجابيات التى تجدها فى واقعها ، وتجد هذا الواقع من أجل ذلك ، يستحق حمد الله عليه :

«وتصحو إرادتى فى أعماقى لتوقظ التحدى فيمنحنى الشجاعة على مواجهة واقعى الذى أدركت ساعتها أنه واقع يجب أن أحمد الله عليه كثيراً فمازالت لى هذه الرغبة فى الحياة .. ومازالت فى داخلى هذه الجذوة المتقدة من الإيمان أبدا .. وعشت أياماً أحسست

فيها أنى مثل أوزوريس الذى عادت إلى جسده الروح بعد أن مزقته قوى الشر وحكمت عليه بالفناء لكن إرادة الحب تغلبت فعاد أوزوريس مثلاً لانتصار الحق والخير والجمال».

«ومثل نائم طال نومه وتزاحمت عليه الأجلام المفزعة .. استيقظت أنفض عن نفسى تراب اليأس وأواصل مسيرة حياتى مثل بقية البشر .. ولكنى لم أعد مثلما كنت ..».

لقد عدت أقوى وأكثر طموحاً .. عاد قلبى أكبر وأكثر حياً .. عدت أحمل تجربة المعاناة والألم والضعف».

عادت الصورة وقد حددتها الخطوط السوداء فزاد نورها نورا».

«وعدت إلى حبي القديم».

عدت إلى قلمي تحتضنه أصابعى بقوة رغم وهنها .. عدت إلى صفحاتى البيضاء وقد جعلت من دموعى مداداً .. وكتبت صفحات فى دفتر أيامى ليس فيها إلا صدق وأمل وحب».

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحزبية

10

**ثريار شدى
ومحاولة لتسجيل
ومضات من حياة زوجها**

دار الخيال

(١)

أبدأ هذا الفصل بأن أشير إلى ملحوظة طريفة تكاسلت عمدا عن الحديث عنها في الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وربما يرى بعض القراء أنه كان من الأحرى أن أتكاسل عنها عن قصد في هذه الطبعة أيضا ، ولكنى وجدتنى لا أستطيع هذا التكاسل وأحيانا يكون التكاسل عملا إيجابيا ويكون عدمه سلبيا ، وإن صح هذا فلإنى ألتجأ إلى العمل السلبي فأشير إلى أن هذا الكتاب يتحدث عن مذكرات عشر من سيداتنا ، وبالطبع فإن في حياة كل من هؤلاء السيدات رجل أو أكثر ، ولكن المفارقة أن اثنتين من أصحاب المذكرات العشر التى تناولها تديران مذكراتهما حول شخص واحد كان بمثابة الزوج الأول والوحيد لإحدهما (السيدة ثريا رشدى) والزوج الثانى للشانية (الدكتورة لطيفة الزيات).

ونحن نكاد نرى صورة هذا الرجل على نحو ناصع ومشرق فى مذكرات السيدة ثريا رشدى ، لكننا فى المقابل نراه محل شكوى من صاحبة المذكرات الأخرى الدكتورة لطيفة الزيات ، وسوف تتضح لنا من قرائتنا للباين أن الرجل هو الرجل لكن طابع السيدتين انعكس بشدة على تصويرهما للرجل نفسه فى صورتين تكادان تكونان متناقضتين.

هذه قصة سيدة أحبت زوجها أقصى ما يكون الحب ، وبذلت كل ما فى وسعها من أجل الحفاظ على هذا الحب ، فى الحياة وبعد ممات الحبيب ، وهى سعيدة بكل هذا الذى هى فيه ، والذى كانت فيه ، والذى تتمنى أن تبقى فيه . مرض زوجها وحبيبها فأخفت عنه مرضه حتى مات ، ثم هى تحدثنا عن هذا المرض ، ثم تثوب إلى نفسها فتقول:

«وأخفيت عن الجميع أن زوجى مريض ، وكان دورى الأهم الذى يجب أن أقوم به هو الاتصال بالأطباء المعالجين لتحديد ميعاد ، وأن أرجوهم (وكانوا جميعاً متفهمين لموقفه وعلى أرقى مستوى من الإنسانية) .. إذا اكتشف أن قلب زوجى مريض أن لا يخبره وأن يحرر له روثته بها بعض الفيتامينات ، على أن تحرر الروثته العلاجية وأتسلمها أنا بطريقتى ويخبرنى أنا شخصياً بنوع المرض وطريقة العلاج».

«حتى طبيب التحاليل كان يكتب تقريرين ، تقرير يعرض على الطبيب المعالج وتقرير آخر يعرض على زوجى ، وهكذا عاش رشاد رشدى ثلاث عشرة سنة منذ مرضه ما بين الأشعات والتحاليل والأطباء الذين يعاودونه على الأقل مرتين فى الأسبوع إلى أن رحل إلى جوار ربه وهو لا يعلم أن هذا القلب الكبير الذى امتلأ بحب جميع البشر والمخلوقات أنه كان قلباً ضعيفاً مذبوحاً».

«هل ذبحته أحزان من رحلوا عنا .. هل ذبحه الأصدقاء أم خيانة الأحياء؟»

«فلتغفر لى يا زوجى الحبيب أنى لأول مرة أبوح بحقيقة مرضك الذى لم يعلمه أثناء حياتك مخلوق على وجه الأرض سوى الله والأطباء المعالجين وأنا .. فلم أكن لأغفر لنفسى أن يكون هذا النبع الفياض .. المبدع المعلم .. الأستاذ .. العملاق ؛ موضع شفقة من أى إنسان حتى من نفسه على نفسه».



هكذا تتضح لنا طبيعة الحدود التى يدور فيها حديث طويل يستغرق الصفحات الطوال من كتاب «رشاد رشدى» الذى صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بأقلام عدد من تلاميذ الراحل ومعهم زوجته السيدة ثريا رشدى صاحبة الكلمات السابقة.

فى هذه الصفحات يجد القارئ العربى نفسه أمام تجربة جديدة حين يجد الزوجة تتحدث عن زوجها ، وبهذا الأسلوب ، وبهذا العمق ، وتروى التاريخ الذى كان بينهما فى شىء غير قليل من الاعتزاز والفخر والشعور بالرضا .. وحديث اليوم ليس حديث اللوعة ولا اليأس ولكنه استعراض (للبطولات المشتركة والانتصارات المتتالية) التى أسهم الحب فى صنعها وتغذيتها ومدّها بأسباب البقاء والقوة.

هى صفحات لم يرتفع قلم صاحبها عنها إلا ليعود إليها ، حتى وإن أبطأ هذا القلم فى كتابتها لأنه لم يتعود الكتابة من قبل ، وحتى لو تعود فهى مشاعر وخلجات يصعب التعبير عنها بروح الصدق والرضا من المرة الأولى ، وحتى لو تغلب الإنسان على قدرته على الاحتفاظ بشىء ما لنفسه ، فهو مع ذلك عاجز أمام شىء من الخجل الذى هو فى النفس البشرية ، وفى الشخصية الشرقية على نحو أخص ، شىء من الخجل قد يكون هو الحياء ، وقد يكون ما هو أقل من ذلك ، وقد يكون ما هو أكثر ، ولكنه مع ذلك من العوامل التى ترجع لعجلة القيادة التى تحرك القدرة على التعبير ، خوفاً من أن تصطدم بقوى قد تقف أمام الصراحة ، أو أمام الوضوح ، أو أمام التعبير الصادق عن المشاعر الصادقة.

كل هذه العوامل بلاشك قد خالطت قلم السيدة ثريا رشدى وهى تكتب لنا هذه الصفحات التى تحكى فيها قصتها الخاصة جداً مع زوجها الدكتور رشاد رشدى ، وهو رجل أوتى حظاً عظيماً من المكانة الاجتماعية وفى الحياة الثقافية والفنية فى مصر المعاصرة ، ولكن ثريا رشدى تنجح فى أن تتغلب على هذه القوى الداخلية وفى أن تحيل حياتها الخاصة إلى جزء بارز فى نسيج الحياة العامة التى كان لزوجها فيها مكانة ، وتنجح فى أن تجعل هذه المكانة ذات قدرة على لعب دور واضح أياً ما كان هذا الدور ، بحيث يخرج القارئ بعد أن يقرأ ، وفى ذهنه بكل تأكيد فكرة - غير مبهمة - عن دور لهذا الحب فى صناعة شىء ما على أرض هذا البلد الذى يعيش القارئ فيه.

وتأبى السيدة ثريا رشدى إلا أن تسجل للناس احتفاظها بهذا السر :

«فقد كنت اعتبر قصة حبنا سر أسرارنا المقدسة كما علمتني أنت فلم يكن أحد [يعلم] ممن يحيطون بنا غير ما يراه بعينه .. لقد احتفظنا بها أنت وأنا كطفلنا الحبيب الذى لم نلده داخل أعماقنا وليس لأحد أن يطلع عليه سوانا نحن».

ومع هذا فإن السيدة ثريا رشدى تأبى بعد هذه المقدمة إلا أن تبدأ مع القارئ قصة حبها منذ البداية ، وتسارع بذلك شديداً إلى حديث القارئ عن فارق السن بينها وبين رشاد رشدى:

«... أكتب عن رشاد رشدى خاصة لمن قالوا لن يعمر هذا الزواج فكيف يعيش الخريف مع الربيع تحت سقف واحد ، نعم لقد كانوا محققين ، ولكن ما حدث أن الربيع قد احتوى الخريف وحوله إلى واحة غناء وفيرة العطاء ، لقد كنت أنت يا حبيبي الربيع الذى يلفنى فى موجة من الحب والحنان والبرقة والأمان والسكون ، السكون الهادئ الجميل».

وهى تبدأ كتابتها بأن تورد نص خطابه الأول لها حيث يقول ما نصه:

«... أنت حبيبتي التى لم أحب غيرها ، والفتاة .. فتاة صباى وأحلامى ، حتى ليخيل إلى أنى عرفتك طوال حياتى ، وأن كل النساء هى أنت ، وأنتى قد سرت معك فى شوارع القاهرة كلها بل وشوارع الدنيا بأجمعها».

«وعندما أرى عينيك تتفتح الدنيا كلها أمامى وكأنى لم أرها من قبل .. كم أنعم بحبك الذى لا نهاية له ، وكيف تكون له نهاية ، وقد كتب له أن يكون وأن نكون هكذا .. من وقت لا أعرف له تحديداً ، فهو خارج عن الوقت وعن الزمن .. وفى أى مكان ألقاك فيه سأكون لك وستكونين لى .. ولو كان هذا قبل أو بعد مئات السنين».

«يا حبيبتي وحببية العمر وما بعد العمر...».

وتواصل صاحبة هذه المذكرات لمحاتها الذكية فتستأنف إجاباتها عن الأسئلة المثارة فى وجدان القارئ عن هذا الزواج الذى قد يبدو غير متكافئ بالمره .. ولكن السيدة المحبة تفاجئ قراءها بقصة الحب على نحو ما تمت فعلاً:

«... وكان لقاؤنا هذا هو أول قطرة ماء يصبها فى شجرة عمرى الذابلة ، وتفتحت أول ورقة خضراء فى بداية أيامى السعيدة ، وكبر حبه لى كمارد جبار انشق عنه فجأة الغبار .. حدث هذا فى صيف سنة ١٩٦٢ حينما ذهب رشاد إلى ميناهاوس ليخلو إلى نفسه بعيداً عن كل الناس ليكتب مسرحيته الثالثة «رحلة خارج السور» ، وقد تعودت أن أذهب إليه

يوماً فى الساعة السادسة مساء ونظف سوياً إلى العاشرة أو الحادية عشرة مساء ، يقرألى ما فرغ منه من المسرحية وناقشه سوياً وتبحول وتتسامر فى حديقة الورد ، وكان رشاد يعشق حديقة صغيرة من الزهور سميت زهرتها باسم ثريا..».

قال لى: «إنى تعودت كل صباح أن أنزل إلى هذه الحديقة لأكتب مسرحيتى .. فكيف لا أكتب أجمل أعمالى وأنا محاط بزهرتى الجميلة ثريا .. وكان مقدرأ أن تنتهى كتابة المسرحية فى خلال شهر .. وذهبت له فى اليوم الثالث والعشرين.

قال: عندى لك مفاجأتان .. الأولى: انتهيت من كتابة المسرحية .. ورقصت دموع الفرحة فى عينى .. ها أنا ذا أستقبل أول مولود لحبيى يضعه بين يدى وركبنا العربة وطفنا بها نظوى شوارع القاهرة ، والكون يتسع ويتسع أمامنا حتى يستطيع أن يحتوى فرحتنا .. وتوقفنا فى حلوان وتركنا العربة ، وتشابكت أيدينا وأخذنا نجوب الشوارع الهادئة إلى أن استقرينا فى أحد الكازينوهات الصغيرة.

وقال: لم تسألنى عن المفاجأة الثانية؟

قلت: ألا تنتظر أن تهدأ دقائق قلبى من فرحتها بمفاجأتك الأولى حتى أستعد للثانية..؟

قال: فلتزوج.

قلت: لمَ؟

قال: أريد أن أحتويك ، أحتوى سنوات عمرك التى مضت وسنواته الآتية .. تكونى ملكاً لى وحدى.

قلت: ولكننا تزوجنا بالفعل .. لقد عقدت روحانا قرانهما برباط لن ينفصل إلى الأبد وهذا ما يهمنى.

قال: وهل سأقف مكتوف اليدين وأنا أراك ترفضين خطيباً وراء الآخر دون أن تستطيعى الإفصاح عن السبب الحقيقى ، لا ، ستكونين زوجتى أمام الله ولنعلن للعالم كله حبنا.

قلت: أمام الله نعم .. ولكن ماذا بهم الناس من حبنا نعلنه أو نخفيه.

قال: الزواج شرعيته الإشهار.

قلت: إشهار مَنْ يهتمهم أمرى .. عائلتى .. أبى .. أُمى .. وأخوتى .. أهلى .. نعم ولكن الناس لا .. لن يكون فارق السن بيننا هو الخنجر الذى يقتل به حبنا على مرأى منا ، سأحتوى حبنا هذا فى أحضانى وندخل به جنتنا ، آدم أنت وأنا حواؤك التى أوجدها الخالق من ضلعك ، وفى جنتنا هذه لن نعصى الله ولن نخالفه ، سنصلى له ونعبده ، حتى لا يطردها منها . لقد منَّ الله علينا بها لتعيش فيها ونعمرها بحبنا ، سأجعل أبناءك الذين سوف تضعهم بنات أفكارك يملأون الأرض ويعمرون تراث البشرية وحينما يشتد عود حبنا ويقوى سنعلنه للملأ ، حينئذ لن يقوى ولن يقدر إنسان على مواجهته .

قال: مهرك يا عروسة .

قلت: أغلى مهر .. مسرحية كل عام .. إنه ليس كأى مهر .

قال: وأنت لست كأى عروس .

وتزوجنا» .

(٤)

هكذا استطاعت السيدة ثريا رشدى أن تخرج بالقارئ سريعاً من جوهر العلاقة وشكلها وصياغتها الصيغة التى انتهت إليها .. إلى الحديث عن ثمار هذه العلاقة .

وقد يلاحظ القراء أن السيدة التى لم يعلن كتابها للناس أنها لم تكتب قبل هذا ، قد نجحت فى أن تجيد تناول النقاط التى تحب هى أن تتناولها ، وبدون أن تغرق فى الرومانسية التى قد يظن أنها لم يعد لها مجال اليوم ، ولا فى المراثيات التى لن تكون للكتاب قيمة لو أنها تغلبت عليه وأحاله رثاء ، وإنما هى فى ذكاء شديد تتحدث عن إنجازات زوجها فى الفترة التى عاشها معاً ، فتحقق بذلك فخراً بالذات وفخراً بمن تحب ، وفخراً بما أثمرته علاقة زوجية قامت من أجل الحب واستمرت بالحب ، وهى تحكى عن بداية معرفتهما بتقدير شديد لكل الخطوات التى مضت فيها هذه العلاقة سريعاً حتى توجت بالزواج ، وتقول:

«ومرت أيامى الجديدة فى المجلة تحمل الفرحة بالحياة بالكون ، رغم أنى كنت لا أعرف ماذا حدث لى .. ولم أع أنى أحب» ، وكان هو رئيساً للتحرير ، ويتطلب عملنا جميعاً أن ندخل مكتبه ونناقشه فى بعض أعمالنا ونفخذ تعليماته ، وكنت أدخل عليه أحياناً مكتبه لضرورة العمل ، ولكنى كنت أفاجأ بمجرد دخولى إلى مكتبه أنه يقوم من على مكتبه ليستقبلنى فى مدخل الغرفة ويصحبنى إلى الفوتيه المواجه له ، ثم يتوجه إلى مكتبه ويجلس عليه ويبدأ مناقشة ما جئت أنا من أجله من عمل ، ثم يتفوه أحدنا ولو بكلمة تشير من بعيد أو قريب إلى ما يشعر به كلانا».

«ومرت الأيام مشرقة بديعة ، وعقدت صلحى مع الحياة ومع الكون ، إلى أن جاء مساء يوم وكنت أغادر مبنى المجلة مع صديقة لى ، وكانت زوجة لأحد كبار الكتاب ، وكانت فى نفس الوقت على معرفة وثيقة بالدكتور رشدى».

هنا تصل السيدة ثريا رشدى صاحبة هذه الذكريات إلى حديثها عن نقطة الذروة فى علاقتها بالرجل الذى أحبته ، ومع أن القصة تبدو وكأنها بعيدة عن جو الدراما إلا أنها تعبر تماماً عن المشاعر الرومانسية لجيلها كله تجاه مثل هذه العلاقة :

«وعند باب المجلة مددت يدى لأسلم عليه مودعة .. وإذا به يطلب من صديقتى هذه أن نصحبه على فنجان شاي فى أحد الفنادق .. ومن منطلق صداقته لها ولزوجها فقد وافقت ووجدت نفسى لأول مرة أوافق بدون أى تردد ، مع أنها المرة الأولى فى حياتى التى أذهب فيها إلى أى مكان غير عملى وبيتى ، لم أكن أعرف أى من هذه الأماكن ولا كيفية التردد عليها ، ووجدت نفسى معه أوافق على الفور».

«وذهبنا إلى الكافيتريا ، وجلس على المنضدة فى مواجهتنا ، وانشغلت صديقتى بالتحية والسلام والحديث مع بعض أصدقائها الذين كانوا متواجدين بالكافيتريا فى ذلك الوقت ، ولمحتة ينظر إلى وجهى متأملاً من عالم بعيد».

«قال: أين كنت طوال هذه السنين؟».

ها نحن قد أدركنا كيف وصلت العلاقة فى هذه اللحظة ، وفى سرعة بالغة ، إلى الذروة التى بدأت بها حياة زوجية سعيدة استمرت واحداً وعشرين عاماً حتى فارق حبيبها الحياة.

والشاهد أننا ، فيما قبل هذا وفيما بعده ، نرى صاحبة المذكرات وهى تتحدث بحب وهيام ووجد عن تعمق علاقتها بحبيبها وزوجها طيلة واحد وعشرين عاماً هى عمر زواجهما ، ثم طيلة الأعوام التى انقضت منذ رحيله وحتى كتابتها لمذكراتها وهى تجيد التعبير المتدله عن هذه العلاقة فتقول:

«ورحلت أنت عنى وتركت لى سرنا .. حبنا .. عشقنا .. وحملته فى أعماقى ورفضت أن يعرفه أحد أو حتى يطلع عليه .. ولكن أيها العاشق المتصوف بعد مرور هذه السنوات ، أدركت أنك ليس لى وحدى ، فأنت ملك للإنسانية وللتراث ولكل من أحبوك وبرهنوا بالدليل القاطع خاصة بعد رحيلك على حبهم ووفائهم لك ، لقد عرف كل هؤلاء رشاد رشدى أستاذ الجامعة ، والكاتب المسرحى ، والمفكر والناقد ، ورئيس تحرير العديد من المجلات المصرية ما بين عربية وأجنبية ، وأحد المسئولين الكبار عن الثقافة والفكر و الفن ، وبعضهم عرف رشاد رشدى الإنسان .. ولكن هل عرفوه حقيقة ، ومن أجدر بمعرفة رشاد رشدى الإنسان بكل حقيقته .. بقوته وضعفه .. بصموده وحزنه .. بعبقريته وطفولته .. سوى الزوجة».

هكذا نرى صاحبة المذكرات وهى تجد نفسها ، بحكم العشق ، ملزمة بأن تقدم لوحة كاملة تكمل بها اللوحات المتاحة عن رجل تمتع بحياة ثرية بالصورة والانطباعات:

«ولذا وجدت أنه لزاماً علىّ أن أكمل اللوحة التى رسموها لك ليعرفك كل الناس على حقيقتك بدون رتوش وبدون أية مجاملات.



والشاهد أن ثريا رشدى تمضى على هذا النحو فى تصوير كثير من الجزئيات والتفصيلات التى تحفل بها حياتها مع زوجها مازجة ، فى براعة ومهارة ، على نحو ما نتوقع ، بين العام والخاص ، ونراها وهى تحكى للقراء باستفاضة ممتعة عما خفى عن بعضهم من تفاصيل بعض الأحداث الثقافية ، وهى تفعل هذا باعتزاز تبدو معه كما لو كانت تروى ذكرياتها عن الحياة الثقافية التى قدر لها أن تعيشها مع زوجها فى عهدي

عبدالناصر والسادات ، ونحن نراها منحازة تماماً لزوجها ولإنجازاته ، وليس لنا ولا لغيرنا أن ينتقدها في هذا الانحياز لأنها في واقع الأمر تحكى قصة حب وحياة ولا تروى قصة الثقافة أو تاريخها:

«وتسلم الدكتور رشدي مسرح الحكيم وكان خراباً ينقع فيه البوم ، وأصبح وأمسى أكبر منارة ثقافية في مصر ، فرأس تحرير مجلة المسرح ، تلك الموسوعة التي تحولت إلى تراث سوف يمدنا بالمعرفة دائماً ، ولم تطفأ أنواره يوماً واحداً طوال رئاسة رشاد رشدي له».

«وأنشأ لأول مرة وآخر مرة في مصر ما يسمى بنادى المسرح ، يقدم في ندواته كبار الكتاب والنقاد والدعوة عامة».

«وصمد رشاد رشدي أمام حقدهم على مسرح الحكيم حتى لا ينتصروا عليه كما حدث في تنحيته عن رئاسة تحرير المجلات الأجنبية».

وفي وسع القارئ أن يطالع مذكرات الدكتور سمير سرحان «على مقهى الحياة» ليدرك أن ثريا رشدي لم تبالغ فيما تصف به إنجازات زوجها في مسرح الحكيم.

(٦)

ثم تحدثنا صاحبة المذكرات عن طبيعة انفعالها هي وزوجها في مواجهة أقسى هزيمة واجهت وطننا ، وكيف كان زوجها الدكتور رشاد رشدي حريصاً - بعد تأمل وتدبر - على أن يحول انفعاله النفسى إلى ما يرى أنه بمثابة الانفعال المناسب في هذه الظروف فتقول:

«... وتأتى هزيمة ١٩٦٧: «ولكن الابتسامة لم تعرف طريقها إلى شفتيه طوال ثلاثة شهور كاملة ، وطلب منى أن أرتدى الألوان الغامقة ولا أترزين ، لا مانع ، لا يهم ، ولكن ما كان يهم فعلاً هو هذه الصرخات الملتاعة المكتومة التي كان يصدرها بمجرد أن يخلد إلى نومه في الليل...».

وقد يتلملم القارئ من رواية هذه التوجعات ، على الرغم من أنه يعرف أنها كانت أقل ما يمكن لأى إنسان حساس أن يواجه بهذه الهزيمة النكراء التى داهمت وطننا ، ولكن ثريا رشدى بذكائها تتدارك الموقف ، فتجعل لهذه المعاناة بعض فائدة ، إذ خرجت بسببها واحدة من أروع أعمال رشاد رشدى وأثاره:

«وبدأ يخرج من عقله الباطن الخطط الرئيسية لمسرحية جديدة وما أن انتهت أجازتنا فى مرسى مطروح حتى كان قد انتهى من كتابة الفصل الأول والثانى من مسرحية «بلدى يابلدى» ، وحينما حضرنا إلى مصر اتصل به الصديق المخرج جلال الشرفاوى وطلب منه المسرحية على أن يقوم هو بإخراجها ، وخرجت «بلدى يابلدى» إلى النور بعد صراع مرير مع من يتسمون باليسار والتقدمية رغم أن مضمونها كان مثالا للتقدمية لو كانوا يفهمون ، ودخلت الجرائد وبعض المجلات طرفاً فى الصراع .. وتدخل أكثر من مسئول ولم يبق مسئول فى مصر ممن كانوا يسمون باللجنة المركزية والاتحاد الاشتراكى ومجلس الوزراء وجهاز المخابرات إلا وحضر لمشاهدة المسرحية .. «ونجحت المسرحية نجاحاً لم يسبق له مثيل».

ثم تروى السيدة ثريا رشدى انطباع الشاعر العربى الكبير نزار قبانى حين حضر عرض المسرحية:

«وقد حدث فى يوم أن حضر الشاعر نزار قبانى لمشاهدة المسرحية وقبل انتهاء العرض بحوالى ٢٠ دقيقة انطفأ النور فى المسرح وفى شارع عماد الدين بأكمله مما سبب ارتباكاً للممثلين .. فصرخ الجمهور - استمروا - مخاطباً الممثلين ، وصعد الكثير منهم على جانبي خشبة المسرح وبيد كل منهم عود كبريت أو ولاعة أو شمعة .. واستمروا فى وقفهم هذه ينبرون المسرح إلى أن انتهت المسرحية ، فنظر الصديق الشاعر العربى الكبير إلى رشاد رشدى وقال له:

«اليوم اكتملت حياتك ورسالتك .. لو حدث لى هذا ما طلبت أكثر منه ، ولو ميت فى هذه اللحظة لاعتبرت أن حياتى اكتملت ..».



ولكن السيدة ثريا رشدى تعود بعد ثلاث صفحات لتوالى الحديث عن مسلسل

الفواجع فى حياة زوجها الراحل .. فقد جاءت السبعينيات ومعها طائر الآلام والحزن ..
ففى منتصف ١٩٧٠ رحل والدها ثم شقيق رشاد الأكبر (أو بالمعنى الحقيقى) والد رشاد
الذى أشرف على تربيته منذ أن كان فى السادسة ، ولحق بهما شقيق لى ، وفى مارس
١٩٧١ ماتت ابنة رشاد رشدى ، وهى تروى أن زوجها كان حريصا على أن يتجاوز مشاعر
الحزن على ابنته هذه بطريقة وجدانية متساوية:

«أصر رشاد أن تُشعل لها شموع الفرح ، وينثر على موكبها الورد الأبيض وهم
يودعونها إلى مقرها الأبدى».

(٩٠)

ولا تغفل السيدة ثريا رشدى الحديث عن إنجازات زوجها فى الميدان الأدبى والفنى فى
الفترة التى سبقت حرب أكتوبر ١٩٧٣ والفترة التى تلتها مباشرة ، وقد كان رشاد رشدى
فى ذلك الوقت من كبار أهل الثقافة الذين أثروا البقاء فى مصر ومواجهة الأمر الواقع بكل
صعوباته فتقول :

«وأذكر أنه كان قد انتهى من كتابة مسرحية «شامينا» قبل حرب ١٩٧٣ بأربعة أشهر ،
وقد بدأت البروفات فيها كان قد تنبأ بانتصار الشعب المصرى على عدوه أبناء سليمان ،
ونادى فيها بالحب والسلام ، وخرجت المسرحية إلى النور فى اليوم الثالث من شهر يناير
سنة ١٩٧٤ .. وكان أول أيام عيد الأضحى ، وكعادتنا كنت دائماً أحضر معه البروفات
وبعض أيام العرض خاصة يوم الافتتاح. لكنه فى يوم افتتاح هذه المسرحية طلب منى أن لا
أصحبه إلى المسرح ، فالجمهور اليوم جمهور عيد والمسرحية باللغة الفصحى وحتماً
سينفض الجمهور عنها قبل أن ينتهى الفصل الأول ، وهذا سوف يؤلم مشاعرك ، وذهب
إلى المسرح مع بعض زملائه وقبل أن ينتهى الفصل الأول اتصل بى تليفونياً وطلب منى
الحضور فى الحال ، فما سوف أراه لا يصدق عقل ، وذهبت إلى مسرح الأزبكية وجدته
كامل العدد حتى أعلى التياترو ، وكأنه لا يوجد إنسان يتنفس ، الكل فى حالة إنصات تام
والعبون جميعها متطلعة إلى خشبة المسرح».

«وما أن انتهى الفصل الأول حتى كان التصفيق المدوي .. وتلاه الثاني والثالث وأنا أرى الممثلين العظام: سميحة أيوب - عبدالله غيث - حمدي غيث - فردوس عبدالحميد وغيرهم وهم ينحنون احتراماً وحباً لجمهور شعب مصر ابن مصر الصادق الطاهر».

«ورأيت طوال أيام عرض المسرحية أبطال مصر من جنود وضباط بملابسهم العسكرية يحضرون العرض سعداء مهللين وهم يبحثون عن زوجي ليعانقوه ويقبلوه ، وكانوا دائماً يقولون له : «أحنا النهارده عبرنا تاني يادكتور رشدي».

«ورأيت العشرات من أبناء فلسطين الحبيبة برداء رأسهم المميز .. وعرف الجميع كيف تصل الرسالة الصادقة إلى عقل ووجدان كل إنسان مهما اختلفت الألوان ، وكان زوجي كل يوم يمسخ دموعه حب إيماناً واعترافاً بفضل شعب مصر العظيم».



وتحرص صاحبة المذكرات على أن تروى لنا كيف أن الدكتور رشاد رشدي قد عُين مديراً لأكاديمية الفنون على غير رغبة منه كما تقول (سنة ١٩٧٥) ، فقد كان قد رتب حياته (الباقية) على التفرغ للكتابة والإبداع الفني:

«في أوائل سنة ١٩٧٥ ، كان الدكتور رشاد رشدي وقتها يعمل أستاذاً متفرغاً بالجامعة بعد بلوغه سن المعاش ، بجانب عمله كعميد لمعهد الفنون المسرحية منذ ١٩٦٩ ، حينما اتصل به تليفونياً وزير الثقافة في هذا الوقت ليبلغه بقرار تعيينه رئيساً لأكاديمية الفنون ، ولم يسعد بهذا التعيين ، بل كاد أن يرفضه بعد أن كان قد نظم حياته على أن يتفرغ للكتابة والإبداع الفني ، والتف حوله الأصدقاء والأهل بالإقناع وبأنه قد تعود أن يكتب أعماله الفنية بجانب أعبائه الإدارية ، وأنه لابد أن يؤجل معايشة فترة خروجه على المعاش قليلاً ، فهي فترة «الملل» ورفض الحياة بالنسبة للرجل ، وقبل زوجي ، وتسلم أعباء الأكاديمية وبالها من أعباء .. فهل يستطيع أي إنسان في مصر الآن أن ينجح في أي عمل إلا إذا أعطاه عصارة تفكيره ، وجوهر وقته ، ورحيق دمه».

«بكل خبرة العمر وحكمة الزمن وعصارة الحب كانت الأكاديمية في عصر رشاد رشدي».

(٨)

وتحرص السيدة ثريا رشدي على أن تضمن مذكراتها تفصيلات مهمة وموحية عن أول لقاء للرئيس السادات مع رشاد رشدي ، ويجد القارئ تركيزاً شديداً من الكاتبة على ما تروى أنه كان بمثابة الحوار الذي دار بين الرجلين في هذا اللقاء ، والذي لم يكن ، في نظر بعض القراء ، بمثابة الحوار الذي دار بالفعل ، ولكنه صورة لذلك الحوار بعدما حمل بصمات صاحبة المذكرات ورؤيتها ، ونحن نلاحظ هذا بسهولة شديدة ، ونحن نراها على سبيل المثال تؤكد ما لا يحتاج إلى تأكيد ، كما نرى بالطبع بصماتها المعرضة عن أشياء لا بد أنها تداعت في أثناء الحوار ، ومع هذا فإنه من المفيد للقارئ وللناقد ، وللنقد الأدبي نفسه أن نستعرض مع السيدة ثريا رشدي هذا الحوار الذي أدارته بين الرجلين ، فهي تمزج فيه رؤيتها الشخصية المتأثرة برؤية زوجها بالطبع للفروق بين رجلين توليا أمر هذا البلد ، أنور السادات وجمال عبدالناصر ، كما أنها تلمى على القارئ إحساس زوجها أو تصوير زوجها الراحل لعمق علاقة حب السادات لعبدالناصر ، ولكن الغريب من أمر هذا الحوار أن السيدة ثريا رشدي قد اقتصدت في عبارات السادات إلى أقصى الحدود ، واقتصرت في النص على تعليقاته إلى الحد الذي جعلت فيه الديالوج مونولوجاً من كلامها قبل أن يكون من كلام رشاد رشدي ! قد تكون هذه نقطة ضعف في هذا الجزء من النص ، ولكن المؤكد أن النظرة الأعمق والأرحب إلى الموضوع سوف تعفيها من هذا الحرج ، فهي تتحدث بلسان رشاد رشدي الذي قد يمنعه (البروتوكول) قبل أن يمنعه (الموت) من أن يقول كل هذا الذي قالته وصرحت به.

ونحن نرى السيدة ثريا رشدي حريصة على أن تورد على لسان رشاد رشدي حديثاً له عن رأيها في تصويره للرئيس عبدالناصر في ١٩٧٥ وذلك من خلال هذا الحوار الذي يقدم به رشاد رشدي للرئيس السادات مسرحية «عيون بهية».. وهي تنسب إلى زوجها قوله :

«لقد انتهيت من مسرحية غنائية جديدة .. هي «عيون بهية».. وبهية هنا هي مصر ، وإذا تعرضت للكتابة عن مصر وحربها مع إسرائيل ، فبالتالي لا بد أن أتعرض لشخصية عبدالناصر مرة أخرى .. وفيها كتبت:

«الشعب: يا أميرنا .. أزل كربنا .. أنت أملنا».

«الأمير: اتركوا الأمر لى وانصرفوا أنتم إلى أموركم».

«الشعب: لكن السفينة تغرق ، ونحن ركابها دلنا يا أميرنا على شط الأمان».

«الأمير: (لنفسه) ما العمل .. لا بد من يد تعيد إليهم الأمل».

«(وكانه وجد الحل) يد الصاحب صديق الأحرار .. نصير الثوار».

«(ويأتى الصاحب من وراء البحار ويعيش فى المدينة الجميلة ذات المآذن والقباب .. ويرتفع فيها ويستولى على خيراتها ثم يلتفت إلى الأمير أو صاحب البيت ويقول:

«الصاحب: ما الذى أتى بك إلى هنا».

«الأمير: ماذا؟ هذا بيتى».

«الصاحب: اخرج من هنا».

«الأمير: صاحبى .. ماذا حدث؟»

«الصاحب: اخرج ، قلت لك ألا تفهم»

«أنت الآن من الخدم»

«وأنا من الأرباب»

«الأمير: فريسة أنا تقصد».

«الصاحب: نعم وأنا أسد الغاب».

«(وينهار الأمير ويصرخ قائلاً :

«آه يا شعبي المسكين».

«لم فعلت بك ما فعلت».

«وإلى أى مصير بك رميت».

«آه يا شعبي المسكين .. آه يا شعبي المسكين».

«وأكمل رشاد حديثه للرئيس الراحل».

«هكذا صورت عبدالناصر بعد ثمانى سنوات من الهزيمة ، وبعد ٥ سنوات من رحيله عن دنيانا».

وتستطرد السيدة ثريا رشدى فيما ترويه عن حديث الدكتور رشاد رشدى إلى الرئيس السادات فى لقائهما إلى ما ترويه من قوله زوجها عن علاقته ورأيه فى الرئيس عبدالناصر:

«لقد أحب عبدالناصر مصر وأعطاها حياته .. عبد الناصر لم يكن السبب فى هزيمة مصر عن ضعف أو عن كره أو عن سوء تخطيط .. بل عن سوء اختيار .. لقد هزمه رجاله وأعوانه قبل أن يهزموا مصر ، ومات عبدالناصر كمدأ وحرناً على مصر ، وأنت تعلم ياسيادة الرئيس أنه رغم آلام عبدالناصر التي أصابت قلبه من غدر الصديق والرفيق ، فقد كان فى هذا القلب نور ومتسع كبير للحب».

«أنت تعلم ياسيادة الرئيس كيف بكى وكم حزن عبدالناصر وكأن الطعنة أصابت قلبه حينما بلغه انتحار صديقه والسبب الحقيقى لهزيمة الجيش المصرى المشير عبدالحكيم عامر . ومع ذلك بكاه فى مجالسه الخاصة ، ومع نفسه ، لم يبكه للشعب المصرى متاجراً بالوفاء ، بل بكاه مع نفسه دمعاً حزن صادقة على رفيق غال».

«هذا هو عبد الناصر ياسيدى الرئيس فى داخل أعماقى بالنسبة له .. فأنا لن أجاملك ، بل سأكون صادقاً معك فيما له وفيما عليه ، فأنا صاحب قلم وصاحب كلمة لا بد أن أكون أولاً صادقاً مع نفسى لكى أستطيع أن أكون صادقاً مع جمهورى».

هكذا نرى ثريا رشدى وهى تنحاز بقصد إلى الرؤية الرسمية التى تلقى بالهزيمة على عاتق المشير عبد الحكيم عامر وتحرص على تبرئة الرئيس عبد الناصر منها ، ثم إذا بهذا الرئيس يبكى صديقه المشير مع نفسه.

وهكذا ترى ثريا رشدى أن زوجها قد صور مأساة عبد الناصر فى علاقته بعبد الحكيم عامر على هذا النحو فى مسرحية «عيون بهية» وهو تصور قريب جداً من آراء شائعة بدرجة كبيرة عند مجموع المصريين بفضل طفيان و سطوة الرؤية الرسمية المفضلة عند أجهزة الدولة فى ذلك الوقت.

ومع هذا كله فلا ينبغى للمرء أن يتخطى هذه الفقرة إلى الفقرة التالية التى يورد فيها عبارات ثريا رشدى من غير أن يشير إلى أن رشاد رشدى كان فى السبعينيات وفى أوائلها بالذات من أوائل الذين ساعدوا على توظيف الأدب والصحافة لتسليط الأضواء الكاشفة على عهد عبد الناصر (ويمكن لآخرين أن يضعوا تعبير: كشف عهد عبدالناصر بديلاً عن عباراتنا المهذبة: تسليط الأضواء الكاشفة ، كما يمكن لآخرين أن يقولوا تشويه) ، وعلى الذين يريدون أن يدركوا مدى حجم الجهد الذى قدمه رشاد رشدى فى هذا المجال أن يتناولوا الأعداد الأولى من مجلة الجديد التى صدرت فى مطلع عهد الرئيس السادات وترأس رشاد رشدى تحريرها.

لا علينا من هذا كله ، ولتأمل مرة ثانية بروح الديكارتين السر وراء هذه العبارات

الطويلة التي أوردتها لنا السيدة ثريا رشدى على لسان رشاد رشدى يحدث بها أنور السادات عن عبدالناصر .. هل تريد السيدة الوفية أن تنأى بزوجها عن أن يكون كما صوره أعداؤه مجرد معول من معاول الهدم الساداتية فى التجربة الناصرية ؟ ولم لا ؟ ومع أن رشاد رشدى أكبر من أن يكون معولاً من معاول الهدم ، فإن الحقيقة السياسية التى تفرض نفسها لا تترك مهمة المعاول لمجرد الأنفاس البسطاء فى دنيا الحياة العامة ، وإنما تجد السياسة من بين قمم الحياة الأدبية من يتزعمون تياراتها المتلاطمة .. وفى هذا الصدد تكون ثريا رشدى قد نجحت فى أن تبين للناس إطاراً آخر يفسر العلاقة التى كانت بين ثلاثة: عبدالناصر والسادات ورشاد رشدى حتى لا يعتقد الناس أن رشاد رشدى هو صاحب الفكرة التى جعلت كتابات السادات تنطق وتعترف بما كان عليه عبدالناصر من حقد لا ينتهى ، ولا أن السادات هو صاحب إجراء تلك «الفكرة» على قلم الدكتور رشاد رشدى.



كل هذه تفصيلات قد تنأى بالقارئ عن فهم المعانى البسيطة والموحية التى أرادت السيدة ثريا رشدى أن تجريها أمام القارئ ، حين تحدثت عن اللقاء الأول بين السادات ورشاد رشدى فقالت:

«... وفى ٢٥ ديسمبر من نفس العام (١٩٧٥) كان قد حُدد له ميعاد لمقابلة الرئيس أنور السادات لأول مرة ، وكان زوجى وقتها يمر بوعكة صحية ، وبسببها كان قد تناول بعض العقاقير المخدرة ، وذهب لمقابلة رئيس الجمهورية ، لأول مرة يرى الرجل وجهاً لوجه ، وكان تحت تأثير المخدر ، وبالطبع لم يشعر بهيبة الحكم والحاكم ولاقاه كما يلاقى صديقاً عزيزاً عليه. فمنذ انتصار أكتوبر ١٩٧٣ ورشاد رشدى يرى مصر فى السادات ، أحبه (كما كان رشاد يقول دائماً) لأن مصر انتصرت بيديه وعلى يديه .. لأن السادات وضع مصر فى الصفوف الأولى لدول العالم فأعاد اكتشاف العالم لمصر».

«وقال له :

«يادكتور رشاد أنا كان نفسى أقابلك من زمان ولكنى كنت أتردد فى المقابلة ، واليوم عيد ميلادى ، وقلت لم لا أستن هذا العام نوعاً جديداً من الاحتفال .. ولأقابل فى هذا اليوم إنساناً لم أقابله ولم أعرفه من قبل ، وكان أول تفكيرى أن أقابلك أنت هذا العام ، وبمقابلتك حققت الاحتفال بعيد ميلادى. أنا متأكد الآن بعد لقائك وتلقائتك هذه أننا سنكون أصدقاء .. ولكن لى عندك رجاء .. ودهش رشاد حين وجد الرئيس السادات يقول له: أنا أحب عبدالناصر فهو أستاذى فى كلية أركان حرب وصديق عمري ..

وصاحب أكبر فضل على .. ألم يكن هو الذى عيننى نائباً لرئيس الجمهورية .. وبذلك أصبحت الآن رئيساً للجمهورية. لولاه لما كنت أى شىء .. فأرجوك إذا كانت مشاعرك متحاملة ضد عبدالناصر .. أن لا تفصح عن هذا أمامى .. وأن تجاملنى فيه».

ها نحن قد وصلنا إلى الذروة فى دراما هذا الحوار بين الرئيس والمفكر ، وهو حوار ترويه صاحبة المذكرات على الرغم من أن بعض غلاة الناصريين لا يظنون أنه حدث على هذا النحو ، فلا هم يؤمنون أن السادات كان وفياً لعبدالناصر ، ولا هم يؤمنون أن رشاد رشدى كان مؤمناً بعبد الناصر حسبما تقدمه صاحبة المذكرات فى نصوصها متعمدة أن تقدم لنا صورة أخرى غير تلك الشائعة ، وقد تكون هذه الصورة أكثر صدقاً من كل ما هو شائع :

«قال رشاد : لا يا سيادة الرئيس .. حتى وإن كان عقلى الواعى يُحمل عبدالناصر أن الهزيمة قد حدثت فى عهده ، فإن عقلى الباطن يرفض هذا ، بدليل أنى كتبت رواية «بلدى يابلدى» فى أواخر سنة ١٩٦٧ .. وكان بطلها الرمزي السيد البدوى ، هو يرمز للقائد والمعلم الذى عاش عمره ليعلم تلاميذه كيف يحملون الرسالة ، كيف يعيدون للناس الروح التى فقدوها ، وكيف يستطيعون أن ينهضوا ما هدم فى الماضى ، ويعلموهم العمل الصالح الذى هو العمل من أجل الغير . ولكن أعوانه ضلوه ويسهم من سهامهم الخبيثة أصابوه ، وكان النور والإيمان بالإنسان .. وضعوا الجمره المتقدة التى لا تنطفئ فى صدره ، وكانت صرخة السيد البدوى أو صرخة الزعيم لماذا جعلتم الناس تبغى أرواحها ، النور الذى فى قلوب الناس كنت أظن أنكم قد بصرتموهم فرأوه ، ولكنكم أطفأتموه فعميت البصائر وعم الظلام ، سوف تشتد الظلمة ويشتد كرب المسلمين .. إن من حولنا هم الذين يصنعوننا .. هم الذين يملكون أن نكون أو لا نكون كما يريدون .. اذهبوا فلم يعد عندى ما أقول ..».

«هذا هو جزء ياسيدى الرئيس من مسرحية «بلدى يابلدى» ، وكيف كان تصورى فى هذه الفترة بالذات لشخصية عبدالناصر».

(٩)

على هذا النحو البديع قدمت هذه السيدة فى هذه المذكرات رؤية مهمة وجديدة لنظرة كل من الدكتور رشاد رشدى والرئيس أنور السادات إلى الرئيس عبدالناصر ، وهى نظرة تدعمها آراء الرجلين وما سجلناه من روايات مكتوبة أو مذاكرة ، وهذه هى زوجة رشاد

رشدى نفسها تروى هذه الرؤية من خلال رواية اللقاء الأول بين الرجلين فتثير فينا مشاعر التقدير للرجال الثلاثة ، ومشاعر الازدراء تجاه بعض الذين كانوا من حول الحاكم !!
فلندع ما كان من علاقة الأديب بالرئيس ، ولنعد إلى علاقة الحبيب بالمحجوب ولنتقرأ مع ثريا رشدى نفسها تساؤلاتها عن العلاقة بينها وبين زوجها الراحل ، وهى تتأمل فى هذه العلاقة بعد أن روت كثيراً من هامشيات السياسات.

«بماذا نسمى ما حدث بيننا؟ الاحتواء..! هل احتوى كل منا الآخر .. لم حدث هذا...؟
الحب الذى جمعنا! وما كنهه حيناً..؟ تسابق فى العطاء .. نعم تسابق فى العطاء .. لم يعرف أحدنا أبداً ماذا يأخذ من الحب .. بل عرف كلانا كيف يعطى ويسبق الآخر فى العطاء .. وتوحدنا وأصبح يدور بيننا حوار طويل لساعات دون أن نتكلم ودون حتى أن ينظر أحدنا فى عيني الآخر لقد تخطينا حتى حديث العيون ووصلنا إلى حديث تراسل الأفكار».



وتمضى صاحبة هذه المذكرات لتطرح علينا - وعلى نفسها - بعض التساؤلات المعبرة عن سعادتها بالحيرة فى الصفات والوجوه المتعددة لزوجها الحبيب ، وهى تؤكد على أنها عرفتته بكل وجوهه ، وأنها شاركته الرأى والفكر والمشكلات ، وأنه كان فى المقام الأول حريصاً على أن يفيدها بتجاربه المتعددة ، وأن يجعل منها تلميذته التى يصنعها بيديه وتقول:

«من كان زوجى بينهم .. رشاد رشدى أستاذ الجامعة .. أم الكاتب المسرحى .. أم الناقد .. أم الرائد لأجيال كاملة من الشباب؟! لقد كان كل هؤلاء .. وقد كان حريصاً من اليوم الأول لحياتنا الزوجية أن يشركنى معه فى كل شىء يعمله أو أى فكرة تطرأ على ذهنه .. أو أى مشكلة يمر بها .. نعم كان أحياناً يأخذ برأى ولكن كان شاغله الأول أن يجعل منى تلميذته التى يصنعها بيديه كما يريد أن تكون .. وكان نعم الأستاذ».

(١٠)

ومن السهل علينا أن نتقد الملامح الفنية أو البيانية فى هذا الكتاب فى بعض مواضع ، لكن الأولى أن نقدر للسيدة ثريا رشدى هذه النقلات (العاطفية) أثناء كتابتها ، فهى على وجه التقريب قد جعلت قلمها يسترسل فى الكتابة يوماً بعد يوم ، أو ساعة بعد ساعة

حسبما أخذ هذا الفصل الطويل من وقتها من دون أن تعيد الترتيب أو تجعل للتقديم أو التأخير سبيلاً إلى التحكم فى كتابتها الرشيقمة المؤثرة والتي تجمع إلى هذين الخصلتين خصلة لشباب الكتابة حين لا يعترى بنيان الكتابة حكمة أولئك الذين استطاعوا أن يدركوا كيف يتحكمون فى القلم ، ثم فى ترتيب ما خطه القلم.

وها هى ذى ثريا رشدى تعود فى صفحات متتالية لتعبر لنا عن (الذوبان) الذى كان يتحقق لها فى شخصية زوجها الراحل

ففى صفحة ١٣٩ تحدثنا عن ذلك الحوار الذى دار بينها وبينه فى القطار إلى نيويورك:

«وأكملنا (الأربعة أيام) الأخرى فى المستشفى ثم تركنا واشنطن نفسها وكأنا نهرب من سجن قيُدنا فيه بأغلال الألم واليأس .. وفى القطار إلى نيويورك .. أمسك بيدي وقال ثريا .. ونظرت إليه ، وابتسمت عيناه لى وقال ولأول مرة يتكلم: وصلتني كل رسائلك .. خفت عليك .. تألمت من أجلك .. بكيت فى صمت .. تعذبت .. أسف يا حبيبتى : مددت يدك إلىّ ، ولكنى لم أستطع أن آخذ بها لأنقذك ، فأنا أغرق ولا أريدك أن تغرقى معى .. لم أستطع هذه المرة أن أعدك كما وعدتك دائماً .. أنى سأعيش بك ولك .. الأمور كانت قد خرجت من يدي .. اعذريني يا حبيبتى فأنا لا أملك الآن سوى حبي لك . قلت: حبيبي ..أنا لم أجزع عليك .. ولم (أخف) أن يزورنى الموت فيك ، فهو مازال بعيداً بعيداً ، فأماننا أيام وسنوات طويلة .. أمسكت يدك حينما مددتها لى .. وضعت رأسك المشقل بالحزن واليأس فى صدرى .. أخفيتها بين حنايا ضلوعى حتى لا تصلها إرهاصات البشر .. كنت مطمئنة عليك .. هل تخشى يا حبيبي المرض .. أنت رشاد رشدى بإرادتك وعزيمتك القادرة».

وهذه صورة غير مسبوقة فى أدبنا الذى قرأناه:

«ضعيني فى رحمك ولا تلدينى» ما هو المعنى: هل هو الخوف من الحياة بكل ما فيها؟ أم هو الإحساس بزيادة الأمان معها إلى الحد الذى يهون معه كل الأمان الذى فى الحياة؟ هذا هو السؤال الذى نجحت عبارة ثريا رشدى أو رشاد رشدى نفسه (لا نعرف فقد امتزجت الشخصيتان) فى أن تجعلنا نبحت له عن جواب .. ثم إن ثريا رشدى تستأنف الحوار موجهة حديثها إلى زوجها الراحل وتقول:

«ووضعت رأسك المتعب على كتفى ونمت كما ينام الطفل (على) صدر أمه إلى أن وصلنا إلى نيويورك».

كل هذا وغيره من فلسفات الجمال والحب والفكر والفن تطالعنا به الصفحات قبل أن نصل إلى نهايات لم يكن في حسابان السيدة ثريا رشدى أن تصل إليها في حياتها ، فالمرض يتقدم ويقسو على زوجها ، ويسافر للعلاج ، ويعود ، ولكن الأقسى من هذا ما نجده في التباين وهي تحكى قصة خروج رشاد رشدى من رئاسة الأكاديمية والتي تعبر عنها بروح الحب (إلغاء انتداب رشاد من رئاسة الأكاديمية) ، واتصل رشاد بوزير الثقافة والإعلام (الذى كان قد طلبه وهو نائم) فأبلغه الوزير وهو يعتذر أن السادات أبلغه أن يتصل بالدكتور رشدى ويتفق كلاهما على كتابة صيغة إلغاء انتداب رشاد من رئاسة الأكاديمية على أن تصدر فى صفحة أولى فى جرائد الغد ، وفى لوعة شديدة تحكى السيدة ثريا فتقول:

«حدث هذا فى الجزء الأول من سنة ١٩٨٠ .. فقد كان انتداب رشاد رشدى رئيساً للأكاديمية ينتهى فى يوليو سنة ١٩٨٠ ، وكان الرئيس السادات يؤكد له فى كل لقاء تقريباً أنه لا بد أن يستمر رئيساً للأكاديمية مدى الحياة ، خاصة أن رشاد قد رفض منصب الوزير عدة مرات ، وكان رشاد يطلب منه أن يعفيه أيضاً من رئاسة الأكاديمية ، فصحته أصبحت لا تقوى على تحمل مثل هذا العبء الإدارى».

«ولكن كان أنور السادات يقول له:

«يارشاد لو انفض المثقفون العلماء أمثالك من حولى فكيف لى أن أحكم هذا البلد».

«بأقزام العلم والثقافة ، أنت تعلم أنك أول من اخترته مستشاراً لرئيس الجمهورية للشئون الثقافية ، وتلاك الفريق الجسمى ، والفريق محمد على فهمى مستشارين عسكريين ، والدكتور فاروق الباز مستشارى العلمى ، فهؤلاء وأمثالهم من أريد أن يكونوا معى وحولى ولأحكم البلد من خلالهم ، ولو أن هذا المنصب بدون أى عائد مادى ولكنى متأكد أنكم تؤدونه على أكمل وجه».

وتستأنف صاحبة المذكرات بعد هذا الاستطراد :

«ونعود إلى قصتنا .. فى مساء يوم من أيام أبريل سنة ١٩٨٠ ، اتصل بى وزير الثقافة والإعلام فى ذلك الوقت وطلب مكالمة رشاد .. واعتذرت له أن هذا وقت نومه وحينما استيقظ زوجى أخبرته بالمكالمة وأبلغته أن وزير الثقافة منتظر منه تليفون ، واتصل به رشاد ليبلغه الوزير وهو يعتذر أن الرئيس السادات أبلغه أن يتصل بالدكتور رشدى ويتفق كلاهما على كتابة صيغة إلغاء انتداب رشاد من رئاسة الأكاديمية على أن تصدر فى صفحة أولى فى جرائد الغد».

«ولما كان الوقت متأخراً فقد اضطر السيد الوزير وهو يعتذر أن يكتب هو الصيغة ليرسلها إلى الجرائد حتى يستطيع أن ينفذ أوامر السيد الرئيس! .. جرائد الغد .. لم؟ نحن الآن في شهر أبريل والانتداب ينتهى فى آخر يوليو .. لم هذه العجلة .. وصفحة أولى فى جميع الجرائد؟ ، ومطلوب بأمر رئيس الجمهورية من الإنسان الذى طلب منه أن يترك العمل .. أن يكتب الصيغة بنفسه . أى زمان حل بك يا مصر؟! أن يصدر الذى سيعدم حكم إعدامه بنفسه حتى ينشر فى جميع الجرائد صفحة أولى قبل إعدامه بأربعة أشهر؟! ومطلوب منه أن يستمر فى العمل طوال هذه الشهور».

«وحلت شهور صيف هذا العام وذهب أنور السادات إلى الإسكندرية ثم عاد فجأة يطلب من رشاد مرافقته هناك .. وتناسى رشاد كل شىء .. بل هو لم يكن يذكر شيئاً».

«كان رشاد يذهب إليه يومياً فى الصباح ويعود حوالى الخامسة أو السادسة مساءً يسيطر عليه الإعياء والتعب .. وفى يوم حضر فى حوالى الثالثة يستند على ذراعى اثنين من حراسة الرئيس ورجلاه لا تحملانه».

(١١)

وتحرص صباحية المذكرات على أن تتحدث باستفاضة عن رد الفعل النفسى على رشاد رشدى وخطوته الإيجابية فى هذا الصدد ، وأسفها هى لانهايار هذه الخطوة الأخيرة وهى فى لوعة شديدة تخاطب الراحل فتقول:

«ومرت الأيام ونسيت يارفيق عمرى المرارة والألم ، وفتحت صدرك للناس جميعاً وضممتهم بين يديك ، وكان شيئاً لم يحدث . وبدأت مع مرور الأيام تبني سوراً صغيراً داخل سور المجتمع الكبير .. كان هذا السور الحديد مأوى لك ليحميك من عواصف الشر التى قد تهب من داخل سور المجتمع الكبير ، لذلك يامعلمى وأستاذى كنت شديد الحرص على كل لبنة من لبنته ، فقد بنيتة وتصورت أن من حولك بنوه معك بالحب والوفاء والصدق ، كنت أنت واثقاً من ذلك كل الثقة ، لذلك عشت داخل هذا السور فترة من الوقت كنت تعتبرها أكثر أيام حياتك صفاء وثقة».

«وماهى إلا لحظات قليلة بعد ذلك الوهم حتى فوجئت أن السور انهار بأكمله من حولك ، وتعجبت ، ولكن زال عجبك عندما اكتشفت أن السور الذى حسبت أن من حولك بنوه بالحب والصدق لم يكن فى حقيقته إلا سوراً من الزيف والخداع وأحسست

وقتها أنك تعيش في العراء .. وتساءلت مستنكراً .. أيستحيل على الإنسان في هذه الدنيا التي تكاد تنفجر بسكانها أن يبنى سوراً من الحب .. فليرحمنا الله».

على هذا النحو من تأجج عاطفة الإحباط تعبر ثريا رشدى لنفسها ولزوجها عن خيبة الأمل فيمن وضع فيهم زوجها الراحل أمله ، وهي تصور السور وقد انهار بأكمله .. فكأنما أصبح على بنى السور أن يعود مرة أخرى إلى المجتمع المتلاطم من حوله وقد فقد إلى الأبد حماية هذا السور الذى كان يظنه يحميه من عواصف الشر التي قد تهب من داخل سور المجتمع الكبير(!!)



ثم تصل بنا السيدة ثريا رشدى إلى قمة «التراجيديا» فى قصة حياتها مع زوجها الحبيب ، وقد تكون هذه اللحظات هى نهاية حياة ، ولكن ثريا رشدى تنجح فى أن تصل إلى شاطئ الإيمان الذى نفهم معه أن هذه اللحظات ليست إلا لحظات الانتقال من التعبير عن العلاقات البشرية برموز حية مجسدة ، إلى التعبير برموز حية أكبر من التجسيد ، وهذا هو جوهر العبارات الملتاعة والمطمئنة (فى آن واحد) التي نقرؤها لثريا رشدى فى ختام حديثها ، والتي وصلت فيها إلى أقصى ما يمكن لها أن تصل إليه من بلاغة: بلاغة التعبير ، وبلاغة الصدق ، وبلاغة التعبير عن الصدق ، وبلاغة الإيمان قبل كل هذا :
«وذهبتنا زوجي وأنا للفراش».

«ووجدته يمسك يدي ويضعها على شفتيه فى قبلة طويلة ثم ينظر إلى عيني ليقول:

«ثريا .. أنت هنا فى قلبى وضعتك داخله من قديم الزمان وأغلقتة عليك وحدك».

«وبدأ كما تعود كل ليلة قبل النوم أن يضع يده اليمنى مكان الألم فى ذراعه اليسرى ويقرأ بعض آيات من القرآن ثم يستسلم للنوم».

«وبمجرد أن انتهى هذه الليلة من القراءة الصامتة وأنا أقف بجانبه صرخ قائلاً:

«أنا دايع يا مامى ..».

«فى نفس اللحظة كان ممدداً على السرير».

«رमित نفسى بجانبه وقلت : مالك يارشاد ، نظرت فى وجهه ..».

«ليست لى خبرة بالموت قبل ذلك .. ولكن أعلمنى الله .. عرفت .

تساءلت: لم يا حبيبي .

احتوتنى رحمة الله وقدرته .

لم أصرخ .. لم أجزع.
لم أستطع منذ اللحظة أن أناديك ولكنى ظللت أناجيك.
تمددت فى أحضانك ، التصق جسدانا ولكنهما فى الحقيقة كانا قد تباعدا .. ظللت
أناجيك وأبتك حبى وأشرب من فيك رحيق الموت.
فهل كانت توجد فى أنا حياة تشرب منك الموت.
لا يا حبيبي .. إنما كنا نتبادل قبلات موت جسدنا .. كلانا .. وبقي حبنا كل منا ما
سوف يبقى إلى أبد البشرية .. بقيت روحانا تتعانقان وتملؤ وتصفو فوق الحياة الترابية.
ومرت أربع سنوات الآن على رحيلك وأنا أحمل على صدرى هذا الجسد الميت الذى
لم يكفن بعد لنعيش سوياً بين أكفان الذكريات .. بعد أن ذبلت الزهور فوق شجرتى ..
وجفت جميع المياه فى نهري ، ونضبت الثمار فى صدرى ، ولكنى أعيش فقط لك ..
أسعى لنشر كتبك وانتشار تراثك وخلود اسمك الذى سيحيا سواء بى أو بدونى .. لأنه
اسم حفر تاريخه على جدران مصر ..».



هكذا ينتهى - فى هذا الكتاب - حديث سيدة قد تكون أولى الذين لم ينطقوا إلا ليقولوا
مثل هذا الحديث ، وإن كان عندنا حتى الآن كتب قيمة كتلك السيرة التى نشرتها بنت
الشاطىء بعنوان «على الجسر» ، أو بسيطة معبرة كتلك التى كتبتها عفاف أباطة عن والدها
عزيز باشا أباطة .. ولكن يبقى لهذا الذى كتبه ثريا رشدى وضع خاص من حيث كتبه
سيدة كانت مع كل هذا الحب الذى يستشفه القارئ ، والإخلاص الذى تبعث به كلماتها
ثالث زوجة فى حياة رجل عظيم لم تشأ هى كما قالت فى سطورها الأخيرة أن يكون هناك
بعده رجل آخر فى حياتها.

أما فقرتها الأخيرة التى تحمل نوعاً من التناقض بين انتشار أدب المفكر الكبير بها أو
بدونها ، وبين تخصيص حياتها لنشر كتبه وتراثه ، فهى ليست إلا تعبيراً عن مشاعر
التداخل بين روحى الوفاء والتقدير ليس إلا ، وهى واردة على كل حال.

